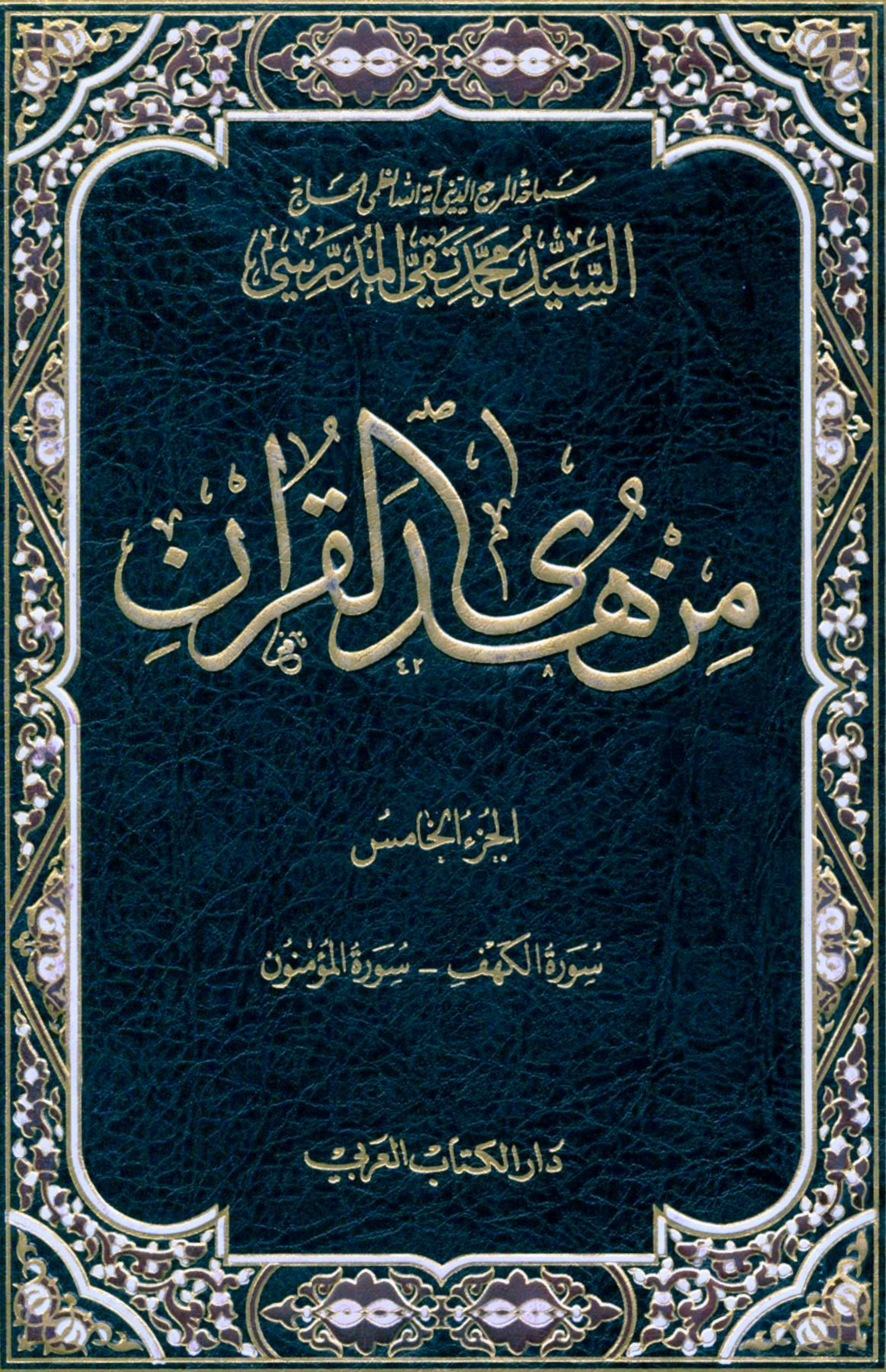

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الخامس
سورة الكهف - سورة المؤمنون
دار الكتاب العربي


الكاظمين الغيظ


من هدى القرآن
٥

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الخامس

سورة الكهف - سورة المؤمنون

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.
■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).
■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد
■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤
Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ الكَهْفِ

* مكية.

* عدد آياتها: ١١١.

* ترتيبها النزولي: ٥٠.

* ترتيبها في المصحف: ١٨.

* نزلت بعد سورة القصص.

فضلُ السُّورة

قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي كُلِّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ لِمَا بَيْنَ الجُمُعَةِ إِلَى الجُمُعَةِ».

(تهذيب الأحكام: ج٣، ص ٨)

***

عن الإمام الحسين عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي كُلِّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ لَمْ يَمُتْ إِلَّا شَهِيداً وَ بَعَثَهُ اللهُ مَعَ الشُّهَدَاءِ وَ أُوقِفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ الشُّهَدَاءِ».

(ثواب الأعمال: ص١٠٧)

***

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ قرأ عشرَ آياتٍ مِنْ سُورَةِ الكَهْفِ حفظاً لم تضرهُ فتنة الدجالِ، ومَنْ قرأ السورةَ كلها دخلَ الجنةِ».

(مجمع البيان: ج٣، ص ٤٤٧)

***

الاسم

معلوم أن اسم (الكهف) أخذ من قصة تاريخية وقعت بعد مبعث عيسى ابن مريم عليه السلام وكانت شائعة بين أهل الكتاب، بل في أوساط الجزيرة العربية، ولأهمية القصة سميت السورة بالكهف الذي هو رمز حماية الله للإنسان من الأخطار إذا التجأ إليه.

الإطار العام

أخلاقيات النهضة الإلهية

إن القرآن الحكيم يتابع في سورة الكهف سلسلتين من القضايا:

الأولى: عن زينة الحياة الدنيا، وموقف الإسلام منها.

والثانية: عن القضايا التي تتصل بالهدى والعلم والمعرفة.

ولا ريب أن بين هاتين السلسلتين علاقات هامة، إذ أن الإنسان الذي يتسلح بالهدى والعلم يتخذ موقفاً إيجابياً ومتسامياً من زينة الحياة الدنيا، أما ذلك الذي يفقد هذا السلاح، فإن موقفه من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل هو موقف الإتّباع المطلق، والاستسلام التام.

والواقع أن هذا من مظاهر إعجاز القرآن، وبلوغه المنتهى في البلاغة، حيث أن آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية ومتناسبة، تتظافر على توجيه القلب البشري إلى قضية جوهرية واحدة، إلا أن السلسلة الأولى كما يبدو هي المحور في آيات هذه السورة حيث تتحدَّث سورة الكهف عن الرؤية الإسلامية إلى زينة الحياة، وكيف ينبغي على الإنسان أن يتحرر من ضغوط زينة الحياة وحب الدنيا، وينظر إلى الحياة نظرةً موضوعيةً قوامها معرفة عاقبة الحياة، والعلاقة الوثيقة بين زينة الحياة الدنيا والتمتع بها، وبين عمل الإنسان.

فنجد في هذه السورة قصة أصحاب الكهف والرقيم الذين تحرروا من حب الجاه الذي كانوا فيه، واستطاعت إرادتهم السامية أن تقلع بهم من قاع الحياة المادية إلى سماء الحقيقة والقيم، ونجد في هذه السورة أيضاً قصة معاكسة لذلك، وهي قصة صاحب الجنة التي دخلها وزعم أنه خالد فيها، وكلما نصحه الناصح الأمين وقال: إن هذه الجنة إنما هي بإذن الله، ولو لا أن تقول ما شاء الله حين تدخل جنتك، فإنها سوف لا تنفعك ولكنه لم يقبل هذه النصيحة، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه وقال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً، إلى أن انتهت حياته وجنته جميعاً

إلى الفساد والتلف.

وثم يعرض القرآن مثلاً عن واقع ذي القرنين لأولئك الذين بلغوا جاهاً عظيماً وملكاً كبيراً، ولكنّهم رفضوا الخضوع لضغوط الجاه وزينة الملك.

وتعطينا السورة الكريمة في إطارها العام نظرةً شموليةً إلى موقف الإسلام من زينة الحياة الدنيا، والقسم الأول منها يلقي نظرة عامة على موضوعات السورة، كما هو شأن القرآن في بدايات السور التي تتميز بحسن المستهل، حيث أنها تلقي الضوء على إطار السورة ومجمل الموضوعات التي تبحثها.

فَتُذكِّر آيات هذا الدرس (١-٨) بأن القرآن كتاب هداية، وأن الهداية هي طريق الإنسان المستقيم إلى نعم الله.

وتحدَّثت كذلك عن الحوافز التي تدفع الإنسان إلى الالتزام بهديّ الله، ومنها الإنذار والتبشير.

وأشارت إلى أخطار الشرك بنسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى عما يشركون ثم أشارت إلى أن على الرسول أو القائد الذي يقوم مقامه، واجب التبليغ وبيان الحقائق، وليس له أن يقتل نفسه غماً وكمداً، إذا لم يستجب الناس لهدى الله.

وأخيراً بينت الرؤية الإسلامية لزينة الحياة الدنيا، ومتاعها، بأنها مادة للابتلاء والإمتحان الإلهي بالنسبة للبشر، وأنها بالتالي زائلة، لأن الأرض سوف تصبح صعيداً جرزاً.

ثم تحدَّثت الآيات من: (٩-١٦) عن وجوب ملاحظة الإنسان لسنن الله في الكون، فيسلّم لحكم الله مهما كانت الحوادث التي يشاهدها أو يسمعها بالغة الغرابة عنده وجديدة عليه والثورة على الظلم هي إحدى سنن الله في الحياة، لأنَّ الله يأمر بالعدل، وهو قائم بالقسط. كما بينت الآيات أسلوب الثورة وهو: أن يستجيب الإنسان لإلهام فطرته، ويفجر الثورة على كل ألوان الظلم ابتداء من نفسه، ويعتزل مجتمع الشرك والجاهلية، ثم يأتيه تأييد الله الذي يهديه إلى الوسائل المادية والمعنوية للإنتصار.

ثم تحدثت الآيات من: (١٧-٢٠) عن الألطاف الإلهية والنفحات الربانية التي يتعرّض لها الذين يقومون لله وباسم الله، إلى الحد الذي قد يوقف الله سبحانه معه بعض السنن الطبيعية أو يغيرها لمصلحتهم، ثم أشارت إلى سلاح هام يعطيه الله لأوليائه وهو سلاح الرعب، وتعرّضت الآيات لذكر بعض الصفات الأخلاقية الثورية، كما بينت أن أول مرحلة من مراحل العلم

بالنسبة للإنسان هو الاعتراف بالجهل، ثم اقتباس العلم من منبعه الحقيقي وهو: الله العليم الحكيم.

ثم تابعت الآيات من: (٢١-٢٦) عن دور حادثة أهل الكهف كواحدة من الظواهر التي تبين للناس صدق وعد الله، وترفع من نفوسهم كل ريب حول قضية الساعة والمبعث، ثم أشارت بطريقة إيحائية إلى موقف القرآن من زيارة قبور الأولياء والصالحين ثم بينت أن الإسلام يؤيد المنهج العلمي القائم على الحقائق لا على الرجم بالغيب والجدليات العميقة، وأن القرآن يدعوا إلى المرونة والتكيف السليم مع الحياة ويرفض البرامج الجامدة والأفكار المتحجرة.

وتحدّثت الآيات من (٢٧-٣١) عن الضمانات الوقائية للإنسان تجاه ضغوط زينة الحياة، وهي تلاوة القرآن، والإتصال الدائم بالله، والانتماء إلى التجمع الإيماني القائم على أساس المبادئ الرسالية، لا الاعتبارات المادية، وأخيراً التحلي بروح التحدي والاستعداد للصراع، ثم بينت المقياس الذي يتبعه الإنسان لمعرفة القيادة الصالحة، ثم عرضت صوراً مجسمة للجنة وللنار فيها عبرة لمن اعتبر.

وبينت الآيات من (٣٢-٤٤) موقف الإنسان من النعمة والمنعم، وأن من مكر الله بالجاحدين أن يملي لهم فيوسع النعمة عليهم، ومن ثم يؤدي اغترارهم بها إلى إنزال العقوبة الصارمة بهم، ثم بينت مراحل التدهور العقيدي ومن ثم السلوكي عند الإنسان الكفور، الذي يستند على معادلة خاطئة، وهي أن العطاء في الدنيا دليل رضى الله، بينما هو في الواقع امتحان للعباد، كما بينت أن الخضوع للثروة والأثرياء قد يكون بمنزلة الشرك بالله، وأن الولاية الحقيقية على العباد لله الصمد فقط، لا لغيره من المخلوقات التي يطرأ عليها التغيير والزوال.

وصوَّرت لنا الآيات (٤٥-٤٩) الحياة من واقع قصة الطبيعة، ودعت إلى الاهتمام بزينة الآخرة وهي الباقيات الصالحات، ثم بينت دور العمل الصالح في بناء الحضارة، ودعتْ إلى شمول النظرة المستقبلية، وامتدادها إلى ما بعد هذه الحياة الزائلة.

ثم عرضت لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة يبين لنا أن كل شيء في هذه الحياة يتحرك ولا يثبت على حال، حتى الجبال الراسيات، إذن فلا مسوغ للاعتماد على زينة الدنيا لأنها هي الأخرى تتحرك وتزول، وحَمَّلت الإنسان مسؤولية أعماله كاملة أمام ربه، تلك الأعمال التي سيراها مسجلة بالكامل ومجسمة أمامه، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

ثم جاءت الآيات من (٥٠-٥٦) لتبين موقف الإنسان من أصحاب الزينة، وهم

المستكبرون في الأرض وعن طريق الصور التاريخية والمستقبلية، يحث القرآن على إيجاد فاصل بين المؤمنين وبينهم، فلا يتبعونهم ولا يتخذون منهم عضداً، لأنهم أعداء أولاً، وجاهلون مضلّون ثانياً.

ثم تحدَّثت عن دور التصور الذهني في معرفة الحقائق الغيبية، وبينت أن جدل الإنسان لا حدود له، مهما كانت الحقائق القرآنية كثيرة أمامه، ثم أكدت على أن الإنسان ليس مجبراً على الهداية، وأن الاستهزاء هو أخطر حجاب بين عقل الإنسان وبين الهداية. ومَن أشد ظلماً لنفسه وللناس وللحقائق ممن أودع الله قلبه فطرة الإيمان ثم ذَكَّره عبر رسالاته بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ذنوبه فجعل الله على قلبه ستاراً، ومنع عنه الفقه وجعل في أذنه وقراً فإذا به لا يهتدي أبداً.

ولأنَّ الله غفور ذو رحمة، فهو لا يعاجل الكافرين بالعذاب إلا أن لهم موعداً لا يحيدون عنه، وشاهد ذلك تاريخ القرى التي أُهلكت في الموعد المحدد لهلاكها (٥٧-٥٩).

ويستمر السياق القرآني (٦٠-٨٢) يحدِّثنا عن قصة موسى عليه السلام مع العالِم، ومن خلالها يُبين لنا صفات العالِم والمتعلم، وأهمية العلم، كما يشير إلى وجود خلفيات هامة للتقديرات الإلهية، والأحكام الشرعية.

فلقد عقد موسى العزم على الرحيل إلى مجمع البحرين وأنبأ فتاه ومرافقه بأنه حتى لو مضت حقب من الزمان فلن ينثني عن عزمه هذا، وعندما بلغا مجمع البحرين نسيا حوتهما الذي سرب في الماء وعندما تركا الموقع طلب من صاحبه الغذاء، الا أنه أخبره بقصة الحوت التي كان قد نسيها وقال: إن الشيطان هو الذي أنساه وحين عرف موسى بقصة الحوت علم بأن موقع قرب الحوت في البحر هو بالذات ميعاده مع العالم فعادا أو رجعا إليه.

عند الموقع وجد موسى العالِم الذي أتاه ربه الرحمة والعلم، وحين سأله موسى عما إذا كان مستعداً لتعليم رشداً مما علمه الله، أخبره أنه لن يصبر على ذلك الرشد لأنَّه لم يحط بذلك خبراً، وأصر موسى ووعده بالطاعة إن شاء ربه.

كان موسى نبيًّا، وعارفاً بأحكام الرسالة الظاهرة، ومن خلال تعلمه لخلفيات الأحكام كان ينتفض مستنكراً لأنَّه لم يعلم حكم الشريعة.

فلما خرق العالِم السفينة استعظم الأمر، أما حينما قتل غلاماً فقد استنكر ذلك بقوة، وهكذا عندما بنى جدارا لقوم لا يستحقون ولم يطالبهم بأجر.

وفي كل مرة يذكره العالم بوعده ويعتذر منه موسى، حتى افترقا (٦٥-٧٨).

لقد أخبره أن السفينة كانت لمساكين وأنه سيقرر الملك مصادرة السفن الصالحة فقط فأردت أن أعيبها لمصلحتهم.

أما الغلام فقد كان يخشى على أبويه الكفر فأراد الله تبديله بمن هو أزكى وأقرب رحماً.

أما الجدار فقد كان تحته كنز ليتيمين، فأراد الله سبحانه وتعالى حصولهما على الكنز كرامة لأبيهما الذي كان صالحاً (٧٩-٨٢).

وفي إطار الحديث عن زينة الحياة الدنيا في سورة الكهف تناول السياق أهم زينة منها وهي السلطة وضرب لنا عن واقع ذي القرنين مثلاً، كيف مكَّن الله به في الأرض وأتاه من كل شيء سبباً ووسيلة أما هو فقد مضى عن طريق الأسباب إلى أهدافه النبيلة، فبلغ مغرب الشمس، وسار في أهلها بالعدل، ومضى قدماً في اتباع الأسباب حتى بلغ مطلع الشمس حيث وجد الناس يعيشون حياة بدائية، وحتى إنهم لا يجدون ما يسترهم عنها، ومضى في طريق الأسباب فوجد منطقة جبلية، كان أهلها يحتاجون إلى سد يحفظهم من غارات يأجوج ومأجوج المفسدين، فبادر إلى بناء السد دون أن يطالبهم بأجر، بل شكر ربه على نعمة السلطة.

وشكر ذو القرنين ربه على هذه السلطة بدل أن يفرض على الشعب حمده وشكره، وكما يفعله الملوك عادة.

وأنبأهم بأن السد لا يقاوم أمر الرب، فإذا جاء الوعد الموعود فإن الله سيجعله دكاء وإذا بالناس يموج بعضهم ببعض وينفخ في الصور، ويجمع الله الناس على صعيد واحد جميعاً.

ليعرض على أولئك العميان الذين لم يبصروا آيات الله، ولم يسمعوا نصيحة المصلحين، يعرض عليهم جهنم لكفرهم بالله.

وهكذا ضرب الله لنا مثلاً، للمؤمن الذي تجاوز السلطة فملكها ولم تملكه واستفاد منها لأهدافه، ولم تستفد منه لها (٨٣-١٠١).

وفي الدرس الأخير من هذه السورة (١٠٢-١١٠) نجد أهم العبر القرآنية المبثوثة فيها، وفي قصصها العجيبة، ومن أبرزها ضرورة توحيد العبودية لله، وألا يتخذ العباد أولياء من دون الله، ويبين القرآن أن الأخسرين أعمالاً هم الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون عملاً، بلى أولئك هم الكافرون بآيات الله، الذي لا يأبه بهم ربهم يوم القيامة بالرغم من مظاهر الزينة والقوة عندهم في الدنيا لأنهم استهانوا بالآيات والرسل، بينما الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فإنَّ لهم جنات الفردوس نزلاً، يخلدون فيها ولا يبحثون لها عن بديل.

تلك السورة من كلمات الله وكلمات الله كثيرة حتى لو كان البحر مداداً لكتابتها لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله.

وخلاصة كلمات الله توحيد الله، والإعتقاد بأن الرسول بشر أوحى إليه، وأن من يرجو لقاء الله فعليه أن يعمل عملاً صالحاً، خالصاً لوجه الله، ولا يشرك بربه أحداً.

لنبلوهم أيهم أحسن عملاً

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا[1] (١) قَيِّمًا[2] لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[3] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا[4] جُرُزًا[5] (٨)﴾.

هدى من الآيات:

يحب البشر مصدر النعم. ويحمد أصحابها. بيد أن النعم من الله جميعاً. فله الحمد كله. وأعظم نعمة وأفخم منة الهدى الذي أنزله في كتاب لا عوج فيه يقوم به نظام حياة البشر، ويرتفع على صرحه بناء سعادته. وهو ينذر بأساً شديداً من لدن الرب ويبشّر المؤمنين الصالحين بأجر حسن خالدين فيه.

---

(١) عوجاً: اختلافاً.

(٢) قيماً: مستقيماً معتدلاً.

(٣) باخع: القاتل المهلك.

(٤) صعيداً: الصعيد ظهر الأرض أو الطريق الذي لا نبات فيه.

(٥) جرزاً: الأرض التي لا تنبت كأنها تأكل النبتة أكلاً.

هكذا بدأت سورة الكهف ببيان نعمة الهداية التي تكتمل بها نعم الله وهي تنذر الذين أشركوا بالله. وزعموا بأن له ولداً. أنَّها كلمة كبيرة خرجت من أفواههم. وكذب مبين -بلى أو ليس الشرك جذر الضلالة والانحراف- وبالرغم من ذلك فعلى الرسول ألا يهلك نفسه أسفاً عليهم لأنَّهم لا يؤمنون بالكتاب، فإنها إنَّما يمتحنهم الله بزينة الأرض. ولقد جعل الله ما على الأرض زينة، ولكنَّها غير دائمة إذ يجعله الله بعدئذ صعيداً جرزاً.

وهكذا لخصَّت آيات هذا الدرس دروس القرآن في سورة الكهف. وبينت ضرورة التسليم لكتاب الله، حيث تتم نعم الله، وذلك عبر توحيد الله. وعدم الإنبهار بزينة الحياة الدنيا.

بينات من الآيات:

[١] تبدأ السورة بعد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بحمد الله، ويتركز الحمد على نعمة الهداية، فنحن نحمد الله مرة على نعمة العين، نعمة اليد، نعمة العلم، نعمة الحركة، نعمة الأكل والشرب، نعمة المسكن والملبس، ولكن هذه النعم تصبح ضئيلة على عظمتها في مقابل نعمة الهداية، إذ لولا الهداية لم تنفع نعمة أخرى مهما كانت كبيرة. الهداية هي صبغة نعم الله سبحانه وتعالى والطريق إليها، فلو كان هناك طعام وشراب وكنت محتاجاً إليهما ولكنَّك لم تعرف الطريق إليهما، فهل يكونان بالنسبة لك نعمة؟ كلا.. فالهداية هي طريق الإنسان للاستفادة من النعم والتمتع بها.

وهداية الله تتكامل في كتاب إلهي يوحيه إلى عبد من عباده يصطفيه رسولاً ويأمره بتبليغ الرسالة لبني جنسه من البشر، وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الهداية لا تكون أبداً بمعزل عن الكتاب أي الرسالة الإلهية، ولا عن الرسول الذي هو رجل من أهل الأرض.

سنن القرآن وسنن الطبيعة

كتاب الله كتاب قويم يربط الإنسان ربطاً مباشراً بأهدافه، وسائر النعم المتواجدة والمتوافرة في الكون، لذلك يؤكد القرآن في هذه السورة على هذه الصفة في الرسالة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ فكتاب الله يعطي البرامج الصحيحة، والمناهج السليمة التي توصل الإنسان إلى أهدافه المنشودة، عبر طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا نتوءات، وبديهي إنه يكون أقرب الطرق وأسرعها.

ونجد هذا الاتجاه أيضاً في الطبيعة التي تجري سننها وقوانينها على أساس التوصل إلى

الهدف من أقصر السبل وأسرعها، فمثلاً الضوء والصوت والحرارة وموجات المذياع، تتحرك عبر أقرب وأفضل الخطوط، وعندما تتعارض القوى فإنَّ الطاقة المغناطيسية أو الكهربائية أو الطاقة الحركية للأجرام السماوية في مداراتها الفلكية تختار أقصر الخطوط المنحنية في الانتقال وهكذا فإنَّ الطبيعة لا تحب التراخي والتباطؤ في أداء الأعمال ولا الالتواء في المسير إلى الهدف وهكذا السبل القرآنية، وهذا التطابق بين السنن القرآنية والسنن الكونية دليل على وحدانية الخالق ورحمانيته، وأن له الحمد في الأولى والآخرة.

الكتاب القيم

[٢] ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ كتاب الله كتاب متكامل وحكيم، فهو يجعل الأمور في مواقعها ويعطي كل شيء حقه، بنسبة حاجته إليه دون زيادة أو نقصان.

وربما تشير كلمة ﴿قَيِّمًا﴾ إلى هذه الفكرة، وهي أن كل نظرة وكل حكم شرعي وبالتالي كل وصية وموعظة فيه إنَّما هي بقدر الحاجة، وبنسبة الواقع الخارجي، وبموازين دقيقة.

فمثلاً حين يقول القرآن أن الزوج يرث نصف مال زوجته بعد موتها إن لم تخلف ولداً وراءها، فلا يعني ذلك إلا أن هذه الحصة تتطابق مع حكمة الحياة ومع واقعيات الاقتصاد الأسري، مع حاجة الزوج وطبيعة العلاقة التي تربط الزوج بالزوجة، أيَّ إن هذا الحكم متطابق تماماً مع كل الظروف المحيطة به دون زيادة أو نقصان.

وهناك تفسير آخر لهذه الكلمة وهي أن القرآن ليس فقط رشيداً وحكيماً ومتكاملاً في ذاته، وإنما هو أيضاً يعطي التكامل والحكمة للحياة، ويقيمها على أساس منظم ومتين دون أي خلل أو ثغرة، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[الروم: ٤٣] وقيمومة الكتاب. والدين الإلهي، نابعة من قيمومة الرب سبحانه حيث يقول تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥] فكل شيء يقوم به الرب في عالم التكوين. وكل شيء يصلح بكتابه في عالم التشريع.

ولأنَّ الكتاب قيِّم فهو يحفظ رسالات الله جميعاً. لأنَّه مهيمن عليها. ويحفظه الله من التحريف. ويحفظ به أمة الإسلام.

أهداف الكتاب وحوافز الهداية

وهكذا فإنَّ الكتاب حينما يريد أن يستفيد الناس من الهداية فإنَّه يثير فيهم الحوافز النفسية الملائمة التي تدفعهم إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها. ومن حوافزه:

الحافز الأول الإنذار

وهو الأبلغ أثراً فالإنسان بطبيعته يخشى الضرر أكثر مما يتوقع المنفعة فلو قيل لك إذا لم تقم بالعمل الفلاني فلن تحصل على مليون دينار، فأنك لن تتأثر كثيراً، وأما إذا قيل لك ستخسر مائة دينار إذا فعلت كذا، فإنَّك تهتم وتجتهد كثيراً لأن تتجنب ذلك الضرر.

وهكذا فإنَّ من طبيعة البشر الهروب من الضرر، أكثر من البحث عن المكاسب والمنافع، لذلك فان الإنذار يلعب دوراً أساسياً في حياة الإنسان. والكتاب نذير حق بعذاب شديد ينزل من لدن الرب القوي العزيز.

الحافز الثاني التبشير

حيث يعد الله الإنسان حينما يهتدي بالكتاب، ويعمل وفق برامجه بالأجر الحسن والنعم الإضافية، التي هي أعظم من تلك التي بيد الإنسان، حيث يمكث فيها مخلداً.

وهنا نجد إثارة الإحساس هام في البشر وهو حب الخلود والخشية من زوال النعم، ويستفيد الكتاب من هذا الإحساس وتلك الخشية ليدفع الإنسان إلى تقبل الهداية الإلهية التي تضمن له أن يظلّ ماكثاً في نعم الله أبداً.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ هناك فرق بين البأس والضر، إذ الضرّ قد يأتي من الطبيعة، أو بسبب المرض، أو ما أشبه، بيد أن البأس لا يأتي إلا من جهة عاقلة، والكتاب ينذر الإنسان ببأس من عند الله، أي إن الله هو الذي يقدر ويمكر فيعذّب، وهذا أبلغ في الموعظة. لأن الخطر الذي يأتي من الطبيعة ربما يتمكن الإنسان من تجنبه بطريقة ما، ولكنَّ سهم العذاب الذي يوجهه الله إليك لا يخطئ هدفه أبدا، لماذا؟ لأنَّ إرادة العليم القدير الذي خلق الكون وخلقك وخلق كل شيء هي النافذة حتماً، فأين المفر من عذاب الله وأين المهرب؟ وكما جاء في الدعاء: «وَلا يُمْكِنُ الفِرارُ مِنْ حُكُومَتِكَ»[1].

---

(١) مصباح الكفعمي: ص٥٥٥، دعاء كميل بن زياد رضي الله عنه.

العلاقة الوثيقة

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هنا يسعى القرآن في آياته الكريمة المرة بعد الأخرى، وبتأكيد شديد وبأساليب مختلفة من أجل أن يعمق الشعور عند الإنسان بأن هناك علاقة وثيقة بين عمله وبين حياته الحالية والمستقبلية، ولكنَّ الإنسان يريد أن يفهم كل شيء إلا هذه الحقيقة، فهو يحاول أن يحصل على نعم الله دون أن يطيعه في بذل الجهد المناسب والعمل الصالح والتعبير بـ﴿يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدل على الاستمرارية.

أي أنَّهم لا يزالون يعملون الصالحات وهذا هو المهم. حيث لا ينفع عمل صالح ما في وقت معين. بل ينبغي أن تكون نية العمل سليمة. ويكون سلوك الفرد سليما. حتى تكون كل أعماله صالحة.

[٣] ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أين ذلك الأجر الحسن؟ هل هو في الدنيا أم في الآخرة؟ أهو في البرزخ أم يوم القيامة الذي يمتد خمسين ألف سنة أم في الجنة؟.

القرآن لا يحدد وهذا يعني الإطلاق، أي أن هذا الأجر أجر دائم يبدأ من الحياة الدنيا ويمتد عبر كل المراحل القادمة وحتى دخول جنات عدن.

وفي ذلك تطمين وبشارة للمؤمنين بأنَّهم ماداموا يعملون الصالحات، فلا داعي لأن يخافوا من الموت، بل إنَّهم باندفاعهم إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته فإنَّ الموت لا يكون بالنسبة لهم خسارة أو انقطاعا للنعم، وإنما هو مجرد انتقال من مرحلة نعمها محدودة، إلى مراحل أخرى نعمها أدوم وأعظم.

الوان الشرك

[٤] ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ وأخطر ذنب يرتكبه الإنسان هو أن يخرج عن التوحيد الخالص، ويجعل الله شركاء في وحدانيته، كأن يزعم جاهلاً أن لله ولداً سبحانه وتعالى عن ذلك، وهو الكامل المنزّه عن كل نقص، وهو الغنيّ غير المحتاج إلى الولد وغيره.

وقد تتخذ نسبة الولد إلى الله تعالى صورة رمزية غير صريحة، وهي أن يشرك الإنسان في حكم الله وسلطته وملكوته أحداً غير الله، فرداً كان أم مؤسسة وتنظيماً، ويعتقد أنّه امتداد لسلطة وحاكمية الله.

ومن المؤسف أن تنتشر هذه الخطيئة بين عدد كبير من المسلمين، ولكن بصورة خفية دون أن يشعروا بها، حيث أنهم يتبعون علماء السوء ويقلدون من يدعون الفقه والاجتهاد وليسوا كذلك، فهؤلاء يضلون من يتبعهم ويقتدي بهم، وبالتالي يحرفونهم عن خط التوحيد إلى منزلق الشرك.

ولهذا فإنَّ المسلم عندما يريد أنْ يقلد في أمور دينه فعليه أنْ يتأكَّد من أن مقلده أنه عالم مجتهد ومتق يدعو إلى الله وبإذنه، حتى تكون أعماله خالصة لله، ويكون مسلماً موحداً بحق.

[٥] ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ هؤلاء الذين يجعلون أبناء لله وأنداداً له، سواء كان ذلك صراحة أو ضمناً أنهم يرتكبون خطيئة كبيرة، وهم يعلمون في أنفسهم يقيناً إنَّما يقولونه ويدعونه هو الكذب بعينه، ولكنَّهم يسوغون ذلك عبر التبريرات الباطلة، بهدف تحقيق المنافع والمصالح العاجلة حسب تصورهم وتقديرهم.

ما على الرسول إلا البلاغ

[٦] العاقل يتعجب، كيف يترك أولئك البشر الطريق الصحيح ويتبعون طريقاً ملتوياً ليهلكوا أنفسهم.

وكلما قوي إيمان الإنسان، وارتفعت درجة حبه للآخرين وإحساسه تجاههم بالعطف والحنان، كلما اشتد حزنه وغمه على هذا الإنحراف، لذلك تجد رسل الله عليهم السلام حينما يواجهون هذا الإنحراف الكبير فإنهم يكادون أن يهلكوا أنفسهم لإصلاحه، فيؤكد القرآن هنا أنه لا ينبغي للرسول أو المصلح عموما، أن يهلك نفسه في سبيل هداية الناس.

إن هذه حكمة من الله إذ خلق الناس ليمتحنهم، وما على الرسول إلا أن يقوم بدور الإنذار والتبشير ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

زينة الأرض فتنة البشر

[٧] ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ كل ذلك لهدف وحكمة ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إنَّما جعلنا ذلك لكي نبلوا الإنسان ونختبره، حتى يتبين الذين يعملون الصالحات من الذين يرتكبون السيئات.

[٨] ولكن لا تغرّك زينة الحياة فإنَّها لا تدوم، إنَّها أيام قليلة وسنوات معدودة وتنتهي.

﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ تصور مدينة جميلة تزخر بالحياة فيها أشجار وحدائق، وشوارع وبيوت، ورياش وأمتعة، ووسائل.. إلخ، وإذا بصاعقة قاصفة، أو زلزال رهيب، أو حرب مدمرة تحوِّل تلك المدينة الجميلة إلى صعيد أملس وأرض جرداء.

على الإنسان أن يعتبر، فهو يحق له أن ينجذب إلى زينة الحياة، ولكن ليس ذلك الإنجذاب المطلق، الذي يفقد معه قيمه ومبادئه إنما ينجذب إلى الحياة في حدود حاجته إليها، وفي نطاق احتفاظه بقدرته وسيطرته على نفسه وعلى الحياة، فيصبح هو مالك الحياة لا مملوكاً لمتاعها، ولنعم ما قيل: «ليس الزهد ألا تملك شيئاً، وإنما الزهد ألا يملكك شيء».

أصحاب الكهف: السنة التي تجري

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ (١) وَٱلرَّقِيمِ (٢) كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا (٣) عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (٤) ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (٥) ﴿١٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في قصة أصحاب الكهف والرقيم دروس وعبر:

أولاً: في بيان ضرورة مقاومة الإنسان لجاذبية الشهوات الدنيوية، وإثبات قدرته على

---

(١) الكهف: الغار المتسع في الجبل.
(٢) والرقيم: اللوح المكتوب فيه قصتهم.
(٣) ربطنا: شددنا وقوينا.
(٤) شططاً: الخروج عن الحد بالغلو فيه وأصله مجاوزة الحد.
(٥) مرفقاً: اليسر واللطف.

ذلك عن طريق الإرادة الذاتية.

ثانياً: التوكل على الله تعالى.

وتبدأ هذه المجموعة من الآيات ببيان الإطار العام لهذه القصة، ثم تفصّل الحديث حولها تفصيلاً.

بينات من الآيات:

قصة أصحاب الكهف والرقيم

[٩] إن قيام هؤلاء لله وثورتهم ضد الطغيان وتحريرهم لأنفسهم من ضغط المجتمع الفاسد، وبالتالي نصرة الله لهم بطريقة غيبية، لا يشكل شذوذاً في سنن الله في الحياة، ولا تثير عجباً، لأننا نراها ونلمس آثارها في كل لحظة وفي كل شيء، و هي تدل على وجود حكمة في تدبير الكون وقوة قاهرة تجري تلك الحكمة.

فآثار القدرة والحكمة الإلهية واضحة، وأصحاب الكهف والرقيم كانوا مجموعة بشر يعيشون مجمل هذه المعادلة الكونية الحكيمة، إذن لا تعجب إذا جاءت يد الغيب وانتشلتهم من وهدتهم وحررتهم من أغلالهم.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يقول المؤرخون: أنه حين قتل يزيد بن معاوية سبط رسول الله ﷺ أبا عبد الله الحسين عليه السلام. وطاف برأسه البلاد كان الرأس يتلو من فوق القناة هذه الآية الكريمة[1]. أو تدري لماذا هذه الآية بالذات؟ لعله لبيان تلك المعادلة الكونية ولكي لا يتعجب الناس كيف أن الرأس الشريف يتلو القرآن.

وهكذا فإنَّ ذلك الرأس المبارك يشير إلى أن الكون يجري ضمن معادلة حكيمة من أبعادها نصرة المظلوم إذ أن نصرة المظلوم هي ضمن تلك المعادلة التي أجراها ربنا سبحانه وتعالى في كل أبعاد الكون.

ومعنى هذه الآية هو: هل تحسب أيها الإنسان إن ما جرى لهؤلاء هو شيء عجيب؟ كلا..

هناك آيات وحقائق تعودنا على رؤيتها، وهناك حقائق لم نرها، فأنت إذا دخلت مدينة لأول مرة قد تتعجب من لغة وعادات أهلها، وبناء بيوتها وجسورها، ونظام الشوارع والسير

(١) راجع الخرائج والجرائح للراوندي: ج٢، ص٥٧٧.

فيها.. الخ، ولكن إذا بقيت فيها لمدة سنة فكل شيء يغدو عندك آنئذٍ عادياً.

والمجتمع يبادل بعضه بعضاً التعاون والعمل، والإحساس والفكر، فيبدو لنا ذلك الشيء طبيعياً جداً لأنَّ هذه السنن حياتية، حيث جعل الله الناس يحتاج بعضهم إلى بعض، وهذه سنة إلهية عظيمة وعجيبة، ولكننا لطول الألف بها نراها عادية لا تثير فينا الإستغراب.

والشمس كل يوم تطلع من هنا وتغرب من هناك، وتجري بدقة ونظام، هذه سنة عجيبة ولكننا تعودنا عليها حتى أصبحنا لا نهتم كثيراً لهذا الأمر، أما إذا حدث كسوف كلي للشمس مثلاً، فإنَّ الناس يظهرون اهتماماً بالغاً لهذا الحدث ويهرع العلماء إلى مراصدهم وأجهزتهم العلمية لدراسة هذه الظاهرة.

وأن يحكم ظالم في بلد ما ويخضع الناس له راضين بالواقع المنحرف، فهذا شيء ألفناه لكثرة حدوثه وانتشاره حتى أصبحنا نعدّه شيئاً طبيعياً، ولكن أن يقوم فتية مؤمنون بتغيير هذا النظام ليقيموا نظام الحق والعدل والحرية، فذلك يعد شيئاً غريباً وينظر الناس إليه على أنه معجزة عجيبة بينما هو في الواقع سنَّة إلهية كسائر السنن التي نألفها.

وربما تشير هذه الآية إلى أن الإنسان عندما يرى حوادث ووقائع جديدة عليه أن يسمع بهـا لأول مرة فلا يحق له أن ينكرها، ويكذب بها، لمجرد أنه لم يألفها ولم يتعود عليها، فعدم العلم بالشيء لا يعني العلم بعدمه، و إنما على الإنسان أن يتأمل في سنن الله في الخليقة، وينظر إلى عظمته وحكمته وقدرته، ويؤمن بكل ما يصدر عن الله عز وجل من قول وفعل.

والقرآن يذكر لنا: أن الملائكة عندما بشروا إبراهيم عليه السلام بهلاك قوم لوط كانت امرأته قائمة، فضحكت فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقالت: يا ويلتا ءالد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا؟ إن هذا لشيء عجيب. قالوا: أتعجبين من أمر الله؟.

والتعجب الذي ينهى عنه القرآن هو ذلك الذي يؤدي إلى الإستنكار وعدم التصديق، أما التعجب بمعنى الانبهار بعظمة الله وقدرته التي تتمثل في بديع خلقه وإتقان صنعه، الذي يؤدي إلى سمو الإيمان وكمال التصديق فشيء حسن، إذ أن كل خلق الله يثير العجب لدى التأمل والتفكر.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ الكهف هو الفجوة في الصخور الجبلية، والرقيم هي الكتابة -حسب أقرب التفاسير- وتختلف التفاسير هل أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم؟ أم أن أولئك طائفة أخرى؟.

ويشير حديث شريف إلى أنهم كانوا طائفة أخرى، ولكن بعض المفسرين يذكرون أن

كلمة الرقيم تدل على الكتابة التي نقشها قوم أصحاب الكهف على باب الصخرة، ولذلك سُموا بأصحاب الرقيم.

حرية الإنسان تتحدى

ومما يثير العجب في قصة أصحاب الكهف، قدرة هؤلاء الفتية من البشر على الإفلات من أغلال الطاغوت، وقيود الثقافة الفاسدة، من دون رسالة أو رسول. فنحن نعرف أن الله يبعث رسولاً إلى قوم يعظهم فيؤمن به جماعة ويكفر آخرون، ولكن أن ينبعث ضمير نقي في مجموعة فتية يعيشون تحت ركام الخرافات وفي ظل الظروف الفاسدة فيقولوا: ربنا الله، ثم يتحملوا كل ما يترتب من آثار على هذه الكلمة!! إن هذه قضية تبدو غريبة وتثير العجب، ولكن لدى التأمل الدقيق يتبين أن فطرة الإنسان مهيأة لتمييز الإنحراف من الاستقامة، وأن قدرة الله ونصرته تعين الإنسان الذي يستجيب لنداء فطرته.

فكما أن الله يبعث رسولا، وينزل عليه الملائكة والكتاب، ويؤيده بروح منه، كذلك إذا استجبت أيها الإنسان لنداء فطرتك واتبعت الحقيقة بعد أن عرفتها، فإنَّ الله يزيدك هدى ويأخذ بيدك، وهذه هي حكمة بيان قصة أصحاب الكهف حسبما يبدو.

[١٠] ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لقد التجؤوا إلى الكهف حيث لم يجدوا في الأرض ملجأ، ولم يكن هناك من يسمع كلامهم، أو يستجيب لهم فيعينهم، فاضطروا إلى تلك الوسيلة التي لم يكن أمامهم غيرها.

والإنسان عندما تضطره الظروف للإلتجاء إلى كهف داخل جبل في منطقة معزولة قفراء، فإنَّ ذلك يعني أنه منقطع من كل أسباب القوة والأمن، ومفتقد لكل نصير ومعين، وهذا هو ما يحدث للذين يريدون أن يتحرروا من الأغلال، ويغيِّروا الأوضاع المنحرفة.

وحينما لم يجد فتية الكهف أحداً في الأرض ينصرهم التجؤوا إلى رب السماء سبحانه، ودعوا الله أن يعطيهم أمرين:

الأول: الرحمة أي الخير والتقدم، وكل ما في الحياة من أسباب السعادة والفلاح.

الثاني: أن يهديهم إلى الطريق السوي، صحيح أن فطرتهم أوضحت لهم أن طريق قومهم خاطئ، ولكنَّهم لم يكونوا يعرفون الطريق البديل. وقوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. يدل على ذلك.

خرق السنن الطبيعية

[١١] ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ إن الضرب على الآذان إشارة لطيفة إلى أن أهم علامة للنوم عند الإنسان هي ثقل أذنه، وانقطاع سمعه، وأما إغماض العين، فليس كافيا لأنْ يدل على النوم، إذ قد يغمض الإنسان عينيه وهو مستيقظ، ولكنَّه لا يمكن أن يقطع سمعه وهو كذلك.

هذا من جهة ومن جهة ثانية باستطاعة البشر أن ينام يوما أو يومين بدون طعام أو ماء، بينما نجد هؤلاء قد ناموا سنين عديدة، حتى انتهى العهد الفاسد، وهكذا كانوا يبدون في مظهر الأموات، ولذلك يقول القرآن:

[١٢] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ فشبَّه إيقاظهم ببعث الموتى، بسبب طول فترة مكوثهم نياماً، ولكن لماذا بعثهم الله يا ترى؟.

ذلك لكي يرى الناس أنه قوي قدير، وإن حزب الله هو الغالب، إذ أن هناك حزبان فقط في ساحة الحياة مهما اختلفت العناوين والأسماء، حزب المستكبرين الراضين بحكم الظلم والجور، والآخر هو حزب الله الرافضون للظلم والجور.

وحزب الله لا يملكون إلا أنفسهم في البداية، حتى أنهم يضطرون للإلتجاء إلى الكهف، أو كما في عصرنا إلى العمل السري أو الهجرة من البلاد، وهذا دليل انقطاعهم عن الوسائل المادية.

حينما نقارن بين أصحاب الكهف وبين الحكومة الطاغوتية آنذاك، حيث كان الملك وأعوانه يملكون القوة والهيبة والسلطان وكل الوسائل المادية، نجد أن كفة أصحاب الحق هي الراجحة بالرغم من ذلك لأنَّ الطواغيت كانوا يسيرون على طريق الخطأ، ولم يستطيعوا أن يحموا ما كانوا يملكون بينما نجد أولئك الذين لم يكونوا يملكون شيئاً ألا أنفسهم وإرادتهم، حموها بالإيواء إلى الكهف أولاً، ومن ثم كسبوا الجولة في ساحة الصراع.

أمَّا التفسير الظاهري للإحصاء في الآية فهو معرفة عدد السنين التي مكثوها في الكهف. وعلى هذا التفسير يكون المراد من الحزبين هما الفريقان الذين اختلفوا في عدد السنين التي قضوها في النوم كما تشير جملة من الأحاديث.

هذا هو الموجز لقصة أصحاب الكهف، أما التفصيل فتتعرض له الآيات القادمة..

[١٣] ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ القرآن يقص الأنباء بالحق فهو:

أولاً: يذكر الأنباء صحيحة.

ثانياً: يهدف من ورائها أهدافاً سليمة، أي عندما تورد الآيات القرآنية قصة فإنها تستهدف من ورائها تكوين حكمة صحيحة في ذهن الإنسان، وإقامة حكم الحق في العالم.

ثالثاً: إن مجريات القصة تتطابق مع السنن الحق في الحياة.

وهذه الأبعاد الثلاثة موجودة في كل قصة من قصص القرآن.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ إن هؤلاء الفتية بشر وأيضاً لم يكونوا رسلاً، ولكنهم آمنوا بربهم وتحرروا من ضغط الجاهلية فأيدهم الله، وكذلك كل إنسان في العالم يملك إرادة التحرر، وعندما يضعها موضع التنفيذ فإنَّ هدى الله يأتيه ويؤيده.

وفي الأحاديث إن هؤلاء لم يكونوا كلهم شبابا ولكن القرآن سماهم فتية، لأن الفتى أقدر على التغيير والنهضة، وعلى أن يبدل مسيرته ومنهاجه، والقرآن يتحدث عن هذه النهضة في الآية التالية، ويبدو أن كلمة الفتى تشير إلى من يملك الفتوة وهي الرجولة والبطولة والشجاعة قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لرجل: **«مَا الْفَتَى عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَ لَهُ: الشَّابُّ، فَقَالَ: لَا، الْفَتَى الْمُؤْمِنُ إِنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَانُوا شُيُوخاً فَسَمَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ فِتْيَةً بِإِيمَانِهِمْ»**[1].

[١٤] ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ أي نهضوا ضد الكبت، ولكن لماذا يقول وربطنا على قلوبهم؟.

ذلك لأنَّ الإنسان الذي يريد أن يتحرر من ربقة الطاغوت يرى -في بداية أمره- القضية غامضة، ثم يتقدم قليلاً فتتضح معالمها أمامه، ولكنَّه لا يملك القدرة الكافية على الصمود والمقاومة، فهنا يزيده الله إرادة وعزيمة، ويربط على قلبه حتى لا يتردد، ويستمر في قيامه متحرراً من الخوف.

إن بداية القيام أن تنطلق أنت، ولكن بعد ذلك تجري حلقات النهضة بطريقة متتابعة وبتأييد الهي، أي أن الله سبحانه وتعالى يتولى أمرها فيزيد المؤمنين وضوحاً في الرؤية، ويقوي معنوياتهم، ويوفر لهم أسباب النجاح سواء بطريقة عادية أو غير عادية.

﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه الكلمات القاصفة كالرعد والتي تعني لدى

(١) الكافي: ج٨ ص٣٩٥.

المؤمن بها رفض الطاغوت وكل ما يرتبط به من فكر وثقافة وأسلوب حياة، هذه الكلمات لا تصدر عادة إلا عن رسول، ولكنّها صدرت عن هؤلاء بتأييد الله، أي بعد أن ربط على قلوبهم. ثم يعلنون أنهم عازمون على المضي في هذا الطريق وعدم النكوص.. ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا﴾ وكلمة ﴿لَن﴾ تدل على الأبدية، أي مستحيل علينا أن نرجع إلى واقعنا الفاسد، ثم يذكرون سبب ذلك: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي أن عودتنا إلى أفكارنا وأقوالنا السابقة هي ضلال وانحراف وشذوذ.

الجذرية

لقد أعلنوا حركة تغييرية جذرية، وهذه من سمات الحركة الرسالية، فمنذ البداية قالوا: لن ندعوا من دونه إلهاً أي لن نخضع لهذا الطاغوت ولا لطاغوت آخر يأتي مكانه، ولن نقبل أن يطاح بفئة حاكمة ظالمة لتستولي على الحكم فئة أظلم منها ولكن باسم آخر وشعارات أخرى، أو يذهب ملك فينصبوا ابنه مكانه ويظل النظام الفاسد كما هو.

فكلمة ﴿إِلَـٰهًا﴾ تشير إلى عدم التخصيص بالملك الذي كان يحكم في زمانهم، بل إلى كل من يتصف بادعاء الندية لله سبحانه وهكذا كانت رؤيتهم صافية. لأنّ الله سبحانه أيدهم وربط على قلوبهم.

ولذلك جاء في الحديث المأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ كَانُوا صَيَارِفَةً**»[1]، يعني صيارفة الكلام ولم يعن صيارفة الدراهم.

[١٥] لقد قطعوا أية علاقة لهم بالماضي وسفّهوه، ولم يكتفوا بذلك وإنما أخذوا يسفهون الآخرين ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ فاستنكروا موقف قومهم الذين اتخذوا السلاطين والرؤساء آلهة من دون الله.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ إذا أراد الإنسان أن يسلك طريقاً ما أو يتخذ رجلاً قائداً فليفعل، ولكن عليه أن يأتي بحجة قاطعة ودليل قوي، وهكذا سفّه أصحاب الكهف منهج الكفار في اختيار الإله بطريقة غير عقلانية، ولم يخطئوا النتيجة فقط، وإنما بدأوا بالسبب الجذر للإنحراف، وهذه من أقوى وأعمق الحركات التغييرية الثقافية والسياسية في العالم، فهي لا تنظر إلى النتائج الظاهرة والفساد القائم فقط، وإنما تبحث عن السبيل الذي سلكه الناس حتى وصلوا إلى ذلك الفساد، أو طريقة التفكير التي أدت بهم إلى هذه النتيجة.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص١٥٩.

سياسة الطاغوت

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذه الآية وآيات أخرى شبيهة تشير إلى أن الطغاة يؤطرون عملهم بإطار القدسية، ويحاولون تضليل الناس وإيهامهم بأن ذلك هو من قبل الله سبحانه وتعالى، ويربطون أنفسهم بطريقة ما بالله وبالمبادئ السامية. في هذه الآية يقول أصحاب الكهف: إن قومهم افتروا على الله الكذب، فقالوا: إن الله هو الذي أمرنا بأن نعبد تلك الآلهة وهو بريء مما يدعون.

تأييد الله

وأخيراً وصل أصحاب الكهف إلى نتيجة وقرروا أن يعتزلوا قومهم في البداية ثم يلتجئوا إلى الكهف ويطلبوا رحمة الله لينصرهم في حركتهم التغييرية الجذرية.

[١٦] ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ من الذي قال لهؤلاء الفتية إنهم إذا اعتزلوا الناس، والتجؤوا إلى الكهف، فانَّ الله سبحانه سينصرهم؟ هل كان هناك رسول يبلغهم؟ كلا.. وإنما كان ذلك من إلهام الفطرة، انه حينما يكون عمله لله العزيز فان الله يريده وينصره.

التأييد الإلهي

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ أي أن الله سبحانه يهيئ لكم الوسائل لتطبيق برامجكم. صحيح أن الوسائل منقطعة والطرق مسدودة أمامكم الآن، ولكن اعتزلوا الكفار والمشركين، والتجؤوا إلى الكهف وانتظروا رحمة الله فهي آتية لا ريب، وأنه سوف يهيئ لكم السبل الملائمة مادية ومعنوية.

وهكذا نستوحي من هذه الآية الكريمة أسلوباً للنهضة وهو: اعتزال الطغاة وعدم اتباعهم، وانتظار رحمة الله، فلا نكون مستعجلين للحصول على النتيجة، وإنما علينا بالصبر وانتظار الفرج. وكانت الثورات الإلهية تبدأ هكذا عادة: يعتزل شخص أو مجموعة أشخاص، ثم يلحق بهم الآخرون، وتأتيهم الأموال والسلاح والرجال من حيث لم يحتسبوا، وفي ذات الوقت يبدأ الحكم الطاغوتي بالضعف مع الزمن، وتظهر فيه الثغرات فتتهيأ ظروف النصر.

وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ[1] لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾.

هدى من الآيات:

وهذه المجموعة من الآيات الكريمة تبين لنا جانباً من قصة أصحاب الكهف، التي تشهد على هذه الحقيقة أن الإنسان قادر على أن يقلع من أرض الشهوات والضغوط، ويحلق في سماء القيم بقوة إرادته وبنصرة الله سبحانه وتعالى.

إن لطف الله بالإنسان لطف دائم وقديم وشامل، ولكنّه بحاجة إلى تحرك من قبل

(١) بالوصيد: الوصيد من أوصدت الباب أي أغلقته وجمعه وصائد.

الإنسان نفسه، فلو تحرك الإنسان إلى ربه خطوة فسوف يتقدم إليه ربه فراسخ وأميالاً.

إن فتية الكهف حينما تركوا قومهم، والتجؤوا إلى الكهف طلباً لرحمة الله سبحانه وتعالى، فإنَّ الله وسع عليهم الكهف، وأبعد عنهم الشمس حتى لا تحرقهم أشعتها، فكانت تشرق عن يمين كهفهم وتغرب عن شماله، بحيث تمنحهم الأشعة اللازمة للحياة دون أن تؤذيهم.

ومن ناحية أخرى فقد جعل الله نومهم بحيث، كانوا يتقلبون بسبب خفة نومهم، وهذا بدوره من رحمة الله سبحانه وتعالى، لأنَّ بقاءهم على حالة واحدة كان سيضر بأجسامهم كما أنّه يخرق ثيابهم.

أما كلبهم فقد كان يربض أمام باب كهفهم باسطاً ذراعيه، كما يفعل عادة عندما يجلس للمراقبة، وكان الذي يمر عليهم يحسب أن هؤلاء مجموعة من الناس، جاؤوا إلى هذا المكان للقيلولة، ثم الذهاب إلى عملهم، لأن نومهم خفيف، والكلب موجود، وهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال بالرغم من استيلاء النوم عليهم.

فقد حماهم الله سبحانه وتعالى من الأعداء بسبب الرعب، فالحيوانات كانت تخاف من الكلب، أما الناس فكانوا يرتعبون لأنهم إذا اطلعوا على هذا الكهف وقد نام فيه هؤلاء، يرون وكأن أبطالاً يربضون فيه فيولون عنهم فراراً، ويمتلؤون منهم رعباً.

لقد أبقاهم الله أجيالاً وقروناً على هذه الحالة، حتى تشابهت حالتهم مع حالة الموتى، لأنَّ الله لما أيقظهم عبَّر عن ذلك بالبعث.

جلس هؤلاء من النوم، وبعد أن انهوا تساؤلهم عن مدة نومهم، وحيث بلغ أقصى تقدير لهم أنهم ناموا يوماً أو بعض يوم شعروا بالجوع، وكان أحدهم يملك نقوداً وكانت عبارة عن سكة فضية، فتنكَّر بأن لبس ملابس الراعي وأخذ تلك النقود، وذهب إلى المدينة ليجد أمامه المفاجأة، فقد لاحظ أن المدينة تغيرت وأن الأوضاع تبدلت.

كما أن النقود التي كان يحملها كشفت حقيقته وحقيقة جماعته، لأنَّ حاشية الملك وأعوانه لما افتقدوا هؤلاء كان بعضهم وزراء و إداريين كبار، بحثوا عنهم في كل مكان فلم يجدوهم، فنشر ذلك الخبر كحادثة مهمة وكتب ذلك في تاريخهم، و كانت الأجيال تحفظ هذه القصة الغريبة وتتناقلها، إلى أن جاء هذا الوزير متنكراً بلباس الراعي، ومعه تلك النقود المنقوش عليها صورة الملك في ذلك العصر، فعرف الناس أنهم هم الذين يذكرهم التاريخ المدون لديهم.

بينات من الآيات:

[١٧] ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ ربما يريد السياق ربط ثلاث حقائق ببعضها في هذه الآية، وليكون في أذهاننا صورة ذات ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: يرينا آية الشمس، وكيف أن الله سبحانه أجراها في مسيرها دون أن تتخطى المدار المرسوم لها، والتزامها بنظام معين، وهذه لفتة نظر إلى السنن الكونية التي يجريها الله بقدرته وحكمته.

البعد الثاني: إذا كيَّف الإنسان نفسه مع هذه السنن يستفيد منها، فالشمس التي تطلع وتغرب في مسيرة محددة إذا تعرَّض الإنسان إلى وهجها بصورة مباشرة فسوف يتأثر، وإذا ابتعد عنها فسوف يتأذى، وإذا كان في موضع معين فإنَّه يستفيد منها، وهكذا فإن تكيف الإنسان مع الشمس بصورة معتدلة ينفعه.

البعد الثالث: إن تكيف الإنسان مع سنن الكون لا يمكن إلا بهداية الله سبحانه، لأنَّه هو الذي يحيط علماً بهذه السنن، ويعرف الإنسان بها.

ومن خلال التدبر في الآية يظهر لنا مدى لطف العلاقة بين كلماتها، يقول القرآن ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي أن الشمس حينما تطلع فإنها تبتعد عنهم. تزاور: تبتعد وتنحرف. وقال البعض إن مادة الحكمة نابعة من الزيارة وتتناسب مع شروق الشمس كأنَّ الشمس عاقلة ومريدة وهي ليست كذلك، ولكن الذي قدَّر للشمس حركتها حكيم وقادر وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تعبر عنهم وتتركهم، وكلمة تقرضهم تتناسب ومغيب الشمس ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ أي كان مكانهم متسعاً ويعيشون فيه براحة تامة، ويقال أن باب الكهف كان على الشمال، فكانت الشمس تطلع عن يمينه وتغرب عن شماله، وهذه هي مواصفات غرفة النوم الصحية، أن تكون واسعة، ولا تشرق عليها الشمس مباشرة، ولكن قريبا منها، ذات اليمين وذات الشمال.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ وهنا ترتبط قصة الهداية بقصة الشمس، وحركتها حيث أنها من آيات الله التي تشير إلى حكمته وقدرته الواسعة. كما أن بقاء هذه الفئة في الكهف هذه السنين من آيات الله ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ ما دامت هذه من آيات الله وحكمته، وتدل على أن الله هو الذي جعل الأمور بسنن ثابتة دقيقة، فعلينا أن نهتدي بهدى الله، ونلتمس المعرفة

منه سبحانه. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي يرشده إلى طريق الحق، الله هو ولي الإنسان الذي يرشده، ويبين له المناهج الصحيحة في الحياة، والذي يريد أن يتبع برامج الله ومناهجه هو المهتدي، ومن يعرض عن ذلك فليس هناك اله آخر يهديه من دونه.

[١٨] ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ يمر عليهم الرجل فيراهم وكأنهم في حالة الإستيقاظ، وهذا يدل على أن نومهم كان خفيفاً ولم يكن مستولياً على كل حواسهم وأعضائهم، بحيث لم يمكن للناظر أن يكشف لأول وهلة إنهم نائمون، ولعله بسبب عيونهم المفتحة، وتقلبهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهذا التقليب يسبب راحة الجسد، كما يسبب عدم تمزق الثياب وتخرقها. ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ الكلب أيضاً يربض على باب الكهف، وكأنّه يتربص بكل من تسول له نفسه من إنسان أو حيوان متوحش أن يدخل الكهف ويؤذي أصحابه. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ومن جهة ثانية فإن مظهرهم كان ينم عن قوتهم وبطولتهم الخارقة، ويوهم الناظرين بأنهم مستيقضون وليسوا نائمين، كان يبعث على الخوف ومن ثم الفرار ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وهذا للدلالة على أن منظرهم ومخبرهم كانا يبعثان على الرعب، إذ أن من يراهم يخاف وعندما يهرب ويبتعد فإنّ قلبه يمتلئ رعباً ومن ثم لا يمكن أن يفكر بالرجوع ثانية، وهذه حماية إلهية لهم من خطر الأعداء، ففي الأحوال العادية قد يخاف المرء من شيء ويهرب منه ثم بعدما يهدأ ويتروى فأنه لا يجد مبرراً للخوف ومن ثم يتمكن من العودة لذلك الشيء ثانية. أما بالنسبة إلى هؤلاء فإنّ أسباب الرعب تبقى عند من يراهم حتى بعد أن يتركهم.

[١٩] لقد ناموا هذه الفترة الطويلة، ولكنّهم بعد ذلك بعثوا من قبل الله سبحانه وتعالى لكي يسأل بعضهم بعضا ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ هنا نتوقف قليلاً لنطرح هذا السؤال: ما هي العلاقة بين بعثهم وإيقاظهم من الرقاد وبين سؤال بعضهم بعضا؟.

ربما تكون العلاقة بين بعثهم وتساؤلهم، أن الإنسان حينما يكون نائماً فأنه يكون غافلاً عما حوله، وحينما يستيقظ فأنه يفهم ويعلم وينشط فكره، وأول شيء يأتي إلى الإنسان بعد اليقظة هو عقله حتى قبل أن تسمع أذنه، أو ترى عينه، وتتحرك يده، فإنّ عقله يتحرك وعندما يتحرك العقل فإنّه يبحث عن معلومة جديدة.

وهذه الحالة توجد عند الإنسان حينما يبعث في يوم القيامة، حيث يتساءل الناس بينهم يومئذ: كم لبثنا في قبورنا؟.

فبعضهم يقول: يوماً، وبعضهم يقول: ساعة من نهار، المهم أنهم يطرحون هذا السؤال بينهم ويناقشونه، وهناك علاقة وثيقة بين قصة أصحاب الكهف والعبرة منها، وبين قصة الإنسان في رحلته الطويلة من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة سنذكرها مستقبلا إن شاء الله.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ في البداية قالوا: يوماً وكانوا يعتقدون أنهم ناموا يوماً كاملاً، ثم بعدما حددوا مسير الشمس وفكَّروا جيداً، توصلوا إلى أنهم لم يناموا هذا المقدار فاستدركوا قائلين: أو بعض يوم ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ بعدئذ أخذوا يفكرون أكثر وبرزت أمامهم عدة تساؤلات.. فربما كانت هناك شجرة أمام الكهف فلم يجدوها، أو شاهدوا هنا صخرة لم تكن من قبل، وبلا شك فإن بعض التطورات والتغيرات حدثت في البيئة المحيطة بالكهف، فتراجعوا عن قولهم، وعلموا بأن هناك حقيقة مجهولة لا تزال غامضة عليهم، وهي طول مدة نومهم، لذلك سكتوا عن هذا الأمر وقالوا: ربكم أعلم كم لبثتم؟ وكيف لبثتم؟.

الطريق إلى العلم

وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثانية من الآيات، لا بأس أن نتدبر قليلاً في هذه الآية، إن رحلة الإنسان من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغرور إلى التبصر، تشبه إلى حد بعيد رحلة الإنسان من النوم إلى اليقظة، فالنوم وسبات الجسم يشبه سبات العقل والعلم أي الجهل، فكما أن الله سبحانه هو الذي ينقل الجسم من حالة النوم والسكون إلى حالة اليقظة والحركة، فهو أيضاً الذي ينقل العقل من حالة الجهل والركود الفكري إلى العلم والنشاط الفكري الخلاق، فعلى الإنسان أولاً: أن يهتدي إلى جهله وهذه بداية مسيرة العلم، فيقول: إنني لا أعلم، ولكن ذلك لا يعني أن العلم غير موجود، فالله يعلم، ولأن الله يعلم وأنا لا أعلم فلابد أن أتحرك نحو الله حتى أقتبس من نور علمه.

وكلمة ﴿لَبِثْتُمْ﴾ تشمل عدة تساؤلات: كيف لبثتم؟ كم لبثتم؟ ما هي مجريات الأمور وتطورات الأحداث التي أحاطت بكم في هذه الفترة؟.

﴿فَابْعَثُواْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ في حصول الإنسان على العلم عليه ألا يصبح متجرداً عن الواقعيات، فاجتهد في تحصيل العلم الذي ينفعك، ولا تبحث في أمور بيزنطية جدلية، فالقرآن يقول: أن هؤلاء جلسوا وخططوا وفكروا وقالوا: حسناً كم بقينا على حالنا؟ وكيف بقينا؟ تلك قضية جانبية، أما القضية الأهم فهي الجوع، فلنتحرك إلى

ما يفيدنا ونفكر في ما ينفعنا.

بورقكم: هو السكة الفضية.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ إن الإنسان المؤمن يبحث عن أزكى الطعام، زكاة مادية ومعنوية، فلا يبحث عن طعام يضره، كما لا يبحث عن طعام حرام، بل يراعي النواحي الصحية والشرعية.

ثم يشير القرآن إلى مسألة عدم الإسراف في الأكل، فلا ينبغي أن يأكل الإنسان بقدر ميزانيته بل بقدر حاجته فقط، لذلك قالوا: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي بمقدار ما تأكلونه وليس أكثر من ذلك ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي ليكن تصرف الذي يذهب ليبحث عن الطعام ويشتريه مهذباً، ويتصرف بروية وحكمة بحيث لا يلتفت أحد إلى شخصياتهم.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ وذلك حتى لا يحس الأعداء بهم، وهذا يفيد بأن الذي يعمل عملاً سرياً عليه أن يتكتم على عمله، وأن يعمل بطريقة ذكية بحيث لا يشعر أحداً بأن لديه ما يخفيه، ولا يكفي أن يكتم عنهم نوع عمله فحسب، بل حتى يكتم شخصه، وذلك حتى لا يدفعه فضوله إلى البحث واكتشاف أسرار ذلك العمل، وهذا منتهى السرية والكتمان المطلوب في العمل الناجح.

[٢٠] ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ إما يقتلونكم رجماً وهو من أشد أنواع القتل وإما يضغطون عليكم فيسببون ارتدادكم عن إيمانكم وفي ذلك ابتعادكم النهائي عن الفلاح والسعادة، وهذا يعني أن على الإنسان ألا يعرِّض نفسه وبمحض إرادته لتلك الضغوط التي يخشى على نفسه منها، ولا يقول أحد أنا لا يهمني السجن أو التعذيب لأني رجل صامد، فربما تكون الآن صامداً، ولكن غداً إذا صُبَّ عليك العذاب صباً في سجون الطواغيت فقد تفقد ذلك الصمود وتنهار، وبانهيارك ينهار دينك، لذلك فإنَّ أصحاب الكهف اتبعوا شروط التقية والسرية من أجل ألا تتسبب ضغوط الأعداء عليهم في عودتهم عن دينهم إلى دين الملك آنذاك، وبالتالي يحرمون من الفلاح والسعادة. والواقع أنهم كانوا -لفترة طويلة- يعبدون الله في السر. وإعطائهم الله أفضل الجزاء على ذلك جاء في الحديث الشريف المأثور عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إِنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ أَسَرُّوا الْإِيمَانَ وَ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ وَ كَانُوا عَلَى إِجْهَارِ الْكُفْرِ أَعْظَمَ أَجْراً مِنْهُمْ عَلَى إِسْرَارِ الْإِيمَانِ**»[1].

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٢٣١.

وإن الساعة لا ريب فيها

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[1] عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ[2] ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ[3] فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

كنا مع أصحاب الكهف وقد بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليجلب لهم الطعام بما يكفيهم رزقاً، وذهب الرجل بعد (٣٠٩) سنة وقد دارت الدنيا وتغيَّرت الأحوال وتبدَّلت الملوك، وجاء بسكة قديمة فعرفها الناس وتيقَّنوا أن هذا واحد من الذين خرجوا من ديارهم، وأسسوا

---

(١) اعثرنا: عثر على الشيء اطلعه عليه.
(٢) رجماً بالغيب: ظناً من غير دليل.
(٣) تمار: من المراء وهو الجدال.

نواة الحركة التوحيدية، تلك الحركة التي كانت في ذلك اليوم وبعد السنين الطويلة حاكمة على البلاد، ثم ماذا حدث بعد ذلك؟.. وهل عاد هؤلاء إلى كهفهم مرة أخرى وناموا في رقدة طويلة لا يستيقظون منها إلا يوم القيامة أو يوم الحشر الأصغر؟ القرآن لا يجيب على ذلك والله وحده العالم.

بينات من الآيات:

[٢١] يذكّرنا القرآن بحقيقة يجب أن نعتبر بها من خلال قصة أصحاب الكهف، وهي حقيقة البعث والنشور التي يلخصها الحديث القائل: «... **وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَ لَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ**»[1]، وإذا فكّر الإنسان بأنّه قادر على مقاومة الموت فليبدأ ذلك بمقاومة النوم، وإذا أراد الإنسان أن يعرف كيف يبعث بعد أن يموت فليفكر كيف يستيقظ بعد أن ينام، وإذا أراد الإنسان آية تدل على ذلك فلينظر إلى الحياة كلها، فالحياة جميعا موت وبعث.

البعث في الحياة ليس شيئاً بدعاً، فكل شيء في الحياة له بعث، وفي الإنسان نفسه دليل على البعث، كيف كان نطفة في صلب أبيه، ثم في رحم أمه، ثم ولد طفلاً رضيعاً، ثم نما فأصبح رجلاً ضخماً قوياً أو ليس ذلك بعث؟.

وهذه الأرض تراها مرة فينزل الله سبحانه عليها ماء من السماء، فإذا به تهتز وتخضر، ثم لا تلبث هذه الخضرة أن تموت وتصبح هشيما تذروها الرياح. هذه قصة الحياة كلها. أو يكون صعباً على خالق هذه الحياة أن يحيي الناس بعد موتهم؟!.

هذا مع العلم بأن عقولنا القاصرة الصغيرة تعتقد بأن الإحياء بعد الموت أسهل عند الله من الإحياء بعد العدم، وهذه المعادلة خاطئة بالنسبة إلى قدرة الله عز وجل، لأنَّ قدرة الله لا متناهية، وهو لا يبذل مجهوداً ولا يتعب حتى يكون عنده شيء أسهل من شيء آخر، ولكن بحسب مفاهيمنا وخبراتنا الحياتية إن إعادة صنع شيء أيسر من ابتداء صنعه واختراعه، فكيف نؤمن بأن الحياة لم تكن ثم كانت ولا نؤمن إنها بعد اندثارها ستعود ثانية؟.

لذلك علينا أن نستفيد من قصة أصحاب الكهف هذه العبرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ٱلَّذِينَ﴾ نستطيع أن نستخلص من هذه الآية ثلاثة أمور:

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٤٧.

أولاً: صدق وعد الله لعباده المؤمنين الصالحين بالنصر، حيث نصر أصحاب الكهف حين حماهم من بطش الطغاة، ونصر رسالة أصحاب الكهف حين أباد أولئك الطغاة وحكم الصالحين في البلاد، وجعلهم خلفاء وأئمة.

ثانياً: أراد الله سبحانه أن يعرف الإنسان أن الأمور بيده، وأنه قادر على أن يفعل ما يشاء من الأمور التي يتصور الإنسان أنها مستحيلة، وهي كذلك فعلاً حسب قدرة المخلوق المحدودة، أما حسب قدرة الله المطلقة فهي سهلة وميسورة، وذلك مثل قضية البعث والإحياء.

ثالثاً: إن العلم والجهل، والهدى والضلال، إنما هو من قبل الله سبحانه وتعالى، فخلال هذه الفترة الطويلة فتّش الناس عن أصحاب الكهف الذين كانوا موجودين في منطقة قريبة جداً منهم، بدليل أن ذلك الرجل الذي بعثوا به ليشتري الطعام نزل من الكهف وتوجه إلى المدينة من فوره، إلا أنهم لم يجدوا لهم أثراً، ولكنَّ الله أعثر عليهم عندما أراد أن يعلموا بالأمر، فالعلم وأسباب العلم من الله سبحانه.

والسؤال ما هي العلاقة بين أن يكون وعد الله حقاً، وأن تكون الساعة لا ريب فيها؟.

الجواب: إن الساعة تدخل ضمن وعود الله، فقد وعد بها الصالحين وتوعَّد بها المجرمين، ونحن نستطيع أن نبصر ذلك من خلال مجريات الأمور في الحياة، ومن خلال تدبرنا في أحداث التاريخ، وإن الله حينما يعد فأنه يفي بوعده في الدنيا، وحينما وعد أن ينصر الصالحين فعل، وحينما وعد أن يستخلف المستضعفين فعل، وحينما وعد أن يعين المتوكلين عليه فعل، والله سبحانه صادق الوعد، وما دام كذلك فأنه يوم القيامة أيضاً يفي بوعده.

زيارة القبور

وقف هؤلاء على باب الكهف، ووجد أن أولئك الذين كانوا إلى ساعة قريبة أحياء، قد ماتوا حينما شاء الله أن يموتوا، فالحياة والموت بيد الله، فوقفوا مدهوشين: كيف بقي هؤلاء أحياء هذه الفترة الطويلة؟ وكيف ماتوا فجأة؟ ﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ ماذا نفعل بهم؟ كيف نمجدهم؟ كيف نبقي ذكرهم حيا في النفوس؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ اتخذ الملك وحاشيته والذين كانوا غالبين على أمر الناس، قراراً ببناء مسجد على مقابل تلك الطلائع المؤمنة.

ونتوقف هنا قليلاً لندخل في حوار مع بعض المفسرين، فالمؤمن يجب أن يظل ذكره حياً

في النفوس لأنه قدوة حسنة، والقرآن الحكيم يبين دائما قصص الأنبياء ويمدحهم من أجل أن يجعل منهم قدوات حسنة للأجيال، ومن آثار المؤمن قبره، لذلك يستحب شرعاً أن يزور المؤمن المقابر.

إن أفضل عمل نقوم به عند مقابر المؤمنين هو أن نتعبد الله سبحانه وتعالى هناك، وأن نقرأ القرآن ونتذكَّر الموت، ويعظ أحدنا الآخر، ونجدِّد ذكرى هؤلاء ونبين رسالتهم التي عملوا لها وماتوا من أجلها ونصلي لله، أو ليس من الأفضل أن نصلي لله ركعات ونبعث بثوابها إلى أرواحهم.

وحينما نريد أن نجعل بيننا وبين الأموات من المؤمنين والشهداء رابطة، أو ليست أعمال الخير والبر، والصلاة، والدعاء، وتلاوة القرآن وما أشبه خير رابطة؟! بلى من هنا يذكِّرنا القرآن في هذه الآية أنه: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ ويبدو أنهم كانوا من المؤمنين ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ نتعبد فيه الله، ونتذكر القيامة، ونتذاكر سيرتهم، والقرآن يوحي لنا بأن هذا العمل عمل مشروع، بدليل انه ذكره و لم يستنكره أو ينهى عنه.. كيف ذلك؟.

اقرؤوا القرآن وتدبَّروا فيه، لتعلموا أن هذا الكتاب الذي أرسله رب حكيم لا يتكلم إلا بميزان دقيق، وهو لا يذكر لنا قصة تاريخية ولا عملاً قام به الأولون إلا لأحد أمرين: أما لكي ينهى عنه أو لكي يأمر به، فإذا لم ينه عنه فهو يأمر به.

وهذا رد حاسم على البعض الذين يفتون بأن زيارة قبور الأنبياء والأئمة المعصومين والصالحين، والصلاة والتعبد لله تعالى في مقاماتهم الشريفة، بدعة وضلالة وحرام، ونحن نتساءل: من الذي قال أنه كذلك؟.

إن القرآن في هذه الآية بالذات يبين لنا أن هذا العمل مشروعاً. والقرآن جاء ليطبق، لا لكي يُجادَل في آياته حسب الأهواء، أو حتى حسب الأحاديث غير المعروف صحتها ووثاقة سندها. ثم إن الحديث مهما كان موثق السند، فإنه لا ينسخ القرآن، والحديث الذي يتضارب مع القرآن لابد أن نضرب به عرض الحائط!.

المنهج العلمي لا الرجم بالغيب

[٢٢] ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي إن الذي يتكلم دون أن يستند إلى معلومات وحقائق ثابتة، فمثله كمن يقذف حجراً في الظلام الدامس، لا يعرف أحد أين يقع؟ ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾

لقد جاءت الآية بكلمة رجماً بالغيب قبل أن تقول سبعة وثامنهم كلبهم، مما يوحي بأن هذه الفكرة ليست رجماً بالغيب.

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ هنا تنتقل الآيات من الحديث عن البعث وعن وعد الله سبحانه، إلى الحديث عن قضية أخرى وتلك هي قضية العلم، وماذا يجب على الإنسان أن يقول ويعتقد؟.

إن عليه ألا يرجم بالغيب وإلا يغتر بمعلوماته لأنَّ علمه مهما بلغ فهو قليل، والذي عنده علم، عليه ألا يضع علمه للمراء والجدال، بل يمر على المسائل الجدلية العقيمة مسرعاً ما أمكن، أي يؤمن بالحقيقة ويبين حجتها ثم يذهب، لأنَّ المراء يفسد العلم، ويجعل فكر الإنسان متجهاً إلى وسائل الإستعلاء على الآخرين، وليس إلى الحقيقة، وبالتالي يصبح فكراً مستعلياً مستكبراً لا يستوعب الحقائق، والعلم هو ابن التواضع، والمعرفة بنت الخلق السمح، كما أن الأستكبار حجاب العلم، والاستعلاء يهدم المعرفة.

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ لو فرضنا أن جاهلاً يريد أن يستفتي، فهل يبحث عن كل جاهل مغرور يجمع ركام الخرافات على ظهره ويستفتيه في أمور دينه ودنياه؟ كلا.. أوليس إنما يُرجَع للعالم، وليس ثمَّة علم في الرجم مع افتقاد السبب الذي يتيح المعرفة الصحيحة.

وربما تدل هذه الآية على ما قلناه آنفاً، وهو أن القرآن لا ينسخ بالحديث، فينبغي ألا نحجب أنظارنا عن القرآن بحجب التاريخ، حيث نجعله منظاراً ننظر من خلاله إلى القرآن. إن المنهج السليم أن نعتبر القرآن الكريم وكأنّه أنزل علينا الآن. فنحذف وسائط التاريخ وحجب التراث. إن السنة الصحيحة لا تعارض القرآن، إذ هو المهيمن، وما عارضه زخرف. هذا أولاً، وثانياً: أن القرآن لا يُقصر على من نزل فيهم، وإلا لو كان كذلك لأصبحت معظم آياته لا تعنينا من قريب أو بعيد. فهو كتاب ربنا للناس كافة على امتداد الزمان، فإذن آياته تخاطبنا وترشدنا وهي حجة علينا، وليس مجرد حكايات تروى ولعلَّ هذه الآية تشير إلى هذه الحقيقة، وإنه ما دام القرآن قائم بيننا، فلم نذهب إلى التوراة والإنجيل، والأفكار الموجودة في الكتب المنحرفة والأساطير المبثوثة عند الناس، ونستفتي من يعرفها ويحملها؟.

الحياة بين تدبير الرب وتقدير العبد

[٢٣-٢٤] ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر

رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ لأول وهلة تبدو هاتان الآيتان غير مترابطتين مع بعضهما، ولكن لنتدبَّر فيهما قليلاً..

لما كانت الحياة تتطور باستمرار، كانت رسالات الله قد وضعت حسابات دقيقة لمتغيرات الزمان، وتطورات الأحداث، فيجب على الإنسان أن يضع الرسالة التي أنزلت عليه نصب عينيه في كل تصرفاته وأعماله، ولا يتركها لأن فلاناً قال كذا، أو أن السابقين عملوا هكذا.

والقرآن الحكيم يأمرنا بهذا في الآية الأولى، أما في الآية الثانية فأنه يوجهنا إلى موضوع دقيق، فيقول: إن على الإنسان ألا يضع لنفسه برنامجاً طويلاً المدى دون أن يحسب حساب متطورات الزمان في برنامجه، فالله سبحانه لا يأمر بشيء جامد، وإنما يأمر باتباع القيم التي تطبق في كل وقت بصورة معينة.

ليس لك أن تقول غداً سأعمل العمل الفلاني، لأنه قد يأتي الغد وتتطور الأحداث فيه، ويكون الواجب عليك عملاً آخر يختلف عما عزمت عليه، فعليك أن ترتبط بالله ورسالته -التي أنزلت عليك، والتي يفهمها عقلك- ارتباطاً وثيقاً مباشراً، ولا ترتبط بخطة معينة أو بتاريخ معين، أو بأفكار سابقة، أو بكتب مكتوبة، أو ببرامج جامدة، وهذا هو منتهى (التقدمية) في القرآن إن صح التعبير.

أما ربط العمل بالمشيئة فله معنيان:

الأول: المعنى الظاهر والمعروف، وهو أن مواهبي وإمكاناتي كإنسان، وإمكانات الطبيعة وفرص العمل، كلها متصلة بإرادة الله سبحانه، فإن له أن يوفقني غداً لعمل أو لا يوفقني، وهذا الإستثناء بالمشيئة هو المعنى المألوف.

ومن هنا يقول الأمام علي عليه السلام: **«عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَ حَلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهِمَمِ»**[1]، أي أني عزمت على شيء فجاء القضاء وفسخ عزيمتي، وهممت بشيء فجاء القدر ونقض همتي.

الثاني: إن الله إذا أمرني غداً بهذا العمل فسوف أعمله، وإذا نهاني فسوف أتركه، فعملي وعدم عملي غداً مرتبط بما يأمر به الله غدا وليس اليوم. فقد يكون أفضل عمل اليوم هو الصلاة والتعبد في المسجد، ولكن غداً قد يكون أفضل عمل هو الجهاد، وربما كان بعده أفضل عمل أن أجلس على أريكة الحكم وأدير شؤون الناس. فعلي دائما أن أضع خططي حسب ما يأمر به الله

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٤٧.

وليس حسب مشيئتي ورغبتي، وأجعل هواي باستمرار موافقاً لما يريده الله سبحانه.

جاء في رواية عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً إِلَى قَوْمٍ وَأَمَرَ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَشَكَا إِلَى الله الضَّعْفَ فَقَالَ: اخْتَرِ الْقِتَالَ أَوِ النَّارَ قَالَ يَا رَبِّ لَا طَاقَةَ لِي بِالنَّارِ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ النَّصْرَ يَأْتِيكَ فِي سَنَتِكَ هَذِهِ فَقَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ عليه السلام لِأَصْحَابِهِ:

إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَنِي بِقِتَالِ بَنِي فُلَانٍ فَقُلْتُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِهِمْ فَقَالَ اخْتَرِ النَّارَ أَوْ الْقِتَالَ قَالُوا بَلَى لَا طَاقَةَ لَنَا بِالنَّارِ فَقَالَ إِنَّ الله قَدْ أَوْحَى أَنَّ النَّصْرَ يَأْتِينِي فِي سَنَتِي هَذِهِ قَالُوا تَفْعَلُ وَنَفْعَلُ وَتَكُونُ وَنَكُونُ قَالَ: وَبَعَثَ اللهُ نَبِيّاً آخَرَ إِلَى قَوْمٍ وَ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَهُمْ فَشَكَا إِلَى الله الضَّعْفَ فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ النَّصْرَ يَأْتِيكَ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِقِتَالِ بَنِي فُلَانٍ فَشَكَوْتُ إِلَيْهِ الضَّعْفَ فَقَالُوا لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الله قَدْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّ النَّصْرَ يَأْتِينِي بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَقَالُوا: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله قَالَ: فَأَتَاهُمُ اللهُ بِالنَّصْرِ فِي سَنَتِهِمْ تِلْكَ لِتَفْوِيضِهِمْ إِلَى الله، وَقَوْلِهِمْ: مَا شَاءَ اللهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله»[1].

هذه هي أهم صفة للمؤمن وهي: أن يكون راضياً برضا الله، وأن يعمل بما يأمر به الله وإذا وصلت إلى هذه الدرجة فأحمد الله أنك قد بلغت مستوى رفيعاً من الإيمان، وإلا فاسع للوصول إلى هذا المستوى.

ولا بأس أن أضع برنامجاً للمستقبل، ولكن على شرط أن أستثني فيه وأقول: إن شاء الله، بحيث إذا تغيَّرت الظروف وتغيَّر أمر الله بالنسبة لهذا البرنامج، فإني سوف أغيره تبعاً لذلك التغيير.

في بعض الأوقات يدخل الإنسان إلى حزب باعتباره وسيلته إلى الله سبحانه، ولكن شيئاً فشيئاً يتحول الحزب إلى إله يعبد من دون الله، وفي أخرى يتبع الإنسان أحداً على أساس أنه رجل مؤمن عالم، ويجعله سبباً بينه وبين الله يبتغي بذلك مرضاة ربه، ولكن شيئاً فشيئاً يتحول هذا الرجل إلى صنم يعبد من دون الله، وكذلك في بعض الأوقات يضع الإنسان لنفسه برنامجاً ليطبقه امتثالاً لأمر الله، ولكن شيئاً فشيئاً يتحول البرنامج في حياته إلى برنامج ضلالة وجبت.

حينما تتبع أحداً وَطِّن نفسَكَ على أن تتبعه من أجل الله، وكذلك حينما تنتمي إلى جماعة فاجعل انتماءك إلى الله أقوى من انتماءك إليهم، واطلب دائماً من الله أن يرشدك إلى اتباع العالم الأفضل، والبرنامج الأكمل، والجماعة الأكثر إيماناً وتقوى، وكن دائماً أمام زمانك، ولا تسمح لنفسك أن تصبح قطعة متحفية مرتبطة بالتاريخ.

(١) بحار الأنوار: ج٦٨ ص١٥٨.

[٢٥] ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ كيف لبثوا هذه المدة؟ وبآية حالة وبتدبير آية قوة؟.

[٢٦] ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ لا تبحث حول هذا الموضوع، فالله أعلم كيف ومتى وأنى لبثوا!.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ أبصر وأسمع وما أشبه صيغ لغوية تفيد المبالغة والتعجب، أي أعظم الله بها يراه بصرك أو تسمعه أذنك إذ كل شيء تراه أو تسمعه فهو آية لله سبحانه.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ليس لله شركاء من آلهة الثقافة والحكم أو كهنة المعابد، إنه الواحد الأحد ولا يشرك في حكمه أحداً، لذلك على الإنسان أن يتصل مباشرة بالله سبحانه، ولا يجعل بينه وبين الله واسطة إلا إذا أمر الله بها وفي حدودك ذلك لا أكثر.

زينة الحياة وضمانات الإستقامة

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا [1] ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ [2] عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا [3] ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [4] وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ [5] يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا [6] ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ [7] نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾.

---

(١) ملتحداً: ملجأً تعدل إليه.

(٢) لا تعدُ: من عدى يعد وبمعنى تجاوز.

(٣) فرطاً: سرفاً وافراطاً.

(٤) سرادقها: السرادق هو الفسطاط المحيط بما فيه ويقال السرادق ثوب يدار حول الفسطاط وشبّه به لهب النار لأنه مخروطي الشكل يحيط بما حوله.

(٥) كل شيء أذيب كالنحاس والرصاص..

(٦) مرتفقاً: متكأ، أو مقراً.

(٧) الارائك: جمع أريكة وهي السرير.

هدى من الآيات:

إن من مظاهر إعجاز القرآن الحكيم، إن آياته الكريمة تتبع عدة خطوط متوازية ومتناسبة، تتضافر على توجيه فكر الإنسان إلى قضية جوهرية معينة. فالسورة الواحدة من القرآن تتحدث عن عدة أمور تبدو متباعدة، ولكنها آخر الأمر تصل إلى هدف واحد، أو عدة أهداف محددة و مترابطة.

وفي سورة الكهف، وكما أكدنا على ذلك في بدايتها، نجد إن الموضوع الرئيسي فيها هو علاقة الإنسان بالحياة الدنيا، و موقفه من زينة الأرض و متاع الغرور وهي أشياء زائلة، إذ أن يد القدرة المطلقة وهي يد الله سوف تمسح زينة الحياة، و تدع الأرض صعيدا جرزا في لحظة واحدة.

ولذلك فأن على الإنسان إلا يربط علاقته بهذه الزينة ربطا متينا، بل تكون العلاقة المتينة مع الله رب هذه الحياة و رب هذه الأرض، وتكون علاقته بزينة الحياة علاقة فوقية يتملكها دون إن تتملكه.

لقد كان أصحاب الكهف مثلا لفرار البشر من جاذبية المادة و زينة الحياة الدنيا.

والسؤال كيف نصبح أمثالهم؟.

الجواب بما يلي:

أولاً: العمل بالضمانات الوقائية التي تخلص الإنسان من ضغوط زينة الحياة. وكيف يمكن للإنسان إن يسوّر نفسه بقلاع تحفظه وتمنعه من تلك الضغوط؟. الآيات تكشف عن الآتي:

ألف: تلاوة القرآن والارتباط المباشر بآياته الكريمة، تلك الآيات التي لا تتبدل بالرغم من تبدل الحياة و تطورها، وهذا هو المهم، إذ حينما تتعلق بزينة الحياة فأنك سوف تتعلق بشيء يزول ولا يبقى، انه حبل ينقطع، وجدار ينقض. إذا؛ لا بد أن تتعلق بحبل متين وتعتمد على جدار راسخ، وهو كتاب الله.

بــــاء: أن يكون انتماؤك إلى التجمع الإيماني، وحينما تنتمي إلى مثل هذا التجمع وتختار الأفراد على أساس القيم الرسالية، فسوف تحصن نفسك بسور آخر من أسوار الحماية ضد ضغط الزينة.

جيم: التحدي والاستعداد للصراع، وهذا يعني استعداد الإنسان للصراع مع العدو

ومواجهته، وهو سور آخر يحتمي به الإنسان من مغريات زينة الحياة و متاعها الزائل.

بعد أن يبين السياق هذه الأسوار الثلاثة، يؤكد على بعض القيم المساعدة على توجيه الإنسان في هذا الاتجاه، ويبيّن: إن كل عمل يعمله الإنسان يحفظ له سواء كان صغيراً أو كبيراً، و سواء كان الإنسان منتميا إلى الأيمان انتماء راسخا أو لم يكن كذلك.

إن العمل لا يضيع عند الله في أي شكل كان، و بأي صورة ظهر. والله يعوض الإنسان عن زينة الحياة الدنيا بالزينة الباقية في الحياة الآخرة، تلك الحياة التي هي الحيوان عند الله المقتدر العزيز.

بينات من الآيات:

بين الثوابت والمتغيرات

[٢٧] ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ القرآن مصباح ونور، وعلى الإنسان أن يتلوه وأن يتبصّر ويتعقّل، وبالتالي فلا يمكن الاكتفاء بالنور عن الرؤية، لأنَّ الإنسان الذي يغمض عينيه سوف لن يرى شيئاً، حتى ولو كانت الشمس في كبد السماء.

وربما يكون المقصود بالتلاوة هو التدرج، وأن يبحث الإنسان عن الشيء دفعة دفعة، وفكرة فكرة، وهذه قاعدة منطقية معروفة اليوم وهي: إذا أردت أن تعرف شيئاً فقسمه إلى أجزاء صغيرة، حتى تستطيع أن تسيطر عليه وتفهمه.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهذا يبين لنا أن هناك خطاً ثابتاً في الحياة وخطاً آخر متطوراً، والخط الثابت هو كلمات الله، وهو الذي يجب أن يتعلق به الإنسان، أما الخط المتغير فهو زينة الحياة الدنيا، الذي يجب أن يسيطر عليه الإنسان.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ إذا أردت أن تعتمد على شيء فلن تجد من دون الله من تعتمد عليه وتلتجئ إليه، فكل شيء ينهار، ولكن توكلك على الله سبحانه وتعالى سوف يبقى، وهذا هو السور الذي يحمي كيانك.

الإنتماء، شروطه ومقوماته

وبعد أن تهيئ نفسك في البداية، وتنتهي من تكوين شخصيتك، فأن عليك أن تبحث عن رفاق المسيرة.

[٢٨] ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حينما تريد أن تنتمي إلى جماعة فإنَّ هناك عقبات في طريق انتماءك ويجب أن تتجاوز هذه العقبات وأن تصبِّر نفسك عليها، فلكل انتماء ضريبة وعليك أن تدفعها والسؤال: من الذين تنتمي إليهم؟

إنهم العابدون لله ليلاً ونهاراً، ولكن الإنتماء إلى خطهم صعب وبحاجة إلى صبر: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ابحث عن هؤلاء وانتم إليهم، وتجاوز العقبات، وضحِّ من أجل انتماءك إليهم، ولا تبحث حينها عن فوائد ومصالح خاصة، بل وطِّن نفسك على العطاء. إن حُسْنَ الإنتماء ليس في أن تحمل أفراد التجمع مؤونتك بل في أن تحمل معهم أعباءهم، لذلك أكَّد القرآن هنا على كلمة الصبر.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد يتأثر الإنسان بإهتزاز في رؤيته إلى الأخرين، وإلى التجمع الذي يجب أن يتعلق به ويتفاعل معه، وذلك الإهتزاز يأتي نتيجة ضغوط زينة الحياة الدنيا، قد يرى الإنسان مؤمناً عجوزاً أعمى إن دفعه دفعة يسيرة سقط ومات، ويرى إلى جانبه ذلك الكافر، ولكن البطل القرشي ذا المال والنسب، فيعد هذا أحسن من ذلك، ويكون شأنه كشأن ذلك الرجل المسلم من أصحاب رسول الله مع ابن (أم مكتوم)، حيث أعرض عنه برغم إيمانه لأنه أعمى وفقير، وأقبل على من يمتلكون زينة الحياة ويفتقرون إلى زينة القلوب (التقوى). فجاءت الآيات من سورة عبس تنذره وتوعده.

اجعل نظرك معلقا على هؤلاء المؤمنين واهتمامك موجهاً إليهم، ولا تسمح بتسرب الإزدواجية في الولاء إلى نفسك، فتريد أن تنتمي إلى جماعة رسالية، وفي نفس الوقت تنتمي إلى أصحاب الحياة والثروة، حتى إذا ما أحرز هؤلاء تقدما كنت معهم، وإذا حصل أولئك على مكاسب انثنيت إليهم، ليكن ولاؤك خالصاً ولا تكن انتهازياً!.

من صفات القائد

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ هذا التجمع بحاجة إلى قيادة، فمن هو القائد؟ وما هي صفاته؟.

القرآن يقول: إن أهم صفة للقائد هي الروح الإيمانية المتصلة بذكر الله، فلا تطع ذلك القائد الذي لا يتبع مناهج الله، وقلبه فارغ من التقوى، بالرغم من أن أعماله قد تكون في طريق التقوى كأن يصلي ويصوم أو يبني مسجداً وما شابه، إلا أن قلبه فارغ من ذكر الله. كلا إذ كل

يعمل على شاكلته، (أي على نيته) ونية الإنسان هي التي تصبغ حياته، وهدف الإنسان هو الذي يحدد مسيرته. فكثيرون يبنون المساجد والمدارس وينفذون المشاريع الخيرية.. إلخ، ولكن بعد أن يصلوا إلى دفة الحكم يتخذون مال الله دولاً وعباده خولاً!!.

فهل يجوز أن نتبع مثل هؤلاء؟ القرآن يقول: كلا.. ويعطينا مقياساً نميز به من يصح اتباعهم، وذلك المقياس هو القلب، فإنْ وجدت قلب إنسان مضاء بذكر الله فلك أن تتبعه، وإلا فلا يغرك مظهره.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ إذا أردت أن تعرف هذا الإنسان يتبع هواه، أو يتبع الرسالة، فانظر إلى تصرفاته، فالذي يتبع الرسالة تكون تصرفاته وسلوكياته ثابتة مستقيمة، وتستوحي هداها من برامج الله القويمة. أما تصرفات ذلك الذي يتبع هواه فهي تتغير حسب الهوى، ويكون أمره فرطاً أي غير منظم، وهذا هو السور الثاني. والخط الثاني للدفاع ضد غرور الشهوات.

وأما السور الثالث فهو:

روح التحدي

[٢٩] ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ حينما تقرأ القرآن وتستلهم منه، وتنتمي إلى التجمع الرسالي، آنئذ تحد المستكبرين وادخل معهم في المواجهة والصراع، ولكن كيف يمكن تطبيق هذه الآية والدنيا تمتلئ بالقوى الجاهلية؟.

تذكر الآخرة يجعل الإنسان يستطيل على إرهاب الطغاة وبغيهم فليس سواءً أذى الكفار للمؤمنين وهو محدود كماً وكيفاً وزماناً، وعذاب الله الذي لا رحمة فيه ولا انقضاء ولا يمكن الصبر عليه أبدا والعياذ بالله.

إن الله يقول: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾ سرادق النار في جهنم أشبه بالمعتقلات التي تحيط بها أسواراً عديدة، بحيث يستحيل على المعتقلين أن يتخطوها ويفلتوا منها، ودركات جهنم محيطة بأهلها ومغلقة عليهم، فأين المفر؟.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إن أهم شيء يحتاجه الإنسان الملتهب بالنار هو الماء، ولكنَّه عندما يطلب الماء فأنه يؤتي به شديد السخونة كالرصاص المذاب يشوي الوجوه.

والإنسان حينما يشرب شيئاً ساخناً يحترق فمه وجوفه، ولكن المهل لشدة حرارته فإنَّه يشوي جلد وجه الإنسان قبل أن يشرع في شربه، فماذا يمكن أن يحصل للبطن والأمعاء عندما يستقر بها ذلك السائل الحارق؟ ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ليست جيدة تلك الضيافة التي يضيف الله بها عباده الظالمين، في نار جهنم التي ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، ولكنَّ الله ذكَّرهم فأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل القرآن فلم يستمعوا له ولم ينصاعوا للحق، واختاروا لأنفسهم هذا المصير الأسود.

[٣٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وفي المقابل لا يضيع الله أجر المحسنين، وانظروا إلى التعبير القرآني حيث يقول: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولم يقل أنا لا نضيع أجرهم، ولعلَّ معناه أن الأجر لا يضيع أنى كان ومن أي إنسان كان. فالعمل الصالح إذا كان منك أيها المؤمن فإن الله لايضيعه، فأما أن يعطيك جزاءه في الدنيا وإما في الآخرة، وكذلك إذا كان من الكافر. فسوف لايضيعه الله أيضاً، فأما يعطيه جزاءه في الدنيا أو يخفف عذابه في الآخرة.

ولقد قلنا سابقا: إن العمل الصالح تسبقه النية الصالحة، حيث أن النية الصالحة هي التي تعطي للعمل صبغة الصلاح، وبدونها يفقد العمل هذه الصبغة مهما كان ظاهره سليماً وصالحاً.

[٣١] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات باقية دائمة بعكس الدنيا التي تزول.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بعكس ذلك الشراب الذي يشوي الوجوه.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ تماماً بعكس تلك الضيافة السيئة.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس والإستبرق أنواع من الأقمشة الحريرية الفاخرة ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي هم في راحة وهدوء لا يجدون ما يجده الإنسان في الحياة من تعب ونصب، ولا يحملون هموم العمل والاسترزاق.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ جاء في حديث عن الإمام علي عليه السلام يذكر فيه بدعائم الأيمان يقول: «فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلا عَنِ الشَّهَوَاتِ»[1]. فإذا رأيت قصراً لظالم بناه بهدم بيوت الآخرين، فلا تسمح للشيطان أن يدفعك إلى أن تظلم الناس وتبني قصراً مثله، ولكن قل إن شاء الله يجعل لي قصراً في الجنة أفضل منه.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٥٠.

وإذا حدثتك النفس الأمارة باللجوء إلى الكسل، والراحة، وترك الأعمال والواجبات المطلوبة منك، فتحامل على نفسك وقل: إن شاء الله إن الراحة على آرائك وثيرة في الجنة.

وإذا لمست رغبة عندك في أن تتمحور حول أصحاب الجاه والثروة، فأسبق الزمن بمخيلتك، وانظر إلى نفسك وأنت في الجنة بجوار الأنبياء والأئمة والمؤمنين الصالحين، الذين هم أمراء الآخرة وملوكها ووجهاؤها، وبين الإنسان والجنة خطوة واحدة لا أكثر وهي الموت، وبين غمضة عين وانتباهها تجد نفسك انتقلت من الدنيا إلى الآخرة.

إذن ليفكر الإنسان بالحياة الأخروية القادمة، ويتسلى عن الشهوات، وبمجرد أن يفكر الإنسان بالموت والقبر والحساب، فإنَّ نفسه تنصرف تلقائياً عن الشهوات، قال رسول الله ﷺ: **«أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ»**[1] أي الموت، فلنكن معاً من الذاكرين.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢ ص٤٣٥.

الإنسان بين تأليه المادة وعبادة الله

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا[1] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا[2] (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا[3] فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

---

(١) حسباناً: عذاباً كالصواعق والآفات.

(٢) زلقاً: الأرض الملساء والمستوية التي لا نبات فيها.

(٣) غوراً: غائراً ذاهباً في باطن الأرض.

هدى من الآيات:

سبق وأن تحدثنا عن الإطار العام لسورة الكهف، والذي يبين لنا نوعين من العلاقة بين الإنسان والطبيعة هما:

أولاً: علاقة السيطرة والتسخير للطبيعة.

ثانياً: علاقة الانبهار بما فيها من زينة.

وفي هذه المجموعة من الآيات يضرب القرآن مثلاً من تلك العلاقة التي تربط الكفار بالدنيا، فيعتمدون عليها ويحسبون إنها خالدة لهم، ولكنها لا تلبث أن تنتهي، وإذ ذاك يكتشفون أن العلاقة الصحيحة ينبغي أن تكون بينهم وبين ربهم، وأن الولاية الحق هي لله لا للمال والثروة، ولا للجاه والسلطة.

بينات من الآيات:

بين الشكر والكفر

[٣٢] رجل أعطاه الله جنتين، وتوفرت له كل أسباب الزينة فبطر بها، وبدل أن يشكر ربه اغتر بما أعطاه من ثروة ونعمة، وبدل أن يعتز بمن أعطاه هذه النعمة، اعتّز بالنعمة ذاتها، في حين أن من أعطي النعمة خالد دائم والنعمة منقطعة زائلة، وهو أولى بالشكر والعبادة منها.

وحينما جادله صاحبه في هذا الأمر جدالاً حسناً، وحاول أن يذكره وأن ينذره ويحذره من عاقبة بطره وغروره، أخذته العزة بالإثم، فكان مصيره أن خسر جنتيه ولم تبق له إلا أرضاً جرداء خاوية على عروشها، قد غار ماؤها واحترق زرعها وأصبحت صعيداً جرزاً.

وهكذا فقد استولت على الرجل كآبة فجرت قلبه، وندم ندماً شديداً على اغتراره بالنعمة، واعتزازه بالولد والعشيرة الذين لم ينفعوه شيئاً في محنته.

أما ذلك الرجل الفقير بماله وعشيرته، والغني بإيمانه بربه وتوكله عليه، فقد أخذ يردد هناك: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾.

وفي حديثه عن الجنتين، وعن علاقة ذلك المشرك بهما، يبين لنا القرآن بعض ضروب وعوامل الغنى التي وفرها لنفسه ولكنها لم تغنه عن الله شيئاً، فأصبح يقلب كفيه وليس فيهما

إلا الحسرة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾

أولاً: يجسد أحد الرجلين الأيمان المتسامي عن زينة الحياة الدنيا، بينما يستبد بالآخر حب الدنيا، ويشغله متاعها الزائل.

ثانياً: امتلاك الرجل لأكثر من جنة، يشير إلى بعض الأساليب الإقتصادية التي يلجأ إليها الرأسماليون لضمان تدفق الأرباح عليهم، فإذا خسرت جنة هنا فإنَّ الجنة الأخرى والتي تكون في مكان آخر.

﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ وهذه طريقة يلجأ إليها المزارعون، فيحيطون بساتينهم بأشجار مقاومة للرياح والأعاصير كالنخيل، ويزرعون الأعناب في الوسط، والأرض المتبقية بين هذه وتلك يزرعونها بالخضراوات المختلفة.

[٣٣] ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ شاء الله سبحانه أن يملي لذاك الرجل فأفاض عليه الخير فيضاً، وأذن للجنتين أن تدرا المحاصيل الوفيرة، وهكذا إذا أراد الله بعبد سوءاً -لسوء نيته- فإنه يوسع عليه النعم في بعض الأحيان، ليستدرجه ويبتلي ما في داخل نفسه من سوء وفساد.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ لقد أعطى الله لذلك الإنسان تلك الجنان، فأعطت صاحبها كل ما يتأمله منها من ثمار طيبة، ولم تظلمه ولكنَّه ظلم نفسه، فواجه إحسان الخالق إليه بالإساءة إلى نفسه، عبر غروره واستكباره، وإعراضه عن شكر ربه المنعم المتفضل.

دركات الهبوط

[٣٤] ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ الملاك والفلاحون ومن لهم ارتباط بالأرض والزراعة، يعلمون أن لحظة الحصاد لحظة سعيدة في حياتهم، تبعث في أنفسهم الغرور، لأنهم بعد صبر وانتظار طويل يرون الثمار وهي وفيرة وزاهية، فيختالون وكأنها ثمرة جهدهم، وينسون أن الله هو الذي زرعها وأينعها في هذه اللحظة.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أخذ يتعالى على الآخرين، اعتماداً على أشياء وقتية زائلة، وليس في الآيات دلالة على أن هذا الرجل كان له أنصار، ولعلَّ غروره دفعه إلى الاعتقاد بأنه ما دام يملك شيئاً من المال فكأنه يملك الناس أيضا، لذلك قال:

﴿وأعز نفرا﴾.

[٣٥] ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ إن ظلمه لنفسه هو في اغتراره بزينة الدنيا الذي جره للتعالي على الآخرين، واعتقاده أنه ما دام يملك المال فهو يملك الرجال.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ هذه هي العلاقة الخاطئة بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة الاعتماد عليها والركون إليها وكأن الطبيعة خالدة له.

[٣٦] ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ في البداية اغتر بنفسه وقال: أنا اكثر منك مالاً وأعز نفراً، ثم ظلم نفسه باعتقاده أن الجنة خالدة له، ثم أنكر المعاد، ووصل إلى نهاية دركات الهبوط حينما اعتقد بأن الله، والدين، والرسالة، وكل القيم إنما هي في جيبه.

إن الإنسان يظل صالحاً للهداية ما بقيت في نفسه جذوة الإيمان، وما دام يعتقد أن عمله قد يكون خاطئاً ولا يرضي الله عنه، أما حينما يعتقد بأن الله والدين تابعان له، ويأخذ يبرر أعماله ببعض الأفكار الخاطئة، فأنئذٍ لا تترجى له الهداية، فأنه يتحول من إنسان إلى ما هو أحط من الحيوان. وذلك حين يقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ اعتقد صاحب الجنتين أنه ما دام الله قد أعطاه تلك الجنتين وفيهما نخل وأعناب وزرع، وأفاض عليه الخير في الدنيا، إذن ففي الآخرة سوف يعطيه أكثر، وذلك استنادا على معادلة خاطئة وهي: أن العطاء في الدنيا دليل رشاد وهداية وفي هذه بالضبط هلاك الإنسان وخسارته الأكيدة، إذ أن بسط الله للرزق وتقديره له، إنما هو لامتحان العباد وليس للتكريم أو الإهانة.

ولعل التدرج دليل التيه الذي سقط فيه هذا المفهوم بالدنيا وزينتها، فهو لا يملك بصيرة واضحة عن الآخرة قال الله سبحانه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦].

كيف نجبر ضعف الذات؟

[٣٧] ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ هل وصل بك الحال أن تكفر بالله؟ وأنت تعلم علم اليقين كيف أنه خلقك أطواراً فقدرك، وإنك لا تستطيع أن تعتمد على نفسك وقدراتك، فكيف تعتمد على الجنة الخارجية التي هي نتيجة قدراتك ومكسب طاقاتك؟.

لقد كنت تراباً، ثم أصبحت نطفة، ثم استويت رجلاً، أي أنك كائن تطرأ عليه التغيرات ولست على حال ثابتة، وأنت معرض لكل الإحتمالات والأخطار، فمثلك ينبغي أن يعتمد على ركن ثابت شديد لا يطرأ عليه التغير، ولا تجوز عليه الإحتمالات وهو الله، لا أن تعتمد على

أشياء متحولة ومتغيرة كذاتك، لا تغني عنك شيئاً إذا هجمت عليك نوائب الزمان.

إن القرآن يعالج طبيعة الإنسان بعمق، لأنَّ منزل القرآن هو الله الذي خلق هذا الإنسان، والخوف متوغل في أعماق الإنسان الذي يرى أن كل شيء في الكون والحياة، وحتى ذاته في تغير مستمر وحركة دائبة، ولا شيء يثبت على حاله، فهو في قلق مما سيحدث له في المستقبل، لذلك يحاول أن يعتمد على شيء يطمئن إليه، ولكن بدل أن يدفعه هذا الخوف إلى الإعتماد على الله والتوكل عليه، والمزيد من الإلتصاق بمناهجه، فإنه كثيراً ما يلجأ إلى الاستناد إلى متاع الحياة الزائل، والتكاثر في الأموال، ولذلك ينبه القرآن الإنسان أنه عندما يخاف من تغيرات الحياة وتقلبات الزمان فإنَّ هذا شعور سليم، ولكن عليه إلا يوجه هذا الشعور نحو المال لأنه يزول، بل يوجهه نحو الإعتماد على شيء يبقى.

[٣٨] ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ أي إنني لا أزال على ديني.

إن كثيراً من الفقراء والمحرومين حينما يجدون أمامهم أغنياء يركعون لهم، ويخضعون لسلطان ثرواتهم، وبذلك يدفعونهم إلى مزيد من الاستغلال والإستكبار، والقرآن يرفض ذلك عبر هذه القصة وكأنَّه يقول: أيها الفقراء عليكم أن تعتزوا بإيمانكم بالله، لأنه هو القادر على أن يغنيكم كما أغنى هؤلاء.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ ويبدو أن السياق هنا يسمي الخضوع للغني شركاً واتخاذاً لإله غير الله.

[٣٩] ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ في البداية اتخذ الفقير موقف الدفاع، وحصَّن نفسه من الخضوع للغني، ولكنه الآن أخذ زمام المبادرة محاولاً إصلاح الغني، وهذا هو الدور المطلوب من الفقراء، فقال له: لابد أن تدرك أن ما حدث إنما كان بمشيئة الله وإذنه، وحسب قضائه و قدره، لا حسب إرادتك وعلمك. فلماذا لا تقول: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ثم إنك الآن لا تستطيع أن تستفيد من هذه الثمار إلا بعون الله، وهكذا فأن الخير الذي حصلت عليه سابقاً كان من الله، والخير الذي تأمله في المستقبل هو أيضاً من الله، وهذا هو الإطار الذي يجب أن نتعامل به مع الطبيعة والثروة والغنى.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ إن غرورك واستعلاءك قد يدفعانك إلى خسارة كل شيء، وآنذاك سأكون أنا الذي تنظر إلي باحتقار أفضل حالاً منك، لأنَّ القناعة كنز لا يفنى.

ثم إني آمل فضل الله بشكري، وأنت تعرض نفسك لسخط الله بكفرك.

[٤٠] ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ هذا هو الفرق، فالفقير كان يتمسك بأهداب الأمل ويرجو رحمة الله، بينما الغني كان يعتز بالغرور، وهذه عبرة كبيرة لك أيها الإنسان: ففي أية لحظة من لحظات حياتك سواء كنت غنياً أم فقيراً -انظر نظرة بعيدة- فالغنى قد يتحول فقراً فلا تبطر، وكذلك الفقر قد يكون طريقاً للغنى فلا تيأس، هذه هي تعاليم الرسالة.

العقاب الإلهي

يقول المفسرون: إن كلمة الحسبان تدل على الرماية المحسوبة التي يقوم بها الرماة في وقت واحد والكلمة مأخوذة من لفظة الحساب، ثم اختلفوا: هل الحسبان عذاب من السماء، أم سيل في الأرض، أم زلزال، أم ماذا؟.

وأتصور أن الحسبان هو العذاب المحسوب والمخطط له، وفي هذه الحالة بالذات كان سيلاً، وقد يعني ذلك أن الكلمة تدل على سيل من السماء حول الجنتين.

صعيداً زلقاً: أي أرضاً جرداء غير قابلة للزراعة مرة أخرى.

[٤١] ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ أي يتسرب ماء النهر الذي يروي المزروعات إلى باطن الأرض، بحيث لا يمكن الوصول إليه والاستفادة منه.

ماذا حدث بعد ذلك تفصيليا لا نعلمه، وما نعرفه أن هذا الرجل جاء إلى باب بستانه فإذا بثمره الذي اغتر به، والذي كان حصيلة جهود مكثفة طوال سنين قد أُحيط به.

[٤٢] ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي جاء عذاب وأصاب الثمار وأتلفها، ثم دمَّر كل النباتات والأشياء الموجودة.

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من عمر ومن مال.. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي تهاوى بناؤها ووقع على بعضه.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ أي لم أشرك بربي شيئاً، فأركن للغنى، واغتر بالثروة، واعتقد بأن المال يضمن البقاء، والخلود. والقرآن يقول: ﴿أَحَدٗا﴾ ولا يقول: (شيئاً) ربما للإشارة إلى أن الإنسان الذي يعبد الغنى والثروة اليوم سيعبد من يملكها غداً، وهو بالتالي يسير في خط الشرك.

[٤٣] ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ لعلَّه كان لهذا الرجل عصبة اعتقد بأنهم قادرون على دفع عذاب الله عنه، فهو لم يكن واحداً، إنما كان ضمن مجموعة من الأثرياء نسميهم بطبقة الرأسماليين والمستكبرين، وعبادته لم تكن للمال فقط، وإنما لتلك الطبقة أيضاً.

ولكننا رأينا أن تلك الطبقة تخلت عنه وتركته حينما جاءه عذاب الله، لأنهم يريدون المرء ما دام ثرياً مثلهم، أما إذا أصيب بنكبة وأصبح فقيراً فلا شأن لهم به.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ وحتى لو أرادوا أن ينصروه فإنهم لن يستطيعوا ذلك.

[٤٤] ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ إذا أردت أن تعبد أحداً، وتعتمد على ركن، فاعلم بأن الله هو وليك وقائدك وإلهك فاعبده واعتمد عليه ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ فهو الذي يعطيك الثواب الآن، ويؤمّلك به في المستقبل.

ووجدوا ما عملوا حاضرا

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ[2] مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

هدى من الآيات:

إن سورة الكهف تبين العلاقة بين الإنسان وبين الدنيا وزينتها الزائلة.

وقد ضربت لنا في آيات سابقة مثلاً في قصة الرجلين اللذين كان لأحدهما جنتان من نخيل وأعناب وزروع، فاغتر بهما واعتمد عليهما، وكانت عاقبته أن خسر الدنيا والآخرة.

ويلخص القرآن في هذه الآيات العبرة من هذه القصة، فيبين أن مثل الحياة الدنيا وما فيها من زينة، كمثل الربيع الذي لا يلبث أن ينقضي، وإنما لا تنقضي الباقيات الصالحات.

ويصور القرآن لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، حيث لا يستطيع الإنسان أن يمسك

---

(١) هشيماً: الهشيم ما يكسر ويحطم من يابس النبات.

(٢) مشفقين: خائفين من وقوع مكروه.

بيده شيئاً إلا ما قدَّم من عمل، فان كل ما عمل صالحاً، فهو خير ثواباً وخير أملاً، وإلا فجزاؤه جهنم ولا يظلم ربك أحداً. وهكذا يجدد لنا نظرة (مسؤولة) إلى زينة الحياة وأن المراد من تطوراتها هو فتنة البشر وابتلاؤه ليعلم مدى مسؤوليته.

والمثـل الذي يضربه القرآن عن الحياة الدنيا وزينتها، مستوحى من دورة الربيع، حيث ينزل الماء من السماء فإذا بالنباتات المختلفة تخرج من الأرض، وتجعل الإنسان يزعم بأنها باقية ودائمة، وإذا بأيام الربيع تنقضي ويأتي الصيف فتحرق الشمس اللاهبة كل تلك النباتات، وتحولها إلى هشيم متفتت تذروه الرياح.

فما الذي يبقى بعد كل هذه الدورة؟.

الشيء الوحيد الباقي هو قدرة الله التي تغير ولا تتغير، تلك القدرة التي كانت ولا تزال ولن تزول، وكما تتغير الطبيعة. بفعل تقدير الرب الحكيم. فإن الدنيا كلها تنقلب في كف القدرة الإلهية، وتعود كما بدأت، وتقوم الساعة ويسير الله الجبال على عظمتها، وتبرز الأرض بلا زينة ولا نتوءات. ويحشر الله الناس جميعاً دون استثناء، ويقف الناس مصطفين أمام رب العزة، ويقرر النداء الإلهي واقعهم الضعيف إنهم عادوا كما خلقهم الله لا يملكون أي شيء. وأن هذه هي الساعة التي كفروا بها. وإذا بكتاب أعمالهم موضوع أمامهم يشفق منه المجرمون ويزعمون لأنفسهم الويل لأن الكتاب لم يغادر صغيرة من أفعالهم ولا كبيرة إلا أحصاها.

هكذا تتجلى مسؤولية البشر والتي هي الغاية من زينة الحياة الدنيا.

بينات من الآيات:

مثل الدنيا

[٤٥] ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الماء أنزله الله، فبدل أن نعتمد نحن على الماء، ونبني حضارتنا وقيمنا الفكرية عليه كما فعل الفراعنة، ينبغي أن نعتمد على رب الماء والمهيمن عليه وعلى كل شيء ونبني حضارة إلهية سامية.

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي اختلط نبات الأرض بعضه مع بعض بواسطة الماء، والماء هو الذي جعل هذه النباتات التي كانت بذوراً تحت التراب تنمو وتختلط بقدرة الله، والإنسان يرى وكأن النباتات قائمة بذاتها، ولا يعلم بأن قسماً كبيراً منها يشكله الماء، الذي جاء من السماء، وسوف يغور في الأرض أو يعود إلى السماء ثانية عن طريق التبخر. وهنا لون

آخر من ألوان الغرور وهو: اعتقاد الإنسان بأن هذه الأعشاب نباتات، بينما هي في الواقع مياه قد تشكلت بهذا الشكل، وإذا ذهبت تلك المياه فإن تلك الأعشاب تتحول إلى هشيم تذروه الرياح، ولا تقف على سوقها، ولا تثبت في مكانها.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ بعد أن كانت النباتات تبدو ثابتة مستقرة، ومختلطة، بعضها يدعم بعضاً، تحولت إلى هشيم متفتت تنقله الرياح من مكان إلى مكان.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ وقدرة الله هي التي تحرك هذه الدورة التي تشبه سائر دورات الحياة، وعندما تنظر بمقياس تاريخي إلى بعض الدورات التاريخية، فإنك ترى حضارة جاءت ونشأت وجرت عليها الأجيال، ثم اضمحلت وبادت وانتهت، والشيء الوحيد الذي بقي لنا منها هو سنة الله ودلائل قدرته، وكلمة ﴿كَانَ﴾ تدل على الماضي أو على الاستمرار، فإذا دلَّت على الماضي فذلك يعني أن الشيء الذي سبق كل هذه الحياة إنما هو قدرة الله، إذن فهي التي ستبقى لأنها كانت ولم تكن الحياة، وسوف تكون بعد أن تنتهي الحياة.

الباقيات الصالحات

[٤٦] ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لأنها أشياء تشبه تلك النباتات التي تختلط وتلتف ببعضها، وهي زينة يجب أن يستفيد الإنسان منها على هذا الأساس لا أكثر، أما إذا أراد أن يعتمد عليها اعتماداً كلياً فسوف يسقط.

والوردة الجميلة الجذابة ذات العبق الطيب إنما هي زينة، ولا يمكن أن تستند عليها لأنها تقع ولو فعلت ذلك فستقع معها.

والمال والبنون هكذا، فبقدر ما تتعب وتحصل على المال وتبني بيتا تستفيد منه، أو تحصل على بنين يسر قلبك لمرآهم، وترتاح نفسيا بهم، بهذا المقدار سائغ لك، أما أن تغتر بالمال والبنين فهذا خطأ كبير، لأنَّ هذا المال ليس باق وحتى إذا بقي فأنت لا تبقى له، والبنون لا يبقون لك أو لا تبقى معهم، وينتهي دورهم بانتهاء دور الزينة. فما الذي يبقى لك؟.

عملك هو الذي يبقى. وما تدخره لنفسك من الصالحات هو الذي يدوم، وهو الذي يشكّل زينة الحياة الآخرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فبدل أن تدخر جهدك في الأموال وتكدّسها على بعضها ثم تذهب في لحظة واحدة، أو تتعب نفسك وترهقها من أجل الأولاد ثم فجأة يقلبون عليك ظهر المجن ويتركونك وحدك، بدل كل ذلك اعتمد على الله بالأعمال الصالحة.

ما هي الأعمال الصالحة؟

أن تجلس في البيت وتذكر ربك وتسبحه؟ وتصلي الفرائض الخمس بنوافلها؟ أم تزكي وتخمس؟ أم تجاهد؟ أم تبني مصنعاً وتعبد شارعاً من أجل الله وفي خير المجتمع؟.

كل ذلك عندما يكون خالصاً لوجه الله، فهو من الباقيات الصالحات، وهي تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: ما يرى الإنسان جزاءه عليه في الآخرة فقط، وإن كان يعود بالفوائد المعنوية في الدنيا كالصلاة، والتسبيح، والذكر وغيرها.

النوع الثاني: ما يرى الإنسان جزاءه في الدنيا أيضاً كما لو بنى حضارته، ذلك لأنَّ الحضارات هي المكاسب البشرية الباقية، فما تأكله وتشربه ليس حضارة، أما الذي تبنيه فهو جزء من الحضارة، والذي تعرفه قد لا يكون من الحضارة، ولكن الذي تقوله أو تكتبه من العلوم فهو من المكاسب الحضارية، وبتعبير آخر من المدخرات الحضارية للمستقبل.

والحضارة إنما تبدأ، وتنمو، وتبقى عن طريق أولئك الذين يفكرون في المستقبل فيدخرون الأعمال الصالحة للمستقبل، يعبدون الطرق، ويعمرون المدن، ويبنون المصانع و.. التي تبقى.

والأمة التي تستهلك أكثر مما تنتج، وتهدم أكثر مما تبني، وتفسد أكثر مما تصلح، فلن تبني حضارة، ومصيرها إلى الاندثار.

أما المجتمع الذي يعمل فيعطي لما يبقى أكثر مما يعطي لما يفنى، وينتج أكثر مما يستهلك، وبالتالي يصلح أكثر مما يفسد، فانه مجتمع يبني الحضارة ويحميها.

ونظرة القرآن للمستقبل تنقسم إلى شقين:

نظرة إلى المستقبل في الحياة الدنيا، ونظرة إلى المستقبل في الآخرة، والحديث الشريف يقول: «**اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً وَ اعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَداً**»[1].

مشيراً إلى هذا المفهوم، وهو: ضرورة العمل للمستقبل بشقيه الدنيوي والأخروي.

ويشدد الإسلام على هذا الموضوع أكثر حينما يقول رسول الله ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ**

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص١٥٦.

وَفِي يَدِ أَحَدِكُمُ الْفَسِيلَةُ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»[1]، أي إذا كان بيدك شتلة، ورأيت أشراط الساعة قد ظهرت وقامت القيامة، فلا تتوقف عن عملك، بل اغرس تلك الشتلة، وذلك تأكيده على ضرورة العمل للمستقبل.

صور من القيامة

لكي تتعادل نظرة الإنسان فلا يغتر بالحياة الدنيا، لابد أن يذكر بالآخرة. وبمدى حاجته هنالك للباقيات الصالحات. وهكذا يذكّرنا الرب هنا بذلك اليوم الرهيب. بلى ذلك اليوم الذي تعود الدنيا كما بدأت وتنتهي هذه الدورة الحياتية على الأرض التي تشبه دورة الربيع. ألم يقل ربنا « مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» بلى ذلك كان المثل وهذه هي الحقيقة، وأن قدرة الله التي قلبت الطبيعة عبر فصول العام هي التي تقلبها عبر دورة الوجود.

ولو نظرنا إلى الوجود من خلال هذه البصيرة القرآنية إذن لهانت زينة الدنيا في أعيننا، ولتحملنا مسؤوليتنا، وأخذنا من هذا المعبر السريع لذلك المنزل الباقي، أليس كذلك؟ دعنا نعيش لحظات في عمق المستقبل الحق. في يوم النشور الرهيب.

وينتقل بنا السياق ليصور لنا مشهداً من مشاهد القيامة، حيث تنتهي جاذبية الأرض -كما يبدو لي- وتصبح كالعهن المنفوش وتنبث بثاً وتسير تسييراً. يقول تعالى:

[٤٧] ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ﴾ هذه الجبال على عظمتها وضخامتها تتحرك، وإذا تحركت الجبال ولم تثبت في مكانها فهل أستطيع أنا أن أثبت في مكاني؟

كلا.. كذلك زينة الحياة الدنيا، فلا يمكنك أن تعتمد على شيء وتركن إليه، لأنَّ هذا الشيء غير ثابت للأبد.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا شيء يستقر على الأرض، لا بناء ولا شجر ولا تلال، فتصبح بارزة.

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فلا ينسى الله أحداً لأنَّ قبره في مكان بعيد، أو لأنه مات منذ زمن طويل، أو لأنه لم يسجل اسمه في القائمة، لا شيء من ذلك أبداً، فكل الناس بلا استثناء يقفون على أرض المحشر التي تكون بارزة، مكشوفين لا شيء يسترهم.

[٤٨] ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ثم تأتي مرحلة الاصطفاف بين يدي الله عز وجل، في

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣ ص٤٦٠.

صفوف لا يعلم مداها، إلا الله حيث يتواجد آنذاك كل الناس الذين خلقهم الله منذ ملايين السنين وإلى يوم القيامة.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أين الأموال؟ وأين البنون والعشيرة؟ وأين الألقاب والمناصب؟ لا شيء بقي من ذلك اليوم.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ كنتم تتصورون أن يوم القيامة لن يأتي وقد أتى اليوم، فأين أنتم منه؟.

قال رسول الله ﷺ عن الناس يوم المحشر: «يُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً -والغرل هم الغلف- وَرُوِيَ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ وَا سَوْأَتَاهُ أَيَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوْأَةِ بَعْضٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] وَيَشْغَلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ»[1]. فأبصارهم تكون شاخصة إلى الأهوال والأحداث الرهيبة التي تأخذ مجراها في ذلك الوقت، ويكون تفكيرهم منصباً على مصيرهم.

[٤٩] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ ويتعجبون: كيف رصدت كل التفصيلات الدقيقة، المادية والمعنوية فيها فيرتجفون خوفاً، لأنَّ كل جرائمهم مكتوبة، وهم مسؤولون عنها.

﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي الويل والثبور علينا ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ كل سيئة أو خصلة أو حالة نفسية مسجلة في الكتاب، وحتى النوايا القلبية والأفكار الذهنية تظهر واضحة أمامهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أمامهم، وليس اسم العمل وحده الذي يسجل، بل ويصبح العمل مجسماً يرونه ويحسونه، فالطيب منه يتحول إلى صور طيبة يوم القيامة، بينما يتحول السيئ إلى صور مرعبة كالعقارب، والحيات، والنيران، والأغلال، والظلمات، لا بظلم من الله -حاشاه- فهو لم يخلق الناس ليعذبهم بل ليرحمهم، إنما يحصد الإنسان ما يزرعه في الدنيا، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٦٩.

ولاية الله أم ولاية الشيطان؟

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا[2] (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا[3] وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا[4] (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا[5] بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق بيان القرآن الحكيم لزينة الحياة الدنيا وموقف الإنسان منها، ذلك الموقف

---

(١) عضداً: معيناً.

(٢) موبقاً: كل شيء حال بين شيئين.

(٣) مواقعوها: المواقعة ملابسة الشيء بشدة.

(٤) مصرفاً: مكاناً ينصرفون إليه.

(٥) يدحضوا: الادحاض هو الذهاب بالشيء إلى الهلاك.

المتسامي الذي يجعله يمتلك هذه الزينة بدل أن تمتلكه، يعالج القرآن أخبث صفة تجعل الإنسان يتكاثر في الأموال والأولاد وهي التعالي والتكبر، ويذكّرنا الرب بعاقبة إبليس أو من تمرّد على ربه واستعلى، ويأمرنا بمقاومته، كما يبين، -في هذا الإطار- موقف المؤمن من طائفة المستكبرين.

يبين طبيعة هؤلاء ليوجد حاجزاً نفسياً بين المؤمن وبينهم، فيضرب في الأعماق التاريخية حينا، ويصور المستقبل البعيد حينا آخر.

أما من التاريخ فيضرب الله لنا مثلاً من واقع إبليس الذي استكبر ورفض أن يسجد لآدم بعد أن سجدت له الملائكة جميعاً، وكان إبليس من الجن. الذين هم أقل رتبة وأدنى درجة من الملائكة.

ويوحي القرآن من هذا المثل بهذه الفكرة، ويتساءل السياق مستنكراً: كيف تعبدون إبليس المستكبر المتمرد على سلطان الله أو تعبدوا ذريته وهو لكم عدو مبين؟.

من المستقبل يبين الله لنا كيف أن المجرمين حينما يرون النار، ويتصورون أنفسهم وهم ملامسون لها، فإن فرائصهم ترتعد خوفاً وشفقة على أنفسهم، ولكن أنى لهم الهروب من النار؟!.

وبين هذا المستقبل وذلك التاريخ، على الإنسان أن يحدد موقفه من الثروة والسلطة وأصحابها المستكبرين وهم ذرية إبليس وسبب الفساد في الأرض.

بينات من الآيات:

لمن الولاية؟!

[٥٠] ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ لقد كان إبليس من الجن، وكانت الملائكة أرفع منهم درجة، وقد أُمر إبليس كما الملائكة بالسجود لآدم، ولكنَّه خرج عن الطاعة، والفسوق هو: الخروج عن الحدود، وربما يكون الخروج أحياناً من مكان ضيق إلى آخر رحيب، أو من مكان غير مناسب إلى آخر مناسب ولكن عندما يكون الخروج من الحدود المرسومة للشيء، مثل أن يخرج الإنسان من الحمى، أو إذا خرجت الفاكهة من قشرها فإنَّ ذلك يسمى فسقاً، لأن هذا الخروج خروج غير مناسب، وهو يؤدي إلى نتائج سلبية.

يقول القرآن الحكيم إن خروج إبليس عن الطاعة كان فسقاً أي كان سبباً لفساده وهلاكه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ أي هل من الصحيح أن تتخذوا إبليس ولياً من دون الله، بينما ولي الإنسان هو صديقه الذي يحبه، بينما إبليس قد تمرَّد على الله واستنكف عن طاعته، فكيف لا يستكبر على الناس وهو عدو لهم؟!

﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ إنه بديل سيئ لمن يتخذه ولياً من دون الله، ولكن من الذي يتخذ إبليس وليا؟.

إنهم الظالمون، فعمل الإنسان يؤثر على عقله وعقيدته، فظلمه للآخرين ومن ثم ظلمه لنفسه ينعكس على عقيدته، ولا يبتعد الإنسان عن الشيطان إلا إذا كان مؤمناً، لذلك فإن القرآن غير توجيه الكلام فلم يقل: بئس لكم بدلاً، وإنما قال: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾.

[٥١] ﴿۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ إن هؤلاء لا يعلمون ما في السماوات والأرض، وبالتالي لا يصلحون للقيادة، والولي القائد هو، الذي يعرف ماذا في السماوات حتى يمكنه أن يقود الناس بالطرق الصحيحة، وربما تعني الآية الكريمة من تعبير السماوات والأرض التشريعات المعنوية والطرق المادية للحياة، وهؤلاء لا علم لهم بها لأنهم لم يشهدوا الخلق ليعرفوا ما يناسبهم من تشريعات، وليس هناك مصدر آخر للمعرفة غير الله.

بينما الله سبحانه وتعالى لم يكن فقط شاهداً على الخلق، وإنما كان خالقاً بالتالي فهو أعلم بما في السماوات والأرض وأولى بأن يتبع هداه، إن هؤلاء لا يعلمون ولا يعرفون حتى أنفسهم، والذي لا يستطيع أن يقود نفسه إلى الخير والهدى، فهل يمكنه أن يقود الآخرين؟!

ومن جهة أخرى: لا يتصور الناس بأن الإنسان الضال يمكن أن تنفعهم قدرته وقوته شيئاً. كلا.. لأن الضلالة تسبب فساد القوة والقدرة مهما كانت كبيرة وهائلة، ويذكرنا القرآن بهذه الحقيقة فيقول: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ الذي يضلك لا يمكنك أن تتخذه عضداً لك، ونلاحظ هنا أن القرآن قد وصف المضلين وهم جمع بكلمة «عَضُداً» وهي مفرد، ولم يقل: أعضاداً، لأنه يريد أن ينفي الموضوع تماماً.

وذلك أبلغ لأن الإنسان قد لا يتخذ مجموعة أعضاد، وإنما يأخذ عضداً واحداً، ونفي المجموع ليس ينفي الفرد الواحد. بينما نفيها حيث تنفي حتى الواحد فإنَّه يعني المجموع أيضا ليس موجود.

حرام أن يتخذ الإنسان في حياته الدنيا رجلاً ضالاً عضداً يستعين به، وبهذه الدرجة من العنف ينفي القرآن مسألة الاستعانة بالظالمين والتعاون معهم في أي حقل من الحقول.

وجعلنا بينهم موبقا

[٥٢] ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ في يوم القيامة يأتي الله بالناس الذين اتخذوا الشيطان وذريته قادة ويقول: سأدعكم الآن لفترة تنادون أولئك القادة الذين كنتم تستعينون بهم في الدنيا، فيقفون ويصيحون حتى تبح أصواتهم ولكن دون جدوى.

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ بين الشركاء والمشركين هوة سحيقة ومهلكة، يسميها القرآن بالموبق وهي: الفجوة العميقة الفاصلة بين شيئين، ولكن لماذا هذه الفجوة؟ بالرغم من أن هؤلاء وأولئك في كثير من الأحيان يسلكون سبيلاً واحداً، ومصيرهم جميعا إلى النار؟ لعلَّ هذه الهوة العميقة ترمز إلى الهوة التي يجب أن تكون بين الإنسان والشركاء.

[٥٣] ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ تأملوا هذا المشهد: الكفار وقد شارفوا على النار، بل وبدأت تلفحهم حرارتها هاهم يرون أنهم يقعون فيها.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ وحري بنا أن نتصور نحن هذه الحالة، أيضاً، فنحن لم نر تلك النار اللاهبة الشديدة، ولكننا نستطيع أن نتصور أنفسنا واقفين على نار قعرها عميق، وحرها شديد، وعذابها غليظ، ونتخيل تلك النيران المحرقة وهي تلامس أجسادنا دون أن نجد مهرباً منها، لنتصور هذه الحالة، فإنَّ التصور يقرب الحقيقة إلى ذهن الإنسان ويقوم بدور الوسيط بينه وبين الحقائق البعيدة، وبالتالي فهو يربي الإنسان وينمي تقواه.

وهكذا الفرد الذي تتاح له فرصة الجريمة، ولكنه حين يتصور قاعة المحكمة أنه يبتعد عن الجريمة، كذلك نحن إذا تصورنا تلك النيران في جهنم سنمتنع عن المعاصي والفساد.

ذلك هو التاريخ البعيد، وهذا هو المستقبل القادم، وبينهما ينثني السياق القرآني ليذكرنا ويقول: أيها الناس تلك كانت قصص ماضيكم، وتلك حوادث مستقبلكم، فانتبهوا لحاضركم.

كيف نتخلص من طبيعة الجدال؟

[٥٤] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ كل تجسيد للحقيقة يسمى مثلاً، والقرآن يجسد الحقائق المجردة في أمثلة تاريخية مضت أو حوادث مستقبلية تقع، لكن لماذا، لكي يقرب هذه الحقائق المجردة إلى أذهان الناس وقلوبهم، ولكن الإنسان مهما أوتي

من أمثال، وصرفت له من قصص وحوادث، تراه يجادل فيها.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ الإنسان يبحث عن أي وسيلة يتهرّب بها عن حفظ أمانة العقل، وثقل مسؤولياته أنه يبحث عن مخرج من الهداية للصعوبة القصوى التي يعانيها في رحلته الشاقة من أرض الطبيعة إلى قمة الكمال، وما دامت طبيعته الجدل، فإن عليه أن يعمل جاهداً لكي يقاوم هذه الطبيعة، ويعرف بأنه لو ترك نفسه وشأنها فإنها نزاعة للهوى وأمارة بالسوء، تدعوه إلى الجدل والإبتعاد عن الحقيقة والهبوط إلى حضيض الشهوات.

إن عليك أيها الإنسان أن تقاوم، العلم بحاجة إلى جهاد والهدى بحاجة إلى سعي، والكمال بحاجة إلى مقاومة مستمرة لنوازع الهوى حتى تكتمل.

ولعلنا لو تعمقنا قليلاً في كلمة الجدل نصل إلى معرفة طبيعة الإنسان التي هي مخلوقة من مجموعة متناقضة من الأهواء، والنزعات، والتطلعات وما أشبه، فالإنسان دائما في حالة صراع وتجاذب داخلي، ففي نفسك توجد مجموعة جواذب مختلفة كل يجذبك إلى جهة، عنصر يجذبك إلى طاعة الآباء، وآخر يدعوك إلى الغلو في حب الأبناء، وثالث يدعوك إلى الذوبان في تيارات وهكذا، وكل هذه العناصر لها تأثير على عقلك وتفكيرك ولا يمكنك الكمال إلا إذا قطعت كل حبال الطبيعة.

بعض المفسرين قالوا: إن كلمة ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ﴾ إنما هي على سبيل المبالغة، والواقع أنه لا مبالغة هناك، فلا يوجد شيء في الطبيعة أكثر جدلا من الإنسان. لنفترض أن شلالات الماء في (نياجارا) تحدث جدلاً لأنها تنزل وتصطرع مع المياه التي تصطدم بها، ولكن هذا الجدل أكثر أم جدل الأفكار؟ والتيارات المتعارضة في بعض البحار، والرياح المختلفة، والزوابع العاصفة أكثر جدلا أم القلب، الذي تنعكس عليه كل تناقضات الوجود؟!.

وإذا بحثت فلن تجد تناقضاً قائماً في الدنيا أكثر من ذلك الموجود في فكرك، لأن عقلك يحتوي على كل تناقضات الدنيا، ماديات ومعنويات، حق وباطل، خير وشر، ففكر الإنسان انعكاس لكل تناقضات الكون، لذلك فهو أكثر شيء تناقضاً وجدلاً.

[٥٥] ومن أنواع التناقض والجدل عند الإنسان هو ذلك الموجود بين الواقع والحقيقة، فللواقع ضغطه وجاذبيته، وللحقيقة صحتها وعاقبتها.

إن الله يبعث بالهدى للناس، ويأمرهم أن يصححوا حياتهم وفق هذا الهدى ويصلحوا ماضيهم، ولكن هؤلاء ينتظرون حتى يأتيهم العذاب، فأما أن يأخذهم بغتة، وأما يأتيهم

فيروه أمامهم مباشرة، فهم ينتظرون الواقع، ولا ينظرون إلى الحقيقة، ويقول القرآن: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ ﴾ أن يؤمنوا بالهدى، وأن يصلحوا حياتهم الماضية وفق ذلك الهدى.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي العذاب المحيط بهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ أي يرون العذاب أمامهم مباشرة.

[٥٦] إذن لماذا ينزل ربنا العذاب على الناس حتى يهتدوا؟ لأن المطلوب هو أن يهتدي الناس بعقولهم وإرادتهم، ودور رسالات الله هو دور التبشير والإنذار، وليس دور الجبر والحسم.

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ يريد الكفار أن يهدموا كيان الحق بسلاح الباطل، ولما كانوا لا يقدرون على ذلك، فإنهم يتخذون سلاحاً آخر هو سلاح الاستهزاء، وهو أخطر سلاح يستخدمه الإنسان في مقاومة الحقيقة.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ تكمن خطورة هذا السلاح في ناحيتين: فمن جهة حينما يستهزئ الإنسان بالحقيقة، فإنه لا يمكنه أن يهتدي بها أبداً.

ومن جهة ثانية حينما يستهزئ بها، فلا يمكن لأحد أن يضرب له مثلاً، أو يأتي له بدليل على تلك الحقيقة لكي يقنعه بها.

من حقائق الهدى والمعرفة

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ[1] حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا[2] (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا[3] (٦٤)﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يذكّرنا القرآن الكريم بثلاث حقائق تتصل بقضية الهدى والمعرفة:

الحقيقة الأولى: إن اكتساب العلم والمعرفة وبالتالي الاهتداء مسؤولية الإنسان التي

(١) لا أبرح: لا أزال.

(٢) حقباً: الحقب الدهر والزمان وجمعه أحقاب.

(٣) قصصا: يتبعانه ومنه اقتصاص الأثر.

تتعلق بمصالحه العاجلة والآجلة، فمن يرفض الاهتداء، ولا يتحمل مسؤوليته في الوصول إلى المعرفة فإنَّه يظلم نفسه، ويكو مثله كمن يفقأ عينه، أو يسد أذنه، أو يبلد أحاسيسه، فيقطع على نفسه ذلك الجسر الذي يربط ذاته بالطبيعة فماذا عساه أن يفعل بعد ذلك؟ وما هو مبرر وجوده في الحياة؟.

الحقيقة الثانية: أن الإنسان إذا رأى أن بإمكانه البقاء فترة من الوقت في حالة الضلالة دون أن يصاب بأذى، فليعلم أن هذه مهلة منحها الله له رحمة به لعلَّه يرجع عن ضلالته ويهتدي.

وإلا ففي اللحظة التي تعمى فيها عين الإنسان، وتصم أذنه، ويتوقف عقله فإنَّه يجب أن يموت وينتهي، لأنَّه سوف يصطدم بالطبيعة وحقائقها الراسخة الصلبة فيتحطم شر تحطيم، وبالتالي فإنَّ الضلالة جريمة عقوبتها معجلة في الواقع، ولكنَّ الله يؤجل هذه العقوبة، وهذا من فضله الواسع وحلمه الكبير، ولعلَّه سيتدرجه إلى مصيره الأسود إستدراجاً.

الحقيقة الثالثة: إن هذا التأجيل ليس إلى فترة غير محدودة، وإنما لموعد يوم معلوم عند الله سبحانه وتعالى، وإذا جاء فإنَّه لن يتأخر، وهذا بدوره قضية هامة لو تحسس البشر بها لاستطاع أن يقاوم جهالته، وتعاليمه على الحقائق.

ولكي يوضح القرآن الكريم هذه الحقائق أكثر، فإنَّه يضرب لنا مثلاً من واقع موسى واجتهاده في البحث عن العلم والمعرفة.

وفي هذه المجموعة من الآيات، يذكرنا القرآن بأن الإنسان في حالات التعب، والإرهاق، وانشغال ذهنه بقضايا ثانوية قد ينسى أمورا مهمة.

لقد قام موسى مع مرافقه بسفرة طويلة مضنية مليئة بالصعوبات، فأصابهم تعب شديد من وعثاء السفر، مما جعلهم ينسون غذاءهم الذي أحضروه معهم، فالنسيان إذن من الشيطان، وتجاوز هذا النسيان لا يكون إلا عن طريق التذكّر المستمر لله سبحانه وتعالى، وهناك سبب آخر من أسباب الجهل وهو: إعراض الإنسان عن آيات الله وانصرافه عنها.

بينات من الآيات:

آثار الظلم

[٥٧] ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فآيات الله واضحة ومنتشرة في كل مكان، إلا أنّ الإنسان بحاجة إلى من يذكّره بها، ولكن عندما يذكر وتتلى عليه الآيات فيتركها،

ولا يهتدي بها، فإنّه يكون أظلم الظالمين.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ لقد نسي حقيقة رئيسية وهي: أنه إنسان غير عالم ولا فاضل، بل هو جاهل ومتورط في الجرائم، إنسان ظلم نفسه بارتكاب الخطايا والذنوب، فوقفت حاجزاً بينه وبين الهداية، لذلك ينبغي عليه أن يتسلح بالإرادة والعزم، وأن يتجاوز هذا الحاجز بدل أن يغفل وينسي ما قدّمت يداه.

من هنا نعلم بأن الوصول إلى الهداية بحاجة إلى تجاوز الصعوبات، وحسب التعبير القرآني إننا بحاجة إلى (اقتحام العقبة) ومن لا يقتحم العقبة، ويتسلح بالعزيمة الكافية لتجاوز الحواجز، فلن يهتدي أبداً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ هناك حجب موجودة على قلوب هؤلاء، فما هي تلك الحجب؟ إنها الذنوب والمعاصي التي يرتكبونها، ويصرون عليها، فتتراكم على قلوبهم بصورة حجب سميكة، تحول دون نفوذ الحقائق إليها. فيجعل الله على قلوبهم أكنة.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي إنَّا جعلنا آذانهم تشكو من صعوبة السمع، والوقر هو: الشيء الثقيل، والإنسان عندما لا تسمع أذنه يحس وكأنَّ ثقلاً قد وضع فيها.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ما دامت الأكنة موجودة على قلوبهم، والوقر في آذانهم، وما داموا قد نسوا ماضيهم الحافل بالجرائم والذنوب، فلم يحاولوا أن يستعرضوا ويتأملوا خطورتها، ولم يتسلحوا بالإرادة الكافية لمقاومتها، فمن المستحيل عليهم أن يجدوا طريقهم إلى الهداية.

وإذا كانت الضلالة ظلماً، فلماذا لا يعجل الله عليها العقاب؟ يقول القرآن: تلك رحمة من الله، وفرصة ثمينة لمحاولة الرجوع إلى الهداية، فلا يغتر الإنسان بهذه الفرصة فإنها قصيرة ومحدودة.

[٥٨] ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ ليس باستطاعتهم أن يجدوا مهرباً يؤولون إليه، كما يحدث عادة على مستوى البشر حينما تريد السلطات أن تلقي القبض على شخص فإنَّ هذا الشخص يأخذ بالتفتيش عن مكان يختفي فيه، أو عن شخص له نفوذ لكي يتوسط له عند السلطة، أما عند الله فلا يوجد شيء من ذلك أبداً، فسلطته واسعة قوية قادرة، ولا مهرب منها أبداً.

والموئل هو: المكان أو الزمان الذي يحجب العقاب عن الإنسان.

[٥٩] ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ وهلاكهم كان له موعد محدد، ولما جاء ذلك الموعد انتهت الفرصة الممنوحة لهم، ولم يكن باستطاعتهم أن يكتسبوا لحظة إضافية.

لماذا النسيان؟

[٦٠] إن نسيان الإنسان لماضيه وما قدّمت يداه، أحد الأسباب الرئيسية لجهله وعدم هدايته، والقرآن يضرب مثلاً على ذلك من قصة موسى عليه السلام حيث أنه كلف -فيما يبدو- بالبحث عن شخص عالم يرشده وعزم موسى عليه السلام على السفر إلى حيث يوجد العالم عند التقاء البحرين -ولعلهما خليج العقبة وخليج السويس المتفرعان من البحر الأحمر- وعندما بلغه وآوى هو وفتاه إلى صخرة تسرب حوتهما في البحر ولعل الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي إنني مصمم أن أصل إلى مجمع البحرين أو أمضي سنين عديدة بالرغم من كل الصعوبات المحتملة، والفتى هو يوشع بن نون أقرب بني إسرائيل إلى موسى عليه السلام ووصيه، ولعل التعبير بـ (الفتى) عنه كان لمعاني السمو الروحي والكمال الرسالة الذي كان يتمتع به، وبالذات في اتباعه لقيادته الإلهية، وتفانيه في خدمة الرسول.

[٦١] ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي المكان الذي يجتمع فيه البحران. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لقد تحرّك الحوت بحالة السرب، والسارب هو الذي يسير إلى الأسفل ولعل بالحوت كان رمق من الحياة فلما دخل الماء استعاد حياته وتسرب فيه أو كان هناك ماء الحياة.

[٦٢] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي انتقلا إلى الشاطئ الآخر. ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي كان سفرهما متعباً للغاية وشعرا بالجوع، والغداء هو طعام الغدو وهو أول النهار.

من عوامل النسيان

[٦٣] ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي أتذكر حينما جلسنا عند الصخرة التي كانت في طريقنا لنستريح قليلا. ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ وضعته هناك ولم أجلبه معي، ولكي يبرر هذا الواقع الذي فعله النسيان قال: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ لقد نسي الفتى قصة الحوت أن يبينها لموسى عليه السلام، وكيف اتخذ سبيله في البحر سربا.

[٦٤] ويبدو أن علامة موسى لمعرفة مكان العالم. كانت هي بالذات حياة الحوت. وانطلاقه في البحر سرباً، وهكذا قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي ذلك المكان هو بغيتنا وهدف رحلتنا ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي عادا على ذات الطريق وهما يبحثان عن الآثار.

وقبل أن نتابع قصة موسى مع العالم في الدرس القادم دعنا نتدبر في موضوع النسيان الذي يتكرر في هذه الآيات.

في آية سبقت بين القرآن قضية مهمة فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وفي هذه الآيات نجد قوله تعالى وما انسانيه إلا الشيطان وهاتان الآيتان صريحتان في أن الشيطان ينسي، والله يذكر، فما هو المعنى؟.

إن فكر الإنسان يشبه مصباحاً كامل الضياء، ليس بحاجة للوقود ولكن هناك حواجز هي التي تسد منافذ هذا الضياء، فما هي تلك الحواجز؟.

أنها مجموعة عوامل مادية تقوم على أساس اهتمام الإنسان بزينة الحياة الدنيا ومتاعها، وقد يكون فتى موسى عليه السلام وهما يمشيان على البحر قد انشغل بزينة البحر، أو ببعض الأشياء العجيبة التي رآها في الطريق، المهم أن انجذاب الإنسان إلى الطبيعة وخضوعه لها هو من أسباب النسيان، والحياة مليئة بالجواذب والشهوات التي يدعمها الشيطان، ولكن ذكر الله يطرد هذه الشهوات، ويعين على ضغط الجواذب ويزكي النفس من العقد التي يكّرسها الشيطان، وذكر الله بالتالي هو عدو النسيان، لأنه يحطم تلك الحواجز التي تغلف قلب الإنسان.

وحينما تتذكر الله وقدرته وهيمنته على الكون، يعود إليك توازنك وتعود إلى نفسك تلك الإرادة المفقودة، وتعود إلى عقلك معرفتك بأنك أقوى من الطبيعة، وأسمى من زينة الحياة الدنيا فلا يجب أن تستسلم لها.

وهكذا فإنَّ القرآن الحكيم يحدّثنا في سورة الكهف عن زينة الحياة الدنيا من جهة، وضـرورة التسامي عليها من جهة ثانية، ومن أبعاد التسامي وفوائده في ذات الوقت هو: التذكر وعدم النسيان، لأنَّ الإنسان المستسلم لحياة الدنيا وزينتها يفقد فكره، بل يفقد حتى الحياة نفسها، فحب الشيء يعمي ويصم.

إنك لن تستطيع معي صبرا

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ[1] فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

من مظاهر إعجاز القرآن الحكيم، إن آياته تتحدث عن أشياء عديدة في وقت واحد،

---

(١) ينقض: يسقط.

فالآية الواحدة مثال لقدرة الله في الكون، ولعلم الله بالأمور، وهي تبين مختلف الأبعاد للحقيقة الواحدة، أو مختلف الحقائق للحياة.

وسورة الكهف إذ تحدثنا عن علاقة الإنسان بالحياة، فإنها تحدثنا أيضاً عن علم الإنسان، وقد يبدو هذان الأمران في هذه السورة غير منسجمين أو حتى مختلفين، بينما الحقيقة هي أن علاقة الإنسان بزينة الحياة الدنيا وموقفه السليم منها، ينشأ عن علم الإنسان بحقيقة الدنيا، فلو عرف الإنسان ظاهراً من الحياة فقط استبد به الغرور، وزعم بأن هذا الظاهر الذي يراه هو الحقيقة، بينما لو تعمق قليلاً ووصل إلى جوهر الحياة الدنيا لعرف مدى تبدّلها وتغيرها، وأن مخبرها غير ظاهرها، ولذلك جاء في الحديث: «**الدُّنْيَا تَغُرُّ وَ تَضُرُّ وَ تَمُرُّ**»[1].

وهكذا الحديث عن الدنيا يستتبع العلم والهدى، لأنَّ هدى الإنسان ومعرفته للحقائق معرفة عميقة وشاملة يدعوه إلى أن يتخذ موقفاً سلبياً من زينة الحياة الدنيا، وليس موقف الغرور والتسليم المطلق.

وفي قصة موسى عليه السلام مع ذلك العبد الصالح الذي جاء في الأحاديث أنه الخضر عليه السلام يكتشف لنا جانب من هذه الحقيقة.

فموسى عليه السلام كان نبياً، وكان عارفاً بالشريعة، إلا أنه يبحث عمن هو أعلم منه ليتعلم منه بعض ما يخفى عنه، أو حكم الأحكام العامة والخاصة.

وخلال تلقيه الدروس كان ينتفض أمام بعض الحوادث التي يراها ولا يتحملها، فعندما ركبا في السفينة أخذ الخضر معولاً وثقب به جدارها، فإذا بالماء يتدفق إلى داخلها، وعندما صادفا شاباً في طريقهما حمل عليه الخضر فقتله، وفي نهاية المطاف وصلا إلى بلدة وجد فيها الخضر بناء متداعيا، فبذل مجهوداً كبيراً في ترميمه، ولم يطلب مقابل ذلك من القوم أجراً برغم ما بدر منهم من سوء استقبال وإعراض عن الضيافة، وكان وقع هذه الحوادث على موسى من الشدة بحيث كان الزمام يفلت منه كل مرة، وينسى شرط الصبر الذي التزم به.

إن عدم صبر موسى أمام الأعمال التي قام بها ذلك العبد الصالح، لدليل على أن الإنسان لا يحتمل مجرد احتمال أن وراء علمه هذا مساحات مجهولة أخرى لم يبلغها ولم يتوصل إليها، إن مجرد هذا الاحتمال يجعل الإنسان هادئاً، بحيث ينظر إلى بعيد وراء الظاهر.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٤٢٢.

بينات من الآيات:

بين العلم والرحمة

[٦٥] ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ هذا العبد بالإضافة إلى العلم الذي حصل عليه كان قد حصل على الرحمة، فهل هناك علاقة بين العلم والرحمة؟ أم أن ربنا سبحانه وتعالى قد أعطى العبد خصلتين من عنده الرحمة والعلم؟.

بتدبر بسيط في مفهوم كلمتي العلم والرحمة نتوصل إلى: إن العلم عادة ما يكون وليد الرحمة، وجوهر الرحمة هو لين القلب الذي هو صفة مقابلة لصفة أخرى وهي قسوة القلب، وقسوة القلب تسبب عدم نفوذ حقائق الحياة إليه فينشأ الجهل، ولين القلب على العكس من ذلك يسبب العلم، لذلك نستطيع أن نقول إن للرحمة الفضل الأول، وهو الشيء الذي أعطاه الله للخضر عليه السلام وكان سبباً لعلمه وقد استند البعض إلى هذه الكلمة وقالوا: إن خضرا كان نبياً والنبوة رحمة إلهية، بينما رأى آخرون: إن سعة صدر الخضر وقدرته على احتمال اعتراضات تلميذه موسى هي تلك الرحمة التي أعطاها الله إياه.

وفي الآية إشارة واضحة إلى أن العلم من الله سبحانه وتعالى، وإنه نور يقذفه في قلب من يشاء، وليس العلم بكثرة الدراسة والتعليم كما يزعمون.

الصبر وزير العقل

[٦٦] ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ لقد عرف موسى إن الحصول على العلم لا يمكن أن يتم بدون مجهود، لذلك عرض اتباعه للعالم وهو يمارس أعماله اليومية، ومن خلال العمل والقرارات والمواقف في الأحداث المختلفة للحياة يتعلم الحكمة، والعلم الذي يجب أن يبحث عنه الإنسان ليس علماً مطلقاً، بل ذلك العلم الذي يعطيه الرشد والبصيرة في سلوكه وعمله، وهذا هو العلم العملي، فكما أننا نحتاج إلى العمل العلمي، كذلك نحن نحتاج إلى العلم العملي، وذلك بأن نتعلم ما ينفعنا.

أما الخضر عليه السلام فقد أعطانا منهجاً آخر للتعلم وقال: إن أول وأهم صفة لاكتساب العلم هو الصبر، ولذلك كان الصبر وزيرا للعقل كما جاء في الأحاديث المأثورة.

[٦٧] ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾ وهذه هي مشكلة الإنسان، فهو بحاجة إلى الصبر لكي يتعلم العلم، والصبر بدوره بحاجة إلى العلم لكي يطمئن الإنسان، فإنَّ «الجاهل جزع».

وهنا نود أن نذكر بأن اجتياز حاجز الجهل من قبل الإنسان عملية صعبة، ولا يمكن للإنسان أن يجتاز هذا الحاجز وهو خائر العزم، ذلك لأن الحصول على العلم بحاجة إلى اجتياز الحاجز النفسي بالإضافة إلى المساعي العملية فنرى أن موسى عليه السلام برغم أنه يقوم بسفرة طويلة طلباً للعلم، ويلاقي أنواع المشقة، وينسى غداءه، ويصحب معه فتاه، وهو نبي يقود أمة، وبرغم كل هذه الأعمال الجسدية، فإنه يحتاج أيضاً إلى جهود نفسية كبيرة تعتبر من وظيفة القلب أو بتعبير آخر تعتبر رحلة القلب، ويشير إليها القرآن الحكيم في هذه الآيات:

[٦٨] ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ من المعلوم أن الخضر العالم لم ينسَ القدرة الحقيقة لموسى على الصبر، فموسى عليه السلام من الناحية الحقيقية والفعلية كانت عنده القدرة على الصبر، ولكن العالم يدرك أن عدم إحاطة الإنسان بشيء ما يجعل الصبر صعباً. كما أن غالب البشر لا يصبرون على صعوبات العلم، فالعلم يسبب لهم صدمة، ولأنه يسبب لهم ذلك فهم قد يكفرون به.

[٦٩] ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ وقد أعطى موسى تعهداً بالصبر والاتباع، فمثل العالم كمثل الشجرة المثمرة التي تهتز فتعطيك من ثمارها، والعالم يجب أن يبرمج منهاج تعليمك ولست أنت.

لقد ربط موسى عليه السلام صبره بالمشيئة الإلهية وقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ لأنه عرف أن من الصعب على الإنسان في هذه المواقف، أن يصبر على الصدمات التي يتلقاها بسبب معرفة الواقع المجهول.

[٧٠] ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ إن العالم عليه السلام عندما اشترط على موسى هذا الشرط، فإنه كان يشير إلى أن على العلماء أن يضبطوا أمرهم مع المتعلم منذ البداية، على أساس أن العالم هو الذي يحدد المنهج:

أولاً يخرق سفينة

[٧١-٧٢] ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ هنا انفعل موسى عليه السلام بأخلاقه الرسالية التي كان يمارسها مع مجتمعه الإسرائيلي، ذلك المجتمع المائع الذي كان يستخدم معهم الشدة، بعكس الرسول محمد صلى الله عليه وآله الذي كان يعيش في مجتمع خشن غليظ، فتسلح بالرأفة واللين، لذلك انفعل موسى وصاح غاضباً: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ وهو هنا لم يسأل حتى لماذا خرقتها، بل أنكر الموضوع رأساً، ولم يسكت على ذلك وإنما أعطى للعمل صبغة وهي أنه لم

يخرقها إلا ليغرق أهلها. وكان هذا هو الهدف الوحيد المتوقع من وراء هذا العمل وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي قمت بعمل عظيم، وهذا خطأ آخر يدل على الجهل بالموضوع، وهنا قال الخضر عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

[٧٣] فذكره بكل هدوء أعصاب بالاتفاق الذي كان بينهما، فانطفأت ثورة موسى فوراً وذهب غضبه، واعتذر عما بدر منه، فقال لا تؤاخذني بما يعسر علي تحمله، فمن الصعب على الإنسان أن يصبر على شيء لا يعرف عمقه وعاقبته، لذلك طلب موسى من ذلك العالم أن لا يؤاخذه بما نسي ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

هناك أمران ضروريان للتعليم هما:

أولاً: على العالم أن يكون واقعياً فيعرف أن الآخرين بشر، ويتعرضون للنسيان، وخصوصاً مع غرابة المعارف بالنسبة للمتعلم.

ثانياً: إن هؤلاء لا يتحملون كسب العلوم بطريقة الصدفة، إنما يحتاج العالم أن يجعل برنامجاً متدرجاً للتعليم. ولذلك قال موسى: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ الإرهاق هو إطباق الشيء على الشيء. وكأنَّ العسر يطبق على الشخص من جميع جوانبه.

ثانياً يقتل غلاما

[٧٤] ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ في المرة السابقة قال عمل عظيم ولم يقل جريمة، ولكنَّه في هذه المرة قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ ومرة أخرى قال الخضر عليه السلام وبأعصاب هادئة:

[٧٥] ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فتذكّر موسى مرة أخرى الشرط، وأحسَّ بأنَّه خالفه للمرة الثانية، ولأنَّه كان صادق العزيمة في إرادة التعلم فقد طلب فرصة أخيرة.

[٧٦] ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ وهذا أيضاً درس للعالم، فالتلميذ يجب أن يعطي من جهده للاستفادة مما تعلمه، والاستفادة ليس في سبيل نفسه، وإنما في سبيل تعليمه وتنميته وتربيته، والتلميذ الحقيقي هو الذي يأخذ إلى جنب المعرفة الصفات النفسية الفاضلة، فيتعلم، ويتدرب، وينمي صفاته الحسنة، ويزكي نفسه، أما أن يتعلم دون أن يتدرب، أو يزكي نفسه، أو يربيها على التضحية والفداء، فهذا تلميذ غير نافع.

ثالثاً ويبني جدارا

[٧٧] ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وهنا رأى العالم عليه السلام أن هذه هي نهاية المطاف، وأنّ موسى عليه السلام لن يستطيع أن يصبر أكثر من ذلك فقال:

[٧٨] ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ إن ظواهر الأمور لا تكشف دائماً عن حقائقها، لذلك على الإنسان أن يتسلح بالصبر، والرؤية البعيدة الشاملة، لكي يعرف الحياة معرفة عميقة، وآنئذ يتخذ منها موقفا سليماً.

ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا[1] وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

كنا مع الخضر وهو يعّلم موسى علماً عمليًا، ويدربه على فهم الحياة، وتحمل مصاعبها، وتدبر عواقب أحداثها، ورأينا كيف أن موسى كان ليتفجر غضباً كلما رأى عملا يتنافى مع الشريعة، إلى أن قال الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولكني سأفسر لك -قبل الفراق- تلك القضايا التي كانت غامضة عليك، وأخذ يفسرها الواحدة تلو الأخرى.

يتبين لنا من ذلك أن بعض الأحكام التي يأمر الله بها أنبياؤه الكرام مختلفة عن الأحكام العامة التي يأمر بها الناس العاديين، فلقد كانت السفينة ذات ملكية خاصة، واحترام الملكية واجب، إلا أن علم الخضر المستمد من الله بوجود ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، إن ذلك العلم دفعه وبأمر من الله إلى خرق السفينة، لكي تبقى بيد أصحابها المساكين إذ كان الملك لا يأخذ السفن المعيبة.

---

(١) أعيبها: أحدث فيها عيبا.

وكذلك يجب احترام النفس، ولكن احترام النفس محدود بعدم وقوع ضررها على الآخرين، أما إذا كانت النفس ضارة، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يأذن لولي الأمر من قبله بإعدامها، وإنقاذ المجتمع من شرها، كما قدر لخضر بأن يقتل الغلام لكي لا يصبح ضاراً بالآخرين، وكذلك مسألة الجدار، وهذا هو ظاهر ما نستفيده من الآيات الكريمة، وهناك عمق آخر سوف نتدبر فيه ونذكره.

بينات من الآيات:

لماذا خرق السفينة؟

[٧٩] ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ إن السفينة كانت لمساكين، ومن عادة الملوك ورؤساء الدول قديماً وحديثاً أن يأمروا بمصادرة وسائل النقل كلما واجهت دولهم حرباً، لأن الحرب بحاجة إلى وسائل النقل كالسفن والجمال قديماً، فهي إما تصادرها مصادرة تامة، وأما أن تسخرها للأعمال الحربية فترة الحرب، وهذه السفينة أيضا كانت من ضمن السفن المعرّضة للمصادرة لولا أن خرقها لتصبح معيبة، وبذلك لا تشملها أحكام المصادرة التي كانت مقصورة على مصادرة السفن الصالحة فقط.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الآية لم تقل إنّ ذلك الملك كان يأخذ السفن الصالحة فقط، لكنّ الكلمة السابقة تدل على هذه المعنى، وهذا من بلاغة القرآن.

لماذا قتل الغلام؟

[٨٠] ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ إنّ السبب في قتل الغلام من دون سابق إنذار هو: أنّ هذا الغلام كان سيسبب لأبويه المؤمنين الصالحين الطغيان والكفر، لأنهما، من فرط حبهما لهذا الغلام كانا سيتبعان أهواءه، في حين أنّه كان قد تربى على الدلال والفساد الخلقي، لذلك كان الخضر يخشى على أبويه المؤمنين أن يطغيا بسببه، ولذلك قتله، لأنّه وجود ضار.

[٨١] ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ لقد كان الخضر يسعى من أجل أن يبدّل الله هذا الغلام بمولود أفضل زكاة، أي نموه يكون نمواً زاكياً بدل ذلك النمو الطاغي، فهناك نمو زاك ونمو طاغ، النمو الزاكي هو: نمو ظاهر خال من السلبيات، أما النمو الفاسد فهو: نمو خبيث مليء بالسلبيات.

وكذلك فرق بين صلة الرحم وبين الكفر بسبب الرحم فالعلاقة التي تربط بين الأب وابنه إذا كانت علاقة بعيدة عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى وشكره، فإنَّ هذه العلاقة هي علاقة الكفر وتناقص الشكر لله سبحانه، بينما إذا كانت العلاقة هي علاقة الشفقة التي هي امتداد لعلاقة الإنسان بالله، كأن أقول: إني أحب ابني وأساعده لأنّه نعمة من الله سبحانه، فهنا تكون العلاقة امتدادية، وآنئذ تصبح هذه العلاقة علاقة الرحم، والتي يعبّر عنها القرآن فيقول: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ والكلمتان الأخيرتان جاء بهما القرآن لتتقابل مع الكلمتين الأوليتين، فالزكاة والرحم في مقابل الطغيان والكفر.

بين المصلحة العامة والخاصة

الأحكام الشرعية عموماً ليست محصورة بمصلحة الأفراد، وإنما هي متجهة إلى المصلحة العامة، والمصلحة العامة هي: مصلحة الأفراد مجتمعين، بينما المصلحة الخاصة هي: مصلحة الأفراد منفصلين، ومن الطبيعي أن تتفوق مصلحة الأفراد مجتمعين على مصلحة الأفراد منفصلين، وبصورة خاصة عند التعارض، فمثلاً مصلحة مليون إنسان أهم من مصلحة خمسة أفراد.

وعندما نقول المصلحة العامة فنحن نقصد بها مصلحة البشر، وليس من المعقول أن يترك الإسلام مصلحة البشر ككل من أجل مصلحة أفراد قلائل.

إن الثقافة الرأسمالية التي تؤكد على المصلحة الفردية هذا التأكيد المبالغ فيه، إنما هي ثقافة استغلالية يبرر بها المنحرفون الجشعون استثمارهم للآخرين، وسيطرتهم اللامشروعة عليهم، وأنهم ينادون بالملكية وبالمصلحة الفردية.

إن الخير والشر لا يقاسان بالفرد، بل يقاسان بالمجموع، الخير هو ما ينفع الناس، والشر ما يضر الناس، فإذا نفعني شيء وضر الآخرين فهو شر، ومفهوم الكلمة منذ البداية مفهوم شامل جماعي، ولا ريب أن كل شر في العالم ينفع شخصاً ما، فهل يتبدل مفهوم الشر لأنه ينفع شخصاً واحداً أو مجموعة صغيرة من أبناء المجتمع الإنساني؟!.

وربما تكون الآيات الكريمة دالة على هذه الحقيقة وهي: إن المصلحة حقاً والمنفعة صدقا إنما هما بالقياس إلى المجموع، وأن الأحكام الشرعية لا تعطي صفات مطلقة لبعض المفاهيم، فالملكية الفردية ليست سداً أمام الإسلام، وكذلك حرمة الأفراد، علماً باني لا أنفي اهتمام الإسلام بالملكية، ولكنه محدود بمصالح الآخرين، وعندما يبدأ الضرر بالآخرين فإن حرمة الملكية تنتهي.

في العلاقة مع النعم

إن نظرة الإسلام للحياة الدنيا وزينتها هي: أن كثيراً من أشياء الحياة الدنيا تبدو أمام الإنسان مفيدة، ولكنها عند الله غير مفيدة لما يعلم من مستقبلها، فإن يشرب الإنسان الخمر، ويجلس على مائدة القمار، ويأكل من أموال اليتامى، قد تبدو نافعةً للمتعة التي يعيشها، ولكنها تحمل في طياتها عواقب سيئة جداً، والعكس كذلك صحيح.

إن من جملة سنن الله في هلاك الأقوام فتح أبواب الرحمة عليهم، فإذا فتح أبواب الرحمة كلها على أمة فان ذلك تدبير لهلاكها، وكذلك بالنسبة للإنسان، فإذا رأيت النعم تنهال عليك من كل مكان فالزم الحذر، وكن يقظاً، لأنَّ هذه النعم قد تكون استدراجاً وإن الله يريد أن يجرّب إرادتك وقدرتك على المقاومة، ويريد أن يعطيك رزقك مرة واحدة حتى لا يكون لك نصيب في الآخرة، على الإنسان أن يكون معتدلاً وحكيماً في تصرفاته مع زينة الحياة الدينا، ولا يبالغ فيها ولا يطالب ربه أن يعطيه كلها مرة واحدة.

لذا إن علاقة الإنسان بنعم الحياة يجب أن تكون علاقة الشكر وليست الكفر، وعلاقة الزكاة وليس الطغيان.

إن علاقة الشكر هي: علاقة المحافظة على العوامل والأسباب التي أدّت إلى النعمة فإذا قمت بثورة ونجحت فيها، ووصلت إلى السلطة، ففكر في الذي دفعك إلى السلطة من العناصر البشرية والعوامل المعنوية، وإذا عرفتها فحافظ عليها، فإذا حافظت عليها فأنت شاكر لنعم الله تعالى، أما إذا لم تحافظ عليها فأنت كافر. والذي لا يحافظ على الأسباب والعوامل التي أدّت إلى حصوله على النعمة تتركه النعمة وربما بلا رجعة، أما علاقة الكفر فهي الإهمال لتلك العوامل. كذلك علاقة الزكاة، فقد جاءت في القرآن بمعنى: الإنفاق وفي اللغة تأتي بمعنى: التطهير والنمو، وذلك لأنَّ كل إنفاق وكل عطاء إنما هو بمعنى النمو فالإنسان لا تنمو عضلاته إلا عندما يستخدمها في العمل، ولا ينمو عقله إلا عندما يستخدمه في التفكير، ولا تنمو قدرات لسانه إلا عندما يستخدمه في النطق والكلام، وهكذا فإن كل شيء في الحياة يزكو وينمو عن طريق العطاء والإنفاق، والعكس صحيح، فإذا ادخر الإنسان جهوده فسوف تكون هذه الجهود سبباً للطغيان، والطغيان يكون سبباً للهلاك والإنتهاء.

هكذا يعطينا القرآن الحكيم -فيما يبدو- درساً في العلاقة مع زينة الحياة الدنيا، وقد سبق وأن قلنا إن سورة الكهف دروس وعبر تصحح علاقتنا مع الحياة الدنيا وما فيها من زينة، وأموال، وأولاد.. الخ.

لماذا بنى الجدار؟

[٨٢] ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فلو انهدم الجدار وجاء أهل المدينة وأرادوا أن يبنوا مكانه شيئاً، لأكتشفوا ذلك الكنز الذي كان عبارة من دراهم ودنانير، أو كما جاء في الأحاديث: إن هذا الكنز كان كتباً خاصة باليتيمين، حيث كتب أبوهما فيها مختلف الأشياء، واحتفظ بها تحت الجدار فأراد الله أن يبلغا سن الرشد ويستخرجا كنزهما ويستفيدا منه، فقد روى القمي عن الصادق عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ ذَلِكَ الْكَنْزُ لَوْحاً مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ بِسْمِ اللهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ كَيْفَ يَفْرَحُ عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَفْرَقُ عَجِبْتُ لِمَنْ يَذْكُرُ النَّارَ كَيْفَ يَضْحَكُ عَجِبْتُ لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَ تَصَرُّفَ أَهْلِهَا حَالًا بَعْدَ حَالٍ كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا»[1].

إن هذه الآية والآية السابقة تدلان على فكرة هامة وهي: إن الله سبحانه وتعالى يكرم الإنسان لأجل أبويه وانه إذا عمل الإنسان عملاً صالحاً فإنَّ الله يكرمه ليس في ذاته فقط وإنما في أبنائه أيضا، وإن كثيراً من حكم الحوادث في الحياة التي تقع دون أن نعرف طبيعتها مرتبطة ليس بالشخص ذاته، وإنما مرتبطة بشخص آخر، فلربما أكرم الله مريم الصديقة، وأنشأها، ورباها منذ نعومة أظفارها تلك التربية الزكية بسبب والدتها التي نذرت ما في بطنها محرراً، وأكرم عيسى بسبب أمه مريم الصديقة، وربما أكرم الله سبحانه كثيراً من الرجال المصلحين الذين ترى فيهم منذ طفولتهم آيات الشجاعة والذكاء من أجل آبائهم أو أمهاتهم جاء في الحديث عن العياشي عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ لَيَحْفَظُ وُلْدَ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَلْفِ سَنَةٍ وَ إِنَّ الْغُلَامَيْنِ كَانَ بَيْنَهُمَا وَ بَيْنَ أَبَوَيْهِمَا سَبْعُمِائَةِ سَنَةٍ»[2].

وقال: «إِنَّ اللهَ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ وُلْدَهُ وَ وُلْدَ وُلْدِهِ وَ أَهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَ دُوَيْرَاتِ حَوْلِهِ فَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللهِ لِكَرَامَتِهِ عَلَى اللهِ»[3].

وهذا التكريم يشجع على العمل، فحتى لو فكرت أنك لن تحصل على النتيجة في حياتك، ولكن الخير حتما آتيك إن كنت لم تزل حياً، وإلا فسوف يأتي من بعدك أبنائك.

كما أنّ العكس صحيح أيضاً حيث: إنّ الله سبحانه وتعالى قد يكتب هلاك إنسان يعلم

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٠، بحار الأنوار: ج١٣، ص٢٨٥
(٢) تفسير العياشي: ج٢ ص٣٣٦، بحار الأنوار: ج١٣ ص٣١٠.
(٣) تفسير العياشي: ج٢، ص٣٣٧، بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٥٣.

أنه لو بقي حياً لأضر بالآخرين، وقد قدر هلاك ذلك الغلام لكي لا يسبب طغياناً وكفراً لوالديه، فإذا رأيت شيئاً لا تفهمه فلا تنكره، فلربما كانت هناك حكمة خفية من هذه الحكم ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

وفي نهاية هذه القصة القصيرة نذكّركم مرة أخرى بأن السعي وراء العلم والخبرة يجب أن يكون هدف الإنسان المؤمن أبداً، والخبرة هي علم الممارسة الحية لحوادث الحياة، وهذه الخبرة هي من حكم الله في الحياة، أو بتعبير آخر هي التي تجعل الإنسان أكثر إيمانا وفهماً لحكم الله في الحياة، وبالتالي أقرب إلى الأحكام الشرعية.

الموقف السليم من السلطة

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا[2] ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[3] عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا[4] ﴿٩٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث القرآني عن موقف الإنسان من زينة الحياة الدنيا، تتناول هذه الآيات الموقف السليم من شهوة التسلط، والتي هي أكثر إثارة وأشد جاذبية من أية زينة أخرى في

(١) حمئة: ذات حمأة (الطين الأسود).

(٢) نكراً: منكراً فظيعاً.

(٣) خرجاً: بعض من المال.

(٤) ردماً: السد والحاجز الحصين.

الحياة الدنيا، وضرب الله لنا مثلاً من ذي القرنين الذي كان في العهود السالفة، والذي لا نعلم بالضبط فيما إذا كان هو الإسكندر المقدوني الذي فتح كثيراً من بلاد العالم إنطلاقاً من اليونان أو هو ملك من حمير، أو هو الملك الفارسي كورش الأول -كما تؤكده الدراسات الحديثة- أو هو رجل آخر لم يذكر التاريخ لنا المزيد من قصصه، سواء كان هذا أو ذاك فلقد كان رجلاً صالحاً، لم تخدعه بهارج السلطة، ولم تخرجه الزعامة والسيطرة عن حدود الشرع، وفي هذه القصة يذكرنا القرآن بعدة حقائق منها:

أولاً: إن ما حصل لذي القرنين من سلطة، إنما كان بسبب منه وسبب من الله، أما السبب الذي كان منه فهو: إتباع هدى الله، والاستفادة من الإمكانات المتوفرة في الطبيعة، وأما السبب الذي كان من الله: فقد علمه الله طريق الحياة وسننها، وأساليب السيطرة عليها وتسخيرها، فعمل في سبيل ذلك بهمة فكان العمل منه وكان من الله التوفيق والبركة.

ثانياً: إن ما قام به ذو القرنين من أعمال كان ضمن إطار قدرة الله، وعلمه، وإحاطته، فلا أحد يبلغ من السلطة مكاناً في ملكوت الله الواسعة إلا بإذن من الله.

ثالثاً: كان ذو القرنين رجلاً صالحاً، لم ينظر إلى الدنيا نظرة منحرفة، فحينما أوتي السلطة، أوحى إليه الله (ألهمه إلهاما): أن بقدرتك أن تسير في الناس بما شئت، أما أن تعذب، وأما أن تعمل بالحسنى.

فقال ذو القرنين: إنني سوف أسير في الناس بالعدل، فمن ظلم فإني أعذبه، ومن لم يظلم فسوف أرحمه.

وانطلق الرجل في عملية تعميقية للسلطة من قاعدة: أنها نعمة وفضل من الله، وأنه يجب أن يستفيد منها استفادة مشروعة، فجعلها لإقامة العدل، ودحض الباطل.

هذه المقالة توحي إلينا بحقيقة أخرى وهي عبرة هذه القصة، وهي: إنّ الإنسان قادر على التغلب على شهواته، وعلى موقعه الاجتماعي، فلأنك من طبقة الأثرياء أو من حاشية السلاطين وشريف من الأشراف، هل يجب عليك أن تخضع حتماً لسلبيات طبقتك أو مركزك أو مالك؟ كلا.. إنّ بإستطاعتك أن تنفلت من قيود المادة وإن أحاطت بك، وأن تحلق في سماء القيم، باستطاعتك أن تكون سلطاناً أو غنياً وتقاوم سلبيات طبقتك، وأن تكون شريفاً ولا يستبد بك حب الشرف والجاه فيخرجك عن طاعة الرب.

والقرآن الكريم يعطي الإنسان الثقة بأنه قادر على أن يتفوق على جاذبية الأرض والمادة، أن هذا الإيحاء المكرر والمستمر في القرآن الكريم هو حجر الأساس في تربية الإنسان، فلولا

شعور الإنسان بالثقة بذاته، وبقدرته على التغلب على ضغوط الحياة، لما استطاع أن يصبح إنساناً صالحاً مستقيماً.

رابعاً: إن على المؤمنين أن يعملوا من أجل رفاهية الإنسان في الأرض، وأن الإسلام لم يأت لمصلحة طائفة معينة من البشر وليس هدف الحكومة الإسلامية بناء دولة قوية ذات صناعة متقدمة، بل عليها أن تسعى من أجل كل المستضعفين في الأرض، سواء كانوا مسلمين أو لم يكونوا، لأنَّ الإنسان كإنسان محترم في الإسلام وعلى المؤمن أن يعمل من أجل رفاهية الإنسانية عامة.

وكذلك الجماعة المؤمنة ليس هدفها السلطة، إنما عليه السعي من أجل الناس، لرفع الضيم عن كل الناس، نعم.. قد تصبح السلطة أداة لتنفيذ هذه المهمة، ولكن السلطة بحد ذاتها ليست هدفاً.

إن الإسلام لا يدعوك إلى العنصرية بأن ترى نفسك أحسن من الآخرين، وتعتبر نفسك مركز الدنيا فتسعى من أجل إيصال نفسك إلى مركز القدرة. إن تلك العنصرية يعارضها الإسلام بقوة، وهي الانحراف الذي وقع فيه اليهود في التاريخ. فبعد أن كانوا مجموعة عاملة من أجل الناس أصبحوا مجموعة عاملة من أجل أنفسهم على حساب الناس، فاعتبروا أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار.

لقد كان ذو القرنين عبداً صالحاً، تحرك في العالم شرقاً وغرباً، ومن الطبيعي أن أبناء العالم ذلك اليوم لم يكونوا مؤمنين، ولكنه حينما وصل إلى منطقة معينة، وطلب منه أهلها أن يبني لهم سداً، لم ينهرهم بل قال: نعم، إن الله مكنني وأعطاني السلطة من أجل رفاهية الإنسان، من أجلكم أيها المحرومون سواء كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، فبنى لهم السد ولم يطالبهم بأجر، وهذا مثل أعلى للدولة الإسلامية.

فلنفترض أنه قد أصبحت دولة إسلامية بمستوى الدول العظمى في القوة والسلطة، فهل تبحث مثلها عن أسواق جديدة لتصدير سلعها؟ ومواد خام جديدة لتستفيد منها؟ أو شعوب جديدة لتستعمرها؟ كلا.. إنما يجب أن تسعى تلك الدولة المسلمة الغنية من أجل رفاهية الإنسانية في العالم، وتبحث عن أي مظلوم في العالم فتهرع إليه لتنقذه من الظلم، وتبحث عن أي محروم لتنتشله من الجوع والحرمان.

هذا هو هدف الأمة الإسلامية، وهذه في الواقع هي الحدود التي تفصل بين الإيمان والجاهلية، فليست الحدود هي الشعارات والكلمات، وحتى الطقوس والعبادات، إنما المؤمن

هو الذي يخرج من ذاته من أجل الآخرين، وإنما «... المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ»[1] والدولة الإسلامية هي التي تخرج من ذاتها من أجل رفاه الآخرين.

بينات من الآيات:

عودة للتاريخ

[٨٣] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إنّ الذي ينفعنا من التاريخ هو أن نتذكّر به ونعتبر، إذ أنّ الحقائق معلومة، وفطرة الإنسان شاهدة عليها، ولكن الإنسان ينسى وتحجبه عن الحقائق شهواته وضغوط حياته، لذلك قال ربنا: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، لذلك فإنّ الإنسان بحاجة إلى من يذكره والتاريخ خير من يذكر الإنسان، والقرآن إنما يقص علينا قصص التاريخ لكي يذكّرنا ويوجّهنا من خلالها.

من هو ذو القرنين؟

هناك ثلاثة آراء فيه:

١ - قال البيروني وقوم من المفسرين إنه ملك من الحمير في اليمن، وملوك اليمن تبدأ أسمائهم بكلمة ﴿ذِى﴾ والسد هو سد المأرب المعروف، بيد أن شواهد التاريخ لا تؤيد هذا الرأي، لأنه لم يعرف ملك من اليمن امتلك الشرق والغرب، ولأنّ سد المأرب لا تنطبق عليه مواصفات القرآن للسد.

٢- ودافع الرازي وجماعة عن الرأي القائل بأنه الإسكندر المقدوني، لأنه ملك الشرق والغرب، ولأنّ قصته كانت معروفة عند الناس فسألوا النبي عنها، إلا أنه ناقش في هذا الرأي أيضا بأن الإسكندر كان تابعاً لأرسطو، وتعاليم أرسطو لم تكن إلهية فلا تنطبق عليه آيات القرآن، علما بأنه لم يعرف عنه بناء سد بتلك الصفات التي يذكرها القرآن.

٣- أما الباحث الهندي المسلم (أبو الكلام آزاد) الذي شغل لفترة ما منصب وزارة الثقافة الهندية فقد رأى أنه كان كورش الكبير الذي فتح الشرق والغرب وقدم بحثاً مفصل في ذلك وأستدل على رأيه بأن الرجل كان صالحاً حسب ما نقل عن المؤرخين اليونانيين، مثل هرودوت، علماً بأنهم أعداؤه، وإنّ اليهود يقدرونه لأنه أنقذهم من أعداء الدين، ويعتقد أنهم

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٦٠.

إنما سألوا عنه النبي لوثيق العلاقة بينهم وبينه ولوجود إشارة إليه في كتبهم، وأضاف الباحث أنه وجد في حفريات منطقة الإستخر تمثال لكورش له جناحا عقاب وعلى رأسه تاج فيه قرن كبش مما يتناسب ومعنى ذي القرنين عند بعض المفسرين.

وأيد رأيه أيضاً بأن السد الحديدي الموجود حالياً في جبال (قوقاز) في منطقة تسمى حاليا (داريال) بين وادي (ولادي كيوكز) ووادي (تفليس) تنطبق عليه توصيف القرآن للسد علما بأن كورش هو الذي بناه، دفاعاً عن أهل المنطقة في مواجهة قبائل (يأجوج ومأجوج) المتوحشة التي كانت لهم هجمات على البلاد المتحضرة طوال التاريخ، حيث كانت الأخيرة منها بقيادة جنكيز خان المغولي[1] هذا والأحاديث الواردة في قصة ذي القرنين تتناسب وهذا القول والله أعلم.

[٨٤] ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ مكن الله ذا القرنين في الأرض، وذلك عن طريق تعريفه بالأسباب والعلل، فذا القرنين علمه الله أسباب الحياة، واستطاع عن طريق علمه أن يتمكن في الأرض ويسخر الطبيعة.

[٨٥] ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ لقد تحرك ذو القرنين في طريق السبب، واختار أحد الأسباب واتبعه بعد أن أتاه الله من كل شيء سبباً، إنّ علم الإنسان كثير، ولذلك فهو يختار من بين معلوماته عما يمكن أن يطبق عمليًا في إطار حياته المحدودة، وإذا أراد أن يتبع كل ما يعلم فإنَّ حياته لن تكفي لذلك حتماً.

سياسة العدل

[٨٦] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ﴾ وصل ذو القرنين إلى آخر الأرض المسكونة غرباً، وحينما وقف هناك رأى الشمس تسقط في بحر أو مستنقع مائي أو ما يشبه ذلك والإنسان إذا كان في البر فإنه يرى الشمس وكأنها تسقط في الأرض الملساء، وإذا كان عند البحر يرى و كأنها تسقط في جانب من البحر، وإذا كان في مكان وراءه مياه آسنة حينئذ يرى الشمس فيها. الحمأة: الطين الأسود العفن، ويبدو أن المنطقة التي بلغها ذو القرنين غرباً، كانت مليئة بالمياه الآسنة، حتى اعتقد أن الشمس تسقط فيها، ويقال: إنه وصل الشاطئ الغربي لمنطقة آسيا الوسطى حيث يرى الشمس وكأنها تسقط في الخلجان العديدة المنتشرة في منطقة أزمير بتركيا، ولعلَّ المنطقة كانت في ذلك العصر مليئة بالمياه الآسنة لكثرة هطول الأمطار في هذه البقعة من العالم في ذلك اليوم كما تشهد على ذلك

(١) راجع الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج٩ ص٣٧٠-٣٧١.

البحوث العلمية الحديثة.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ كان أمام ذي القرنين وهو صاحب السلطة أن يتخذ أحد الطريقين. أما طريق الجور والإرهاب، وأما طريق العدل والإصلاح.

[٨٧] ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ يقول بعض المفسرين أنّ الظلم هذا هو الشرك. وأن الله -في ﴿قُلْنَا﴾ حيث فسرها الأثر أنها بحكم الوحي، أو الإلهام أو بواسطة نبي كما في قصة طالوت- إنما خُيّر ذا القرنين بين التعذيب والتيسير، لأن أولئك الناس كانوا كفاراً، وكان يمكنه أن يعذبهم حتى ينزعوا عن الكفر، كما أنه كان يمكنه أن يبدأهم بالدعوة فمن آمن منهم عدل معه، ومن أشرك عامله بالعنف، قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان: «في هذا دلالة على أن القوم كانوا كفاراً، والمعنى أما أن تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرك، وأما أن تأسرهم وتمسكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى، وتستنقذهم من العمى»[1] وبالرغم من أن هذا التفسير محتمل، ويدل ذلك على: أن السلطة الإسلامية هي السلطة التي تتعامل مع الناس حسب معتقداتهم، ولكنني أرى أن الظلم هنا إنما هو بمفهومه المعروف كإغتصاب حقوق الآخرين، بدليل المقابلة بينه وبين الإيمان في العمل الصالح في قوله سبحانه وتعالى:

[٨٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما يدل على أن السلطة الإسلامية تعامل الناس على أساس أعمالهم وليس على معتقداتهم، صحيح أن المعتقدات تنتهي في الأعمال، والإيمان ينتهي إلى العمل الصالح، والشرك ينتهي إلى الظلم، ولكن المهم أن الجزاء ليس بالمعتقدات وإنما على الأعمال ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن ....﴾ في مساحة الاستخبار لا التخيير، ويؤكد هذا جواب العبد الصالح وهو يكشف عن سياسته.

لقد أدى إيمان ذي القرنين بالله واليوم الآخر إلى اتخاذ السياسة الصحيحة في الحكم والإدارة، وهي إتباع العدل والحق، وخدمة الناس وتيسير أمور الرعية، وتحريرهم من أنماط القهر التي يتبعها الحكام المنحرفون.

[٨٩] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ذو القرنين استفاد أيضا من الأسباب، واستخدم عمله وعلمه في طريق آخر نافع.

[٩٠] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾

(١) مجمع البيان: ج٦ ص٦٣٤.

أين وصل ذو القرنين شرقاً؟ لا أعلم، إلا أن المنطقة كانت بدائية حيث أن القوم فيها لم يكن يملكون بيوتاً تكنهم من حرارتها، كما جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لَمْ يَعْلَمُوا صَنْعَةَ الْبُيُوتِ**»[1].

وقال البعض إنّ المنطقة كانت سهلاً بحيث تظلها الجبال ولعلهم كانوا يفتقرون إلى الثياب أيضا.

[٩١] ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ هذا التحول من المغرب إلى أول المشرق كان دليلاً على قدرة ذو القرنين وسلطته، ولكنها لم تكن بعيدة عن سلطة الله، فقد كان الله محيطاً به.

[٩٢-٩٣] ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين السدين أي بين الجبلين حسب الظاهر، وقد سبق الحديث عن أنه قد يكون في منطقة القوقاز وهكذا تكون حملته شمالية.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ كانت لغة هؤلاء بعيدة جداً عن تلك اللغة التي كان يتحدّث بها ذو القرنين، بحيث لم يكد يفقهها، وإنّ الله الذي علّم الإنسان البيان أوجد وسيلة للتفاهم بين الطرفين.

يأجوج ومأجوج

[٩٤] ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقال إنّ يأجوج ومأجوج هي قبائل مغولية بدوية، كانت تغير على تلك البلاد، فتعيث فيها فساداً، ولعلَّ ذا القرنين قد سار إلى تلك البلاد لمقاومة خطرهم (على تفسير أنه كورش الكبير)..

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ من عادة الملوك الذين يدخلون البلاد إنهم يقدمون خدمة للناس، ولكنهم في مقابل ذلك يستعمرون البلد، ويستغلون موارده، ويريدون من أهله أن يوقعوا على وثيقة العبودية الكاملة لهم، وهؤلاء أيضاً ظنوا أن ذا القرنين من هؤلاء السلاطين والملوك، ويبدو إنهم استعدوا لإعطاء المزيد من خيراتهم من أجل درء خطر يأجوج ومأجوج عن أنفسهم ولكن ذا القرنين لم يطالبهم بالخراج، أو يأخذ منهم مالاً، وإنما.

[٩٥] ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ إن الله مكنني وسخّر الحياة لي من أجل خدمتكم

(١) بحار الأنوار: ج١٢ ص٢٠٦، تفسير العياشي: ج٢ ص٣٥٠.

وخدمة المحرومين والمستضعفين، ثم إني أبحث عن الطرق المشروعة لاستغلال الحياة، بلى؛ إن السلطة إذا أرادت أن تسخر الناس لأهدافها، وتستثمر مواردهم، فإنها لا تدوم، أما إذا عملت من أجل استغلال موارد الطبيعة مثلاً، تستفيد من الأراضي البور وتبدأ بتصنيع البلاد واستخراج معادنها ففي ذلك خيرها وخير الشعب.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ لقد طالبهم ذو القرنين فقط بطاعته في طريق بناء السد (الردم) أي التعاون معه في سبيل إنجاز المهمات الصعبة وهذه هي العلاقة المثلى بين السلطة والشعب.

ذو القرنين أسوة الحكم الفاضل

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ(١) قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا(٢) ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا(٣) ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ(٤) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

هدى من الآيات:

ماذا فعل ذو القرنين شكرا لنعمة السلطة والقوة التي وهبها ربه له؟ وماذا كان موقفه من هذه الزينة الحياتية؟ وماذا ينبغي أن يكون عليه موقف المؤمنين الصالحين من زينة الحياة الدنيا؟

كل ذلك مما تذكره هذه الآيات الكريمة، في سلسلة أحاديث القرآن في سورة الكهف، عن علاقة الإنسان بالطبيعة، لقد بنى ذو القرنين سداً منيعاً لا يخترق لقوم لا تربطه بهم علاقة إلا علاقة الخدمة الإنسانية، ورفض أن يأخذ منهم أجرا أو يطالبهم بشكر، إنما هو الذي شكر ربه الذي وهب له هذه القدرة.

ولقد شكر ذو القرنين ربه مرتين، مرة حينما استخدم القدرة في سبيل منفعة الناس ومرة

(١) الصدفين: جانبي الجبلين.
(٢) قطراً: نحاساً مذاباً.
(٣) نقباً: خرقاً وثقباً.
(٤) دكاء: أرضاً مستوية.

حينما استخدم عمله وسيلة لهدايتهم، وكشف للناس أن هذه القوة مما وهبه الله له من فضله وعرف بأن حاجة الناس إلى الرسالة والهداية أعظم من حاجتهم إلى قوته وسلطته، فاستخدم تلك اللحظة التي شعر فيها أولئك الذين كانوا يتعرضون لهجوم مرعب كل عام مرتين بالأمن والراحة عندما رأوا أن الله قد أنقذهم على يديه، استغلَّ ذو القرنين تلك اللحظة في سبيل توجيه الناس وهدايتهم، وهذا منتهى ما يستطيع أن يقوم به صاحب سلطان أو صاحب قوة، فهو حين يعطي ماله -مثلاً- فيشبع جوعة مسكين أو يغني فقيراً، أو يؤوي يتيماً، لا يكتفي بذلك، وإنما يبدأ بهداية ذلك الفرد، فيقول: هذا المال ليس لي، وإنما هو لك، وإنه فضل من ربي، إنّ الله قد يعطيك خيراً من هذا المال، وهكذا يتحدث إليه فيفيده بحديثه أكثر مما يفيده بماله.

هذا هو الموقف السليم الذي يجب أن يتحلى به المؤمنون، فيشكرون ما أعطاهم الله عليهم من فضله ويبنون علاقتهم بالآخرين على هذا الأساس.

وهناك درس آخر نستفيده من الآيات وهو: موقف الناس من صاحب السلطة، وأنه مهما كان عليه ذو القرنين من سلطة كبيرة وعظيمة، فإن هذه السلطة من الله وبالله وإلى الله، ويوم القيامة يحشر الناس إلى ربهم لا إلى سلاطينهم أو أغنيائهم، وكل الناس في يوم القيامة سوف يختلطون ببعضهم ويموج بعضهم في بعض، من دون أن يعرف هذا سيد وهذا مسود، وهذا كبير وهذا صغير -بل يكونون كالنحل الذي يدخل بعضه في بعض عند الخلية من دون أن تكون هناك ميزة لواحدة دون أخرى- لا لكبير على صغير، ولا لرجل على أنثى، ولا لشيخ على شاب، لأنَّ الناس سيقفون على صعيد واحد عندما يحشرون إلى ربهم، إذن فلتسقط هذه الاعتبارات الذاتية، وليرتفع الإنسان إلى مستوى القيم.

بينات من الآيات:

بناء السد

[٩٦] ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي وفروا لي قطع الحديد، والزبر هي القطع المجتمعة من شيء، سواءاً كان مادياً كالحديد أو معنوياً كالفكر، فالكتاب السماوي يسمى زبوراً لان فيه أفكار مجتمعة إلى بعضها، وكذلك الحديد الذي يجتمع إلى بعضه يسمى أيضا زبراً.

وبعد أن طلب أهالي البلاد من ذي القرنين أن يساعدهم في محنتهم، جمعهم ذو القرنين ونظم قواهم، وطلب منهم أن يجمعوا قطع الحديد التي كانت متوفرة في بلادهم، ثم أمرهم

بأن ينفخوا في النار حول هذه القطع الحديدية، فأشعلوا النار وأخذوا ينفخون فيها كما ينفخ أصحاب صناعة الحديد قديماً في النار بطريقتهم الخاصة.

﴿قَالَ انفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ التهب الحديد من شدة النار وهكذا التحمت القطع الحديدة ببعضها، ولم يكتف بذلك بل ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ ثم طالبهم بأن يأتوا إليه بالنحاس المذاب، ثم يصبونه على القطع الحديدية المحماة، ثم يتركونها مدة حتى تبرد، فإذا بسد عظيم بين الجبلين مبني من قطع الحديد المتلاصقة ببعضها، وعليها النحاس.. يزيده قوة لأنَّ الحديد تتضاعف قوته مع النحاس كما يقول أصحاب الفن، يسد الخلل بين قطع الحديد. ويمنع عنه الصدأ.

وإذا كان هذا السد هو الموجود حالياً في منطقة القوقاز فإن سلسلة الجبال التي تشكل حاجزاً طبيعياً بين مناطق المغول ومنطقة القوقاز تكون قد اكتملت بهذا السد وأصبحت كحائط عظيم حيث أن مكانه هي الثغرة الوحيدة في المنطقة ولقد كان من أروع الإنجازات المعمارية في ذلك اليوم ولعلّه حتى اليوم يعتبر أقوى سد في العالم.

[٩٧] ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ كان مرتفعاً بحيث لم يستطيع يأجوج ومأجوج أن يتسلقوه، وكان متيناً بحيث لم يستطيعوا أن ينقبوا من تحته نقباً، ولعلَّ ذا القرنين كان قد حفر حفيرة كبيرة وجعل الجدار الحديدي راسخا فيها بحيث لا يمكنهم النقب أيضا على المنطقة الصخرية الصلبة.

إن كل ما قام به ذو القرنين، إعطاء الخبرة، وتنظيم قوة الناس في بناء هذا السد، فهو لم يأت بالحديد، ولا بالقطر، ولا بالقوة البشرية من بلده، كل الإمكانات كانت موجودة ومتوفرة، ومع ذلك لم يتمكن أهالي تلك البلاد من الاهتداء إلى مثل هذا العمل، أما للاختلافات الموجودة بينهم، أو لعدم تنظيم قواهم، أو لنقص في خبرتهم الحضارية، فلم يعرفوا أنه من الممكن أن يجمعوا قطع الحديد إلى بعضها، ويفرغوا عليها قطرا حتى تصبح سداً منيعاً، وهذا ما يؤكد على إن السلطة القويمة هي السلطة التي تجمع قوى الناس وتعبؤها في سبيل مصلحتهم.

إن بلاد المسلمين اليوم تفتقر إلى الصناعات الثقيلة برغم توفر كل الإمكانات لديها لإنشائها. لماذا؟ لأن ذلك يستدعي تعبئة طاقات الأمة كلها. فالسلطة يجب أن تبني المعاهد العلمية والفنية المتقدمة لإعداد العلماء والفنيين، الذين يمكنهم الاستفادة من الإمكانات البشرية، والمادية بهذه الأمور، وتوفر الخطة والمال والقوانين المنسقة من أجل بناء صناعات متقدمة ومدنية راقية، وهناك يبدأ دور التعب في السعي والكد والإبداع.

وعد الله

[٩٨] ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أظهر ذو القرنين في تلك اللحظة التي أعجب الناس فيها بعبقريته وأكبروه أيما إكبار أظهر عجزه أمام الله لكي لا يفتن الناس به إنما يعبدوا ربهم، أنه قال: إن هذا السد سد منيع وهو عمل حضاري عظيم، ولكن سيتهاوى حينما يأتي وعد الله، يوم القيامة أو يوم ظهور الحجة، أو يوم انتهاء مفعول السد تتقدم البشر حضاريات كعصرنا اليوم، أو يوم يضعف إيمان الناس الذين كانوا أمام السد، لا نعلم إنما المهم إنه في اليوم الموعود سيتهاوى السد، والأمور كلها بيد الله.

إنه وعد الله يأتي حتماً وليس في ذلك أي ريب، وعلى الناس أن لا يناموا على حرير الأمل، وإنما يكون عندهم إحساس بالخطر المستقبلي، فيعملوا كل ما في وسعهم لتفاديه.

[٩٩] ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الناس يصبحون وكأنهم النحل، أو كأنهم الطير في السماء يختلط بعضهم ببعض، وتنعدم الميزات كلها بينهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ عندما ينفخ في الصور يوم القيامة، فإن كل الناس يأتون فوراً ودون أي تلكؤ فلا أحد يرفض، ولا أحد يتكبر، ولا أحد يتكاسل، وهذا دليل عجزهم، ودليل شعورهم بالتسليم المطلق لأمر الله، والذي كان ينبغي أن يكون عندهم في الحياة الدنيا ولم يكن.

[١٠٠] ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ يرى الكافرون يومئذ طبقات جهنم ودركاتها الملتهبة، وحياتها الرهيبة كالتلال وعقاربها الضخمة كالبغال، فيمتلئون رعباً ويأساً، ويعتصرهم الندم على ما عملوه في الدنيا ولات حين مندم.

[١٠١] ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ هذا الغطاء هم الذين وضعوه على أعينهم، باتباعهم لأهوائهم وشهواتهم، وبخضوعهم للتضليل الإعلامي الكافر الذي يحاول جهده في أن يحجب أنوار الحقيقة عن أعين الناس، إلا أن ذلك الغطاء سيتمزق يوم القيامة فيرى أصحابه ما ينتظرهم من مصير أليم وعذاب مقيم.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لقد أغمضوا عيونهم، وجعلوا بينهم وبين رؤية الذكر غطاءً من كبريائهم وغفلتهم وعنادهم كما جعلوا في آذانهم وقراً، وذلك الوقر هو الآخر نابع من كبريائهم وغطرستهم وتعاليهم الكاذب.

جزاء المشركين

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا(1) (١٠٢) قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا(2) (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا(3) (١٠٨) قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا(4) (١٠٩) قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا (١١٠)﴾.

هدى من الآيات:

عادة ما تكون بدايات السور القرآنية ونهاياتها تلخيصاً لموضوعها الرئيسي، وإلقاء للضوء على مجمل الأفكار التي بحثت في آياتها.

وفي نهاية سورة الكهف التي حدّثتنا عن سلسلتين متوازيتين ومرتبطتين مع بعضها من الأفكار، وهما الحديث عن موقف الإنسان من الطبيعة وزينة الحياة الدنيا، والحديث عن العلم

(١) نزلًا: النزول هو ما يهيء للضيف.
(٢) وزناً: قيمته واعتباره.
(٣) حولًا: تحولًا وانتقالًا.
(٤) مدداً: الامداد المساعدة.

والذكر وكيفية الحصول عليها، نجد تلخيصاً لهذين المبحثين.

الدرس الأخير يحدّثنا عن أولئك الذين يتخذون عباد الله من دونه أولياء ولعلّ مناسبة الحديث ذكر قصة ذي القرنين صاحب السلطة الشاملة الذي لم يكن سوى عبد صالح. ولم يكن لأحد أن يعبده من دون الله وهكذا تخوف آيات هذا الدرس من يعبدون البشر، وتحذرهم بأن جهنم هي مصيرهم المحتوم، ثم تشير إلى جذر هذه المشكلة وهي التبرير والخداع الذاتي، حيث يعتبر ذلك في الواقع من أخطر الأمراض الفكرية التي تواجه البشر.

إن المصاب بهذا الداء يعتقد أن ما يعمله صالح، بينما هو في جوهره فاسد، وهكذا تصبح كل تطلعاته الخيرة وراء ذلك العمل، وتصبح وقودا للسير الحثيث في الطريق الخطأ، فلا يصل إلى شيء من أهداف، بل يجد كل الخسارة في انتظاره.

وهذا الداء لا يصاب به الإنسان إلا في المراحل المتقدمة من ضلالته، ففي البداية تظل النفس اللوامة تحذّره من الانحراف ونتائجه الوخيمة، ويظل ضميره يوبخه، كما أن عقله يظل يضيء له شيئا من الطريق الصواب، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يجد من ينصحه ويعظه ويبين له الحقائق، لهذا يبقى له أمل بأن يقوم ما أعوج من أمره.

ولكنه إذا استمر وعاند، فآنئذ يسلب الله منه ضميره وعقله، ويجعل على بصره غشاوة وفي سمعه وقراً، ويختم على قلبه، وينفض الناصحون من حوله، ليحل محلهم من يزين له السوء ويشجعه عليه، فينتهي به الأمر إلى أن يكون شيطاناً مريداً.

ثم يبين القرآن حقيقة هامة هي: إن ما يحسبه الإنسان ذا شأن خطير في حياته الدنيا، من مال، وبنين، وجاه، وسلطة وما أشبه هو عند الله تافه إلا إذا سار في طريقه المستقيم.

وفور ما يحدّثنا القرآن عن ضلالة الإنسان في الحياة الدنيا، يذكر لنا هذه الشهوات التي تحجب قلب الإنسان وتوقعه في وهدة الضلالة، وتكون السبب في وصوله إلى ذلك الدرك الأسفل، حيث يعمل شراً ويحسب أنه عمل صالحاً.

ثم يعرج القرآن إلى الجانب الآخر حيث المؤمنون الصالحون يسكنون الفردوس وهي أعالي الجنان، وحينما يدخل الإنسان ذلك المكان يجد أنه قد خلق له، فلا يجد في نفسه طمعاً ولا طموحاً ولا تطلعاً آخر، لأن جنة الفردوس هي في مستوى طموحاته وتطلعاته، ذلك الإنسان الذي لا يرضيه شيء في الدنيا، والذي إذا حصل على القارات السبع فانه يريد أن يصعد إلى النجوم ويحصل عليها، وعندما يرى الجنة يقول حقاً: كفاني ولا أريد عنها انتقالاً.

وبالمقارنة بين هاتين الصورتين، صورة الإنسان الذي تتحقق طموحاته كلها في الآخرة وصورة الإنسان الذي يعيش في الدرك الأسفل. هناك، وهو يحسب أنه كان يحسن صنعاً في الدنيا نتوصل إلى معرفة الفرق بين طريق الحق (وهذه نهايته) وطريق الضلال (وتلك عاقبته).

هذه الحقائق هي من كلمات الله التي لا تنفد، وهي المعارف والهدى والتوجيهات التي هي انعكاس عن سنن الله في خلقه للطبيعة والإنسان، ولذلك على الإنسان أن لا يغترّ بعلمه المحدود ويعتقد أنه قد فهم كل شيء، فهذا الغرور هو الذي يسبب اعتقاده بأنه على الصراط المستقيم، بينما الحقيقة عكس ذلك تماماً.

وتنتهي هذه السورة بتلخيص فكرة الاستفادة من فيض هذه الكلمات التي لا تنفد ولو كان البحر مداداً لكتابتها، وهي عبادة الإنسان لله، وإخلاص طاعته له، والعمل برجاء لقائه.

بينات من الآيات:

[١٠٢] ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إن أكثر الكفر لا يكون بإنكار وجود الله ذاته، وإنما يتخذ صوراً أخرى ومن أهمها: إنكار ولاية الله وحاكميته التشريعية على البشر، فنجد كثيراً من الكفار في الأزمنة السابقة وهكذا في زماننا الحاضر يقرون بأن الله هو خالق السماوات والأرض وكل ما فيهما، ولكنهم يضعون تشريعات من عندهم لإدارة حياتهم اجتماعياً، وسياسياً، واقتصادياً، وغير ذلك بزعم أن الله لم ينزل تشريعاً سماوياً عليهم، بل تركهم في هذه الحياة سدى.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ إن زعم هؤلاء لا يقوم على حجة سليمة ولا على دليل مقنع، بل إن كل الحجج والأدلة المنطقية تناقضه وتؤيد ما هو ضده، ولذلك فإنهم بهذا يعرضون أنفسهم لسخط الرب الذي أعدّ لهم مكاناً يليق بهم وهو جهنم.

الأخسرون أعمالا

[١٠٣-١٠٤] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ قديماً حينما كانوا يريدون التأكد من جنون شخص كانوا يحضرون له برميلاً بلا قعر، ويطلبون منه أن يملأه ماء، فإن كان عاقلاً امتنع عن ذلك، وإن كان مجنوناً فإنه يشرع في العمل بجد.

والأخسرون أعمالا هم كهذا المجنون، يبذلون مساعيهم وجهودهم في الحياة ثم لا

يقبضون شيئاً، كَمَنَ يصطاد الهواء بالشبك، إنهم لا يعلمون ما هو الشيء الباقي وما هو الشيء الزائل فمثلاً يتعب الواحد منهم على أولاده، ويضع جهوده ودينه وقيمه عليهم حتى يكبروا، وما أن يبلغوا أشدهم ويعتمدوا على أنفسهم حتى يتركوا أباهم وحيداً في حسرته، وأقصى ما ينفعونه تشييعه إلى مثواه الأخير، وقراءة الفاتحة على روحه أما في القبر والمحشر وعند الميزان فلا يغني أحد عن أحد شيئاً.

وكذلك عندما يسعى الإنسان من أجل الأموال ليكرس الملايين فوق بعضها. لقد مات (فورد) صاحب شركة السيارات المعروفة في خزائن أمواله، حيث كانت عنده خزانة حديدية ضخمة مؤلفة من عدة غرف متداخلة لكل منها باب، وكان يحتفظ بذهبه ومجوهراته وأشيائه الثمينة في الغرفة المركزية، وفي يوم دخل إلى مكانه المحبب هذا ليتمتع ناظريه ويرفه قليلاً عن نفسه وكان كلما يدخل باباً يوصده من ورائه، حتى إذا دخل في غرفة السعادة أوصدها على نفسه، وقد نسي المفتاح في الخارج، وعندما شبع من النظر إلى متاع الدنيا الرخيص أراد الخروج فلم يقدر، فظل يصرخ ويصرخ، ولكن صوته لم يكن ليخترق تلك الجدران الحديدية المتراكبة فوق بعضها، فمكث عدة أيام على هذا الحال إلى أن مات.

إن هذا الإنسان الضال لم تنفعه أمواله، ولم تنقذه من الجوع والعطش في الدنيا حيث المال له قيمة، فما بالك في الآخرة حيث لا قيمة للمال إطلاقا؟!.

[١٠٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ إن السبب في وصول الإنسان إلى هذا الدرك الأسفل هو: إعراضه عن آيات الله، وعدم استعداده للقائه، وهذا هو الكفر بالمبدأ والمعاد.

وأساساً يؤمن الإنسان وجدانياً بالله، ويبحث بفطرته عن المعاد، ولكن من الصعب عمليًّا أن يصل الإنسان إلى مستوى الإيمان بالله واليوم الآخر، لذلك فهو يحتاج إلى مزيد من الإرادة والعزم ليصعد على هذه القمة فيحوّل إيمانه من إطار الفطرة والوجدان إلى إطار العمل والتطبيق.

إن نفوس الكفار أصغر، وعزائمهم أضعف، وهممهم أتفه من أن تصل إلى حقيقة الإيمان، لذلك تجدهم ينكرون آيات الله ويكذبون بلقائه.

﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ إن أعمال الإنسان لا تحفظ إلا في إطار الإيمان بالله واليوم الآخر، كما يحفظ الماء في البرميل السليم. أما وضع أعماله في أي ظرف آخر فسوف تكون كالماء الموضوع في برميل لا قعر له.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ برغم أنهم كانوا في الدنيا أثرياء وأصحاب سلطة وجاه، وكان لهم وزن عند كثير من الناس، إلا أنهم يوم القيامة يأتون وليس لهم أي وزن ولا كرامة من عند الله، وسوف يكونون أذل الناس وأحقرهم هناك.

[١٠٦] ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ إن الإنسان عندما يلجأ إلى الهزء والسخرية في مقابل الحقيقة ومن يحملها، فإنه يكون في أقصى درجات العناد، والانغلاق على النفس، وقساوة القلب، إن له الحق في أن يتشكك في بادئ الأمر، ويطالب بالدليل، ويجادل بالعقل إلى أن يقتنع ويطمئن، أما أن يواجه الرسول والرسالة بالإستهزاء، فهذا دليل على أنه لا يريد اتباع الحق أساساً، فيا ترى أي مكان يليق بمثل هذا غير جهنم؟!.

جزاء المؤمنين

[١٠٧-١٠٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ يجب على الإنسان أن يكتشف أعماق ذاته ويتساءل: لماذا خلقت؟ وما الذي أطمح إليه؟ إنه في محاسبة رياضية بسيطة يستطيع أن يفهم أن هذه الدنيا وما فيها ليست كافية لاستيعاب طموحه، فمن طموح الإنسان الخلود والاستمرار في الحياة، انه لا يريد أن ينقلب إلى العدم بعد الوجود، وإذا كانت الدنيا قد خلقت لنا وخلقنا لها فلا أقل من أن نبقى خالدين فيها.

ولكن هل بقي أحد في الدنيا؟ كلهم أرادوا البقاء وكلهم ماتوا، إذن فالدنيا ليست لهم، وطموحهم هذا لن يتحقق فيها.

وبعيد عن حكمة الله ورحمته أن يخلق في كيان الإنسان رغبة لا تتحقق، أو حاجة لا تلبى، إنه عندما خلق العين خلق في مقابلها شيئاً يرى، وعندما خلق الأذن خلق في مقابلها شيئاً يسمع، وعندما خلق الجهاز الهضمي، خلق في مقابله شيئاً يؤكل، وهكذا قل في سائر الحواس والأعضاء والغرائز، وكذلك حينما خلق طموح الخلود، والحصول على ملك لا يبلى؟ خلق وراءه حقيقة مناسبة له، فما هي تلك الحقيقة.

إنها جنة الفردوس في الدار الآخرة، وهذا هو أبسط دليل وجداني على ضرورة البعث.

كلمات اللّه

[١٠٩] ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ

﴿مَدَدًا﴾ لو تحوّل الماء الموجود فوق الكرة الأرضية إلى حبر لكتابة آيات علم الله وقدرته وحكمته، وآثار فضله ونعمته، لجف هذا البحر ولما يكتب إلا النزر اليسر منها.

ترى أنهم في مجال الفضاء فتشوا عن أحدث الوسائل الإلكترونية التي تساعدهم على رؤية النجوم والكواكب، فاكتشفوا بعض المجرات، ثم عادوا وصنعوا أجهزة أحدث فاكتشفوا مجرات جديدة، وهكذا إلى أن قال قائلهم: إن الله لا يزال يخلق، فكلما صنعنا مراصد أضخم لرؤية ما تحويه السماء، خلق الله في تلك الفترة مجرات جديدة لم تكن موجودة من قبل، ولعلّ هذا هو مصداق الآية الكريمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[الذاريات: ٤٧].

وخلق الله أسرع من صنع الأجهزة التي نرى بها هذا الخلق، فكيف تنتهي كلمات الله؟.

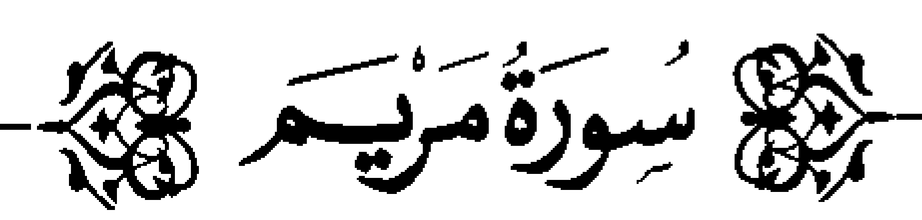
هذه المجرات الواسعة في الفضاء المتناهية في الضخامة وتلك الذرات المتناهية في الصغر، كلما درسوها وبحثوا حولها وجدوا فيها خصائص غير مكتشفة سابقاً، وآخر خصيصة اكتشفوها في الذرة استفادوا منها في صنع القنبلة النيوترونية.

ترى كم مجلد كتبوا حولها، في طريقة صنعها، والأسرار المرتبطة بها، والمعلومات الخاصة باستعمالها؟.

هذا بالنسبة للذرة المتواضعة التي لا ترى بأقوى المجاهر وهي واحدة من كلمات الرب، إذن فكلمات الله لا تنتهي، ولهذا يجب أن يتحدد غرورك أيها الإنسان، ولا تظن أنك قد وصلت إلى نهاية الحقيقة، وإنك على الطريق الصواب، دائماً ضع علامة استفهام أمامك، وابحث عن الحقيقة ولا ترى نفسك أكبر منها أبدا.

[١١٠] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إن الرسول ليس سلطاناً ذا صولجان، ولا ثرياً ذا كنوز، إنما هو بشر مخلوق مثل الآخرين، وميزته الوحيدة أنه يوحى إليه من السماء، وهذا الوحي يتلخّص في جملة واحدة هي: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لذلك اسقطوا الأصنام في أنفسكم ومجتمعكم، واعبدوا الله وحده.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إنهما شرطان بسيطان، ولكنهما يمثلان مسؤولية الإنسان في الحياة، ويشكلان سفينة نجاته ضمن مسيرته في خضم الأمواج المتلاطمة، والأعاصير العاصفة، نحو الله الذي هو منتهى أمل العارفين، وغاية آمال الطالبين.



سورة مريم

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٩٨.

* ترتيبها النزولي: ٤٤.

* ترتيبها في المصحف: ١٩.

* نزلت بعد سورة فاطر.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ سُورَةِ مَرْيَمَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُصِيبَ مِنْهَا مَا يُغْنِيهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوُلْدِهِ وَكَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وأُعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فِي الدُّنْيَا».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١)

***

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِزَكَرِيَّا وكَذَّبَ بِهِ ويَحْيَى ومَرْيَمَ وعِيسَى ومُوسَى وهَارُونَ وإبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وإسْمَاعِيلَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ وبِعَدَدِ مَنْ دَعَا للهِ وَلَداً وبِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَدْعُ للهِ وَلَداً».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٤)

***

عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ أُعْطِيَ مِنَ الحَسَنَاتِ بِعَدَدِ مَنْ ادَّعَى للهِ وَلَداً سُبْحَانَهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ، وَبِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ زَكَرِيَّا وَعِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَعَدَدَ مَنْ كَذَّبَ بِهِمْ، وَيُبْنَى لَهُ فِي الجَنَّةِ قَصْرٌ أَوْسَعُ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فِي أَعْلَى جَنَّةِ الفِرْدَوسِ، وَيُحْشَرُ مَعَ المُتَّقِينَ فِي أَوَّلِ زُمْرَةِ السَّابِقِينَ، وَلَا يَمُوتُ حَتَّى يَسْتَغْنِي هُوَ وَوَلَدِهِ، وَيُعْطَى فِي الجَنَّةِ مِثْلَ مُلْكِ سُلَيْمَانَ عليه السلام، وَمَنْ كَتَبَهَا وَعَلَّقَهَا عَلَيْهِ لَمْ يَرَ فِي مَنَامِهِ إِلَّا خَيْراً، وَإِنْ كَتَبَهَا فِي حَائِطِ البَيْتِ مَنَعَتْ طَوَارِقَهُ، وَحَرَّمَتْ مَا فِيهِ وَإِنْ شَرِبَهَا الخَائِفُ أَمِنَ».

(تفسير البرهان: ج٣ ص٢)

الإطار العام

علاقة الإنسان بالأسرة

كان الاتجاه العام لسورة الكهف هو بحث علاقة الإنسان بزينة الحياة الدنيا، فجاءت سورة مريم لتركز الضوء على علاقة الإنسان بالأسرة والأولاد أي قضية الامتداد البشري وإطارها السليم.

وثمة ملاحظتان:

الأولى: يؤكد الإسلام على ضرورة تحديد الإنسان لعلاقته بالطبيعة في إطار علاقته الكبرى بربّه وربّها، لأن الأخرى، هي التي تحدّد أعماله وسلوكه وكيفية تكوين علاقاته. ويجب أن يضّحي بكل شيء من أجل هذه العلاقة، فهو عبد لربه يحبه ويحب من يحبه ويبغض من يبغضه. فعلاقة الإنسان بالطبيعة امتدادية وليست ذاتية، فلأن الله أمرنا أن نعمر الأرض ونبني البيت، ونكوّن العائلة، ونحب أولادنا أو نشفق عليهم. فإنا نقوم بكل ذلك في حدود أوامر الله وتوجيهاته.

ولقد جاءت سورة مريم لمعالجة هذه الحقيقة، ولذلك جاء في الحديث: «**مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ سُورَةِ مَرْيَمَ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُصِيبَ مِنْهَا مَا يُغْنِيهِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ**..»[١].

والإدمان يشير إلى العمل بهذه السورة، وتكييف حياة الإنسان وعلاقاته وفقها، ومن يفعل ذلك فإنه يرى خيراً في علاقاته وحينما يأمره الإسلام أن تكون العلاقة بالطبيعة وزينة الحياة (من أموال وبنين وما أشبه) علاقة امتدادية، في إطار العلاقة مع الله، فليس لأنه يريد للإنسان الحرمان من نعيم الدنيا وطيباتها، إنما يريد له أن يستفيد من ذلك أكبر فائدة ممكنة، لأن الله هو خالق الحياة والبشر، وهو أعلم بما يصلحهم ويعود عليهم بالخير، وبالتالي هو القادر على

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١.

أن يرسم لهم المنهج السليم في السلوك والعلاقات.

الثانية: إن هناك فرقاً بين الوصفة الطبية والدواء الذي تشتريه بموجبها، فبينما تشير هي أن الدواء فقط يقوم بملاحقة ميكروب المرض للقضاء عليه.والكتب التربوية والأخلاقية تشبه إلى حد بعيد الوصفة الطبية، بينما القرآن دواء وشفاء لأمراض السلوك البشري، فآياته تلاحق الجراثيم والأمراض النفسية في قلب الإنسان وتقضي عليها، لذلك لا يكتفي القرآن أن ينصحك بكيفية تكوين علاقاتك مع أولادك فحسب وإنما يتعمق حتى يصل إلى جذر المشكلة النفسية ويقتلعها، فيضرب الأمثال ويبين حقائق التاريخ ويحللها .

وقد سميت هذه السورة بمريم؛ لأن علاقة مريم الصديقة بابنها عيسى عليه السلام كانت علاقة فريدة ونموذجية، لا سيما وأن هذه السورة كما هو شأن الكثير من الآيات القرآنية تهدف -فيما تهدف- إلى جعل علاقة الإنسان بالحياة الدنيا علاقة سليمة.

والقرآن الحكيم يوقفنا في هذه السورة المباركة ليبيّن لنا حقيقة هامة، وهي: إن الخلاف العقائدي الذي انتشر حول النبي عيسى عليه السلام، إنما كان بسبب عدم معرفة الله سبحانه، والجهل بصفاتهوأسمائه، وبقدراته الواسعة المطلقة، وبكيفية خلقه للأشياء، وأن هذا الخلاف ينبع من ضعف الإيمان بالآخرة..

أما عند الحديث عن الأسرة؛ فيمكن القول بأن علاقات الإنسان يجب أن تكون علاقات إيمانية وسليمة مع أسرته،وهو يحتاج في هذا الإطار إلى الاقتداء بأولياء الله الصالحين، ليتخذ منهم أسوة في تصرفاته.

وفي سورة مريم يذكّرنا القرآن ببعض تلك القدوات الصالحة، كالأنبياء موسى وهارون وإسماعيل وزكريا ويحيى،ومريم وابنها عيسى عليهم السلام. كما يضرب لنا من أمثلة السوء الذين عكسوا المطلوب، وكانت علاقاتهم سيئة بالنسبة إلى أسرهم، ممن ضيعوا الصلاة، وتركوا عبادة الله، واتبعوا شهواتهم..

ولكن الأسرة الفاضلة في الدنيا هي الأسرة التي تصنع في بيتها جنة معنوية، تشبه إلى حد بعيد جنات عدن في الآخرة.ومن عاش في جنان الدنيا المعنوية، فحري به أن يعيشها في الآخرة؛ نظراً لأن الآخرة صورة مصغرة من الدنيا؛ من أعمال وتصورات وأفكار.. والقرآن الكريم حين يعرض لنا مشاهد يوم القيامة، فإنه يشير إلى تلك الحقائق التي صنعت هذه المشاهد، لكي يقرب فهم الإنسان من واقع عمله في الدنيا، وكيف يتحوّل إلى واقع حي في الآخرة.

ومن دروس هذه السور المباركة هي أن الله تعالى يريد معالجة النفس البشرية من مرض

الغرور بالمال والولد، وتبيين أن هداية الإنسان تعود إليه قبل غيره، إلا أن الله يزيده هدىً. وإنّ من أهم ما يهدي إليه الرب عبده، هو العمل للمستقبل، لأن الأعمال الصالحة هي التي تبقى خيراً عند الله.

ثم تذكّرنا الآيات الأخيرة بيوم القيامة، لخلق معادلة في أفئدتنا، لأننا إذا عرفنا بداية الشيء ونهايته، عرفناه بصورةأفضل. فإذا عرفنا إلى أين تنتهي حياتنا وما هو مصيرها، فإنه نكون قد حصلنا على المعرفة العميقة والمطلوبة، فنتعامل معها معاملة سليمة.

فهب لي من لدنك وليا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ[1] ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا[2] فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا[3] (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾.

هدى من الآيات:

الدعاء رحمة متصلة وحبل ممدود بين العبد والرب، وحين يكون العبد المختار للنبوة مثل زكريا هو الداعي فانه يكون أقرب إلى الإجابة. وهكذا جاءت كلمات ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ المقطعة التي لعلها كانت محتوى دعاء زكريا عليه السلام ربه سبحانه وكانت دعوته بنداء خفي (الضراعة)،

---

(١) وهن: الوهن هو الضعف ونقصان القوة.

(٢) عاقراً: لا تلد.

(٣) عتياً: إذا غيّره طول الزمان إلى حال اليبس والجفاف.

وكان فيها بيان الحاجة الملحة التي هي الأخرى تدل على مدى الالتجاء إلى كهف الدعاء.

ولقد اشتعل رأسه شيبا؛ وهكذا كان بحاجة إلى من يرث الرسالة التي ولِهَ بها حباً. ولكن دعاء العارف الشاكر إنما هو بعد الثناء على الله سبحانه؛ وكيف أنه تعالى قد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فلم يكن بدعائه شقيا بعدئذ دعا ربه..

وهكذا توافرت شروط كثيرة للاستجابة؛ وهي عبرة هنا لنا كيف ندعو ربنا بحيث يكون اقرب إلى الإجابة.

بينات من الآيات:

دعاء زكريا عليه السلام

[١] ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اختلف المفسرون في هذه الحروف وما ترمز إليه، وربما كانت إشارة إلى الألفاظ التي تدل على الذكر أو الحديث الذي كان زكريا عليه السلام يناجي به ربه، وجاء في حديث أن هذه الكلمات رموز إلى أسماء الله الحسنى، فقد روى سفيان بن سعيد الثوري عن الإمام الصادق عليه السلام -حديثا مفصلا جاء فيه-: «﴿كٓهيعٓصٓ﴾: **مَعْنَاهُ أَنَا الْكَافِي الْهَادِي الْوَلِيُّ الْعَالِمُ الصَّادِقُ الْوَعْدِ**»[1].

[٢] ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ بين الإنسان وربه خطّان:

١- خط صاعد: هو: الدعاء.

٢- خط نازل: هو: الوحي السماوي.

وحسب ما أتصوره فإن هذه الآية تشير إلى كلا الخطّين، فمن جهة ذكر الله لعبده عن طريق الوحي أو الكتاب السماوي، ومن جهة ثانية ذكر زكريا ربه طالباً رحمته عن طريق الدعاء، وقد قال المفسرون في معنى هذه الجملة: «اذكر كيف رحم الله عبده زكريا» وبتعبير آخر: هذا ذكر عن رحمة الله لعبده زكريا.

[٣] ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ في غمرة الأحداث الرسالية، والصراعات المبدئية، لم ينس أن له شعوراً آخر هو الشعور الإنساني، وأنّ له رغبة أخرى هي رغبته في الامتداد عبر الأولاد، يحملون رسالته من بعده، فقد كبت هذا الشعور طويلاً، وحينما أظهره كان خفياً، ربّما لسببين:

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٣٧٣.

الأول: حذراً من ألسنة الناس، فقد كان رجلاً مسناً، وكانت امرأته عجوزا عاقراً.

الثاني: إن من شأن العبد الصالح أن لا يرى لنفسه حقاً على الله، بل يؤمن بأن كل ما يعطيه الرب فهو تفضّل منه وإحسان.

[٤] ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ عندما يشيخ الإنسان فإنَّ عظامه تصبح متراخية هشة ويشعر بالضعف الداخلي.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أي تحول إلى البياض، والتعبير بكلمة «اشتعل» تعبير بلاغي يلفت النظر إلى المشاق والصعوبات التي لاقاها في عمره الطويل، كما توحي أيضاً بسرعة الشيب في رأسه.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أي لم أكن شقياً بسبب دعائك، فكلما طلبت منك حاجة أجبتها لي، وهذا الأسلوب يمثل غاية التأدب في التوجه بالدعاء إلى الله سبحانه.

شروط الوراثة

[٥] ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ والموالي هو أولاد العم والخال والأقارب البعيدون، ويبدو أنهم لم يكونوا موضع رضى زكريا؛ لفسقهم أو ضعف إيمانهم ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾.

[٦] ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ لم يكن أحد من موالي النبي زكريا عليه السلام أهلاً لوراثته، لذلك طلب من الله سبحانه وتعالى أن يرزقه ولياً تكون فيه هذه الصفات الثلاث:

١- أن يرث ماله وعلمه ظاهراً وواقعاً.
٢- أن يرث عائلته، فبعض خصائص الفرد شخصية، بينما بعضها الآخر مرتبط بالعائلة التي تمثل خطاً معيناً في الحياة.
٣- أن يكون مرضياً عند الله وعند الناس.

وهذه هي الصفات التي ينبغي أن تكون في الوارث، وزكريا لم يقل ولداً بل قال ولياً، وهذا طلب عام، فليس المهم الولد بل المهم أن يكون الوارث امتداداً للموروث حتى لو كان من غير ولده.

[٧] ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ سوف

نرزقك ولداً، يحمل مواصفاتك، ورسالتك، وسوف يقوم بعمل جديد لم يسبقه إليه أحد، وهذا منتهى رغبة الإنسان في الولد: أن يكون وارثاً له ومكّملاً لخطه، فإذا قام بعمل إسلامي ولم ينتصر فيه، فإن ابنه يواصل هذا العمل، بنفس الاندفاع والحماس الذي كان عنده حتى يكتب له النصر، وكان زكريا وارث أموال كثيرة عبر زوجته التي كانت من نسل النبي سليمان (الذي وهب له الله ملكاً عظيماً، ولم يكن له مثيل)، وكان يخشى على هذه الأموال أن تصرف في أي طريق غير طريق الله، وكان في ذات الوقت الحبر الأعظم، وخشي أن يرثه في هذا المقام الديني واحد من أولاد عمه غير اللائقين بمقام قيادة الأمة.

وقد استجاب الله له دعاءه، وآتاه من لدنه فضلاً حيث رزقه يحيى. ذلك الولي الذي ليس فقط ورث أمجاد الماضي التليد، بل ويفتح عهداً جديداً حافلاً بالمكرمات، إذ لم يجعل الله له سمياً، ولعل في الآية إشارة إلى أمرين:

أولاً: إن يحيى عليه السلام سوف يحقق المزيد من الإنجازات، لا توجد في التاريخ الرسالي السابق له، بلى؛ إن يحيى قاوم السلطات الجائرة التي استولت على قيادة النصارى، وضحى بنفسه في هذا السبيل، وكان مثله بين أتباع عيسى عليه السلام مثل الإمام الحسين عليه السلام في أمة جده محمد صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إن على الإنسان أن يتطلع إلى ولد يرث الماضي، ويصنع المستقبل كما يحيى عليه السلام.

[٨] ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ كيف يكون لي ولد، بينما الشروط الطبيعية اللازمة غير متوفرة، فامرأتي عاقر لا تلد أساساً، وأنا عجوز قد تجاوزت مرحلة الفتوة والشباب كثيرا؟!.

[٩] ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ ﴾ فالله عز وجل الذي خلق الكون كما خلق القوانين الطبيعية الحاكمة فيه، وهو قادر على تغييرها حين يشاء بلا صعوبة.

﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴾ حينما يفكر الإنسان في نفسه: كيف خلقه الله وأوجده من العدم؟! فإنه يدرك أن الله على كل شيء قدير، وبالتالي يتلاشى تعجبه من بعض الظواهر الغريبة غير المألوفة.فلما سكن روع زكريا، واطمأنت نفسه قال: آمنت بك، ولكن كيف أواجه الناس إذا قالوا: من أين أتت هذه الأسرة العجوز بهذا الولد؟!.

حكمة الاعتزال

[١٠] ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾ عادةً ما تكون الآية وجودية كناقة صالح، وعصا موسى، أما أن يعتزل الناس ولا يتكلم معهم

فهذه آية غريبة..

لقد فكرت بهذا الموضوع ووصلت إلى هذه النتيجة وهي: أن السكوت والصمت في بعض الأحوال يكون أبلغ أثراً من أي كتاب أو كلام لسببين:

١- لأن هذا السكوت يجعل صاحب القضية غير عابئ بما يقول السفهاء عنه، وصامداً أمام محاولات التشكيك من قبل الأعداء.

٢- ولأنه يجعل الناس يعودون إلى أفكارهم، ويتحملون مسؤوليتها، فليس بالضرورة أن يتكلم الداعية ويهدي الناس بلسانه دائماً، بل يلزم عليه أحياناً أن يدعهم بدورهم يفكرون، وإذا فكروا فإنهم كثيراً ما يصلون إلى الحقيقة، لذلك بعد الثلاثة أيام استغّل زكريا عليه السلام الموقف، وأخذ يتحدث مع الناس في مواضيع أخرى غير قضية ولادة يحيى عليه السلام وما يحيط بها من ملابسات كانت تستغرق منه وقتا طويلاً لتبيينها للناس.

وهكذا فإن العمل في سبيل الله يتطلب تجاوز الجدال في القضايا الشخصية إلى معالجة القضايا العامة، ونشر القيم الرسالية، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الفكرة فيقول:

[١١] ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ كانت الفترة التي اعتزل الناس فيها، واعتكف في المحراب يعبد الله ولا يتكلم مع أحد، كافية لكي يفكر الناس، ويتأملوا، وبالتالي ينتبهوا إلى موضوع طالما يغفل الإنسان عنه في غمرة أحداث الحياة وشؤونها، وهو قدرة الله التي تدبر الكون، وتدبر أمور العباد، ولذلك وجد زكريا عليه السلام الأرضية مهيأة لأن يدعوهم إلى الالتزام بحكم الله وشريعته، وهذا هو معنى التسبيح العملي.

يحيى مثل الوريث الصالح

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ[1] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا[2] ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

هدى من الآيات:

في إطار الحديث عن الإنسان من بنيه، تحدثت الآيات الأولى من سورة مريم عن زكريا، ذلك الشيخ الطاعن في السن، والذي ظلت في قلبه رغبة كامنة بثها لربه، فوهب له الله تعالى يحيى عليه السلام.

وها هي الآيات القرآنية تبيّن لنا صفات يحيى، ومن خلال صفاته يتبيّن لنا كيف ينبغي أن يكون الولد، وكيف ينبغي أن يتطلع الوالد إلى ولده فيما يرتبط به، وفيما يرتبط بالمجتمع.

وهناك وجه آخر لهذه العلاقة وهي علاقة الأم بابنها حيث يبينها السياق من خلال قصة

---

(١) انتبذت: أصله الطرح وهي بمعنى تنحت ناحية وجلست.
(٢) بغياً: زانية.

مريم، تلك الوالدة الرسالية التي وهب الله لها غلاماً زكياً، وكانت مثلاً، وقدوة، وأسوة لكل الوالدات.

ومن خلال العرض القرآني لصفات يحيى وقصة مريم، تتبين لنا عدة أمور:

الأمر الأول: إن التربية المثالية التي يتوجب على الوالد أن يقوم بها تجاه ابنه ينبغي أن تسير في عدة خطوط:

١- أن يتطلع الوالد إلى أن يكون ابنه امتداداً له، ومجسداً للميزات التي تتصف بها عائلته، فالإنسان وريث حضارة قد تعب من أجلها الآخرون، وقد تراكمت التجارب البشرية حتى تحوَّلت إلى حضارة ورثها الفرد، كما أن تجاربه هو، ومكاسبه، وخبراته، قد تجمَّعت هي الأخرى، وتراكمت عنده وتحولت إلى قواعد سلوكية، وقيم إنسانية، وعمرانية، كل ذلك يتجمع عند الإنسان، وعليه أن يسلمها إلى الجيل الثاني، وهذه هي مسؤولية الإنسان كما هي رغبته الفطرية، وأن رغبة الإنسان الفطرية تتلخص في كلمة وهي: أنه يريد أن يرى إذا أغمض عينيه، ورحل عن الحياة، من يتابع مسيرته، ويجسد قيمه، ويحتفظ بخبراته ومكاسبه.

٢- ينبغي أن يكون الوالد عالماً، بأن الجيل القادم سوف لا يكون بالضبط مثل جيله، بل سيكون جيلاً له خبراته، وعليه مسؤولياته، وله ظروفه الخاصة، وبالتالي ينبغي أن تتوجه تربيته لابنه باتجاه بناء الجيل القادم، حسب ظروف ومتغيرات ومسؤوليات ذلك الجيل، ليعيش أبناؤه لمبادئهم المتطورة كما يعيشون ماضيهم التليد، ولكي لا يكون لهم بعد واحد هو تكرار الماضي، واجترار ما فيه، بل يكون لديهم بعد آخر هو بناء الحاضر والتطلع للمستقبل.

٣- أن يربي الإنسان أبناءه على الارتباط بالماضي، وعدم الانفصال عنه، وأحد نتائج ذلك هو: أن الأب عندما تقعد به السنون عن العمل، ويصبح جليس البيت، فإنّ ابنه لا يتركه وحده، بل يحن إليه، ويكون باراً به.

وهكذا فإن الصفات التي تتكون عند الأبناء هي: أن يكونوا امتداداً للحضارة التليدة وحماة لها، بل يكونوا بناة لحضارة جديدة، وهذه الصفات الثلاث تجسدت في يحيى عليه السلام.

الأمر الثاني: إن القرآن الحكيم يضرب لنا أمثلة مثيرة، تتجسد فيها نوعية خاصة من طبيعة ذلك الموضوع الذي يريد أن يبينه.

فإذا أراد أن يضرب مثلاً لعلاقة الأب بابنه، فإنه لا يأتي بأي أب وأي ابن، أو يضرب لنا من واقعها مثلاً، كلا.. فذلك لا يثير الإنسان، بل يبيّن قصة تأريخية، ذات نوعية فريدة ويضربها مثلاً، لا لكي تبقى في الذاكرة فقط، وإنما أيضاً لأن ذلك المثل يبقى مثالاً بارزاً كالشمس لا يحتاج الإنسان للبحث عنها، وفي هذا المورد يذكر لنا القرآن قصة يوسف ووالده يعقوب، وإذا أراد أن يضرب لنا مثلاً عن تطلعات الأب تجاه ابنه، وصفات الابن تجاه هذه التطلعات، فإنه يضرب مثلاً من قصة زكريا مع ابنه يحيى، وإذا أراد أن يضرب لنا مثلاً عن علاقة الأم بابنها، فإنه لا يبحث عن أي أم في العالم، وإنما يضرب المثل من قصة مريم الصديقة التي كانت متحررة من الدنيا، ولكن الله سبحانه لم يشأ لها أن تبقى هكذا متحررة فأراد أن يبتليها بالابن، وهذه هي سنة الحياة.لقد شاء أن يقول لها: عليك أن تتحملي مسؤوليتك كأم، إلى جنب مسؤولياتك كمربية، وهادية للناس، أو متعبدة وزاهدة في المسجد، وهكذا بين القرآن الحكيم الحالات النفسية، والحالات المادية الصعبة التي يجب أن تجتازها الأم وتبقى صامدة، وهل هناك حالة أصعب من فتاة عمرها عشر سنوات، لم تتزوج، ولم تر بشراً، حملت فهجرت بيتها، وتركت أهلها إلى الصحراء، فجاءها المخاض إلى جذع النخلة، وهي لا تعرف ماذا تصنع؟! .

فلتكن هذه المرأة مثلاً لكل النساء لكيلا يتهربن من مسؤوليات الأمومة التي هي مسؤولية الحياة الطبيعية، بل ينتظرن العاقبة، تلك العاقبة.التي انتظرتها مريم ورأت كما رأى الناس كيف كانت حسنة وخيراً ورحمة.

الأمر الثالث: الجمع بين رسالية الإنسان وطبيعته، فلكي تكون رسالياً ليس من الضروري أن تترك طبيعتك، ومسؤوليتك الاجتماعية في الحياة، بل يمكن أن تكون رسالياً، وفي نفس الوقت أباً أو ابناً أو أمّاً، وتحتفظ بكل المسؤوليات الاجتماعية التي يقوم بها أي فرد عادي.

بينات من الآيات:

وآتيناه الحكم صبياً

[١٢] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ولد يحيى وأعطاه الله الرسالة، وأمره بأن يجعل كل حياته، وجماع عزمه، وشدة بأسه في الالتزام بتبليغ هذه الرسالة؛ فقد يأخذ الإنسان شيئاً وهو غير مطمئن إلى طبيعته أو نتيجته، بينما يبحث فرد آخر عن نفس الشيء، ويأخذه بقوة وهو مطمئن به مصمم على الدفاع عنه، وهكذا أمر الله يحيى بأن يأخذ

الرسالة، ولعله لذلك بقي يحيى حصوراً، فلم يتزوج، شأنه شأن عيسى عليه السلام بل أعطى كل حياته للرسالة الإلهية، متحدياً الحالة المادية التي طغت على بني إسرائيل ذلك اليوم وانغماسهم في الشهوات العاجلة.

ونتساءل: لماذا أعطى الله يحيى الحكم صبياً؟.

والجواب:

أولاً: إكراماً لوالده العظيم ولكي يكون آية لبني إسرائيل، وللناس جميعاً، ولأنه جاء ليصحح مسيرة الأمة بعد انحرافها، وقد استشهد في سبيل الله، وكان من الطبيعي أن يكثر الطغاة الدعايات المضللة حوله، فأعطاه الله آية لصدقه.

ثانياً: لأنه منذ نعومة أظفاره كان في مستوى تلقي الوحي، فقد جاء في حديث مأثور عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «**أَنَّهُ كَانَ صَبِيّاً فَقَالَ لَهُ الصِّبْيَانُ: هَلُمَّ نَلْعَبْ. فَقَالَ: أَوَّهْ وَالله مَا لِلَّعِبِ خُلِقْنَا**.. فأنزل الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾»[1].

حينما طلب زكريا من الله سبحانه وتعالى أن يرزقه ولياً فإن أقصى ما كان يأمله هو أن يكون إنساناً رسالياً، ولكن الله تفضل عليه، وفضله على الآخرين، فأعطاه ولداً يحمل مسؤولية الرسالة، وجعله إماماً للناس. ولما يزل صبياً.

وهكذا فلنعلم بأننا إذا أخلصنا لربنا، ودعوناه دعاء خفياً، متضرعين إليه، آنئذ لا يستجيب الله لنا دعاءنا فقط بل ويعطينا أكثر مما كنا نأمل.

وكان تقياً

[١٣] ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ هذه هي الصفات النفسية التي كانت عند يحيى عليه السلام:

الصفة الأولى: هي أنه كان يحن على الناس، إننا نجد أن أكثر الناس يعيشون لأنفسهم، وقليل أولئك الذين يعيشون للناس جميعاً، بعيدين عن السجن المحيط بذواتهم، وهذه هي الصفة الاجتماعية المثلى التي يجب أن يتحلى بها الابن، وعلى الوالد أن يربي ابنه على الروح الجماعية، فلا يقل له: لا تخرج مع أولاد الجيران لأنهم يضربونك، أو لا تدعهم يرون هذا المتاع عندك لئلاً يطلبونه منك، فهذا مثل للتربية الخاطئة، بل على العكس من ذلك إذا أعطيت لابنك

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص١٨٥.

درهماً قل له: إذا اشتريت شيئاً تقاسمه مع زملائك، فيجب أن تربي ابنك منذ نعومة أظفاره على أن يَحُنَّ على الناس، ويرى نفسه مسؤولة عن الآخرين.

وينبغي أن يكون هذا الحنان في إطار توحيد الله سبحانه، فقد يكون للحنان جانب سلبي، وهو أن يحن الإنسان على الآخرين فيخضع لهم، ويخرج عن حدود الله، وهذا خطأ، إنما يجب عليه أن يحن عليهم، ويخضع لله، وهكذا كان يحيى، ولعل الآية تشير إلى ذلك.

الصفة الثانية: التقوى. والأحاديث كثيرة عن تقوى يحيى عليه السلام وكيف كان يخاف الله ويخشاه، يقال: بأن زكريا كان يمنع ابنه يحيى من أن يحضر مجالسه لأنه لم يكن يحتمل مواعظ والده، ولكن يحيى جاء واختبأ تحت المنبر، فصعد زكريا وأخذ يخوف الناس نار جهنم، وإذا به يجد يحيى يخرج من تحت المنبر باكياً، ويهيم على وجهه في الصحراء، فأخذ الناس يبحثون عنه في كل مكان، فلم يجدوه إلا بعد فترة جالساً على ماء، يبكي بكاءً مراً، ويناجي ربه، ويدعوه أن ينجيه من نار جهنم، وقد ورد في حديث شريف، فِي رِوَايَةٍ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ وحَناناً مِنْ لَدُنَّا قَالَ: **«إِنْ كَانَ يَحْيَى إِذَا دَعَا فَقَالَ فِي دُعَائِهِ يَا رَبِّ يَا الله نَادَاهُ الله مِنَ السَّمَاءِ لَبَّيْكَ يَا يَحْيَى سَلْ حَاجَتَكَ»**[1].

[١٤] الصفة الثالثة:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ إنه كان يحسن معاملة والديه، ويعتني بهما. ويبدو أن هذه الصفات الثلاث التي وردت في الآية وهي: الحنان، والتقوى، والبر، تنبع جميعاً من صفة واحدة وهي: العلاقة الإيجابية مع أبيه وأمه ومجتمعه.

إن الولد المشاكس يسميه القرآن جباراً، والجبار هو الذي يعيش لنفسه فقط، وحسب أهوائه، ويتصرّف حسب بغضه وحبه، ويرى نفسه أعلى من الآخرين، ولكن يحيى لم يكن جباراً، ولم يكن عصياً، أي لم يكن يهدف العصيان والتمرد على والديه أو على الناس.

[١٥] ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ إن من الأمور التي كان قد طلبها زكريا هي أنه قال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، وفي هذه الآية نرى استجابة الله تعالى لهذا الطلب، فقد عاش يحيى سالماً، ومعه السلام، فالمجتمع أحبه، والله أحبه، وفي المستقبل -بعد موته- سوف يحبه الناس.

إن يحيى قد استشهد في سبيل الله، ولكن الشهادة في نظر الإسلام تعتبر سلاماً بالنسبة

---

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص٨٦.

إلى المؤمن، فالإنسان إذا كان يجب أن يموت ولابد! فلتكن ميتته الشهادة، ليحصل على السلام الذي يعني النجاة والخير، بلى إن للإنسان ثلاثة مواقع صعبة، عليه أن يمر بها: يوم يولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً، وإذا كان في هذه الأيام الثلاثة محاطاً من قبل الله بالسلام فإنه سعيد حقاً، جاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ وَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى أَحْكَاماً لَمْ يَرَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا وَقَدْ سَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى يَحْيَى عليه السلام فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَوَاطِنِ وَآمَنَ رَوْعَتَهُ فَقَالَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وَقَدْ سَلَّمَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام عَلَى نَفْسِهِ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْمَوَاطِنِ فَقَالَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾»[1].

وكان امراً مقضياً

[١٦] ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ تلك كانت قصة يحيى وأبيه عليهما السلام، وبعدها يبدأ ربنا سبحانه في سرد قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام حيث جلست مريم في مكان شرقي، في الغرفة التي بنيت في شرق بيت المقدس، ولعلّ معنى ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ تنحت عنهم، تواضعاً لله، وجلست مكاناً لا يتردد عليه أحد، كما أن اختيارها للجانب الشرقي ربما كان لأنه الأقرب إلى الطهارة لشروق الشمس عليه.

[١٧] ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي جعلت حجاباً بينهم وبين نفسها لكي تتفرغ لعبادتها بإخلاص دون أن يشغلها أحد، ولعلّ الآية توحي بأن صلاة المرأة في المخدع أفضل من غيره، وجاء في الحديث: قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «خَيْرُ مَسَاجِدِ نِسَائِكُمُ الْبُيُوتُ»[2].

﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ هنا ارتاعت مريم الصديقة الطاهرة فلأول مرة في حياتها ترى بشراً سويا يأتيها، ولم تعرف لماذا أتى؟ وما هو هدفه؟ خصوصاً وأنها قد احتجبت عنه، ومجرد دخوله عليها من دون إذنها كان أمراً عجيباً.

وتمثل الروح هو ظهوره في هيئة معينة، والهيئة التي أرادها الله لروحه كانت على هيئة بشر سوي، متكامل، لعله لامتحان مريم الصديقة العذراء، باعتبار أن البشر السوي أكثر إثارة لغرائز المرأة.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١ ص٢٥٧.
(٢) وسائل الشيعة: ج٥ ص٢٣٧.

[١٨] ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ كانت شجاعة، وكانت مؤمنة، وعرفت كيف تتعامل في الموقف الصعب، فتوجهت إلى ذلك الرجل قائلة: إني أعوذ بالرحمن منك لو كنت تقياً، فحذرته من الله حتى يرتدع عما قد يريد من الفاحشة، والاستعاذة بالله دليل عمق الإيمان، إذ إنّ كثيراً من المؤمنين قد تذهلهم المفاجأة عن الركون إلى ربهم في الموقف الصعب، أما مريم فلقد استعاذت منه بالله الرحمن، فهدفت أمرين:

الأول: تقوية إرادتها.

الثاني: بعث الرعب في قلب الطرف الآخر.

ثم ذكّرته بأنّ عمله مخالف للتقوى.

[١٩-٢٠] ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ هنا نرى أن مريم لا تزال محتفظة بكل أعصابها أمام هذه المفاجأة وهي في سن مبكر فأخذت تحاور الملك، وتقول: إني لست متزوجة، كما أني لست باغية، فكيف أرزق ولداً؟!.

[٢١] ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ﴾ لأن الله قال: بأن ذلك عمل هين بالنسبة إليه، وهدفه من ذلك هو أن يكون هذا الوليد آية له على خلقه، ويبدو أنّ الملك العظيم حملها مسؤولية بهذا القول، إذ بيّن لنا أن عليها أن تتحمل صعوبة الحمل والولادة، وتهم الناس وما أشبه من أجل هداية الناس، لأن وليدها سوف يصبح آية الله على الناس.

﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ بالإضافة إلى ذلك فهو رحمة للناس، علمه رحمة، ورسالته رحمة، وأعماله رحمة، ولعلّ الملك العظيم هدّأ خاطرها بهذه الكلمة؛ فإن آيات الله قد تكون من نوع آخر، بينما وليدها المنتظر سيكون رحمة للناس ولها أيضاً.

﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ وانتهى جبرائيل الملك الذي تمثّل لمريم في صورة بشر سوي من الإجابة على تساؤلات مريم، وقال: إنّ ذلك أمر من الله، أما كيف يحدث هذا؟ ولماذا يحدث؟ هذا أمر قد قضاه الله سبحانه وتعالى وقدره.

يا ليتني متُّ قبل هذا

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا[1] ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا[2] ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا[3] ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

تحدّثنا في الدرسين الماضيين للسورة عن العلاقة بين الإنسان وبين والده أو والدته، وأنه يجب أن يكون في إطار التقوى، ذلك أنّ المحور الأساسي في حياة البشر ينبغي أن يكون العبودية المطلقة لله سبحانه.

---

(١) قصياً: القصي البعيد، والقاصي خلاف الداني.
(٢) جنياً: الجني بمعنى المجني من جني الثمر إذا قطعتها.
(٣) فرياً: عظيماً.

ولكن يطرح هذا **السؤال**: لماذا ينبغي أن تكون علاقتنا بأبنائنا، بل كل علاقاتنا في إطار التقوى وعبودية الله؟.

والجواب:

أولاً: إن سنة الحياة وطبيعتها هي: أن كل شيء من الله وإلى الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ بمعنى أن الحياة الطبيعية والفطرية قائمة بالعبودية المطلقة لله، إذن يجب أن تكون علاقاتنا انعكاساً للحياة الطبيعية الموجودة في الكون.

من الذي وهب لي ابنا؟.

ومن الذي قدّر لهذا الابن أن ينمو؟.

ومن الذي يسبغ هذه النعم إن شاء، أو يمنعها إن شاء؟ أو ليس الله؟!.

ثانياً: حينما تسوء علاقتنا بأبنائنا بسبب ظلمهم، تبقى علاقتنا بالله سليمة، وإذا اعتمدنا على التقوى آنئذٍ لا نجد ركنا نلتجئ إليه سوى الله.

ونستوحي من هذه الآيات أيضاً معنى الفرج بعد الكرب، وبالذات في بناء الأسرة الأصعب من كل بناء، الزواج هو تحمل مسؤولية الحياة بكل أبعادها، فالزواج والولوج في امتحانات عسيرة، ومتعددة الجوانب، ومن دون ثقة كاملة بنصر الله قد تتهاوى إرادة الإنسان وتخور عزائمه، ولهذا يضرب القرآن هنا مثلاً للفرج بعد الكرب الذي أصاب مريم.

بينات من الآيات:

المخاض الصعب

[٢٢] ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ حينما أرادت مريم أن تتزهد لتعبد الله، انتبذت مكاناً شرقياً، قريباً، في بيت المقدس في غرفة فيه، واتخذت من دونهم حجاباً، وأخذت تتبتل إلى ربها، ولكنَّها بعد الحمل انتبذت مكاناً قصياً، أضف إلى ذلك أن الحمل كان صعباً ومجهداً، لأنها لم ترد عليها السلام أن يظهر ذلك للناس، لذلك ابتعدت عنهم.

[٢٣] ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ كم طالت الفترة بين حمل مريم وبين مخاضها؟ هناك أحاديث عديدة: بعضها يقول: ستة أشهر وهو الحديث الأقوى، وبعضها يقول تسع ساعات، لأنها حملت في بداية النهار، وفرغت من حملها في نهايته، وبعضهم يقول ساعتين

والله أعلم. وإنما نحن مع هذه الآية التي تصور لنا حالة صعبة كانت تعيشها مريم عليها السلام بحيث إن المخاض يجبرها على أن تلتجئ إلى جذع النخلة، فحينما جاءها المخاض، لم تجد داراً أو بيتاً تلتجئ إليه، وإنما وجدت شيئاً واحداً وهو جذع نخلة.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ فتاة عذراء، تركت الدنيا ولم تر مسؤوليات الحياة، -سواء كانت مسؤوليات البيت أو مسؤوليات المجتمع- لأنها كانت متعبدة، ومتحررة من علاقات الدنيا، ويأتيها المخاض، وهذه أول تجربة لها في الحياة، فلم تعرف كيف تتصرف تجاهها، كما أنها كانت وحيدة في الصحراء، ولم تجد من يمد لها يد العون! آنئذ شعرت بمشقة بالغة وكرب عظيم فقالت: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ والإنسان يريد الحياة وما فيها من علاقات ليشاع له الذكر الطيب بين الناس ولذلك يتحمل الإنسان كل الصعوبات، فهو يخوض الحرب مثلاً، ويعرض نفسه للموت من أجل أن يقال: إن فلاناً بطل شجاع، ولكن مريم تناست حتى هذه الرغبة في ذاتها، وتمنت لو أنها كانت نسياً منسياً.

والنسي المنسي، هو الذي نسي ونسي أنه قد نسي، فصار وكأنه لم يكن أبداً، فقد ينسى الإنسان شيئاً، ولكنه يتذكر أنه قد نسي شيئاً، فيفكر حتى يتذكر، أما أن تنسى وتنسى أنك قد نسيت، فهذا هو النسي المنسي، وكأنَّ مريم عليها السلام تمنت لو نسيت ولم يبق لها أي أثر يذكر.

الخلف الطيب

[٢٤] ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ اختلف المفسرون فيمن ناداها؟! هل كان جبرائيل باعتبار أن مريم كانت واقفة على ربوة وجبرائيل كان واقفاً تحت الربوة، لذلك كان هو المنادي، أو كان عيسى، وأتصور أن المنادي هو عيسى الوليد الجديد، وهذا ينسجم مع سياق الحديث القرآني، بينما جبرائيل لم يكن اسمه مذكوراً في سياق هذه الآيات.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يبدو أن مريم حينما حملت فكرت في ما بعد الحمل.. ماذا سيحدث؟ ماذا سيقول عنها الناس؟ وحينما وضعت تركّزت هذه الفكرة في ذهنها فاحتارت ماذا تفعل؟ وإلى أين تذهب ؟ لذلك فإنَّ أول كلمة قالها عيسى لها هي: ألا تحزني -أي لا تحملي هموم المستقبل- وهكذا يجب أن تكون المرأة بالنسبة إلى مسؤوليات الحياة الزوجية، فبعض النساء يقلقن من شؤون الحياة، ويفكرن كثيراً في مستقبل الطفل، وهذه الأفكار غير صحيحة، لأنَّ الذي خلق هذا الطفل، وقدر للمرأة أن تكون أمّاً سوف يعينها عليه.

علينا أن نعيش لحظتنا، بالرغم من ضرورة التخطيط للمستقبل، إلا أن التخطيط عمل

الفكر بينما الهم عمل القلب، وليس من الصحيح أن نتحمل هذه اللحظة خوف هم المستقبل، وحزن الماضي، فتصبح الحياة فيها جحيماً.

ويبدو من السياق أن كلمة السري أقرب إلى مفهوم النهر الرافد، إذ إنه عليه السلام أشار إليها بوجود نهر في أسفل الربوة، هذا من جهة ومن جهة ثانية فقد أشار إليها ماذا تطعم وقال:

[٢٥] ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾.

١ - في الأحاديث أن مريم عليها السلام رفعت رأسها إلى السماء، وقالت يا إلهي في الأيام العادية التي كنت فيها شابة، ولا أعاني فيها مرضاً ولا ألماً، كان الطعام ينزل علي من السماء بدون صعوبة، والآن في هذه الحالة علي أن أهز جذع النخلة حتى تتساقط علي رطباً جنياً؟! لماذا؟ فجاءها الوحي أو قال لها عيسى -لا أعلم بالضبط- إنه في ذلك اليوم كانت علاقتك فقط بي وما كنتِ تعرفين إلا الله، أما الآن فقد توزعت علاقتك بين الله وابنك، ولذلك لابد أن تهزي جذع النخلة.

٢- وهناك تفسير آخر لهذه الآية وهو: أن على الإنسان أن يتحمل صعوبات الحياة، ومن دون التعب لا يحصل الإنسان على شيء، فقسم من التعب عليك، والقسم الآخر الله سبحانه هو الذي يدبره ويقدره.

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**لِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَأْكُلُ النُّفَسَاءُ الرُّطَبَ**»[1] لأن الرطب يحتوي على كل المواد التي يحتاجها الجسم، وبنسبة احتياج الجسم، يقول بعض العلماء: إن في التمر ١٣ مادة حياتية وخمسة أنواع من الفيتامين، لهذا تطعم المرأة الواضع في بعض الدول التمر لمدة أربعين يوماً.

[٢٦] ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ لا تفكري بهذا الولد كيف يصبح في المستقبل؟ إنه سوف يصبح قرة عين لك.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ لقد بدأت مساعدة عيسى لوالدته من تلك اللحظات الأولى، والسبب هو أن عيسى كان معجزة في الحياة، أما في سائر الحالات الطبيعية، فإنَّ على الولد أن يساعد أمه متى كبر واشتد عوده، ويجب أن تفكر الأم وهي تخوض غمرات الحياة الصعبة أن مستقبلها سيكون مضموناً بسبب هذا الولد، وأن بعد العسر يأتي اليسر، والعبرة التي نستلهمها هي: أن الصيام في الشرائع

(١) الكافي: ج٦ ص٢٢.

السابقة كان مقروناً بعدم التكلم، فعيسى أشار لمريم بأن تقول للناس: إنني صائمة من دون أن تقول كلاماً، لأنها إذا تكلمت بطل صومها، وبالرغم من أن هذا النوع من الصوم قد نسخ في شريعة النبي محمد ﷺ إلا أن بعض إيجابياته لا تزال باقية؛ حيث جاء في رواية مأثورة عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنَّ الصِّيامَ لَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ وَحْدَهُ، إنَّ مَرْيَمَ عليها السلام قَالَتْ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أَيْ صَمْتاً فَاحْفَظُوا أَلْسِنَتَكُمْ، وغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، ولَا تَحَاسَدُوا ولَا تَنَازَعُوا**»[1].

وإنما تستعمل الإشارة بدليل الآيات التالية التي تفيد بأن مريم أشارت بيدها إلى ولدها ليعلم القوم أنها لا تتكلم.

التهمة المفتراة

[٢٧] ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ امرأة عذراء، غير متزوجة، صغيرة السن، تحمل ولدا رضيعاً!!. ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي عظيماً عجيباً.

ويبدو أنهم في البداية لم يتهموها بالفاحشة، ولكنهم شيئاً فشيئا اتهموها بها بصورة غير مباشرة:

[٢٨] ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ لقد ذكروها بأنها أخت هارون، والواقع أن مريم لم تكن أختا لهارون، وإنما كانت من عائلة زكية طاهرة نقية يقف في رأسها هارون أخو موسى عليه السلام ومن المعروف أنه حينما كانوا يريدون أن ينسبوا أحداً إلى عائلة كانوا ينسبونه إلى عشيرته، ولأن هارون كان مشهوراً بالتقوى والطهارة، لذلك قالوا لمريم: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وهذا الأسلوب معروف أيضاً في اللغة العربية، حيث إنّ العرب حينما كانوا يريدون أن ينسبوا شخصاً إلى عشيرته يقولون له: يا أخا فلان.

قالوا لها: نحن نعرف أباك، فلم يكن سيء الخلق، وأمك لم تكن بغياً، فمن أين هذا الطفل؟!، ومن هذه الآية نستطيع أن نستوحي مدى تأثير الوراثة والتربية في حياة الإنسان، لأنهم عرفوا أن العائلة الزكية يجب أن تخرج منها امرأة زكية، والعكس صحيح غالباً، فمن عائلة غير شريفة لا يستبعد أن تخرج منها امرأة غير شريفة.

[٢٩] ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ كيف نكّلم من لم يزل في المهد طفلاً؟! فظنوا أن مريم إنما تستهزئ بهم، ولكن لم يلبث عيسى أن نطق بكلام فصيح،

---

(١) الكافي: ج٤ ص٨٧.

وبيّن:

أولاً: ثلاث صفات أساسية لنفسه: عبوديته لله -وهي أصل كل خير- وأنه يحمل كتاباً، وهو نبي.

ثانياً: ثلاث قيم لرسالته ودعوته: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

ثالثاً: ثلاث سمات، لسلوكه وأخلاقه ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

رابعاً: ثلاث نتائج له ولمن يتبعه ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

من هو عيسى ابن مريم عليه السلام؟

[٣٠] ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ولد عيسى ابن مريم عليه السلام وهو يحمل الصفات المثلى، وبالتالي كان قدوة لنا، وإنما نلقي على هذه الآية الضوء لكي نقتدي بها يمكن أن نقتدي به من، صفاته عليه السلام، فما هي تلك الصفات؟ في البداية قال: إني عبد الله ليؤكد صفة العبودية في نفسه، وبالتالي ينسف قاعدة عبادة البشر، تلك القاعدة التي كانت من الممكن أن تترسخ في ذهنية بني إسرائيل بسبب الولادة المعجزة أولاً وتكلمه في المهد ثانياً، ومعرفته بالكتاب صبياً ثالثاً.

وقد يتساءل البعض كيف نقتدي بعيسى عليه السلام في هذه الصفات وهل على الأم مثلاً أن تبحث عن رسالة لابنها حتى يصبح نبياً؟ الجواب: كلا.. إن ذلك ليس مهمة الأم، ولكن على الأم أن تربي ابنها لكي يصبح مبلغاً داعياً إلى الله مثلما كانت امرأة عمران، عندما نذرت ما في بطنها محرراً، فلماذا لا تفكر كل امرأة حامل منذ البدء أن تجعل ابنها محرراً عاملاً في سبيل الله؟!.

إن المرأة إذا فكرت منذ البدء أن يكون ابنها الذي لا يزال في رحمها عاملاً في سبيل الله، وداعياً إلى الحق، فإن الله سبحانه وتعالى يبارك لها في هذا الولد.

قالوا لأم الشيخ الأنصاري (وهو أحد كبار الفقهاء الزاهدين): إن ابنك قد أصبح مرجعاً دينياً كبيراً!! فلم تتعجب وقالت: لقد كنت أتوقع ذلك، فقالوا لها: كيف؟ فقالت: لأني لم أكن أرضعه إلا وأنا على وضوء، حتى إنه في منتصف الليل عندما كان يستيقظ طالباً الحليب،

كنت أنهض من الفراش لأتوضأ ثم ألقمه ثديي».

إن هذه الأم كانت منذ البداية تنشد لابنها ذلك المقام الأسمى فأعطاها الله ما طلبت بفضله.

رسالته

[٣١] ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ لقد كان عيسى عليه السلام يشع بالخير، ويتفجر المعروف من جوانبه كما العين المعطاء.

وهكذا يجب أن يربي الإنسان أولاده على حب الخير، والعمل للآخرين وأن يكونوا أبداً مركز الحب وينبوع البركة، أينما حلوا حلت معهم البركة.

وإننا نقرأ في التاريخ أن فاطمة الزهراء عليها السلام وقفت في محرابها ذات ليلة تصلي وتدعو حتى مطلع الفجر فدعت الله لكل الناس باستثناء نفسها وأولادها، وكان ابنها الإمام الحسن وهو صبي إلى جنبها، «**فَقُلْتُ لَهَا: يَا أُمَّاهُ لِمَ لَا تَدْعُونَّ لِنَفْسِكِ كَمَا تَدْعُونَّ لِغَيْرِكِ؟. فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ**»[1].

انظروا إلى تربية فاطمة الزهراء عليها السلام لابنها، إنها منذ البدء ربّتْ أبناءها على حب الآخرين، وفعل الخير إلى الناس جميعاً، وهكذا كان عيسى عليه السلام مباركاً أينما كان، يفعل الخير، ويدعو إليه.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ والصلاة والزكاة هما أسمى ركيزتين بعد عبادة الله وحده وتوحيده، وقد استدل عيسى على صدق رسالته بهاتين الركيزتين، حيث إن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فريضتان معروفتان.

اخلاقه

[٣٢] ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ الجبار هو الذي لا يرى لأحد حقاً عليه، بينما يفرض على الناس حقوقه، أما الشقي فهو الذي يسبب لنفسه البلاء، والصفات الثلاث التي هي سلوك النبي عيسى عليه السلام تعود في الواقع إلى جذر واحد، وهو الخروج عن شح الذات إلى أفق الحق، والعيش للناس وليس للذات، وجعل الحق وليس النفس وأهوائها محوراً.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص١١٢.

وإن في هذه الآية تأكيد على دور الأم وضرورة البر بها، وقد وصى أنبياء الله جميعاً بها خيراً، والبر بها دليل الإيمان ووسيلة الزلفى إلى الله، وقد أكد الإسلام على دورها، وضرورة البر بها، فهذا النبي محمد ﷺ يسأله رجل: «**يَا رَسُولَ الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صِحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟، قَالَ** ﷺ**: أُمُّكَ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ** ﷺ**: أَبُوكَ**»[1].

ومرة جاءت أم سلمة إلى رسول الله تشكو إليه حالة بنات جنسها وتقول: إن كل الفخر للرجال، فيقول لها الرسول ﷺ: «**بَلَى إِذَا حَمَلَتِ المَرْأَةُ كَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْمُجَاهِدِ بِنَفْسِهِ ومَالِهِ فِي سَبِيلِ الله فَإِذَا وَضَعَتْ كَانَ لَهَا مِنَ الْأَجْرِ مَا لَا يَدْرِي أَحَدٌ مَا هُوَ لِعِظَمِهِ فَإِذَا أَرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بِكُلِّ مَصَّةٍ كَعِدْلِ عِتْقِ مُحَرَّرٍ مِنْ وُلْدِ إِسْمَاعِيلَ فَإِذَا فَرَغَتْ مِنْ رَضَاعِهِ ضَرَبَ مَلَكٌ كَرِيمٌ عَلَى جَنْبِهَا وقَالَ اسْتَأْنِفِي الْعَمَلَ فَقَدْ غُفِرَ لَكِ**»[2].

[٣٣] ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ فحقيقة السعادة أو الشقاء تتجسد منذ لحظة الولادة.

وإنه بعدما وضح عيسى عليه السلام أهداف ومحتوى رسالته المبدئية، أراد أن يكمل هذه الأهداف بتوضيح الإطار الاجتماعي لرسالته، بأنه لم يرسل جباراً، فيعيث في الأرض فساداً، بل أرسل رحمة إلى الناس وسلاماً، يحمل السلام إليهم منذ لحظة ولادته، إلى لحظة بعثه للحياة مرة أخرى.

وكلمة أخيرة: إن هذا الدرس يلخص قيم الرسالة فيما يرتبط بدور الأم، وكيفية تربيتها لوليدها. وإن وراء كل قصة في القرآن قيمة حضارية.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧ ص١٨٩.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٥١.

لماذا الامتراء وكيف نزيله؟

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٣٦) فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٣٨) وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ (٤٠)﴾.

هدى من الآيات:

كنا مع عيسى عليه السلام وقد بشر برسالته صبياً، وأمر الناس بأن يعبدوا ربهم.

والقرآن الحكيم يوقفنا هنا ليبين لنا حقيقة هامة وهي: أن الخلاف العقائدي الذي انتشر حول عيسى عليه السلام، إنما كان بسبب عدم معرفة الله، والجهل بصفاته وأسمائه وبقدراته الواسعة المطلقة، وبكيفية خلقه للأشياء، وإنّ هذا الخلاف ينبع من ضعف الإيمان بالآخرة.

إنّ خلق الله للكون إنما هو خلق إرادي؛ إذ يقول للشيء: كن، فيكون دون أدنى تأخير، لذلك فربنا تعالى لا يحتاج إلى أن يتخذ ولداً أو معيناً يرثه، بل هو الذي يرث ما في السماوات وما في الأرض جميعاً، والذين قاسوا ربهم بأنفسهم لم يعرضوا الفرق الشاسع بين طبيعة المخلوق وصفات الخالق، لذلك قالوا: عيسى ابن الله.

والإيمان بالآخرة يسقط الخلافات الدينية، لأن قسماً كبيراً من هذه الخلافات نابع من الأهواء والشهوات، ومن عدم تحمل مسؤولية العلم، ومن أن الذين كلفوا ببيان العلم اختاروا

شهواتهم على دينهم فباعوا علمهم ببضع دراهم معدودة.

فالقرآن الحكيم يذكر الناس بيوم القيامة أبداً ليبين أن هذه الخلافات تتبخّر إذا كان الإيمان بالمعاد إيماناً راسخاً، ذلك أن الإنسان يختلف مع الآخرين في الدين حينما لا يتخذ الدين محوراً لحياته، بل تكون أهواؤه وشهواته هي المحور أما لو اتخذ الدين محوراً، بحث عنه بجد وفكر بموضوعية. فإنّ الله سيؤيده لمعرفة الحقائق بسهولة.

بينات من الآيات:

كن فيكون

[٣٤] ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي إنّ هذه القصة التي نقلها القرآن الحكيم عن عيسى كانت قول الحق الذي لا ريب فيه، أما الناس فإنهم يمترون ويجادلون فيه لعدم معرفتهم بالله وبالبعث، ويوضّح القرآن ذلك فيما يلي من الآيات:

[٣٥] ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ إنّ من صفات الألوهية صفة القدرة والهيمنة والخلق، فكيف يتخذ الخالق من مخلوقيه ولدا له؟!.

الولد واحد من اثنين: أما أن يكون ولداً بالتبني أو بالولادة، فالولد بالتبني إنما يكشف عن حاجة الأب إلى ذلك الولد، والله سبحانه أسمى من أن يتخذ ولداً بالتبني لأنه قادر لا يحتاج إلى شيء.

أما لو افترضنا أنّ الولد بالولادة فهناك نظرية فلسفية (الفيضي) تقول بأن الكون قد خرج من الله كما تخرج أشعة الشمس من القرص، وكما تخرج الأوهام من القلب، وكما يصدر الماء الرافد من النبع -فسبحان الله!- إنّ هذا إلا قول جاهلي بعيد عن صفة الألوهية والربوبية.

وفي هذا السياق يمكن الاستشفاف من الآيات بصيرة أساسية، وهي: إنّ العلاقة بين الله تعالى وما سواه هي علاقة الرب والعبد. وفي تنسّك عيسى عليه السلام واجتهاده في العبادة ما يثبت عمليًّا عبوديته لله تعالى. إن الواحدية والاشتراك والتجانس بين الخالق والمخلوق ينفي المغايرة بين العبد والمعبود، بالتالي ينفي علاقة الخضوع والعبودية الذاتية. فالخالقية المتضمنة معاني الفعل الاختياري الحكيم تعني فيما تعني استحقاق الحمد والثناء، فالفعل الاضطراري حيث يكون الخالق مجبوراً على الفيض فلا يمكنه التوقف فلا يحمد على ما فعل، فالشمس لا تحمد على شعاعها لأنها مجبورة.

وبصيرة الخلق هي أساس استحقاق الرب للعبودية الذاتية لما تعنيه من ربوبية ومالكية. فالخالقية والمخلوقية هو حد فاصل بين الرب والعبد. والمفارقة بين من لا بداية له (الرب تعالى)

ومن له بداية هو الخلق. فلا التقاء ولا ينمحي الفاصل والحجاب الذاتي. وهناك دلائل في القرآن والروايات على ذلك، ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨-٩]، فالرسول لم يصل، وكذا في سورة التوحيد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤].

إنّ خلقه سبحانه للأشياء هي مجرد الإرادة والمشيئة، فقد خلق الله المشيئة ثم خلق الأشياء بالمشيئة.. يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وليس لفظة ﴿كُن﴾ تعني التلفظ بها، وإنما هي مجرد الإرادة. وليس خلقه للأشياء عن طريق الممارسة والمعالجة، حتى يخرج شيء من شيء فيسمى بالولادة وإنما عن طريق الأمر والإبداع، إذن فنسبة الأولاد إلى الله خطأ. وإذا صحّت هذه الفكرة فلابد أن تصحّ في الكون كله فنقول بأن السماوات والأرضين وما فيهما أولاد لله، لأنها كلها خرجت من الله - سبحانه- حسب هذا القول الجاهلي، وهذا قول متناقض في ذاته، فكيف يكون المخلوق خالقاً؟!.

حينما يولد شيء من شيء فلابد أن يكون الوليد من جنس الوالد ومما لا جدال فيه أن الابن فيه كل الصفات الموجودة في والده، وليس في مجال البشرية فقط وإنما كل شيء، فأشعة الشمس صفاتها نفس صفات الشمس، والماء الذي يخرج من النبع صفاته نفس صفات النبع وهكذا فلابد أن تكون الأشياء المخلوقة في الكون تحمل صفات الخالق.. (صفة الحياة.الخلود.. الثبات وعدم التغير) وهذه الصفات غير موجودة في الخلق وإنما هي صفات منحصرة في الخالق فقط.ولو افترضنا وجودها في المخلوق إذا لما كانت هنالك حاجة إلى الخالق!.

وأساساً فإن هذه الفكرة متناقضة يرفضها العقل، والله سبحانه ينسف هاتين الفكرتين -الولادة والمجانسة- معاً في آية واحدة حينما يقول: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ولماذا يتخذ الله ولداً؟ إن ذلك ليس من صفات الألوهية، فالله سبحانه غني عن كل شيء، وغير محتاج إلى شيء، فما حاجته إلى أن يتخذ من بين مخلوقاته ولداً؟!.

ومن جهة ثانية إن خروج الولد من الله لابد أن يكون عن طريق التناسل أو الانقسام وهذا غير وارد لأن الله سبحانه غير مركب من أجزاء وإلاّ افتقد صفة الكمال المطلق التي تشهد له بها كل ذرة من ذرات هذا الكون.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إن الله خلق الكون بهذه الطريقة أنه يقضي أمراً فيقول له: كن فيكون، وليست خلقته بصدور شيء عنه أو ولادته منه سبحانه[1].

[٣٦] أما رسالة عيسى فلم تكن رسالة تدعو الناس إلى عبادته، وإنما تدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكيف يدعو الإله إلى عبادة غيره لو كان عيسى إلهاً -حاشا لله-؟!.

---

(١) عالج المؤلف هذا البحث بتفصيل في كتاب (العرفان الإسلامي).

الصراط المستقيم

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هناك تساؤل: ما هي العلاقة بين الجملتين في هذه الآية الجملة الأولى التي تقول: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ والجملة الثانية التي تقول: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؟.

إن العلاقة هي علاقة العمل بالفكر، وبالتالي علاقة الحياة الدنيا بالآخرة، إن إيمانك بالله وعبوديتك المطلقة له هما اللذان يرسمان خريطة مسيرتك في الحياة ويعطيانك الضوء الكافي لتحركك نحو الله، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فإذا عبدت لله وحده فسوف ترسم لنفسك الصراط المستقيم الذي يؤدي بك إلى الله، أما إذا لم تعبد ربك فإن حياتك سوف تكون منحرفة، ولا يمكنك أن تصل إلى أهدافك، وهذه هي العلاقة بين الجملتين.

بالرغم من أن هذه كانت رسالة عيسى إلى قومه إلا أن قومه اختلفوا فيه اختلافاً واسعاً حتى إن قسطنطين إمبراطور الروم جمع ألفين ومائة وسبعين من الأساقفة في مجمع كبير وطرح عليهم سؤالاً خلاصته: من هو عيسى؟.

فاختلفوا بينهم إلى عشرات الآراء، بعضهم قال: إن عيسى هو الله نزل إلى الأرض، ثم رجع إلى السماء وبعضهم قال: إن عيسى إنما هو ابن الله ولنا إلهان هما: الأب والابن، وبعضهم قال: إنه واحد من ثلاثة الأب والابن وروح القدس، وبعضهم قال: هو جزءان: جزء إلهي وجزء بشري، وبعض قال: إنه عبد الله.. وهكذا، ولم يتفق منهم سوى ثلاثمائة ونيف، اجتمعوا على رأي واحد.فاعتبره الإمبراطور الرأي الحائز على الأكثرية النسبية (حوالى سدس الآراء فقط) وجعله الرأي السائد الذي لا يزال أقوى النظريات الشائعة اليوم بينهم.

وفي الحقيقة أن هؤلاء اختلفوا في عيسى هذا الاختلاف الشاسع، بالرغم من أن القضية كانت واضحة جداً (فالذي خلق الكون هو الذي خلق عيسى وطريقة خلقه لعيسى هي نفس طريقة خلقه للكون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]) وهذه الآية تشير إلى الاختلاف بالرغم من أنها لا توضح أسبابه.

الحزبية طريق الضلالة

[٣٧] ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ الناس العاديون كانوا على الفطرة، ثم بعد ذلك ظهرت بينهم أحزاب مختلفة ولم يكن هدف تلك الأحزاب (الحقيقة) إنما كان هدفهم شيئاً آخر وهو (أنفسهم أو طائفتهم) ولعله - لذلك ينسب القرآن الاختلافات إلى التحزب.

في البداية ينشأ التحزب ثم يتبعه الاختلاف، فلكي أجمع أنا مجموعة من الناس حولي ولكي يجمع منافسي مجموعة أخرى من الناس حوله، فلابد أن نخلق نوعاً من الاختلاف بيننا حتى أكون أنا شيئاً وهو شيئاً آخر، وخيال البشر يستطيع أن يكشف أبداً بعض الفروقات، وأن يخلق بعض الأمور الخلافية، لأن الخلاف ليس أصلاً إنما هو فرع للتمحور الذاتي. ولكن تتبخر هذه الخلافات التحزبية المصطنعة في يوم القيامة.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يذكّرنا القرآن بأن هذا الخلاف لم يكن خلافاً دينياً، ولم يكن من أجل الله، إنما كان من أجل شهواتهم وأهوائهم بدليل وصفهم بالكفر، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعبارة ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تشير إلى موقفهم يوم القيامة.

[٣٨] ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ لو تراهم ولو تسمعهم في ذلك اليوم الذي يأتون فيه إلى الله سبحانه لاكتشفت بأن الظالمين في هذه الدنيا كانوا في ضلال مبين، فبدل أن يبحثوا عن طريقة لإنقاذ أنفسهم من نار جهنم، ومن أهوال يوم القيامة، فإنهم أخذوا يبحثون عن الدنيا وعن بعض الشهوات البسيطة والأنانيات والخلقيات الضيقة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ليكن سمعك وبصرك متوجهاً إلى هؤلاء في ذلك اليوم حتى ترى وتسمع واقعهم وهم يقفون خائفين مرتجفين في المشهد العظيم أمام الله سبحانه وتعالى.

﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إنّ الظالمين اليوم في ضلال ظاهر يمنعهم عن إحساسهم بذلك عدم تصورهم للمصير ولو تصوروه لما اختلفوا، بل اتخذوا الدين مقياساً لهم، ولتحاكموا إليه بدل أن يختلفوا فيه.

[٣٩] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أعمالهم - أفكارهم - طاقاتهم تذهب سدى، ويبقي لديهم شيء واحد يكون زادهم إلى القيامة، وهو الحسرة والندامة، لأنهم في ذلك اليوم لا يجدون طريقة للعودة ولا يجدون فرصة أخرى لتصحيح مسيرتهم وإصلاح ما أفسدوه من أنفسهم.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لكنَّ الناس اليوم في غفلة عن ذلك اليوم، وهم لا يؤمنون، وعندما يزعمون أنهم مؤمنون فإنهم يكذبون؛ لأنهم لو كانوا كذلك لما اختلفوا، ولما تحزبوا، بل اعتصموا جميعاً بحبل الله.

وقد جاء في حديث عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيُشْرِفُونَ وَ يَنْظُرُونَ وَ قِيلَ: يَا أَهْلَ النَّارِ فَيُشْرِفُونَ وَ يَنْظُرُونَ فَيُجَاءُ بِالْمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيُقَالُ لَهُمْ: تَعْرِفُونَ الْمَوْتَ فَيَقُولُونَ: هُوَ هَذَا وَ كُلٌّ قَدْ عَرَفَهُ قَالَ: فَيُقَدَّمُ

وَ يُذْبَحُ ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ وَ يَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ قَالَ: وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ فَيَفْرَحُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحاً لَوْ كَانَ أَحَدٌ يَوْمَئِذٍ مَيِّتاً لَمَاتُوا فَرَحاً وَ يَشْهَقُ أَهْلُ النَّارِ شَهْقَةً لَوْ كَانَ أَحَدٌ مَيِّتاً لَمَاتُوا»[1]

الله الوارث

[٤٠] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هذه الأرض وما عليها من مباهج ومتع ليست لهم، إنها بالتالي تعود إلينا فنحن الوارثون لها، وهم بدورهم يعودون إلينا ليحاسبوا فلماذا التحزب والاختلاف من أجل هذه المتع الزائلة، من هنا نقول: إن الخلافات البشرية خصوصاً تلك التي تتقولب ضمن الأديان والرسالات السماوية يجب أن ننسفها بطريقتين:

الطريقة الأولى: بتذكرة الناس بربهم، ليؤمنوا بخالق الكون.

الطريقة الثانية: بتذكرة الناس بيوم القيامة.

ولو عرف الناس ربهم لانتهى الخلاف النابع من الجهل، ولو عرف الناس أنهم سيبعثون في القيامة لانتهى الخلاف النابع من الجهالة ولأن الخلاف إما يأتي من الجهل وإما من الجهالة، لا غيرهما فإنه يتلاشى مع معرفة الله والإيمان بالآخرة.

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٣٤٤.

واعتزلكم وما تدعون من دون الله

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا[1] (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا[2] (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾.

هدى من الآيات:

علاقة الإنسان بربه يجب أن تكون فوق علاقاته الأخرى بل تكون موجهة لسائر العلاقات، وإطارا لسائر الروابط الاجتماعية، وفي طليعتها رابطة الإنسان بأسرته.

ومن القضايا الطبيعية في حياة الإنسان، استلهامه من أبيه: الفكرة والخبرة، فالأجيال البشرية تتلاحق ويرث كل جيل، أفكار السابقين، ويورثها للاحقين، والله سبحانه قد أركز في

---

(١) واهجرني ملياً: فارقني دهراً طويلاً.
(٢) حفياً: براً لطيفاً.

الإنسان غريزة التقليد واتباع الآباء، كما أركز في الآباء غريزة التعليم لنقل أفكارهم إلى أبنائهم بل وإكراههم عليها.

بيد أن هذه الغريزة التي هي من السنن الكونية يجب أن لا تترك بعيدة عن التوجيه، بل على الإنسان أن يوجهها في ذاته ويوجهها في الآخرين، فالابن الذي يطيع والده ويتبعه من دون تفكير لا يكون فقط عاجزاً عن ابتداع تجارب جديدة، بل يكون أيضاً غير صالح لنقل التجربة، فالتجربة ينقلها جيل يكتوي بنارها، ويعرف قيمتها ويستلهمها بإرادته وحريته، أما الجيل الذي يضطر إلى قبول تجربة السابقين واستلهام أفكارهم؛ فإنه لا يمكنه أن يعرف قيمة التجربة، وبالتالي لا يمكنه أن يستفيد من هذه الخبرة شيئاً كثيراً، إذ يصبح آلة عمياء لا يستوعب الحقائق التي تجري حوله.

من هنا.. يركّز القرآن الحكيم في هذه الآيات على مسألة نقل الأفكار من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق ويحدد في ذات الوقت طريقة التعامل بين الأجيال.

كثيراً ما يفكر الجيل الناشئ، فيجد أن أفكار الأجيال السابقة إنما هي أفكار خاطئة وغير سليمة، ولذلك يتوجه هذا الجيل نحو التغيير والإصلاح وتطوير الأفكار والأساليب، فيحدث الصراع بين الأجيال، كل جيل يوجه الحياة إلى طرف معين وهذا ليس من مصلحة المجتمع، فالمجتمع الذي يعيش صراع الأجيال ينهار بسرعة ولا تكتسب الأجيال الناشئة فيه تجارب الأجيال السابقة.

وفي هذه الآية الكريمة نجد القرآن الحكيم يركّز على طريقة التعامل بين الأجيال ليقول: حتى لو كان الخلاف حول محور أساسي كعبادة الله، فينبغي أن يتم عبر أساليب مرنة، لذلك نجد إبراهيم يوجه خطابه لأبيه قائلاً: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾.

ولكن إذا لم تنفع المرونة ينبغي أن يكون الاعتزال، لأنه هو الحل الأخير، فحينما وجد إبراهيم أن أباه[1] لم يهتد، وأن قضية التوحيد لا يمكن أن تخضع لأهواء الأقارب ولضلالات الأجيال السابقة، فإنه قرّر أن يسجل موقفاً حاسماً من ذلك، ولكن كيف كان موقفه؟.

---

(١) المراد بالأب هنا -حسب الروايات الكثيرة- هو عم إبراهيم عليه السلام وليس والده، وقد أطلق القرآن كلمة الأب على العم في الآية ١٣٣ من سورة البقرة حيث قال: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾. فإسماعيل هو عم النبي يعقوب. ولكننا هنا نستخدم كلمة الأب تبعاً للقرآن الكريم.

إنه لم يقتل أباه ولم يتمرد عليه، وإنما اعتزل ما يعبد بعد أن جادله بالحسنى وأعتقد أن هذين الأسلوبين، الأسلوب المرن ثم أسلوب الاعتزال هما أمثل طريقة للتعامل بين الأجيال في قضايا الصراع وفي حالات التغيير.

وهنها ملاحظة تتراءى في هذه الآيات وهي: إن القرآن الحكيم يركّز الضوء هنا على مشهد واحد فقط من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو مشهد الحوار مع أقرب الناس إليه، بينما ترك سائر المشاهد كمشهد صراعه مع النظام القائم ومع المجتمع الجاهلي، ولعلّ السبب أنّ هذه السورة تركّز على موضوع علاقة الإنسان بأسرته، وعلاقته بالأقربين إليه.

كما أنّ القرآن الحكيم يبين حقيقة أخرى وهي: أنّ الإنسان الذي يترك أهله ويعتزلهم لوجه الله، فإنّ الله سبحانه سوف يعوضه بآخرين، أحسن منهم، والقرآن الحكيم يؤكد هذه الفكرة في هذا المشهد من حياة إبراهيم الخليل، حيث يبيّن بأنّ الله قد عوضه عن أسرته السابقة بأسرة جديدة، وجيل جديد، ووهب له إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذرية طيبة منهم، ونجد تكراراً لهذه الفكرة في الدرس القادم..

بينات من الآيات:

[٤١] ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ كان إبراهيم قدوة وكان صديقاً، صدّق بكل ما أنزله الله، إنّ بعض الناس يصدقون ويعملون بما أنزل الله ولكن بشرط أن لا يتعارض ومصالحهم، أو لا يكون صعباً، بينما إبراهيم كان صدّيقاً، آمن بكل ما أنزله الله من هدى وبرامج برغم كل الضغوط والصعوبات، وكان نبياً مرسلاً من قبل الله.

[٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لقد وصل إبراهيم بفطرته وبهدى ربه إلى نتيجة وهي: أن عبادة الآلهة الحجرية خطأ لأنها لاتبصر ولا تسمع ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

في كثير من الأوقات يصل أبناء البشر إلى نقطة محورية فطرية واضحة ولكنهم بعدئذٍ يتركون الأمر، ولا يفكرون تفكيراً جدياً في متابعة ما توصلوا إليه، بل كل إنسان يعيش في مجتمع فاسد تبرق له غالب الأحيان، أو يطرق سمعه إنذار المنذرين، أو يتعلق قلبه في الشدائد بالمُهيمن القادر على إنجاءه -ربما ذلك جميعاً- من هدى ربه بارقة هدى، لو سار وراءها لاهتدى. ولذلك نرى أن هؤلاء الذين يعيشون في أقاصي الأرض بعيدين عن هدى الرسالات الإلهية، تبقى لله عليهم حجة تتمثل في أنهم في بعض لحظات حياتهم يصلون إلى بعض النتائج الأولية،

ويجب أن تكون لديهم الشجاعة الكافية للاستمرار في الأخذ بها والبحث عما وراءها، أما إذا كانوا جبناء فللّه عليهم حجة، لماذا جبنوا ولماذا لم يهتدوا بنور عقلهم حين أضاء لهم الطريق؟.

بعد رحلة قفل أبو ذر الغفاري راجعاً إلى قبيلته، واتجه إلى صنمها يتبرك به كعادتهم حين يعودون من سفر يبدؤون بأصنامهم فبرقت في نفسه بارقة هدى؟! فسأل نفسه: إن الصنم ليس إلا صخرة صماء، فلماذا أعبد الحجر الأصم؟ وما عساه أن يفعل بي؟ فقرّر أن يجرّبه، ففكر في خطة بأن يضع أمام الصنم شيئاً من الطعام والشراب، فإذا أكل وشرب فلابد أنه على حق وهكذا فعل، فوضع أمامه قدحاً من اللبن وجلس عنده ناحية يراقب، فلم يطعم الصنم شيئاً فقال: ربما يخجل مني، فذهب واختبأ وراء صخرة وأخذ يراقبه، وبعد فترة إذا بثعلبين يأتيان ويشربان اللبن، ثم يتبولان على الصنم ويغادران المكان دون أن يمسهما الصنم بأذى فأنشد أبو ذر يقول[1]:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد هان من بالت عليه الثعالب؟!

فترك عبادة الأصنام.

إن مثل هذا المشهد كان يتكرر عند كثيرين في التاريخ الجاهلي، ولكن لم يكن أحدهم يمتلك شجاعة أبي ذر، لذلك فإنهم كانوا يسايرون الأوضاع الفاسدة ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من ذلك؟.

إن الإنسان قد يفكر تفكيراً حراً وعلى أثر تفكيره هذا يكتشف انحرافاً كبيراً فيهتدي بسببه إلى كل البرامج الرسالية، فإذا عارضه والداه في تلك النقطة ستنكشف له سائر النقاط وتصبح هذه النقطة البسيطة بداية لمسيرة طويلة، هكذا نجد إبراهيم يقول لوالده: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

وحينما اكتشف إبراهيم تلك النقطة تشجّع واستمر في محاولات الكشف، فكشفت له نقطة أخرى وهي: أن اتباعه لأبيه خطأ، لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً.

إن هذه قفزة جديدة لا يصل إليها الإنسان عادة، خصوصاً الإنسان الذي يعيش في جو عائلي مغلق يفرض عليه اتباع كبار العائلة من الآباء والأعمام، لكن إبراهيم وصل إلى تلك القفزة بشجاعته وباتباعه لفطرته.

---

(١) المستقصي في أمثال العرب للزمخشري: ج١ ص١٣٦.

ولاية الشيطان

[٤٣] ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ إن مقياس الطاعة والتقليد هو العلم، فإذا كنت أنا أعلم منك فلابد أن تكون أنت الذي تطيعني وليس العكس!.

﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ واجه إبراهيم عليه السلام أباه بهذه الشجاعة، حيث طلب منه أن يتبعه لأنه يمتلك العلم، وهذه إشارة بأن الاعتبار الأول في القيادة العلم، وليس شرطاً عمر القائد أو منزلته.

[٤٤] ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ عرض إبراهيم عليه السلام على أبيه في البداية أن لا يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، وهنا يقول له: لا تعبد الشيطان، فالشيطان هنا هو الذي يتجسد لهم على صورة صنم، أو على شكل وساوس نفسية فيزين لهم عبادة غير الله، ومادام الشيطان عصياً لله، فهو -بطبيعة الحال- لا يهدي إلى سبيل الرشاد، بل يقود الناس على ما هو عليه من العصيان.

لماذا وضع الله كلمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في مقابل الشيطان، ولم يضع مثلاً (الرب)؟ ربما لكي يوضِّح حقيقة هامة، وهي أن الشيطان هو حالة ضد الرحمة ونقيض لها.

وعموماً فليس المقصود من عبادتهم الشيطان مجرد عبادة الصنم الذي لا يضرّ ولا ينفع، بل المقصود أيضاً عبادة الشيطان المتمثل في الطواغيت أو سدنة الأصنام الذين ينتفعون مباشرة من عبادة هؤلاء.

[٤٥] ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ إن الإنسان الذي يريد أن يجمع بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال، بين الخير والشر، فإنه سيجد أن الخير والهدى قد تبخرا ولم يبق معه سوى الشر والضلالة، إذ لا يمكن أن يجتمع عند الإنسان الخير والشر معاً ولابد أن يذهب أحدهما وإذا تمادى البشر في عبادة الشيطان فإنَّ الله يسلب منه ضوء العقل فيصبح ولياً للشيطان إلى الأبد، وهذا عذاب عظيم يمس الذين يتبعون الشيطان.

ولعلَّ الآية تنفي -بصورة إيحائية- فكرة ضالة يبثها الشيطان في روع تابعيه خلاصتها: أن الله يبغضه وإنما الشيطان يحميه من غضب الرب.. ويسفه السياق هذا الزعم، أولاً: بأن الله هو الرحمن، ولا يبغض أحداً لذاته بل بسبب فعاله القبيحة. وثانياً: إن اتباع الشيطان عذاب وشر مستطير وليس فيه أية فائدة.

هذا هو حوار إبراهيم الذي يتميز بسمتين بارزتين:

أولاً: إنَّه حوار هادىء.

ثانياً: إنَّه يتدرج ويتصاعد شيئاً فشيئاً، ففي البداية يقول: لِمَ؟ ثم يقول: لا تعبد، ثم يقول: اتبعني، ثم يقول: إنه يخشى أن تكون ولياً للشيطان.

في الواقع إن عم إبراهيم الذي يخاطبه إبراهيم عليه السلام بالأب لأنه كان يعيش في بيته كان فعلاً ولياً للشيطان، بيد أن إبراهيم لم يجابهه بالحقيقة مرة واحدة، ولكن لننظر إلى الآخر ماذا يقول في حواره..

الإرهاب في المحيط العائلي

[٤٦] ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ ﴾ لم يقل أراغب أنت عن الحق يا إبراهيم، لأن الحق والباطل لم يكن محورا لعمل (آزر) عم إبراهيم، إنما قال عن آلهتي لأنه أراد أن يفرض سيطرته وهيمنته.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ هذا هو الإرهاب العائلي يقول: لأن لم تنته لأرجمنك، وأرجمنك إما بمعنى أن أقذفك بالحجارة كما يرجم مرتكبو الكبائر، وهو أشد أنواع الإعدام، وإما بمعنى إني لأرجمنك بالضلالة فأقول إنك مارق، أو أتهمك بتهمة كبيرة أمام المجتمع. ومن سياق الآية يتبين أن المقصود هو المعنى الثاني للرجم وليس الإعدام.

﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ في البداية هدده بالرجم والتشهير، ثم أمره بأن يهجره، أي يخرج من بيته نهائياً وهذه عملية نراها اليوم عادة بين بعض الآباء، حيث يقوم الواحد منهم بطرد ولده إذا وجد ولده يسير في طريق لا يرتضيه حتى لو كان ذلك الطريق صائباً وسليماً كالإنتماء إلى حركة إسلامية، أو القيام بنشاطات سياسية، دينية، أو ما شاكل ذلك.

مواجهة الإرهاب

[٤٧] عندما رأى إبراهيم أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد، وأنه هجر أسرته فإنه سوف تتكرس فيهم ضلالتهم، لذلك: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾.

لعلَّ إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يتبع أسلوباً آخر بعد أن وصلت مواجهته الصريحة مع أبيه إلى طريق مسدود، وهو أن يبحث عن وسائط خير يمكن أن يقنع الأب بدعوته الحقّة،

وهذه الفكرة التي نستوحيها من الآية تفيدنا كثيراً في حياتنا العملية، إذ إن كثيراً من الشباب الذين تنفتح بصائرهم على الهداية والإيمان يريدون أن ينقلوا تلك الهداية إلى آبائهم أو أعمامهم أو إخوانهم الكبار، ولكنهم غالباً ما يصطدمون بالحواجز التقليدية التي تحول دون تقبل هؤلاء ممن هم أصغر منهم سناً وتجربة، فلا يكون أمام الشباب إلا أن يلجؤوا إلى الطرق غير المباشرة فيبحثون عن أصدقاء أو معارف لآبائهم يشترط فيهم كبر السن والوعي الرسالي، ليقوموا بدور الوسيط في تبليغ الرسالة.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال إبراهيم لأبيه سأطلب لك المغفرة من الله، فهو يحبني ويبر إلي، وكان إبراهيم في استغفاره يريد هداية أبيه، كما جاء في آية أخرى، فلما تبين له إن أباه لا يريد أن يهتدي وأنه مصر على الضلال تركه وشأنه.

[٤٨] ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ يقول إبراهيم لأبيه أنت تريد أن تطردني من البيت، وتقول لي واهجرني ملياً، حسنا - فأنا بدوري سوف أعتزلكم وأترككم، ولكن حين أترككم فإنَّ عندي ملجأ آخر ألتجئ إليه وهو الذي يبعد عني الشقاء حينما أدعوه وألتجئ إليه، بلى إنه الله ربي.

الأسرة الفاضلة

[٤٩] ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ لقد أصبح إبراهيم مؤسساً لحضارة، ولخط فكري، فوهب له الله من رحمته إسحاق ويعقوب.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ إن الله وهب لإبراهيم إسحاق وإسماعيل وهما أخوة، ولكن القرآن يقول وهبنا له إسحاق ويعقوب وهما أب وابن ليبين استمرارية الخط الرسالي.

[٥٠] ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ لقد أصبح هؤلاء مضرب الأمثال في العالم، فحينما يريد الناس أن يضربوا مثلاً لأسرة فاضلة، فانهم يضربون إبراهيم وأبناءه مثلاً لذلك، ولا يزال هذا الأمر منذ أكثر من خمسة آلاف سنة وإلى هذا اليوم، فهناك أكثر من ألفي مليون إنسان في العالم يكّرمون إبراهيم عليه السلام عبر التاريخ، وهذا بعض معاني ﴿لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي إن الناس يلهجون بذكرهم، وصحيحاً ما يلهجون وصادقاً ما يقولون.

وهكذا نجد إبراهيم عليه السلام ترك أباه وقومه وهجرهم ولكن بعد أن أتم الحجة عليهم، وحاول بكل جهده هدايتهم، وحين تركهم عوضه الله بأفضل منهم، وجعلهم قدوة صالحة للآخرين.

إذن فعلاقتنا بآبائنا وبمن حولنا يجب أن تكون علاقة رسالية يوجهها التوحيد والإيمان بالله تعالى.

وفكرة أخيرة: إن المجتمعات لرسالية الناهضة، هي المجتمعات التي لا تخضع للإرهاب، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يتحرر من الإرهاب؟ وكيف يقاومه؟.

إن ذلك يكون عن طريق بناء أسرته على أساس الحرية، لأن الفرد الذي يخضع في بيته لإرهاب والده، لا يمكنه أن يقاوم إرهاب النظام، فإرهاب النظام صورة لإرهاب الأسرة، وإذا تحرَّر الإنسان من إرهاب الأسرة واستطاع، أن ينقذ نفسه من ذلك المجتمع الضيق الخانق، فإنه يستطيع غداً أن يقاوم إرهاب السلطات الجائرة، وأما الذي يخضع لوالده كلياً خشية بطشه اليوم؟ فكيف لا يخضع للنظام الفاسد غداً؟!.

إن الأسرة هي الأم الحقيقية للمجتمع، لذلك فإنَّ قصة إبراهيم مع أبيه (أي: عمه) تبين لنا: أن الخطوة الأولى في تحرير المجتمع هي تحرير الأسرة من الإرهاب والضغط الفكري..

القدوات الرسالية

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا[1] ﴿٥٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

لكي تكون علاقات الإنسان إيمانية سليمة مع أسرته، وبالذات مع والده وأبنائه وإخوانه فإنه يحتاج إلى أن يقتدي بأولياء صالحين يتخذ من حياتهم أسوة لتصرفاته.

وفي سورة مريم يذكّرنا القرآن الحكيم ببعض تلك القدوات الصالحة، كما يضرب لنا مثلاً من أمثلة السوء الذين عكسوا الآية، وكانت علاقاتهم سيئة بالنسبة إلى أسرهم.

فمن جهة نرى موسى عليه السلام يتخذ من أخيه هارون مساعداً له في تبليغ رسالته، وتربطه مع أخيه علاقة رسالية هدفها تبليغ الرسالة الإلهية، وذلك لأنه كان مخلصاً قد أخلص نفسه لله، وانصهر في بوتقة الإيمان فانزاحت عنه سلبيات البشر، لذلك فهو لم يفكر أن يتخذ من أخيه

(١) غيًّا: جزاء الضلال.

وسيلة للفخر والغرور أو أن تكون علاقته بأخيه مصلحية شخصية، بل إنه استفاد من هذه العلاقة من أجل الرسالة.

ونرى إسماعيل الذي كان صادق الوعد مع الآخرين، تربطه بأهله علاقة فريدة، حيث إنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، ولذلك فقد كان مرضياً عند الله سبحانه.

إن هؤلاء زكريا وأبنه يحيى، ومريم وابنها عيسى، وكذلك موسى وأخاه هارون، وإسماعيل وأهل بيته إبراهيم وأبناءه، يجب أن يصبحوا قدوات لنا.

من جهة أخرى نرى في الطرف الآخر ذريتهم الذين كان ينبغي أن يكونوا لا أقلاً مثلهم أو في مستواهم، قد ضيَّعوا الصلاة، وتركوا عبادة الله، واتبعوا شهواتهم.

بينات من الآيات:

موسى عليه السلام النبي المخلص

[٥١] ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ ذكر موسى، وذكر سائر الأنبياء في القرآن، إنما كان من أجل أن يتخذ وا قدوة وأسوة.

إن من المستحبات الأساسية، بل أحياناً من الواجبات، الصلاة على محمد وآل محمد؛ لأننا حينما نذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فإننا نتذكر صفاته وسلوكه، وبالتالي نبحث في حياتنا عمّا يوافق حياة الرسول ونهتدي بهداه، وهكذا يستحب ذكر النبيين والسلام عليهم بين الحين والآخر لتوثيق الصلة الروحية بهم، وذلك بهدف اتّباع نهجهم الصائب، والقرآن الحكيم يؤكد هذه الفكرة هنا فيقول:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾.

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾.

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾... إلخ. لكي نشعر بأننا لسنا وحيدين في رحلة الإيمان الطويلة، فحينما نتحرك ومعنا إبراهيم وعيسى ويحيى وموسى وإسماعيل فإننا سوف نستلهم منهم الاستقامة والصمود كلما ضعفنا أو أصابنا الوهن.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ لقد كانت علاقة موسى بالله خالصة، وإذا كانت علاقتك أيها المؤمن بالله كذلك، فإن لك علاقة أيضاً مع موسى إذ إنه سيصبح أخاً لك في الإيمان.وقدوة صالحة.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ فموسى هو أخوك في الإيمان وأبوك بالاقتداء، من جهة هو أخوك

لأنه كان مخلصاً لله في علاقته، ومن جهة أخرى هو بمنزلة أبيك لأنه كان نبياً ورسولاً إليك.

[٥٢] ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ إن الإنسان ليشعر بالاطمئنان حينما يرى أن واحداً من بني جنسه قد تقرَّب إلى الله بهذا المستوى، حيث ناداه الله وتحدَّث معه بصورة مباشرة من جانب الطور الأيمن والطور هو الجبل.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ لو أن أحداً كان على مسافة منك وهو يحدِّثك فإنَّ ذلك لا يعتبر نجوى، بينما حين يقترب منك ويكلمك حينذاك يصبح حديثه نجوى.

لقد قرَّب الله موسى وتناجى معه، فأي مستوى هذا الذي يرتفع إليه الإنسان حينما يتكلم الله معه ويناجيه؟!.

إن الإنسان لا يمكن أن يصبح الله، ولكن يمكنه أن يصبح قريباً من الله، وهذا هو أفضل كرامة له على سائر خلق الله.

[٥٣] ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ إن من النعم العظيمة التي تفضل الله بها على موسى أنه استجاب لدعائه فجعل أخاه هارون نبياً معه ليؤازره في مهمته العظيمة.

إسماعيل صادق الوعد

[٥٤] ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ لقد جاء في الحديث الشريف أن إسماعيل هو إسماعيل بن حزقيل وليس إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وأنه قد تواعد مع شخص خلف جبل، فنسي الرجل موعده ولكن إسماعيل ظلَّ ينتظره عاماً. وحدث أن مر الشخص صدفة في نفس المكان فوجد إسماعيل ينتظره، فلذلك سمي بصادق الوعد[1].

ثلاث قواعد في التربية

[٥٥] ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لقد كان يستفيد من

(١) عَنِ الصَّادِقِ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله.... إِنَّ عَابِدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَانَ أَعْبَدَهُمْ كَانَ يَسْعَى فِي حَوَائِجِ النَّاسِ عِنْدَ الْمَلِكِ وَأَنَّهُ لَقِيَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ حِزْقِيلَ فَقَالَ: لَا تَبْرَحْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ يَا إِسْمَاعِيلُ، فَسَهَا عَنْهُ عِنْدَ الْمَلِكِ فَبَقِيَ إِسْمَاعِيلُ إِلَى الْحَوْلِ هُنَاكَ فَأَنْبَتَ اللَّهُ لِإِسْمَاعِيلَ عُشْباً فَكَانَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَأَجْرَى لَهُ عَيْناً وَأَظَلَّهُ بِغَمَامٍ، فَخَرَجَ الْمَلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلتَّنَزُّهِ وَمَعَهُ الْعَابِدُ فَرَأَى إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَ لَهُ إِنَّكَ هَاهُنَا يَا إِسْمَاعِيلُ؟!. فَقَالَ لَهُ قُلْتَ: لَا تَبْرَحْ فَلَمْ أَبْرَحْ. فَسُمِّيَ صَادِقَ الْوَعْدِ» مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٤٧.

علاقة الأبوة التي تربطه بأبنائه من أجل الله لكي يأمرهم بالاتصال الدائم معه عن طريق الصلاة والزكاة.

في هذه القطعة من الآية ثلاث إيحاءات:

الإيحاء الأول: إن من أهم أركان التربية العائلية هي تربية الأبناء على الصلاة، لأنها أساس سائر الأعمال الصالحة، وهي تقرب الإنسان إلى الله.

ليس من المهم أن تلقن طفلك كل صغيرة وكبيرة من الواجبات والأخلاقيات بل الأهم من ذلك هو أن تربطه بالله برابطة الإيمان، وذلك عن طريق الصلاة، فإذا أصبح الولد مؤمناً صادقاً في طفولته، فإنه سوف يبحث عن الواجبات بل المندوبة عندما يكبر، إما إذا كان إيمانه غير ثابت من الأساس، فلن ينفعه علمه بكل تعاليم الدين.

إن الصلاة عملية منتظمة والقيام بها خمس مرات في اليوم شيء صعب، لذلك فإنَّ الإنسان يحتاج إلى أن يتعود عليها من الصغر، وإذا ذاك تصبح جزءاً من حياته، وضرورة لا يستغني عنها.

الإيحاء الثاني: الزكاة قد تكون بمعنى الفريضة الخاصة التي تتعلق بالغلات الأربع والأنعام الثلاث والنقدين، وقد تعني مطلق العطاء والإنفاق، وهي بنوعيها تربي الأبناء على الخروج من الذات إلى الاهتمام بالآخرين.

الإيحاء الثالث: إننا نجد في سورة مريم تكرار معنى: الرضا وما يخالفه من التجبر والشقاء، وهذا التكرار يعود لسببين:

الأول: إن الإنسان يجب أن يربي طفله على أن يكون متكامل الشخصية، حتى يكون مرضياً، يرضى الناس عنه في سلوكياته وتصرفاته، وبتعبير علمي يجب تنمية حس التوافق الاجتماعي عند الطفل تنمية سليمة، لكيلا يصبح غير مبالٍ بالآخرين، بل يفكر فيهم ويرضيهم.

الثاني: إن طبيعة الإنسان أن يكون مقبولاً في المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه، ومن واجب الوالدين أن يربيا أولادهما بحيث تكون هذه الصفة الطبيعية فيهم متجهة إلى الله، أي في حدود تقوى الله ومناهج رسالته.

إدريس الصديق

[٥٦] ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ إمّا إدريس فإنَّ القرآن يذكّرنا بصفة من صفاته التي يجب أن تتوفر عند الإنسان وهي كونه صديقاً. والصديق صيغة مبالغة من صفة الصادق وهو الذي يصدق في المواقف الصعبة، ويكون الصدق صبغة لحياته كلها.

يمكن ملاحظة أن ذكر الأنبياء في عدة آيات يكون مسبوقاً بصفات مختلفة، فترى مثلاً:

- ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.
- ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾.
- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾.

ممّا يوحي إلينا فيما يبدو: أن من أسباب نبوة هؤلاء هي تلك الصفات الفاضلة التي تحلّوا بها.

فمن دواعي نبوة أحدهم رسالته، فحينما يبدأ شخص بحمل رسالة الله بفطرته، فإنَّ الله يختاره نبياً، لقد كان إبراهيم منذ طفولته يحاور والده ويتكلم معه حول عبادة الأصنام، وكثير من الأنبياء كانوا يحملون الرسالة قبل النبوة، وذلك لأن الرسالة موجودة في وجدانهم، فإذا حملها الإنسان ورأى الله منه الصدق فإنه يرزقه النبوة. وأما لماذا سبقت كلمة (الرسول) كلمة (النبي) في الآية ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ للإشارة إلى أن وسام الرسالة أقدس من وسام النبوة وأعلى درجة.

وبالنسبة لإسماعيل ربما كان صدقه لوعده هو السبب الذي أهله لحمل الرسالة، كما أن صفة الصدق هي التي أهلت إدريس لحمل رسالة الله، حيث إن الله يختار رسله من الصادقين العاملين، ولا يختار من لا تتوفر فيهم هذه الصفات فيقول ربنا: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

[٥٧] ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ إذا أردت العلو، فكن صديقاً مثل إدريس، لأن الصادق يحبه الناس ويرفعونه فيرتفع بين جماعته إلى منزلة عالية.

الذرية الصالحة والخلف الصالح

[٥٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ هؤلاء هم الذرية الصالحة التي يجب أن تكيف أسرتك وفق هداها. ولعلَّ تأكيد القرآن الحكيم على كلمة الذرية هنا يشير إلى هذه الفكرة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ إن الصفة الهامة التي وجدت في هؤلاء بعد هداية الله واجتبائه لهم هي علاقتهم بالله وقربهم الروحي منه، وهذا أعلى وسام يحمله الإنسان المؤمن الصادق.

إن المؤمنين حينما تتلى عليهم آيات الرحمان وما فيها من أوامر ونواهي وبرامج وأخلاقيات، فإنهم يسجدون دلالة على تقبلهم، وعلامة على استعدادهم لتطبيقها.

إن السجود هو إظهار الخشوع خارجياً، إما البكاء فهو إظهار الخشوع نفسياً، لأن نفسية الإنسان تتفاعل مع الموعظة فتجري دموعه، وهؤلاء قد خشعوا بهيأتهم وكذلك بنفوسهم فخروا سجداً وبكياً.

[٥٩] ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وهؤلاء هم النموذج الآخر وهم الأمثلة السيئة، فقد أضاعوا الركن الأساسي للذين مما سبب فساد حياتهم، والركن الأساسي هو الصلاة.

والقرآن لم يقل تركوا الصلاة، بل أضاعوا الصلاة، وهذا يشمل بالإضافة إلى معنى ترك الصلاة معنى آخر وهو تحويل الصلاة إلى هيئة فارغة لا محتوى فيها، فالصلاة الحقيقية هي صلاة المؤمنين الذين يقول عنهم ربنا سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا أهواءهم وشهواتهم فإنهم سوف يسيرون في طريق الغواية والضلالة بدل الهدى.

الآخرة حصاد الدنيا

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا (٦٠) جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا (٦٧)﴾.

هدى من الآيات:

الأسرة الفاضلة في الدنيا هي الأسرة التي تصنع في بيتها جنة معنوية تشبه إلى حد بعيد جنات عدن في الآخرة.ومن عاش في الجنان في الدنيا فحري به أن يعيشها في الآخرة، فجنة الآخرة توفر للإنسان الراحة الروحية والرفاه الجسدي، وكذلك الأسرة الفاضلة في الدنيا، أما الراحة المعنوية فهي السلام، البعيد عن اللغو، والذي هو قمة تطلع الإنسان في الحياة، فحين لا يوجد ألم ولا مرض ولا خوف ولا حزن ولا عقد نفسية ولا حسد، وما إلى ذلك ممّا تنغص حياة الإنسان، فآنئذ يعيش الإنسان في جو من السلام يشمل العافية بكل أبعادها والنجاة من الأخطار جميعها.

ويوم القيامة يدخل ربنا سبحانه المتقين جنة السلام الخالدة، لأن المتقين قد ابتعدوا عن كل ما يسبب لهم انحرافاً أو فساداً في الدنيا، فالآخرة حصيلة الدنيا وانعكاس لها، وحسب ما يفيدنا القرآن الحكيم: أن الآخرة هي إرث الدنيا فما تعمل في الدنيا ترثه في الآخرة.

إن الصفات السيئة لها جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة، فنار الحسد تأكل الإنسان في الدنيا مرة، وفي الآخرة مرة، وثعبان الحقد يلدغ الإنسان في الدنيا بطريقة، ويلدغه في الآخرة بطريقة أخرى، وفي الآخرة يرى الإنسان الحقد في صورة ثعبان عظيم أو عقربة ضخمة تلدغه، أما في الدنيا فإن ذات الحقد يلدغ قلب الإنسان، ولكن دون أن يتجسد في ثعبان ظاهر، ولا فرق بين أن يلدغ جسمه هناك أو يلدغ قلبه هنا. وهكذا سائر الصفات ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

وهكذا نعلم بأن جهنم الآخرة انعكاس لجهنم الدنيا ولا أقول: إن جهنم هناك رمز لجهنم هنا، كلاّ؛ لأن عذاب جهنم في الآخرة أشد ألماً وأشد ظهوراً وهي حصيلة هذه وحصاده، من هنا تأتي آيات القرآن تعبر لنا عن الإرث، فما هو الإرث،؟ أليس يعني: أن تعمل ثم يأتي الآخرون ليأخذوا نتيجة عملك بعد ما تموت، وقد لا يأتي إنسان آخر ليأخذ إرثك وإنما تكون أنت نفسك بعد موتك تأخذ ما كسبت، وهذا نوع آخر من أنواع الإرث ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا ﴾[مريم: ٨٠].

هناك شبهة عميقة الجذور في فكر الإنسان، تقول بأنه كيف يمكن للإنسان أن يبعث من بعد الموت ؟.

أن مصدر هذه الغرابة جهل الإنسان ببداية خلقه، فلو عرف الإنسان كيف خلقه الله وماذا كان قبل ذلك، ولو تذكر الإنسان أنه كان نطفة في صلب أبيه أو مضغة في رحم أمه أو طفلاً وليداً لا يتجاوز وزنه (٣-٥) كيلو غراماً، لو تذكّر كل ذلك آنئذ يتحسس بأن الذي خلقه ورباه قادر على أن يحيله إلى تراب ثم يخلقه مرة أخرى.

إن تذكر هذه الحقيقة بصورة مستمرة يرفع عن الإنسان حجاب الغفلة عن الآخرة.

إن شبهات الجهل في قلب الإنسان تشبه (الفطر) الذي يتكاثر باستمرار، هذه هي طبيعة الشبهة الناتجة عن الضعف البشري، أنت تجوع وتشبع، ثم تجوع فتشبع.. وهكذا تحتاج أبداً إلى الطعام حتى تمنع عن نفسك الجوع، لماذا؟ لأن الجوع من طبيعتك، كذلك الشبهات في قلب الإنسان.. هي من طبيعته، إذ طبيعة الإنسان الجهل والغفلة والنسيان. فإذا قرأت كتاباً ثم لم تعد قراءته، أو سمعت خطاباً ثم لم نستمع إليه مرة أخرى، فإنك بمرور الزمان تنسى ما قرأت وما سمعت، لأن الجهل والغفلة من طبعك، كذلك الشبهات من طبيعة الإنسان، لذلك على الإنسان أن لا يكتفي بدفع الشبهات عن نفسه مرة واحدة، لأنه إذا رفعها عادت ونمت نفس الشبهة.

إذا يحتاج الفرد إلى مبضع يقوم بواسطته بعملية جراحية مستمرة اقلع الخلايا السرطانية

الفاسدة التي تتكاثر في قلبه، وذلك عن طريق التذكر المستمر.

وهكذا يوجهنا القرآن الحكيم في مجال الحديث عن البعث إلى أن نتذكر أبداً، كيف كنا؟ وكيف خلقنا؟ وكما كنا وخلقنا وترعرعنا، كذلك يعيدنا الله سبحانه مرة أخرى.

بينات من الآيات:

وعد الرحمن

[٦٠] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ يبين القرآن في هذا السياق ثلاث مراحل مر بها المجتمع:

مرحلة الرواد والقادة وهم الأنبياء عليهم السلام، ومرحلة الانحراف بعدهم الذي قال عنه ربنا في آية أخرى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: ٥٩]، ومن رحم هذا الجيل جاءت طائفة مثلت المرحلة الثالثة؛ حيث إنهم تحدوا سلبيات هذا الجيل الفاسد وتابوا وأصلحوا، فهيأ الرب لهم الجنات.

[٦١] ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ إن الجنات لا ترى بالشهود. فالطالب الذي يجسد أمام ناظريه قاعة الامتحان، والتاجر الذي يتصور يوم خسارته، والجندي الذي يتخيل في ذهنه ساحة المعركة، إن هؤلاء أنفع من غيرهم، وهكذا الحياة كلها والقرآن الحكيم يقول: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فالرحمان برحمته الواسعة يريد أن يرحم عباده الذين خلقهم فجعل لهم جنة كبيرة مليئة بالطيبات والنعم، ولكن بشرط أن يؤمنوا بها بالغيب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ ما دام ذلك الوعيد هو وعد الله فهو لا ريب آت.

[٦٢] ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ اللغو هو الانحراف مثل السب والفحش، والجدل، وكل ما يعكس حالة العداء بين الناس، ويقابله السّلام ذلك النور الذي يضيء الجنة وإن أول وأهم تجليات السّلام هو سلام القلب حيث يعيش الجميع في ظل رب السّلام يشربون من كأس السلام، ويسرحون في وادي السلام، ويسمون إلى أفق السلام، ولا يبقى غلٌّ في قلوبهم، ولا طمع ولا حسد، وإذا التقى بهم خزنة الجنة حيّوهم بالسّلام: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

وربهم سبحانه يحييهم بالسّلام: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧].

وسلام القلب يعكس سلامة الأعضاء والعافية من جميع الأخطار الحالية والمستقبلية: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يظهر من هذه الآية ومن النصوص أن أفضل وجبات الرزق ما كان أول النهار وآخره[1].

ولعلّه في الجنة يتبدل الوقت إلى ما يشبه الليل والنهار بازدياد النور ونقصه ونتساءل: أليست الجنة تفيض أبداً بالنعم، فلماذا إذا الرزق بكرة وعشياً. والجواب: إن المؤمن يزداد رزقاً كل يوم ويسير نحو التكامل هناك أبداً.

فقد جاء في حديث نبوي شريف: «وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلون فيها في الدنيا»[2].

[٦٣] ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ فالجنة ميراث العباد الذين قاموا باكتسابها في الدنيا عن طريق التقوى.

[٦٤] ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ لا تنزل الملائكة من السماء إلى الأرض إلا بأمر الله وحكمته، كما جاء في الحديث: إن النبي ﷺ قال لجبرئيل: «**مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ؟**» فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[3]. وهذه الآية توحي بأن الوعد الذي وعد الله سبحانه وتعالى عباده بالغيب إنما هو وعد أكيد أثبته القرآن، لا ينزل إلا بأمر الله سبحانه.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إن الله تعالى هو الذي وعد وليس (الملائكة) التي وعدت، وإنما الملائكة رسل لله تأتي بالوعد إلى البشر ومن ثم فإنّ الله لا ينسى وعده.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ الله سبحانه وتعالى وعدكم وهو يعلم وعده وسيفي لكم به، ولو كان ربنا سبحانه ينسى، إذا لاختلّ نظام الكون، ولما استطاع أن يلبي نداء الكائنات، ولما استطاع أن يحفظ جزاء المحسنين، أو يميز المحسن من المسيء حين لقائه.

الإيمان بالله وبالبعث

[٦٥] ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ إن طاعة الله وعبادته والاستقامة عليها بحاجة إلى صبر عظيم ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ لأن عبادة الله تعني التحرر من كل

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج٣ ص٣٥١.

(٢) تفسير القرطبي: ج١١ ص١٢٧، روح المعاني: ج١٦ ص١١٢ دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٣) بحار الأنوار ج١٨ ص١٩٧.

القيود، والارتفاع فوق كل السفاسف، والصبر أمام كل الضغوط، لذلك فإنَّ القرآن الحكيم يقول: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أي حمل نفسك الصبر حتى تستطيع أن تعبد ربك.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ لعلَّ أحد معاني هذه الآية هل هناك إله يدعي ولو مجرد ادّعاء بأنه رب السماوات والأرض، ورب هذه الآفاق البعيدة اللاّمتناهية؟!.

كلا، ليس هناك أحد يدعي الألوهية بهذا المعنى، أما هؤلاء الطواغيت الذين يدّعون الألوهية صراحة أو ضمناً، فإن أقصى ما تصل إليه ادعاءاتهم هو أن يقولوا: نحن نمتلك جنوداً نسيطر عليهم، أو أننا نسيطر على قطعة أرض.

[٦٦] هذا عن الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهناك بعد آخر من الإيمان هو الإيمان باليوم الآخر، وإذا ما آمن الإنسان بهذين البعدين (مبدأه ومعاده) فإنه يصبح إنساناً متكاملاً، لذلك يركز القرآن الحكيم دائماً عليها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أتصور أن القرآن حينما يستخدم كلمة (الإنسان) دون كلمة الناس أو البشر وما أشبه فإن ذلك للدلالة على طبيعته، فهناك غريزة أركزت في خلقة البشر وهي: إن هذا الإنسان كثيراً ما يتساءل إذا ما متُّ لسوف أخرج حياً؟! هل الموت نهاية أم بداية، أم مرحلة بين هذه وتلك؟.

[٦٧] ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ على الإنسان أن يفكر.. ماذا كنت قبل أن أخلق، إن الذي خلقني وأوجدني يستطيع أن يعيدني، وهذا الكلام ليس كلاماً يمكن أن يقنعك بمجرد طرحه عليك، إنما هذا يوافق الوجدان، فإذا عدت إلى وجدانك وتذكرت أحوالك الماضية، وتخيلت العدم الذي كنت فيه، وكيف جئت بعد ذلك إلى الوجود، آنئذ تفهم قدرة الله سبحانه وتعالى، وتحيط ببعض أسمائه الحسنى، وكذلك تعرف نفسك، وتعرف أنك مخلوق، وأنك مقدر، وأن الله هو الذي يدبر حياتك وبذلك تستطيع أن تؤمن بالآخرة.

وإن منكُم إلا واردُها.. ثُمّ ننجّي الَّذين اتّقوا

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[1] (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[2] (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا[3] (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا[4] (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾.

هدى من الآيات:

الآخرة صورة مصغرة عن الدنيا من أعمال وتصورات وأفكار، والقرآن الحكيم حين يعرض لنا مشاهد الآخرة، فإنه يشير إلى تلك الحقائق التي صنعت هذه المشاهد لكي يقرب فهم الإنسان من واقع عمله في الدنيا، وكيف يتحوَّل إلى شيء حي في الآخرة.

والقرآن الحكيم في هذا المشهد الرهيب يبين لنا: كيف أن العلاقات التي كانت في الدنيا تتطور وتتغير لتتجسد في الآخرة، فتصبح هنالك شيئاً آخر وبالتالي تحدِّد طريق الإنسان إما إلى

(١) جثياً: الجثي جمع جاثي وهو الذي برك على ركبتيه.
(٢) عتياً: العتي مصدر كالعتو وهو التمرد والعصيان.
(٣) ندياً: الندي والنادي المجلس الذي قد اجتمع أهله.
(٤) رئياً: الرئي ما يراه الرجل من ظاهر أحوال القوم.

الجنة أو إلى النار.

إن الرجل الذي تتبعه وتطيعه في الدنيا سوف يكون أمامك إما إلى الجنة أو إلى النار، ويركز القرآن في هذه الآيات حول أولئك الذين يهدون الناس إلى النار، إذ لابد أن نتفكر جيداً لكيلا نربط مصيرنا بالبعض بصورة عفوية، ومن دون تفكير.

ثم يحدد القرآن لنا جانباً من واقع الآخرة وارتباط الدنيا بذلك الواقع وهو: أن الدنيا تحتوي على خير وشر، صلاح وفساد، فالخير والصلاح يتحولان في الآخرة إلى جنة ونعيم أما الشر والفساد فيتحولان إلى عذابٍ شديد، ومن اتّقى في الدنيا الشر والفساد، وابتعد عنهما بالرغم من أنهما كانا يحومان حوله ويحوم حولهما، فإنه في الآخرة يدخل نار جهنم، ولكنه يخرج منها بسرعة.

القرآن الحكيم يوضح لنا حقيقة فيقول: إن الناس جميعاً سوف يدخلون نار جهنم؛ لأنهم جميعهم في الدنيا كانوا قريبين من الشر والفساد، لذلك تجدهم في الآخرة قريبين من نتائجهما، ولكن الذي ابتعد عنها عملياً في الدنيا فإنه يستطيع أن ينقذ نفسه من نتائجهما عملياً في الآخرة، ومن لم يفعل ذلك فإن شر جهنم سوف يحيط به.

لنتصور الشر الذي يقوم به الإنسان في الدنيا، حين يؤذي الناس (بلسانه - بقلمه - بعمله) فإنَّ أعماله هذه تتحول في الآخرة، إلى حية حجمها بقدر حجم الأذية التي سببها للآخرين في الدنيا، وعندما يأتي الإنسان في يوم القيامة يتحتم عليه أن يعبر جهنم لكي يدخل الجنة وفي حالة عبور يلتقي بصاحبته تلك الحية..

إذن دعنا نتصور أن الحياة الدنيا هي نفسها الآخرة، إلا أنها في الآخرة أكبر.

وهنالك فكرة تذكر بها هذه الآيات وهي: إن بعض الناس يحسبون أن النعم التي يوفرها الله لهم دليل على أنهم قريبون منه سبحانه، فإذا لم يكن الله يحبهم فلماذا أعطاهم القوة والمال والأولاد والجاه والجمال والحيوية؟!.

هناك آيات كثيرة من القرآن تنفي هذه الفكرة وتقول: كلا.. إن النعم التي يسبغها الله على الإنسان في الدنيا قد تكون بسبب رضا الله عنه، وقد تكون بسبب سخطه عليه، وأن الذي يكفر ويظلم، يوفر له النعم حتى يستدرجه أكثر فأكثر فيأخذه مرة واحدة، إما العذاب في الدنيا، وإما العذاب في الآخرة.

بينات من الآيات:

[٦٨] إن الله سبحانه لا يحضر الإنسان وحده في يوم القيامة وإنما يحضره مع شياطينه،

فكما أن الشياطين كانوا يغوون الإنسان ويضلونه في الدنيا، فهم في الآخرة يقومون بدور تعذيبه، فالشيطان كان يتبعه في الدنيا (يظلمه ويؤذيه ويجرح كبرياءه) وأنه يراه يوم القيامة أمامه يتلقاه بالصفع والضرب، والشيطان الذي كان في قلبه يدفعه إلى اتّباع الشهوات ولم يره ولم يشاهد صورته هنا، ولكنه سيأتي في يوم القيامة بأقبح وجه وأول عمل يقوم به اللعين هو أن يبصق في وجهه ويقول للإنسان: ماذا جنيت عندما اتبعتني، فبئس المصير مصيرك، فيقول له: لقد اتبعتك فخلصني من النار، فيجيبه: دعني أخلص نفسي أولاً!.

إذن فعلاقاتنا السيئة في الدنيا مع الشياطين (شياطين الجن والإنس) ستستمر إلى الآخرة ويصبح هؤلاء -إن لم نتب- قرناء لنا في الآخرة منذ المطلع وإلى دخول النار، والعياذ بالله. القرآن الحكيم يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي لنبعثنهم محشورين مع شياطينهم الذين اتبعوهم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ يحشر الله الناس حول جهنم جاثمين على ركبهم، ذلك أنهم لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم من شدة الخوف؛ إذ يمنعهم الزحام الشديد من الاستلقاء أو اتخاذ جلسة مريحة، ولذلك هم يضطرون إلى اتخاذ وضع الجثو على ركبهم وفي ذلك مزيد من العذاب لهم.

[٦٩] ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ في يوم القيامة، يشير الله إلى إمام المجرمين فيعزله، ليكون قائداً لأتباعه إلى النار.

والشيعة: كل مجموعة يشايعون أحداً ويتبعونه.

[٧٠] ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ من الذين يكونون أولى بدخول نار جهنم؟ إنهم أئمة الضلال وقادة الأنظمة الجائرة والفاسدة، فهم أول من يدخلها، ثم يتبعهم شيعتهم الأقرب فالأقرب، الملك أولاً ثم رئيس الوزراء، ثم الوزراء ثم الموظفون، وهكذا حسب درجاتهم في الدنيا واتباعهم للإمام الظالم، فإنهم يوم القيامة أيضاً يتبعونه إلى نار جهنم.

[٧١] ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ كل واحد منكم سيرد نار جهنم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ إن هذا حتم قطعه الله على نفسه، فكما أن كل إنسان يدخل الدنيا ليمتحن فيها، كذلك كل إنسان يدخل النار في الآخرة وعليه أن ينقذ نفسه بما قدّم من أعمال صالحة في الدنيا، ولقد جاء في حديث عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ، قال: «يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ بِأَعْمَالِهِمْ فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْعِ الْبَرْقِ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ ثُمَّ كَالرَّاكِبِ ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ثُمَّ كَمَشْيِهِ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص ٢٤٩.

وجاء في حديث عن رسول الله ﷺ يقول: «**يَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُزْ يَا مُؤْمِنُ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي**»[1].

[٧٢] ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ يبقى الظالمون جاثين على ركبهم في جهنم ليذوقوا العذاب، لأنهم ظلموا أنفسهم ولم يتقوا نار جهنم في الدنيا.

يقول رسول الله ﷺ في خطبته التي ألقاها قبل شهر رمضان: «**اتَّقُوا النَّارَ وَ لَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[2]. إن شقّ التمر الذي يعطيه الإنسان سوف يكون له خلاصاً من نار جهنم بقدره، وكلّ عمل صالح يعمله في الدنيا يصبح زاداً لمسيرة الخروج من نار جهنم.

المقاييس المادية

[٧٣] ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ هنا يعالج القرآن مشكلة نفسية أخرى وهي مشكلة تقييم الحقائق بالماديات، فقد تتلى آية من القرآن على إنسان فلا يستمع إليها باعتبارها آية قرآنية نزلت من السماء، لماذا لأن الذي يتلو عليه تلك الآية رجل فقير، فيقول في نفسه: كيف أسمع كلامه؟! في الحقيقة أنت لا تسمع كلامه، وإنما تسمع كلام الله، وهكذا فهو يقيم الحقائق بحسب وضعه المادي، ويقول: أي الفريقين: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

خير مقاماً: يعني أحسن مكاناً، وأكثر ندياً: أكثر أصحاباً وجماعة.

[٧٤] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ لقد أهلكنا كثيراً من الأمم السابقة بالرغم من أنهم كانوا يمتلكون الأمتعة ومظاهر الأبهة والعظمة، لأنهم لم يفكروا أو يعتبروا.

إن الحقائق تقاس بذاتها لا بما يملك الإنسان من ماديات ومظاهر، وإن هذه المظاهر ليست دليلاً على أن الله يحب صاحبها أو أنه يرضى بعمله.

[٧٥] ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾ إن الله يمد في ضلالة الإنسان الضال، بإمداده بالنعم، حتى يفقد الأمل في العودة إلى الهداية، آنئذ يأخذه مرة واحدة أخذ عزيز مقتدر.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٣، ص٣٥٦.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أما عذاباً بئيساً في الدنيا أو عذاباً بئيساً في الآخرة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ آنئذ يعلمون بأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من الله شيئاً، كما أن أصحابهم وجنودهم ورجالهم لا يغنون عنهم من الله شيئاً إذا حانت ساعة التغيير والإطاحة بهم، وأحاط بهم العذاب على يد المستضعفين في الدنيا، أو سبق الأجل حركة المستضعفين فأخذهم إلى نار جهنم، حينئذٍ سيعلمون عاقبة الغرور بالدنيا وزينتها.إن فخر الإنسان ومباهاته يجب أن يتأخر إلى الآخرة، وإذا خطر بباله أن يغتر بالدنيا فعليه

أن ينهى نفسه عن ذلك ويقول لها: انتظري إلى يوم القيامة، حينما تكون الجنة من نصيبك فآنئذٍ يحق لك الافتخار والاختيال أما إذا رموك مثلما ترمى القمامة في نار جهنم فهل تستطيع في هذه الحالة أن تدعي لنفسك شرفاً؟ كلا.. إنه في نفس الوقت الذي يمد الله في ضلالة الضالين فإنه يمد في هداية المهتدين بهداه، وهذا هو الفرق، فإنك إذا أصبحت مهتدياً فإنَّ الله يزيدك هدى، أما الإنسان الضال فإن الله يزيده شهرة وأموالاً وأنصاراً ويملي له إلى حين.

الباقيات الصالحات خير عند ربك

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ[1] أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار الموضوع العام لسورة مريم في ترشيد العلاقة بين الإنسان وبين أولاده وأسرته. ولكن لا تضل هذه العلاقة عن الصراط المستقيم.تعالج آيات هذا الدرس مرض النفس البشري وهو الغرور بالمال والولد، وتبين أن اهتداء البشر من مسؤوليته إلا أن الله يزيده هدى، وأن من أهم ما يهدي إليه الربّ عبده العمل للمستقبل.ذلك أن الأعمال الصالحات التي تبقى خير عند الله ثوابها، وخير مصيرها، أما الضالون الذين يكفرون بآيات الله، ويفترون بها أوتوا من مال وولد.ولكن هل اطلعوا على الغيب وعلموا أن الله لا يعذبهم، أم اتخذوا عند الرحمان بذلك عهداً.كلا.. إن ادّعاءه الكاذب بذلك سوف يصبح بذاته وبالاً عليه.سوف يمد الله له من العذاب مداً، وسوف يورثه الله أقواله، ويمتثل أمام ربه للجزاء وحده من دون مال وولد.

وتراهم اتخذوا آلهة من دون الله، ليعتزوا بهم.كلا.. بل سوف تكون عبادتهم للآلهة وبالاً

---

(١) تؤزهم: الأز الازعاج وقيل تؤزرهم أزاً أي تغريهم بالمعاصي إغراءاً.

عليهم، فيكفرون بعبادتهم، وينقلبون ضدهم. إن الشياطين يثيرون الكافرين، ويسوقونهم نحو الضلالة، فلا تعجل في طلب العقوبة لهم. إذ إن استمرار ضلالتهم وكفرهم سيكون سبباً لمزيد العقاب عليهم. هكذا ينبغي أن يتقي البشر الاعتماد على المال والولد والآلهة، وتكون صلته بالله هي الأسمى والأعلى والأمتن.

بينات من الآيات:

[٧٦] بما أن آيات الذكر لا تسدي إلينا الوصايا والمواعظ فحسب، بل تعالج بعمق الانحرافات النفسية التي تجعل الإنسان يتورط في علاقات شاذة مع زينة الحياة الدنيا، من مال وولد، سواء بالغرور بها أو بالاستسلام لها من دون إرادة أو تفكير، وهكذا يؤكد السياق هنا أن (قرار) الاهتداء إلى الله من مسؤولية البشر، فعليه أن يخطو إلى ربه الخطوة الأولى. حيث سيتولاه الله بعدئذٍ برحمته فيزيده هدى.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ وليس على الإنسان أن يلاحظ لحظاته الحاضرة فقط، وإنما ينظر بعيداً إلى المستقبل، وماذا يجب أن يعمل فيه.

إن الأعمال الحسنة بالرغم من أنها قد تبدو ضائعة في بادئ الرأي، إلا أنها باقية، وستعود إلى صاحبها بصورة مضاعفة، لذلك نجد القرآن الحكيم يقول، عن الباقيات الصالحات، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ أي إنها ترد إليك أضعافاً مضاعفة بعد أن تزكو وتنمو.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ فجزاؤه أفضل، وعاقبته أحسن.

بلى إن كل فعل صالح تقوم به اليوم يصبح غداً جنات واسعة تعيش فيها بإذن الله خالداً. حتى الكلمات التي يلهج بها اللسان، وقد يستهين بقدرها المرء تصبح مواداً أولية لبناء قصوره في الجنة.

جاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن جده الأكرم محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: **«لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قيعان[1] [قِيعَاناً] وَرَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةً يَبْنُونَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَ لَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَرُبَّمَا أَمْسَكُوا. فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا بَالُكُمْ قَدْ أَمْسَكْتُمْ. فَقَالُوا: حَتَّى تَجِيئَنَا النَّفَقَةُ فَقُلْتُ وَمَا نَفَقَتُكُمْ قَالُوا قَوْلُ الْمُؤْمِنِ سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ فَإِذَا قَالَ بَنَيْنَا وَ إِذَا أَمْسَكَ أَمْسَكْنَا»**[2].

---

(١) أي أراضي بيضاء.
(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص١٧٦.

[٧٧] ثم يبين بأن أولئك الذين يتعلقون بأموال الدنيا، ويزعمون بأن سعيهم وعملهم ينبغي أن يكون من أجل الدنيا، ومن أجل الحصول على المال والولد.إن هؤلاء على خطأ كبير، لأن زينة الحياة الدنيا ليس من المؤكد الحصول عليها، فقد يحصل الإنسان عليها وقد لا يحصل.

ولو افترضنا أنه حصل عليها، فليس من المضمون أن تكون رحمة، بل قد تكون عذاباً له، إما في الدنيا أو في الآخرة.وأخيراً، فإنَّ ما يحصل عليه الإنسان قد يسعده في الدنيا، ولكن هل الدنيا نهاية رحلة الإنسان؟ كلا..

إذن، عليه ألاَّ يحصر كلَّ اهتمامه، وكلَّ سعيه من أجل الحصول على المال والولد، كما عليه ألاَّ يتعلق بغير الله ويجعله إلهاً يعبده من دونه، فإن المال قد يصبح معبود الإنسان، كذلك الولد، والعلم والغنى.

وعموماً إن على الإنسان ألاّ يفقد ذاته من أجل شيء، أنى كان ذلك الشيء.

فإذا عشقت العلم لمجرد العلم، وليس لمنفعتك ولا لمنفعة الناس، وإذا أحببت الفن للفن لا لمنفعتك ولا لمنفعة أحد، وأي شيء في الحياة لو عشقته عشقاً مجرداً من دون أن تفكر في مدى منفعته لك أو لمجتمعك أو لقيمك، فإنَّ ذلك لن يكون مجدياً. لأن هذا الشيء سوف ينتهي ولن يعطيك شيئاً، بل سوف تخسر نفسك، وتخسر آمالك وتطلعاتك.

نعم، العلم في حدود الإيمان، والفن من أجل سعادتك وسعادة الناس، والسلطة من أجل العدالة، والثروة من أجل العمارة، وهكذا سائر أشياء الحياة الدنيا إن كانت من أجل القيم وفي حدود القيم كانت نافعة لأننا آنئذٍ نحب تلك الأشياء لأننا نحب القيم، أما إذا انعكست الآية وأردنا أن تكون القيم وراء الأشياء، وتحولت الحياة إلى شيء يعبد من دون الله، فإنَّ هذا لن ينفعنا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، يقول ربنا سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ في مقابل الباقيات الصالحات التي يدّخرها الإنسان لمستقبله، هناك من يسعى ويدّخر جهوده ليس من أجل الباقيات الصالحات، وليس من أجل الله، ولا رسالته، ولا من أجل المجتمع، إنما لكي يصبح أكثر أموالاً وأولاداً.

والقرآن الكريم يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ أي انظر وتدبر في عاقبة هذا الرجل الذي كفر بآياتنا. إن الإنسان الذي يسعى من أجل المال والولد في حدود الإيمان بالله وفي حدود القيم فلا بأس عليه، أما الذي يكفر بالآيات من أجل المال والولد وغروراً بهما فما عليه إلا أنْ ينتظر عاقبته، ويبدو من الآية: أن الإنسان يشعر في قرارة نفسه بالضعف، وفطرته تدعوه

إلى أن يجبر هذا الضعف الذاتي بالإيمان بالله، وبآياته المبثوثة في الكون، والمنزلة على النبي في الكتاب، إلا أن الشيطان قد يضله عن هذا السبيل الحق، ويغويه بالتمسك بالمال والولد بزعم أنهما يغنياه شيئاً ويجبران ضعفه الذاتي، ولكن هيهات.

هل يعلم هذا الإنسان بأنه سيحصل على المال والولد حتى يؤكد ذلك تأكيداً ويقول: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا﴾ بلام التأكيد ونونه؟ كلا.. وأبسط دليل على عدم علم الإنسان بالغيب هو أن يحاول كتابة قائمة تفصيلية بما سيعمله غداً، ثم يحاول في اليوم الثاني بكل جهده أن يعمل كل الأعمال التي كتبها في برنامجه، ولكنه سيجد نفسه قد فشل في تطبيق كثير من بنوده لأي سبب من الأسباب.. يقول الامام علي عليه السلام: **«عَرَفْتُ الله سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وحَلِّ الْعُقُودِ ونَقْضِ الْهِمَمِ»**[1].

[٧٨] ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ إن ضمان تطبيق شيء لا يكون إلا عن طريق أمرين: إما العلم بالمستقبل، وإما قدرة الله، ولكن الإنسان الذي ليس لديه ضمانة من الله ولا علم له بالمستقبل، كيف يعتمد على شيء غير موجود. جاء في حديث في سبب نزول الآية ما يلي:

عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إن العاص بن وائل بن هشام القرشي ثم السهمي وهو أحد المستهزئين، وكان للخبّاب بن الأرت على العاص بن وائل حق، فأتاه يتقاضاه، فقال له العاص: ألستم تزعمون أن في الجنة الذهب والفضة والحرير؟ قال: بلى، قال: فموعد ما بيني وبينك الجنة فوالله، لأوتين فيها خيراً ممّا أوتيت في الدنيا، يقول الله عز وجل: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ والضد القرين الذي يقرن به»[2].

[٧٩] ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ وأما ما يحصل عليه عملياً من نعم ومكاسب مادية في الحياة الدنيا، فمن يضمن أنها ستكون مصدر سعادة له، بل على العكس من ذلك قد تجرّه إلى تعاسة وعذاب.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ إن هذه النعم ليست سعادة بالنسبة إليه، وإنما هو ذنب

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٢٤٧.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٥٤.

عجلت عقوبته، كما جاء في الحديث وهو لا يشعر بذلك.

[٨٠]﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ معنى الآية -كما ذكروا- إن الله يرث ما يقوله الفرد عن المال والأولاد، وبتعبير آخر: يرث الله منه ما يعتمد عليه.

إن ما يحصل عليه من المال والولد سيذهب عنه بعد حين، والذين كان لديهم أموال وأولاد ذهبوا عن أموالهم وأولادهم أيضاً، ولم يصحبوا معهم إلى القبر سوى قطعتين من الكفن.

الله سبحانه هو الباقي وهو الذي يرث الأرض ومن عليها، فالأولاد والأموال لا تبقى له ولا هو يبقى لها، ويوم القيامة يأتي وحده عارياً حافياً حاسراً، لا يملك أي شيء ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

[٨١] إن البشر يبحث عن شيء أو شخص يعتمد عليه، ويجبر به ضعفه الذاتي، ويعالج به شعوره بالضعة والذلة.فقد يتخذ المال والأولاد جابراً لضعفه فيعتز بها، وقد يبحث عن آلهة من أصنام بشرية أو حجرية - فيقول عنه ربنا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ هؤلاء بدورهم اتخذوا آلهة انتموا إليها من أجل أن يكونوا أعزاء، وأساساً الانتماء إلى جهة ما سواء كانت عشيرة، أو حزباً، أو تياراً سياسياً، أو سلطة حاكمة، أو ما أشبه، إن لم يكن من أجل الله، ومن أجل القيم والرسالة، فلابد أن تكون من أجل العزة الدنيوية، ذلك أن الإنسان حينما يشعر بنقصه الذاتي فيرى نفسه مهيناً ضعيفاً يحاول الانتماء إلى جهة معينة، كأن ينتمي إلى تيار حزبي مثلاً لكي يعطيه العزة التي يبحث عنها، وهناك طائفة كبيرة من الناس -وللأسف- يسيرون على هذا النهج، فهم بالإضافة إلى أنهم لن يجدوا عندهم العزة، فإنهم سيكونون عليهم ضداً.

[٨٢] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ آنئذ سيندمون ندماً شديداً، ويتحسرون على شبابهم الذي ضيعوه في خدمة هذا التجمع الزائف، وقيادته الكافرة، ويقولون: لقد اتّبعناه ووفّرنا له العزة والسلطة على حساب مصلحتنا، ومصلحة أمتنا، وقيم رسالتنا، ولم نحصل مقابل ذلك إلا على سخط الله من جهة وعداوة من انتمينا إليهم.وهذه النهاية المأساوية ليست مقصورة على يوم القيامة، بل هي كثيراً ما تتحقق في الدنيا قبل الآخرة، إن الطاغية الذي نتّخذه من دون الله إلها، تسمع له، وتطيع أمره، وتزعم أنه عز لك، إنه يكفر بعبادتك ولا يوفر الحماية لك، بل إنه سيكون ضدك لأنه يعيش لنفسه فحسب، وإذا خالفت مصالحه مصالحك فإنه سوف يضر بك عرض الحائط، وكل تاريخ الطغاة شاهد حق على هذه الحقيقة، ولعلك

تقول: إني لا أعبده، بل أطيعه. كلا. إنك تعبده حين تسمع له، وتطيع أمره، وما جوهر العبادة إلا الطاعة. جاء في حديث شريف في تفسير هذه الآية.

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ الله عَلَيْهِمْ ضِدّاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: لَيْسَ الْعِبَادَةُ هِيَ السُّجُودَ وَ لَا الرُّكُوعَ إِنَّمَا هِيَ طَاعَةُ الرِّجَالِ مَنْ أَطَاعَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَقَدْ عَبَدَهُ. وقوله عز وجلّ: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال: لما طغوا فيها، وفي فتنتها، وفي طاعتهم، ومد لهم في طغيانهم وضلالتهم، أرسل عليهم شياطين الإنس والجن ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أتنخسهم نخساً، وتحضهم على طاعتهم وعبادتهم، فقال الله عزوجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي في طغيانهم وفتنتهم وكفرهم»[١].

جزاء الكافرين

[٨٣] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ إن الشياطين يدفعون الكافرين دفعاً إلى العذاب، إلى حيث النقمة والشقاء. هكذا يفعل الشياطين بالكافرين، ولكن الله ليس بظلام للعبيد، فهو لا يبعث الشياطين على المؤمن المخلص الذي انتهج منذ البدء طريق الهدى، والشيطان لا يقدر عليه مهما حاول جهده، أما ذلك الانسان الذي كفر بالله ابتداء، وترك الاعتصام بحبله، وظل بدون محور صحيح يدور عليه، ولا قاعدة ثابتة يعتمد عليها، فإنَّ الله يرسل عليه شيطاناً يدفعه إلى النار في الآخرة، والعذاب في الدنيا، والآية هذه شاهدة على الآية السابقة، إذ أن الشياطين وهم الحكام الظلمة، والأحزاب الكافرة، وإبليس وجنوده، لا يزالون ينخسون مريديهم وتابعيهم، ويحرضونهم على طاعتهم حتى يوردونهم نار جهنم.

[٨٤] ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لذلك لا تعجل على هؤلاء الذين يمشون في هذا الطريق، وينتمون إلى الفئات المشبوهة الباطلة، في سبيل تثبيت أركان الظالمين: فإنَّ الشيطان سوف يدفعهم إلى مصيرهم المحتوم. جاء في حديث عن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال: نزلت في مانعي الخمس والزكاة والمعروف يبعث الله عليهم سلطاناً أو شيطاناً فينفق ما يجب عليه من الزكاة والخمس في غير طاعة الله ويعذبه الله على ذلك»[٢].

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ إن كل خطوة يخطونها، وكل سعي يسعونه، يتحول إلى عذاب

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٩٤، تفسير القمي: ج٢ ص٥٥.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٥٣.

يعده الله لهم، ويحصيه عليهم، وقد جعل لدى كل واحد منهم رقيباً من الملائكة، يسجل عليه كل حركاته وسكناته بدقة بالغة، بحيث لا يفوته أدق الأمور، وهذا الرقيب لا يمل، ولا يتعب، ولا يعتريه الخلل أو العطل، وربما لذلك يستغرق عذاب الآخرة وقتاً طويلاً، قد يبلغ ملايين السنين، وهي الفترة اللازمة لمعاقبة المجرم على كل ما اقترفه في الدنيا من آثام.

فَنَفَس واحد يتنفسه المجرم في مجلس الشيطان، أو في مجلس الظالمين، أو في مجلس السوء أو.. أو.يسجل عليه إثماً، فكيف إذا كان يُجَيِّش الجنود في خدمة الظالمين وحرب المؤمنين؟!.

إن كل عمل تقوم به مهما كان صغيراً سوف يتحول إلى عقرب يلدغه يوم القيامة، وسواء كان يؤمن بهذا الشيء أو لا يؤمن، فذلك غير مهم، فليس من الضروري أن تؤمن بأن هذا لشيء الذي تأكله إنما هو سم قاتل حتى يضرك، فإذا أخذت قرصاً وبلعتها زاعماً أنها قطعة سكر وكان سماً، فهل ذلك يدفع عنك تأثير السم؟ كلا.

هكذا إذا كنت تخدم الظالم ولا تؤمن بإنك تقوم بجريمة؛ فإنَّ ذلك سوف يكتب عليك جريمة؛ لأنك اخترت طريق الخطأ، وسواء أرضيت أو لم ترض، فهذا قدر الله وقضاؤه، ويجب أن تخضع لأمر الله سبحانه.

إن من يريد أن يخلص نفسه يجب عليه أن يتوب سريعاً، أما إذا جاءه الموت أو الساعة، وقرّر أن يتوب فتوبته ستكون غير مقبولة.جاء في حديث شريف **قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله** عليه السلام **قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قَالَ: «مَا هُوَ عِنْدَكَ قُلْتُ عَدَدُ الْأَيَّامِ قَالَ إِنَّ الْآبَاءَ والْأُمَّهَاتِ يُحْصُونَ ذَلِكَ لَا ولَكِنَّهُ عَدَدُ الْأَنْفَاسِ»**[1].

---

(١) الكافي: ج٣ ص٢٥٩، تفسير القمي: ج٢ ص٥٣.

وقالُوا اتّخذ الرحمنُ ولداً

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[١] (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[٢] (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[٣] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا[٤] (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا[٥] (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[٦] (٩٨)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من سورة مريم يذكّرنا القرآن بسلسلة من الحقائق، تلك التي ذكرت بها الدروس السابقة، وهي تصلح علاقتنا بالناس والأشياء وأبرزها:

---

(١) ورداً: الورد الجماعة التي ترد الماء.
(٢) إداً: الأمر العظيم.
(٣) يتفطرن: أي يتفتتن ويتشققن.
(٤) هداً: الهدم بشدة صوت.
(٥) لداً: اللد جمع اللد وهو المخاصم الشديد الخصومة.
(٦) ركزاً: صوتاً خفياً.

تذكرة الإنسان بيوم القيامة، حيث يحشر المتقون مكرمين إلى ربهم وفداً، بينما يساق المجرمون إلى جهنم ليردوها ورداً، وهذه التذكرة ليست تذكرة عقائدية فحسب، وإنما تخلق أيضاً معادلة في فؤاد الإنسان؛ ذلك لأنه إذا عرف الإنسان بداية شيء ونهايته، فإنه يعرفه بصورة أفضل، وبدون ذلك فإنَّ معرفته تكون ناقصة.

وإذا عرف إلى أين تنتهي حياته الدنيا، وما هو مصيرها فإنه يكون قد حصل على معرفة عميقة بها، فيتعامل معها معاملة سليمة، علماً بأن آيات سورة مريم: كما الكثير من آيات القرآن -تهدف فيما تهدف- إلى جعل علاقة الإنسان بالحياة الدنيا علاقة سليمة.

وتشير آيات هذا الدرس إلى فكرة نفي الشرك، وبالذات فيما يرتبط برفض فكرة الولد، ولعلَّ الحكمة في ذلك أن فكرة الولد هي التي تكمن وراء النزعة العنصرية وهي من العلاقات الشاذة بين الإنسان وبين الآخرين.

إن الإنسان الذي يحسب نفسه ابناً لله، أو يحسب آباءه هكذا، تكون علاقته بآبائه وجماعته وعشيرته شاذّة، تتمحور حول (الشيء)، بينما القرآن الحكيم يهدف تحرير الإنسان من العلاقة (الشيئية) في الحياة، سواء كانت العنصرية أو العصبية اللتان هما من أبرز العلاقات الشاذة بين الإنسان وبين الآخرين.أو غيرهما من العلاقات الشيئية التي تخالفها علاقة القيم المعنوية التي تؤكد أنه ليس هنالك علاقة بين الله والإنسان سوى علاقتين، علاقة الخلقة، أي إن الله خلقنا ونحن عبيده، وعلاقة الإيمان والعمل الصالح، وبالتالي علاقة القيم، أما أية علاقة أخرى كعلاقة الانتماءات العصبي الجاهلي، فإنها مرفوضة في الإسلام.

يذكِّرنا القرآن بهذه الفكرة، ثم ينطلق بنا إلى آفاقها البعيدة فتبيِّن أن الإنسان عبد داخر لله، وأن كل من في السماء والأرض آت للرحمان عبداً، ويوم القيامة تسقط كل الانتماءات والعلاقات.ويحشرون إلى ربهم أفراداً لا جماعات عنصرية أو عصبية.لنتصوَّر ذلك اليوم.. ولنبرمج حياتنا وفقه.

فلان ابن من؟ أخو من؟ ينتمي إلى من؟ لنحذف كل هذه الكلمات من حياتنا، لكي نرى الحقيقة، التي تتلخص في أن الإنسان ابن عمله وابن إيمانه فقط، أما الانتماء الأخرى، فإنها جميعاً باطلة وليست بحقيقة.

وأخيراً تذكِّر الآيات بأن القرآن جاء لكي ينذر الإنسان، ولكن من الذي يستفيد من نذر القرآن؟ إنهم المتقون، أما المعاندون الذين قرروا سلفاً: عدم الإيمان بآيات القرآن، ولم يخشوا المستقبل، ولم يهدفوا خلاص أنفسهم ونجاتها من العذاب، فإنَّ هؤلاء لن يستفيدوا من

نذر القرآن ومواعظه، وسيكون مصيرهم مصير تلك القرون، التي هلكت ولم يعد يسمع لهم صوتاً عالياً أو خفياً.

بينات من الآيات:

الحشر والشفاعة

[٨٥-٨٦] ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾
هذا منظر من ذلك اليوم حيث يرى المتقون وفوداً مكرمة، يحشرون إلى لقاء ربهم، بينما يساق المجرمون كما تساق البهائم إلى جهنم. إن هذا المنظر وحده يكفينا عبرة لكي نختار طريق المتقين ووفدهم، على طريق المجرمين وورِدهم، جاء في حديث شريف مأثور عن تفسير علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سَأَلَ عَلِيٌّ عليه السلام رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال صلى الله عليه وآله: يا عَلِيُّ إِنَّ الْوَفْدَ لَا يَكُونُونَ إِلَّا رُكْبَاناً أُولَئِكَ رِجَالٌ اتَّقَوُا اللهَ فَأَحَبَّهُمُ اللهُ وَاخْتَصَّهُمْ وَرَضِيَ أَعْمَالَهُمْ فَسَمَّاهُمُ اللهُ الْمُتَّقِينَ، ثُمَّ صلى الله عليه وآله قَالَ: يَا عَلِيُّ أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِنَّهُمْ لَيَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ وَبَيَاضُ وُجُوهِهِمْ كَبَيَاضِ الثَّلْجِ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ بَيَاضُهَا كَبَيَاضِ اللَّبَنِ عَلَيْهِمْ نِعَالُ الذَّهَبِ شِرَاكُهَا مِنْ لُؤْلُؤٍ يَتَلَأْلَأُ»[1].

وفي حديث آخر قال: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَسْتَقْبِلُهُمْ بِنُوقٍ مِنْ نُوقِ الْعِزِّ عَلَيْهَا رَحَائِلُ الذَّهَبِ مُكَلَّلَةً بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَجَلَائِلُهَا الْإِسْتَبْرَقُ وَالسُّنْدُسُ وَخُطُمُهَا جَدْلُ الْأُرْجُوَانِ تَطِيرُ بِهِمْ إِلَى الْمَحْشَرِ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَلْفُ مَلَكٍ مِنْ قُدَّامِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ يَزُفُّونَهُمْ[2] زَفّاً حَتَّى يَنْتَهُوا بِهِمْ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ الْأَعْظَمِ وَعَلَى بَابِ الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِنَّ الْوَرَقَةَ مِنْهَا لَيَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا أَلْفُ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ وَعَنْ يَمِينِ الشَّجَرَةِ عَيْنٌ مُطَهَّرَةٌ مُزَكِّيَةٌ قَالَ فَيُسْقَوْنَ مِنْهَا شَرْبَةً فَيُطَهِّرُ اللهُ بِهَا قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَسَدِ وَيُسْقِطُ مِنْ أَبْشَارِهِمُ الشَّعْرَ وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ الْمُطَهَّرَةِ، قَالَ: ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ إِلَى عَيْنٍ أُخْرَى عَنْ يَسَارِ الشَّجَرَةِ فَيَغْتَسِلُونَ فِيهَا وَهِيَ عَيْنُ الْحَيَاةِ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَداً.

ثم قَالَ: ثُمَّ يُوقَفُ بِهِمْ قُدَّامَ الْعَرْشِ وَقَدْ سَلِمُوا مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَسْقَامِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ أَبَداً، قَالَ فَيَقُولُ: الْجَبَّارُ جَلَّ ذِكْرُهُ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمْ احْشُرُوا أَوْلِيَائِي إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا تُوقِفُوهُمْ مَعَ الْخَلَائِقِ فَقَدْ سَبَقَ رِضَايَ عَنْهُمْ وَوَجَبَتْ رَحْمَتِي لَهُمْ وَكَيْفَ أُرِيدُ أَنْ أُوقِفَهُمْ مَعَ أَصْحَابِ

(١) بحار الأنوار: ج٧ ص١٧٢.
(٢) زف العروس إلى زوجها: أهداها. قال العلامة المجلسي رحمه الله في (مرآة العقول): «أي يذهبون بهم على غاية الكرامة كما يزف العروس إلى زوجها».

الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ قَالَ: فَتَسُوقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا انْتَهَوْا بِهِمْ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ الْأَعْظَمِ ضَرَبَ الْمَلَائِكَةُ الْحَلْقَةَ ضَرْبَةً فَتَصِرُّ صَرِيراً[1] يَبْلُغُ صَوْتُ صَرِيرِهَا كُلَّ حَوْرَاءَ أَعَدَّهَا الله عَزَّ وجَلَّ لِأَوْلِيَائِهِ فِي الْجِنَانِ فَيَتَبَاشَرْنَ بِهِمْ إِذَا سَمِعْنَ صَرِيرَ الْحَلْقَةِ فَيَقُولُ بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ قَدْ جَاءَنَا أَوْلِيَاءُ الله فَيُفْتَحُ لَهُمُ الْبَابُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وتُشْرِفُ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهُمْ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ والْآدَمِيِّينَ فَيَقُلْنَ مَرْحَباً بِكُمْ فَمَا كَانَ أَشَدَّ شَوْقَنَا إِلَيْكُمْ ويَقُولُ لَهُنَّ أَوْلِيَاءُ الله مِثْلَ ذَلِكَ.

فقال علي عليه السلام: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُولَ الله؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هَؤُلَاءِ شِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ وَأَنْتَ إِمَامُهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ عَلَى الرَّحَائِلِ[2] ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾»[3].

من يملك الشفاعة؟

[٨٧] ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ الشفاعة في الدنيا نوعان: شفاعة: باطلة. وشفاعة صحيحة، فإذا قلت: أنا ابن فلان، وأنتمي إلى الدين الكذائي دون أن أعمل بتفاصيله وأعماله، فهذه شفاعة باطلة، وكذلك لو قلت: إنني أنتمي إلى هذا الحزب أو تلك المنظمة مما تعبد من دون الله، فأنت لا تشفع لهم ولا هم يشفعون لك، وإنما أنت شفيع عملك، أي إنك قرين عملك، وهو الذي يبقى معك، ومِنْ عمل الإنسان انتماؤه الصحيح إلى الرسالة، فإذا انتميت انتماءً صحيحاً إلى قائد أو إمام عادل، وأطعته طاعة مخلصة لوجه الله سبحانه، ثم أذنبت ذنباً صغيراً، فإنَّ الله يعهد إلى ذلك الامام بالشفاعة لك، وهذه هي الشفاعة الصحيحة. ومن ثم فأنت في وفد المتقين، وهذه فكرة الطاعة الواعية، التي تستتبع الشفاعة حتى ولو لم يكن هناك رابطة عنصرية ولا عصبية ولا قومية بينك وبين ذلك الإمام، ولكنك تطيعه لوجه الله، فأنت تكون ولياً له، وفي وفده يوم القيامة، ومن هنا جاء في حديث شريف تفسير العهد باتّباع الإمام العادل، حيث روي عن أبي بصير أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَالَ عليه السلام: «لَا يَشْفَعُ وَلَا يُشَفَّعُ لَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ بِوَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ فَهُوَ الْعَهْدُ عِنْدَ الله»[4].

---

(١) صرّ صريراً: صوت وصاح شديداً.

(٢) قال العلامة المجلسي: «الرحائل لعله جمع الرحالة ككتابة، وهي السرج أو جمع الرحال الذي هو جمع الرحل وهو مركب البعير».

(٣) بحار الأنوار: ج٧ ص١٧٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٦، تفسير القمي: ج٢ ص٥٦.

الشفاعة الباطلة

[٨٨] ثم يعود القرآن -بعد ذلك- لينسف فكرة الشفاعة الباطلة فيقول: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴾ إنما قالوا ذلك ليكرّسوا فكرة الشفاعة إذ إنهم يقولون: لأننا أولاد الله، أو أبناء المتقين، فسوف ندخل الجنة ولا يعذبنا الله شيئاً!.

والقرآن ينفي هذه الفكرة أساساً فيقول:

[٨٩] ﴿ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ أي إن فكرتكم هذه كذب عظيم، فالله هو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق المنظومات الشمسية والمجرات والفضاء اللامتناهي، ولو كان له ولد سبحانه، لوجب أن يكون ولده بمستواه سبحانه.

[٩٠] ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾ السماوات والأرض والجبال لا تتحمل تلك الكذبة المبتدعة، والقرآن الحكيم يعطينا هذه الصورة ليوضّح لنا: بأن هذه الكلمة ليست صغيرة في مقياس الحق، فالذي خلق السماوات التي لا يمكن أن تحصى نجومها، والذي خلق الأرض الواسعة، هل يمكن أن يتخذ ولداً؟!.

إن هذه فكرة غير متناسبة وعظمته سبحانه، ولا مع أية قيمة من قيم الفكر، وأي مقياس من مقاييس العقل!!.

ولعلَّ هناك إيحاءً آخر في هذه الآية، هو: أن الكذبة الكبيرة هذه، قد سببت جرائم كبيرة، بحجم تفطر السماوات وانشقاق الأرض، وهدّ الجبال، مثل الجرائم التي قامت بها النازيّة في العالم، أو التي قام بها العنصريون في جنوب إفريقيا، وحتى الجرائم التي تقوم بها الدول الكبرى في العالم.وكلها، حين نبحث عن جذورها، نجد أنها تنمو من أرض العنصرية الخبيثة، حيث إنها ناشئة من تمحور الإنسان حول ذاته، واعتقاده بأنه أفضل من نظائره.

انظر -مثلاً- إلى الأفكار العنصرية التي زعمت بأن الحضارة، إنما تنشأ من العنصر الآري؛ لأنه العنصر الذي خلقه الله بشكل أفضل، هذه السفاهة التي انتشرت بعد الثورة الفرنسية، والتزم بها بعض النبلاء والأشراف، وتورط فيها بعض علماء الاجتماع والتأريخ، علماً بأن الآريين لم يخلقوا الحضارة أصلاً في أي فترة من فترات التاريخ، وغاية ما في الأمر أنهم كانوا أسلاف اليونان الذين صنعوا الحضارة في التاريخ، ومن بين إحدى وعشرين حضارة نشأت في العالم، فإنَّ هذه واحدة منها فقط أما العشرون الباقية فهي غير أوربية، وإنما الأوربيون استفادوا منها، كما أنهم قد اقتبسوا من الحضارة الإسلامية كثيراً.

[٩١-٩٢] ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الرحمن الذي شملت رحمته كل عباده، لا يمكن أن يفرِّق بين جنس وآخر، ولا يمكن أن يقول إن البيض أو السود، أو الأوربيين أو الآسيويين أو غيرهم، هؤلاء دون غيرهم، يستحقون رحمتي.. إنه الرحمان وآثار رحمته موجودة في كل مكان.

نعم؛ إذا رأيت الشمس أشرقت فقط على آسيا، أو على أوربا أو أن الرياح حملت السحب إلى المدينة الكذائية، أو أن قارة أوربا فقط هي التي أنبتت الزرع واحتوت على المعادن، إذا رأيت مثل ذلك فربما يكون لك الحق في أن تقول: إن أولاد هذه القارة هم أبناء الله سبحانه، لكن شيئاً من ذلك لا يشاهد، فآثار رحمة الله تشمل كل شيء.إذن فهو لا يتخذ من بين عباده ولداً دون آخر وهذه هي العلاقة بين فكرة نفي الولد عن الله، واستخدام كلمة الرحمان المكررة في هذه الآيات، فلأنه الرحمان، فهو لا يفضِّل بعض الناس على بعضهم دون أن يكون ذلك التفضيل نابعاً من عملهم وسعيهم.

[٩٣] ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ هؤلاء جميعاً متساوون أمام الرحمان في عبوديتهم له.

[٩٤] ﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ إن الله لا يمكن أن ينسى أحداً من عباده أبداً، سواء كان في غابة أو في كهف فهو عبد الله والله قد كتب له اسماً، وقرَّر له مواهب، وأجرى له رزقاً، وكذلك المتربع على الكرسي في قصر العظيم.والذي ملأ أرصدته البنوك الأجنبية أحصاه الله وأحصى ذنوبه.

ولعلَّ تكرار الآية بمعنى الإحصاء ثلاث مرات ﴿أَحْصَاهُمْ - وَعَدَّهُمْ - عَدًّا﴾ يعني أنه لا يمكن أن يفلت من حساب الله شخص أبداً لا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير، فكلهم سيحاسبهم ويجازيهم بما قدموا من أعمال في حياتهم الدنيا.

[٩٥] ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ كل العلاقات الدنيوية المزيفة ستتساقط، وسيأتون الرحمان بشكل أفراد -نعم- إن العلاقة الوحيدة المجدية بعد علاقة الخلق والعبودية التي تربط العبيد بربهم هي علاقة الإيمان والعمل الصالح.

[٩٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ إن الله يحب هؤلاء وهم يحبونه، وهذه هي العلاقة الصحيحة بين العبد وربه، لذلك أمر الرسول ﷺ عليًّا عليه السلام أن يدعو ربه ليرزقه الودّ في قلوب المؤمنين كما جاء في الحديث التالي: في تفسير علي بن إبراهيم وأما قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ فإنّه قال الصادق عليه السلام: «كَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَانَ جَالِساً بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ لَهُ: قُلْ يَا عَلِيُّ اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وُدّاً...»، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ ثم خاطب الله نبيه فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ (يعني القرآن) لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ قَالَ: «أَصْحَابُ الْكَلَامِ وَالْخُصُومَةِ»[1].

[٩٧] ومن مظاهر رحمة الله، أنه يسر القرآن، وسهّل آياته وأوضحها، لكي يستطيع الرسول أن يبشر بها المؤمنين وينذر بها المعاندين ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ قوماً لداً: جماعة معاندين وجاحدين.

إن أكبر ما ينذر الإنسان هو الموت، «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظاً»[2] لكن بعض الناس يقولون، ليس من المهم أن نموت فأولادنا سوف يبقون، وخطنا سوف يبقى، وبهذه الأفكار يهونون على أنفسهم الموت، ولكنَّ القرآن ينفي ذلك ويقول: ليس أنتم وحدكم الذين تموتون، بل سيموت معكم أبناؤكم وعشيرتكم، ونهجكم وخطكم، وكل شيء يرتبط بكم، يهلك ويفنى، وهذا أكبر إنذار للإنسان، وإذا لم يتعظ الإنسان بذلك، فإنه سوف يواجه مصيره الرهيب.

[٩٨] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا﴾ قد لا يبقى من الأمة أحد، ولكن يبقى أثر من الآثار في بعض الصور أو بعض الكتابات أو.. أو، ولكن القرآن يقول: لقد صفيناها تصفية كاملة، ولا حتى صوت يخرج منها لا عال ولا خفي، جاء في حديث مأثور عن أئمة آل البيت عليهم السلام فيما وعظ الله عز وجل به عيسى عليه السلام: «وَطَأْ رُسُومَ مَنَازِلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ فَادْعُهُمْ ونَاجِهِمْ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ وخُذْ مَوْعِظَتَكَ مِنْهُمْ واعْلَمْ أَنَّكَ سَتَلْحَقُهُمْ فِي اللَّاحِقِينَ»[3].

وكلمة أخيرة: إن فكرة اتّخاذ الولد لها وجهتان:

الأولى: إنها تعطي للظالم حق الظلم.

الثانية: إنها تسلب من المظلوم حق التمرد، ولذلك نجد المستعمرين أشاعوا هذه الفكرة بين الشعوب المستضعفة، وأنهم إنما تقدموا لأنَّ الله أراد لهم ذلك، ولأنَّ الطبيعة التي كانت حولهم كانت أسخى، ولأن عقولهم كانت أكبر ولأنَّ حظهم كان أوفر، ولأي شيء.

(١) بحار الأنوار: ج٢٤ ص٢٢٣، تفسير القمي: ج٢ ص٥٦.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٧٥.
(٣) الكافي: ج٨، ص١٣٤.

وينسف القرآن الحكيم هذه الفكرة ويقول: لا تفكر أيها الإنسان، إن للجنس الفلاني ميزة عليك وإن الله فضله عليك تفضيلاً، كلا.. بل ربما يكون أقل منك عقلاً، وأرضه أقل سخاءً وبالتالي فهو أقل تعرضاً لرحمة الله منك، وبالتالي فإنَّ الحضارة أقرب إليك، وإنما تقدم من تقدم، وتأخر من تأخر بسبب عمله.

وأتصور إن إشاعة هذه الفكرة المعاكسة وترسيخها في الشعوب المستضعفة، تلهمهم الاندفاع وتعطيهم الدافع نحو بناء حضارتهم والتخلص من نير المستكبرين.

سُورَةُ طه

* مكية.

* عدد آياتها: ١٣٥ .

* ترتيبها النزولي: ٤٥ .

* ترتيبها في المصحف: ٢٠ .

* نزلت بعد سورة مريم.

فضل السورة

عن النبي محمد ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَهَا أَيْ سُورَةَ طه أُعْطِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوَابَ الْمُهَاجِرِينَ والْأَنْصَار**».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٤)

***

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لَا تَدَعُوا قِرَاءَةَ سُورَةِ طه فَإِنَّ الله يُحِبُّهَا ويُحِبُّ مَنْ قَرَأَهَا ومَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَتَهَا أَعْطَاهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ولَمْ يُحَاسِبْهُ بِمَا عَمِلَ فِي الْإِسْلَامِ وأُعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَجْرِ حَتَّى يَرْضَى**».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٢)

الإطار العام

من هو الإنسان؟

الأمر المثير للدهشة هو أن حوالي تسعين آية من آيات هذه السورة البالغة مئة وخمسة وثلاثين آية، تبحث قصة النبي موسى عليه السلام، أما الأربعون آية الباقية منها فهي تبحث مواضيع شتى، من بينها قصة أبينا آدم عليه السلام وسبب خروجه من الجنة وكيفية إغواء إبليس له.

فهل هذه السورة كسورة يوسف، مخصصة للبحث عن قصة النبي موسى عليه السلام كما كانت تلك السورة تبحث في قصة النبي يوسف عليه السلام؟.

وحدَّثنا القرآن الحكيم عن قصة بني إسرائيل وقصة موسى عليه السلام معهم في سورة البقرة، ويحدِّثنا عن موسى وقصته مع قومه ومع فرعون كما يحدِّثنا أيضاً عن السحرة فما هو الفرق؟.

ربما يكمن الفرق في أن القرآن الحكيم في سورة البقرة -مثلاً- إنما يحدثنا عن الجانب الاجتماعي والأمني -إن صح التعبير- لبني إسرائيل، باعتبارهم أمة مستضعفة قاومت المستكبر واتصفت بصفاته عندما بنت حضارتها وكيف أنسجت عليها تلك الصفات فبدأت بحركة للتطهير وما أشبه.

هذه الموضوعات نجدها في سورة البقرة في حديثها عن بني إسرائيل، أما قصة بني إسرائيل وقصة موسى عليه السلام معهم ومع فرعون في سورة طه، فإنها تتناول جانباً آخر هو جانب الإنسان في هذه القصة، حيث جاء التركيز فيها بصورة خاصة على علاقة الإنسان بهدى الله، وأنه هو المنقذ له في صراعه مع الطبيعة والشهوات.

الإنسان بين شهوة الملك ونزعة الخلود

الإنسان الذي قد ينحرف بسبب غريزتيه الذاتيتين وهما غريزتا حب الخلود وحب الملك، هذا الإنسان نجده عند فرعون وقد اكتملت فيه أسباب الانحراف حتى أوصلته إلى أبعد ضلالة، ونجده عند موسى عليه السلام وقد قاوم الغريزتين فاكتملت فيه صفات الاستقامة، ونجده في الصراع بينهما الذي يتمخض عن مفاجأة هامة، هي السحرة الذين انحرفوا حتى وصلوا في انحرافهم إلى حد أنهم أصبحوا أدوات بيد الطاغوت فرعون، ثم مرة واحدة وبسبب تلك الإنسانية الكامنة فيهم وصلوا إلى القمة.

هذا هو الإنسان، والقرآن يركز الضوء على هذا الإنسان، ليس بصورة عامة كما نلاحظ ذلك في سورة الإعراف مثلاً، بل بصورة خاصة يركز الضوء على علاقة الإنسان بهدى الإله، ومن الذي ينقذ الإنسان في صراعه مع الطبيعة والشهوات، وكيف ينبغي للإنسان أن يتحدى الطبيعة، وبماذا؟.

ومهما يكن؛ فإن مقدمة السورة تبحث موضوعات شتى، ولا غرابة. ومن الملفت للنظر إن الآيات الأولى والأخيرة من سور القرآن قد تبدو موضوعات غير منسجمة بادئ الأمر، إلا أنها -عند التأمل- نجدها ترمز إلى كل الموضوعات التي نجدها في السورة ببلاغة نافذة وقول فصل.

وفي آيات هذه السورة المباركة إشارات دقيقة إلى موضوعات خفية، ينبغي أن نتدبر فيها، لنعرف أسباب رقي الإنسان، وما هي العوامل التي لو التزم بها لاستطاع أن يتحدى ويقاوم طبيعته، وبالتالي لاستطاع الوصول إلى الجنة.

فالآيات: (١-٨) في هذه السورة تشير إلى دور الرسالة، وأنها جاءت لسعادة الإنسان، وأن صاحب الرسالة لا ينبغي أن يقضي على نفسه من أجل هداية الناس، بل يكفيه أن يذكّرهم.

ثم تتطرق (الآيات: ٩-٣٦) إلى مجموعة من الأسرار التي تقف وراء اصطفاء الله سبحانه وتعالى أنبياءه على الناس، وذلك من خلال سيرة النبي موسى عليه السلام كعينة جلية واسعة التفاصيل، بالإضافة إلى تبيينها مجموعة الخصال الأخلاقية التي ينبغي أن يتمتع بها الأنبياء فضلاً عما يمكن لهؤلاء الرسل الربانيين أن يترجموا أخلاقياتهم تلك في إطار سلوكياتهم ومواقفهم من الناس، ولا سيما الظالمون منهم.

وتوضح جملة من الآيات أن خلاصة رسالات الأنبياء التي تتكرر قصصها في القرآن، هي أن الإنسان رهين بعمله،وأن نتيجة العمل غير محدودة بالآخرة فقط، بل قد يحصل المرء على عاقبة عمله في الدنيا أيضاً، كما انحرف فرعون بطغيانه، فقضى عليه الرب القادر بالغرق.

ولهذا حذر الله عز وجل بني إسرائيل مراراً من الطغيان وكفران النعمة، حتى لا يحل عليهم غضبه. ولكنه إن انحرف قليلاً، فإن باب الرجعة والتوبة الصادقة يبقى مفتوحاً له.

وتشير (الآيات: ٣٧-٤٢) إلى سلسلتين من النعم الإلهية على الإنسان، تمثل شرطاً مسبقاً لتلقيه النعمة الكبرى، وهي نعمة الهداية الإلهية. السلسلة الأولى: هي النعم المادية. والسلسلة الثانية: هي النعم المعنوية.

بالإضافة إلى أن (الآيات: ٤٣-٥٥) تبين أن فى طريق الإنسان إلى ربه عقبات، ولابد من تصفيتها وإزاحتها؛ العقبة الأولى: هي الاستهزاء أو ما يعبر عنه بانعدام الإحساس بالمسؤولية. والعقبة الثانية: هي التراجع إلى الوراء، أو الحنين إلى سيرة القرون الأولى..

ومن العبر الأساسية التي يستفيدها الإنسان من قصص التأريخ هي معرفته بأن الحياة الدنيا ليست دائمة، كما أن معرفته هذه تعطيه معرفة أعمق بالحياة ذاتها، إذ يرى أنها قصيرة، وأنها مجرد جسر إلى البقاء الأبدي في الدار الآخرة.

والآيات: (٥٦-٧٣) تؤكد أن على صاحب الرسالة أن لا يتصور الطاغوت حديداً لا يلين، بل هو بشر من لحم ودم، وأن يعي أن جلّ اهتمامات الطاغوت هي تلفيق الإشاعات ضد المصلحين، ومحاولة احتواء العملية الإصلاحية والتغييرية.

ونفس هذه الحقيقة نجد تذكيراً بها في كتاب الله، الذي يخسر من أعرض عنه، إذ يفقد البصيرة في الدنيا، والبصر في الآخرة، كما تتحول ذنوبه وأخطاؤه إلى أثقال يحملها يوم القيامة.. ذلك اليوم الرهيب؛ اليوم الذي تخشع فيه أصوات الخلائق لربها، ونرى الناس يبحثون عمن ينقذهم من عذاب النار، وليس ثمة شفاعة بدون إذن الله.

فمن أجل أن لا نتورط بحمل هذه الأثقال علينا، يجدر بنا أن نستلهم العبر من التاريخ، والذكرى من القرآن.

ونحن بين هذا وذاك ينبغي أن نعلم بأن حياتنا قصيرة جداً، وأن أمامنا حياة أخرى؛ لا حصر لأمدها، وأن سعادتنا أوشقاءنا فيها مرهون بعملنا في الدنيا، فنسعى جاهدين لأن نكون سعيدين فيها. (الآيات: ٧٤-٨٢).

وتشير (الآيات: ٨٣-٩٨) إلى ما يمكن أن يتعرض له المجتمع الرسالي من مؤمرات وانحرافات ثقافية وعقائدية داخلية، تقف وراءها الشهوات وحب المال والجهل والأنانية، إضافة إلى تأكيدها ضرورة اتخاذ الثلة المؤمنة المخلصة سلوكاً حكيماً وواعياً من شأنه أن يجنب المجتمع الرسالي مخاطر الانحراف.

كما تتطرق (الآيات: ٩٩-١١٢) إلى حقيقة كون الإنسان خاضعاً بكيانه الطبيعي لله سبحانه وتعالى،ويتجسد خضوعه الكامل والمطلق في يوم القيامة؛ أما في الدنيا فقد أعطاه ربه الحليم فرصة لتجربة إرادته، فهو باستطاعته السمو إلى أن يكون أفضل من سائر المخلوقات.. فيستر بإرادته شهواته، وبعقله جهله، وبتقواه غرائزه.. وأنه لولا هذا الجانب الخير في حياته، لكان أضعف وأعجز من كثير من الأحياء.

أما (الآيات: ١١٣-١٣٥) فهي خلاصة لعبرها، فتبين سلبيات النفس البشرية بعد الإشارة إلى عوامل الانحراف فيها، ذلك لأن معرفة الإنسان بنفسه وبالعوامل المؤثرة فيها تساعده على الاختيار السليم.

إن هناك مجالاً للإنسان أن يسمو ويسبق الآخرين، ولكن ينبغي أن يكون تسابقه معهم شريفاً بنية البناء؛ فلا يكون على حطام الدنيا، ولا يتحول إلى صراع هدّام.

إذن؛ فسورة طه المباركة تحدثنا عن الإنسان، وتقص علينا أنباء أربعة نماذج بشرية، هم: موسى وهارون عليهما السلام، وهما أعلى قمة بشرية، ثم السحرة الذين اهتدوا بعد الضلالة، ثم فرعون في الحضيض، وأخيراً جنود فرعون الذين استخفهم فأطاعوه فأضلهم فهوى بهم إلى قعر الهاوية.

الداعية وهموم الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى[1] (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى[2] (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾.

هدى من الآيات:

القران كتاب هدى ورحمة فلا يشقى به أحد، وحتى الرسول ليس عليه إلا البلاغ المبين. وإنما الذين يخشون ربهم هم الذين ينتفعون بهذا الذكر. وإذا تأملت في خلق السماوات العلا والأرض لرأيتها إنها هي والقران الذي نزله الرحمن يجريان من ينبوع واحد، فخالق العالمين هو منزل الذكر المبين. وهما تجليان لرحمة الله الذي استوى على عرش التدبير يجري في الخليقة تلك السنن التي بينها سبحانه في كتابه.

بينات من الآيات:

الرسول وهموم الهداية

قيل في كلمة ﴿طه﴾ ما قيل في الحروف المقطعة في بداية السور، وأقول فيها ما قلته في أمثالها في سائر السور القرآنية، حيث أتصور بأن الكلمة ترمز إلى القرآن الحكيم، ولعلها

---

(١) استوى: استولى، وهو كناية من المالكية المطلقة.

(٢) الثرى: التراب.

هنا -كما جاءت في النصوص الإسلامية- رمز إلى الرسول ﷺ، فتكون لفظة (طاء) اختزالاً لجملة (طالب الحق) بينما تكون لفظة (هاء) اختزالاً لجملة «الهادي اليه»[1] كما أننا نشير إلى كتاب ونقول: هذا الكتاب، فكذلك لفظة ﴿طه﴾ إنما هي إلى القرآن ذاته، وقيل: إن طه هو رسول الله ﷺ.

[١-٢] ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ إن رسالة السماء تنزل على الإنسان لا لكي يهلك نفسه حزناً عليها لأن المجتمع لا يؤمن بها، فهو لا يتحمل مسؤوليته إلا بقدر البلاغ فقط، وإنما الرسول مبلغ، فلماذا يشقي نفسه؟.

قيل إن الرسول ﷺ كان يسهر الليل بالعبادة، ويمضي النهار بالصيام، متعباً نفسه، وقد جاء في حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«وَلَقَدْ قَامَ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ واصْفَرَّ وَجْهُهُ يَقُومُ اللَّيْلَ أَجْمَعَ حَتَّى عُوتِبَ فِي ذَلِكَ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ طه ما أَنزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى بَلْ لِتَسْعَدْ بِهِ»**[2].

والتفسير صحيح، وهو سبب النزول، ولكن القرآن الحكيم ليس خاصاً بشخص الرسول الكريم فقط، وإنما نزل كما في حديث للإمام الصادق عليه السلام على لغة **«بِإِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ»**[3]، ونستفيد من هذه الآية أن صاحب الرسالة ينبغي ألّا يشقي نفسه لأن الناس لا يؤمنون، ولا أن يكلف نفسه فوق طاقتها في تحمل واجبات الرسالة ومندوباتها.

وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ أنه قال لعليٍّ عليه السلام: **«يَا عَلِيُّ إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ»**[4].

[٣] ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فإذا خشي الناس واعتبروا فلهم جزاؤهم، وإلا فليس عليك من أمرهم شيء.

والقرآن تذكرة لمن يستفيد منه ولمن يوجد في ذاته الاستعداد لذلك، كما الأرض لا تستفيد من المطر إلا بشرط أن تكون مستعدة لاستقباله، وكذلك قلب الإنسان لا يستفيد من بركة الرسالة، إلا بشرط استعداده لاستقبالها واستعداه بالتذكرة والخشية.

ومن الذي يخاف؟ هل المجنون أو الطفل الصغير؟ أم الإنسان الهائج الذي أذهب

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٣٦٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، ص١١٨.

(٣) الكافي: ج٢، ص٦٣٠: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: **«نَزَلَ الْقُرْآنُ ...»**.

(٤) الكافي: ج٢، ص٨٦.

الغضب عقله، أو الغافل الذي حجبت الغفلة عقله؟ كلا.. إنما يخاف الذي ينظر إلى المستقبل، و يفكر في عواقب الأمور، وهذا هو الإنسان الذي يستفيد من الرسالة، لأنه عاقل، ولذا كان الخوف من علامات العقل.

هيمنة الله

[٤] ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ السماوات العلى أي العالية.

قد يبدي الإنسان نوعاً من الذهول عندما يقرأ الأرقام العلمية، فقد كان العلماء يقدرون عدد النجوم بالآلاف، ثم قدروها بمئات الألوف، ثم بالملايين والمليارات، وبعد ذلك عجز علمهم عن الإحصاء، وكانوا في البداية يقدرون المسافات والأبعاد التي تفصل الأجرام السماوية عن بعضها بوحدات القياس الاعتيادية، ثم اكتشفوا أن هذه الوحدات الطويلة أعجز من أن تصمد أمام المسافات الكونية الرهيبة، فلجؤوا إلى استخدام السنة الضوئية في القياس، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة في حين أن سرعة الضوء تبلغ حوالي (٣٠٠,٠٠٠) كيلو متراً في الثانية.

هذه الأرقام يكاد الإنسان لا يصدقها من ضخامتها، وكثير منا لم يصدق بهبوط الإنسان على القمر، وأنه للحقيقة، وكان القرآن الحكيم يشير إلى أن رسالة السماء نور منزل من خالق السماوات العلى.

[٥] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وهو رحمن، لأنه خلق هذه السماوات وهذه النجوم وهذا الفضاء اللامتناهي وهذا الإنسان، فرحمته تتجلى في إيجاد الأشياء من بعد العدم وإعطائها كياناً بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً.

ثم لم يترك السماوات بعد خلقها عبثاً، إنما استوى عليها، أي يشرف عليها ويأمرها فتأتمر ويزجرها فتزدجز، وبالتالي هو المسيطر المهيمن على السماوات والأرض، فلا شيء فيها أقرب إليه من شيء، لأنه محيط بها جميعاً، علماً وقدرة وسلطاناً وتدبيراً فهو رحمن يصطبغ تدبيره بالرحمة، جاء في حديث شريف عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فَقَالَ: اسْتَوَى فِي كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ بَعِيدٌ وَلَمْ يَقْرُبْ مِنْهُ قَرِيبٌ اسْتَوَى فِي كُلِّ شَيْءٍ»[1].

والعرش هنا بمعنى مركز القدرة والسلطة والتدبير، وتعالى الله عما يتصوره الجاهلون،

(١) الكافي: ج١ ص١٢٨.

من أن العرش مقام ربنا المادي.. كلا، إن العرش لا يتحمل الرب، إنما الرب هو الذي يحمله، جاء في حديث مأثور عن الإمام علي عليه السلام قاله لوفد النصارى ورئيسهم جاثليق: فكان فيما سأله أن قال له: «أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ أَ يَحْمِلُ أَوْ يُحْمَلُ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ يَحْمِلُ وَ لَا يُحْمَلُ قَالَ النَّصْرَانِيُّ وَكَيْفَ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)، فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْمِلُ الْعَرْشَ وَلَيْسَ الْعَرْشُ كَمَا تَظُنُّ كَهَيْئَةِ السَّرِيرِ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مَحْدُودٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّرٌ وَرَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ مَالِكُهُ لَا أَنَّهُ عَلَيْهِ كَكَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ وَ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِحَمْلِهِ فَهُمْ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ بِمَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ قَالَ النَّصْرَانِيُّ صَدَقْتَ رَحِمَكَ اللهُ»(١).

وجاء في حديث آخر مأثور عن حنان بن سدير قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنِ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ؟. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ لِلْعَرْشِ صِفَاتٍ كَثِيرَةً مُخْتَلِفَةً لَهُ فِي كُلِّ سَبَبٍ وَصُنْعٍ فِي الْقُرْآنِ صِفَةٌ عَلَى حِدَةٍ فَقَوْلُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يَقُولُ: الْمُلْكُ الْعَظِيمُ، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ يَقُولُ: عَلَى الْمُلْكِ احْتَوَى، وَهَذَا مُلْكُ الْكَيْفُوفِيَّةِ فِي الْأَشْيَاءِ ثُمَّ الْعَرْشُ فِي الْوَصْلِ مُفْرَدٌ مِنَ الْكُرْسِيِّ، لِأَنَّهُمَا بَابَانِ مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْغُيُوبِ وَهُمَا جَمِيعاً غَيْبَانِ وَهُمَا فِي الْغَيْبِ مَقْرُونَانِ، لِأَنَّ الْكُرْسِيَّ هُوَ الْبَابُ الظَّاهِرُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي مِنْهُ مَطْلَعُ الْبِدَعِ وَمِنْهَا الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا وَالْعَرْشُ هُوَ الْبَابُ الْبَاطِنُ الَّذِي يُوجَدُ فِيهِ عِلْمُ الْكَيْفِ وَالْكَوْنِ وَالْقَدْرِ وَالْحَدِّ وَ الْأَيْنِ وَالْمَشِيَّةِ وَصِفَةِ الْإِرَادَةِ وَعِلْمُ الْأَلْفَاظِ وَالْحَرَكَاتِ وَالتَّرْكِ وَعِلْمُ الْعَوْدِ وَالْبَدَاءِ فَهُمَا فِي الْعِلْمِ بَابَانِ مَقْرُونَانِ لِأَنَّ مُلْكَ الْعَرْشِ سِوَى مُلْكِ الْكُرْسِيِّ وَعِلْمَهُ أَغْيَبُ مِنْ عِلْمِ الْكُرْسِيِّ فَمِنْ ذَلِكَ قَالَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَيْ صِفَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ صِفَةِ الْكُرْسِيِّ وَهُمَا فِي ذَلِكَ مَقْرُونَانِ»(٢).

[٦] ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ ولم يملك القرآن أحداً شيئاً، لأنَّ الأشياء كلها لله سبحانه، وهو الذي يحكم فيها، وإذا أعطى الإنسان شيئاً، فإنما يخوله الاستفادة منه، ويكون في الواقع مستخلفاً فيه لا مالكاً حقيقياً له.

[٧] ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ إذا جهرت بكلامك وأعلنته، فإنَّ الله سبحانه لا يعلم ما جهرت به فقط، وإنما أيضاً يعلم خلفيات جهرك، إن كل كلمة ينطقها الإنسان جهاراً قد يكون من ورائها ألف مقصد ومقصد، وكل ذلك قد أحاط به الله علماً.

الله يتجلى

[٨] ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ كل ذلك الجمال والجلال وتلك العظمة

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٣٣٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٥٥ ص٣٠.

التي نشاهدها في الموجودات المخلوقة من حولنا إنما هي آية لأسماء الله سبحانه وتعالى، وانعكاس منها على الطبيعة، أنت تبحث عن الجمال وعندما ترى شيئاً جميلاً فإنك تبحث عما هو أجمل منه، وتبحث عن القوة، فإذا رأيت قوياً تبحث عمن هو أقوى منه، وتبحث عن العظمة فإذا رأيت عظيماً تبحث عمن هو أعظم منه، لأنَّ قلبك انعكست عليه أسماء الله الحسنى، أسماء الجلال والجمال والعظمة التي هي لله، فلا يقتنع القلب بالمخلوق، بل لا يبحث عنه حقاً.

وأسماء الله تشير الى صفاته وهي كثيرة، منها ما أوتي البشر علمه، ومنها ما أوتي الأصفياء من البشر فقط علمه، ومنها ما هو غيب لا يعلمه إلا رب العزة، وقد جاء في حديث نبوي شريف: «**إن لله سُبحانهُ وَتَعَالى تِسْعَة وتِسْعَينَ اسماً مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجَنة**»[1].

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٣ ص٣٧٣.

النداء المقدس

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ[1] أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار موضوع سورة طه التي تتحدث عن علاقات البشر بالدنيا وزينتها من جهة، ورسالات الله وقيمتها من جهة ثانية، يتساءل السياق هنا: هل سمعت قصة موسى حينما حار بأهله في الصحراء فرأى ناراً فذهب إليها ليأتي منها بقبس، أو يجد هدى، ليعرف كيف يخرج من أزمته؟

وحين وصل إليها ناداه الرب: إني أنا ربك، وأمره بأن يخلع نعليه لأنه في مكان مقدس، وأخبره بأنه اختاره لرسالاته، وعليه أن يستمع إليها، وهي عبادته، وإقامة الصلاة لذكره، والإيمان بالساعة التي لا ريب فيها، وحينها تجزى كل نفس بما تسعى، والتحصن ضد من يصدون عن الساعة، لأنهم لا يؤمنون بها ويتبعون أهواءهم، وهم يريدون هلاكه.

كما أن الإنسان يفيق في الصحراء من الغفلة والضلالة فتحيط به الظلمات، وتلاحقه عوامل الخوف، فيبحث عن مشعل يستضيء به، وعن دفء يأوي إليه...

---

(١) بقبس: القبس هو الشعلة للتدفئة.

كذلك موسى كان في تلك الليلة المظلمة الشاتية يسير في صحراء سيناء يبحث عن دفء وعن نور، يبحث عن دفء يعالج به البرد القارص وعن هدى ونور يضيء به طريقه، فحينما رأى ناراً من بعيد، كانت تلك النار بالنسبة إليه «أنسا» فاقترب إليها فإذا بها خير من النار ومن النور، إنها (الرسالة) التي تعالج مشكلة الإنسان، معالجة جذرية، فتسير سفينة عقله وتذكره بربه وتخط له خطاً مستقيماً الى الله.

إن تصور موسى في تلك الليلة، في تلك الصحراء إلى جانب وادي طوى، وهو يكلم الله، والله يكلمه ويناجيه، تصور هذا المنظر يبعث إلينا مشاعر مختلطة من السرور والرهبة.

فمن جهة نشعر بأننا حينما نضيع في صحراء الحياة فلا بد أن نجد رباً يأخذ بأيدينا، رباً رحيماً ودوداً إلى درجة أنه يحدِّثنا.ترى أن الله يناجي موسى بعبارات قصيرة، ولكن موسى يتحدث حديثاً طويلاً، حديث موسى مع ربه يكون بنفس طويل، لأنه وجد في حديث ربه أنساً، كان يريد أن يبقى طويلاً مع ربه، برغم أنه كان قد ترك أهله ينتظرونه ليرجع إليهم بالدفء والهدى، وهذا هو دائماً منظر الإنسان وحالته وعلاقته مع ربه في الحياة، وهي علاقة الأخذ من دون تكلف، والاهتداء به من دون خشية أو رهبة.

ويبعث فينا هذا التصور بالرهبة، حيث نخشى بأن يتركنا الرب إذا تركنا هداه.

ففي نفس الوقت الذي ترانا نحتاج إلى الله حاجة ملحة فهو رحيم بنا، ودود معنا، مع ذلك شديد العقاب، هذه هي علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى.

والآيات هذه توحي إلينا بفكرة أخرى، تلك هي فكرة ارتفاع الإنسان إلى هذا المستوى، حيث يكلمه الله سبحانه وتعالى تكليماً.

نحتفظ بهذه الصورة لنقارنها بعدئذٍ بصورة آتية، وهي صورة (فرعون)، فمرة يكون الإنسان في صورة (موسى) ومرة يكون في صورة (فرعون)، وكل واحد من أبناء آدم في قلبه إنسانان، موسى وفرعون، فخذ لنفسك ما تشاء.

وهناك أفكار أخرى تستلهم من هذه الآيات سوف نتعرض لها عبر حديثنا التفصيلي.

بينات من الآيات:

حديث موسى

[٩] ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهذا الكلام ليس موجهاً إلى رسول الله ﷺ فقط

وإنما هو -بصورة مركزة- موجه إليك وإليَّ.

[١٠] ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ عندما جاء موسى عليه السلام من مدين إلى مصر وبعد أن تاه في الطريق مع أهله فإذا به يشاهد ناراً من بعيد فيتجه إليها لعلّه يحصل على جذوة منها كي يتدفأ هو وأهله، وآنست: مأخوذة من الأنس، فلعلَّه جاء تعبيراً عن تصور وجود بشر هناك.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ ربما كانت النار بعيدة فلم يشأ موسى أن يأخذ أهله إلى تلك النار فيحملهم مشقة الطريق، لذلك أبقاهم في مكانهم.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ لعلني أسأل من قد يكون عند تلك النار عن الطريق.

القرآن يوجز العبارات، ويرمز من خلال الإيجاز إلى حاجات الإنسان في الحياة، فمن جهة كانت هناك حاجة مادية هي الدفء والنار، ومن جهة أخرى كانت هناك حاجة معنوية وهي الهدى، ورسالة الله تأتي بهاتين الحاجتين معاً ولكن عبر سعي الإنسان.

فالإنسان + الرسالة = الوفاء بحاجاته كلها.

النداء المقدس

[١١] ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ جاء موسى ليقتبس النار وليهتدي بهدى أصحابها، فإذا بنداء يتناهى إلى سمعه لا يعرف مصدره، ولذلك عبر القرآن بكلمة ﴿نُودِيَ﴾، فيأتيه النداء في البدء وليست المناجاة لماذا؟ لأن الإنسان الغافل يحتاج إلى نداء حتى يستيقظ من غفلته، ثم يناجى من قريب.

من هذا الذي يناديني باسمي؟ من الذي يعرفني في هذه الصحراء..؟.

[١٢] ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فجاءه الجواب واضحاً بأن: الذي يكلمك هو رب العزة. ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أول أمر هو أن يخلع موسى نعليه احتراماً لمن يكلم.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لماذا يخلع نعليه؟ وما هي العلاقة بين خلع النعلين وبين وجود الإنسان في مكان مقدس؟ ولماذا يقدس المكان..؟.

الجواب: إن خلع النعلين -كما أتصور- إنما هو رمز يشير الى تجرد الإنسان من ارتباطاته

وعلاقاته، وهذا التجرد ضرورة تمهيدية لاستقبال نور السماء، نور الرسالة، فإذا كانت عندك علاقة بأهلك، بأولادك، بسلطانك، فإنك لن تفهم الرسالة، ولن تتمكن من استيعابها.

إنما تفهم الرسالة، إذا انفصلت عن علاقاتك، واتجهت إلى الله؛ لذلك نحن في الحج، نؤمر بأن نخلع ملابسنا العادية ونلبس ملابس بسيطة، يعني تجردنا عن علاقاتنا الأرضية، وقيمنا المادية، وتوجهنا إلى الله سبحانه وتعالى، لذلك أمر موسى بخلع نعليه، وبذلك جاءت النصوص الإسلامية التي نفت في ذات الوقت أن تكون نعلا موسى -آنئذٍ- من جلد حمار ميت، ولذلك أمر بنزعهما نقرأ معاً النص التالي المأثور عن الإمام الحجة القائم عليه السلام: في كتاب (كمال الدين وتمام النعمة) بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: «قُلْتُ فَأَخْبِرْنِي يَا ابْنَ رَسُولِ الله عَنْ أَمْرِ الله تَبَارَكَ وَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُوسَى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فَإِنَّ فُقَهَاءَ الْفَرِيقَيْنِ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ إِهَابِ الْمَيْتَةِ! فَقَالَ عليه السلام: **مَنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدِ افْتَرَى عَلَى مُوسَى وَاسْتَجْهَلَهُ فِي نُبُوَّتِهِ إِنَّهُ مَا خَلَا الْأَمْرُ فِيهَا مِنْ خَصْلَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ كَانَتْ صَلَاةُ مُوسَى فِيهَا جَائِزَةً، أَوْ غَيْرَ جَائِزَةٍ، فَإِنْ كَانَتْ جَائِزَةً فِيهَا فَجَازَ لِمُوسَى أَنْ يَكُونَ يَلْبَسُهَا فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ وَإِنْ كَانَتْ مُقَدَّسَةً مُطَهَّرَةً. وَإِنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ غَيْرَ جَائِزَةٍ فِيهَا فَقَدْ أَوْجَبَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَعْرِفِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ وَلَمْ يَعْلَمْ مَا جَازَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ مِمَّا لَمْ تَجُزْ. وَهَذَا كُفْرٌ.**

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي يَا مَوْلَايَ عَنِ التَّأْوِيلِ فِيهِمَا. قَالَ عليه السلام: **إِنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَخْلَصْتُ لَكَ الْمَحَبَّةَ مِنِّي، وَغَسَلْتُ قَلْبِي عَمَّنْ سِوَاكَ. وَكَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لِأَهْلِهِ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، أَيِ انْزِعْ حُبَّ أَهْلِكَ مِنْ قَلْبِكَ إِنْ كَانَتْ مَحَبَّتُكَ لِي خَالِصَةً وَقَلْبُكَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى مَنْ سِوَايَ مَشْغُولاً**»[1].

والسؤال الآخر: ما هي العلاقة بين خلع النعلين وبين الوادي المقدس طوى؟.

العلاقة أن الإنسان في الأماكن المقدسة والمشرفة، يجب ألاّ يكتفي بخشوع قلبه، وإنما يجعل مظهره بشكل يدل على أنه خاشع لله سبحانه.

لذلك يستحب في بعض الأماكن المقدسة أن يتحرك الإنسان إليها بخطى وئيدة، لكي تدلّ طريقة مشيه على أنه خاشع، وهكذا أمر الله موسى بأن يخلع نعليه في ذلك المكان المقدس الذي لم يقدس لذاته، وإنما لأنه ينتسب إلى من هو متّصف بالقدسية، أو ليس أوحى الله سبحانه في هذا المكان، أو ليس الوحي مقدساً؟.

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص٦٥.

الوادي المقدس ﴿طُوًى﴾ هو: في جانب طور سيناء، وسبب قداسته حسب حديث الرسول ﷺ: «لِأَنَّهُ قُدِّسَتْ فِيهِ الْأَرْوَاحُ وَ اصْطُفِيَتْ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَ كَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ مُوسَى تَكْلِيماً»(١).

[١٣] ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ الاختيار هو تفضيل شيء لصفة مميزة فيه، وإنما اختار ربنا الحكيم موسى عليه السلام لما وجد فيه من الصفات المثلى لحمل الرسالة، وأهمها -فيما يبدو لي- صفة: الخروج من الذات، والاهتمام بالآخرين.

وهذه الصفة كانت متوفرة في كل الأنبياء وفي موسى عليه السلام بالذات، فأنت ترى أنه نسي أهله، وجلس يتحدث مع الله حديثاً مفصلاً، لم يقل: إإذن لي يا إلهي، حتى أذهب واحضر أهلي ثم أكمل الحديث، كلا بل ظل يواصل الكلام، كذلك يقول الله عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢]، إن الله يجزي أولئك الذين يحسنون إلى الناس ويحبونهم ويعملون من أجلهم، ويخرجون من ذواتهم من أجل المصلحة العامة، هؤلاء يهديهم الله بإعطائهم الرسالة، والحكم (الرسالة).

خلاصة الوحي

[١٤] ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ إن خلاصة الوحي هي هذه الكلمات: الإيمان بالله إلها واحداً وعبادته.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ وإقامة الصلاة ليست فقط بهذه الحركات الشكلية التي يؤديها المصلي، وإنما هي رمز لخضوع الإنسان لأمر الله عز وجل، واستعداده لتطبيق كل أوامره وشرائعه على نفسه وعلى أسرته وعلى مجتمعه وأمته. ولذلك فهي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها، وإن ردّت ردّ ما سواها، ومن هنا وجبت إقامة الصلاة متى ما ذكرها الفرد في وقتها أو بعده، كما روي عن أنس عن النبي ﷺ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا لَا كَفَّارَةَ لَهَا غَيْرُ ذَلِكَ وَ قَرَأَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾»(٢).

لماذا قال الله لذكري؟.

إن العبادة الشعائرية وحدها لا تكفي، لأن تلك العبادة بمرور الزمن تتعرض للانحراف والتشويه، لذلك فإنّ الإنسان بحاجة إلى ذكر دائم لله كي تبقى عبوديته لله سبحانه وتعالى في مأمن

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص٣٠٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٥، ص٢٨٩.

من التحول -بسبب ضغوط الحياة و وسوسة الشيطان- إلى عبودية غير الله في شتى صورها.

لذلك -أتصور- أن كلمة ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ تعني: أن ذكر الله سبحانه إنما هو في الواقع الهدف الأسمى من الصلاة، حيث جاء في آية أخرى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾[العنكبوت: ٤٥]، فالصلاة تهدف إلى ذكر الله والارتباط المباشر به سبحانه. ولأن وجوب الصلاة إنما هو لذكر الله، وذكر الله هو سر السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، لأنه سبحانه مصدر الخير الحقيقي في هذا الوجود، ولا يمكن للعبد المخلوق أن يحصل من الله على الخير، في حين أنه منصرف عن ذكره والتوجه إليه.

والصلاة ينبغي أن تكون بخشوع ومن أجل ذكر الله، فأساس الصلاة هو تحيتك مع الله، فحينما تركع وتقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ» أو تسجد وتقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ»، فإنّ هذا هو نوع من التحية لربك تحييه بتنزيهه وتعظيمه.

الحتمية التي لابد منها

[١٥] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ في بعض المدن التي تفتقد الأمن، ترى أن السلطة تقوم ببعض الدوريات المفاجئة، بالإضافة إلى الدوريات الاعتيادية الثابتة، وذلك لإبقاء قلق الترقب للآخرة.

وكذلك نلاحظ في بعض المدارس، أن الأساتذة لا يحددون موعد الامتحان إلى الطلبة، وفلسفتهم في ذلك أن كثيراً من الطلبة لو علموا بهذا الأمر، سيتقاعسون عن الدرس بانتظار أقرب موعد للامتحان، حيث يجدون ويجتهدون لفترة قصيرة فقط.

إن الله سبحانه وتعالى قد جعل الدنيا دار عمل وسعي يمر فيها الإنسان بمواقف كثيرة وامتحانات عديدة، فيتحتم عليه أن يبذل كل مافي وسعه ليجتازها بنجاح، ولا يتقاعس أو يؤخر واجباته على أمل أن يقوم بها فيما بعد، لأنّ الموت قد يفاجئه في أي لحظة، ويفقد تلك الفرصة الذهبية الثمينة التي منحها الله إياه في الدنيا، ثم لايجد في الآخرة إلا الحسرة والندامة، والإنسان بطبعه يغفل أو يتغافل عن يوم الحساب، وحينما يغفل فإنّه يقوم بجرائم وأخطاء، فالغفلة طبيعية عند الإنسان، وربما كان هذا من سنة الله، فلو لم تكن الغفلة موجودة لم يكن الامتحان موجوداً.

ولكن من الذي يميز الطيبين عن الأشرار؟.

إن الطيبين هم الذين يجدون لكيلا يغفلوا، ويعملون أبداً من أجل إيقاظ أنفسهم دائماً.

إن القرآن يضع مسؤولية الهداية والتربية على الإنسان نفسه، فلا تنتظر أيها الإنسان، مساعدة من غيرك في تنبيهك من غفلتك، بل يتوجب عليك أن توقظ نفسك بإستمرار من تلك الغفلة، وإلا تعرضت للأخطار الجسيمة، وصار مصيرك في الآخرة إلى عواقب وخيمة.

وهذا التنبيه المستمر، يتم عبر إقامة الصلاة بشرائطها وحدودها الصحيحة والمحافظة على جوهرها، والحيلولة دون تحولها -مع مرور الزمن- إلى شكليات وطقوس فارغة من كل محتوى، وطريقة ذلك كما يرشدنا إليها الحديث الشريف: «**خَفِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

وكلمة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ تشير إلى أن الله عز وجل لم يخف الساعة إخفاء كاملاً فقد أعلنها، وبين كل ما يتعلق بها، وفصل كل ما يجزي فيها، ولكنه فقط أخفى موعدها، وهذا لكي يتحمل الإنسان المسؤولية كاملة في الحياة الدنيا، ذلك أنه لو عرف موعدها لأمضى قسماً كبيراً من عمره دون تحمل أي مسؤولية، إذن فإخفاء موعدها لابد منه لكي يكون الجزاء عادلاً، فالجزاء يأتي بعد تحمل المسؤولية وإلا فإنه سوف لن يكون له أي معنى إن كان ثواباً أو عقاباً. وهناك تفسير أعمق من هذا التفسير نجده في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، حيث جاء في تفسير علي بن إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قَالَ: «**مِنْ نَفْسِي، هَكَذَا نَزَلَتْ، قُلْتُ: كَيْفَ يُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِهِ؟!. قَالَ: جَعَلَهَا مِنْ غَيْرِ وَقْتٍ**»[2]. وروي مثل ذلك عن ابن عباس، وهي كذلك في قراءة أُبَي[3].

[١٦] ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ والذي يؤمن بالساعة ويتذكرها دائماً يتبع برامج الله ويمتثل أوامره، وبالتالي يجد الفلاح، وإلا فإنَّ مصيره التردي والسقوط، ولو اتبع موسى هواه، ونسي ذكر الله، لهبط إلى الحضيض، كما حدث ذلك بالنسبة إلى بلعم بن باعوراء الذي أكرمه الله وأتاه علم الاسم الأعظم، ولكن حين اتبع هواه أخلد إلى الأرض، فجرَّده الله من كل ما أنعم عليه، ثم شبَّهه بالكلب وقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[الأعراف: ١٧٦].

وبكلمة موجزة: فإنَّ ذكر الله يعني السعادة، والانصراف عن ذكره يعني الشقاء.

(١) الكافي: ج٢، ص٦٧.
(٢) بحار الأنوار: ج١٣ ص١٠٧، تفسير القمي: ج٢ ص٦٠.
(٣) بحار الأنوار: ج١٣ ص٨٩.

موسى عليه السلام يحمل رسالات الله

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ[2] تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ[3] عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي[4] ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

وجد موسى عليه السلام عند ربه في تلك الليلة المظلمة الشاتية دفئاً وأنساً وهدىً، وحينما سأله الله عن عصاه فإذا به يسترسل في حديثه، بلى إن الفائدة الأولى التي يحصل عليها المؤمن من إيمانه، هي السكينة القلبية والاطمئنان النفسي.

لكن سرعان ما امتحنه الله وابتلاه بأمره الصعب، إذ لا يكفي للانسان أن يدعي الإيمان

---

(١) وأهش: الهش ضرب ورق الشجر ليتساقط، أي أسقط بها ورق الشجر.

(٢) جناحك: الجناح هو اليد سميت به تشبيهاً بجناح الطائر والمقصود بجناحك: « الإبط ».

(٣) واحلل: أي وفك.

(٤) أزري: ظهري، ومنه المئزر لما يشد على الظهر.

من دون أن يحمل -بقدر إيمانه- مسؤولية وبلاء، وكلما كان الإيمان أعمق، كلما كان البلاء أشد **«أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ»**[1].

وقد مر موسى عليه السلام بامتحان عسير، ففي البدء أمره الله أن يخلع نعليه، لأنه في الوادي المقدس طوى، وربما خشي موسى أن يؤمر من قبل الله سبحانه بترك عصاه كما فعل بنعليه، فلذلك حينما سأله الله عنها إذا به يبيّن فوائدها العديدة: إنه يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وله فيها حاجات أخرى غير تلك، فأمره الله أن يلقي عصاه فألقاها، وسرعان ما رأى أن تلك العصا قد تحولت إلى ثعبان ضخم، حيث جاء في النصوص إنه كان من القوة، بحيث يحطم الحجر، ويقتلع الشجر، وتتوقد عيناه في الليل المظلم، كان هذا امتحاناً: حيث أمره الله بأن يلقي عصاه فامتثل موسى، والامتحان الآخر كان حيث أمره بأن يأخذ الثعبان فيمسكه من حلقه، وهو أخطر عضو فيه.ترى كم ينبغي أن يكون إيمان الإنسان بالله وبالرسالة، وتغلبه على طبيعته البشرية كبيراً حتى يتمكن من أن يقدم على هذه العملية الصعبة؟!.

إن الإنسان بطبيعته يشكك نفسه -ألف مرة- في مثل هذه الحالات، فإذا تعرض لامتحانات صعبة كما تعرَّض لها موسى عليه السلام، يقول لنفسه: من يقول بأن هذا هو الله؟ ومن يقول بأن الأمر واجب، ومن يقول بأن الأمر فوري؟ وهكذا.. ولكن موسى بالرغم من خوفه الشديد النابع من طبيعته البشرية تحدى وأخذ الثعبان فتحول -بمجرد أن أمسك به- إلى عصا كما كانت.

لقد اجتاز موسى في لحظات معدودة تلك المراحل التي اجتازها إبراهيم الخليل عليه السلام في سنين، فأمر بحمل الرسالة إلى البشر.لقد تعرض إبراهيم الخليل عليه السلام لخطر شخصي حينما ألقي به في النار، وكذلك موسى تعرَّض لهذا الخطر حينما أمر بأن يأخذ الثعبان، وإبراهيم ترك زوجته وطفله الرضيع وحيدين في الصحراء، وانفلت عنهما وتوجه إلى الله، وكذلك موسى ترك أهله وهم في ظروف صعبة، وتوجه إلى الله.

إبراهيم الخليل تعرَّض -مرة أخرى- للغربة والابتعاد عن بلده، وكذلك موسى تعرض لذلك حيث بقي ظالاً في الصحراء مدة إلى أن اهتدى بفضل الله، هذا غير فراره إلى مدين وبقائه هناك لمدة عشر سنين.

هكذا اجتاز موسى مراحل الاختبار، وتخطى امتحانات الرسالة بسهولة ويسر تبعاً لما كان يختزله من رصيد إيماني كبير، فلما اجتازها جميعاً بنجاح، حمله الله الرسالة، وبعد أن حمل الرسالة،

(١) بحار الأنوار:ج٧٨، ص١٩٤.

طلب موسى من ربه أشياء لم تكن مجرد طلبات، بل كانت أيضاً قرارات أقرها موسى على نفسه.

إنك لا تدعو ربك بدعاء إلا بعد أن تقرَّر الوصول إلى ما تدعو الله له بكل وسيلة مادية مقدورة لك، وتدع بقية الوسائل التي لا تستطيعها إلى الله سبحانه. إذا دعوت الله أن يطعمك فلا يعني ذلك بأن تجلس في بيتك إنما عليك أن تبحث عن أرض صالحة وعن طريقة لتوصيل الماء إليها، وعن حبٍّ تزرعه فيها، وعن عملية مبتكرة للزراعة والسقاية والحرث والحصاد، ثم تطحنه وتخبزه وتحضره، وآنئذ تأكله.

وأنت في هذه المسيرة الطويلة تتعرض لصعوبات وعوامل مضادة لعملية الزراعة، تلك العوامل المضادة التي ليس في وسعك التغلب عليها، فتدعو الله أن ينصرك عليها، أما العوامل التي تستطيع أن تقوم بتوفيرها عملياً فينبغي أن تسعى من أجلها، هذا هو جوهر الدعاء.

وهكذا كانت طلبات موسى عليه السلام تعني: أن حمل الرسالة بحاجة إلى هذه الشروط الخمسة:

الشرط الأول: سعة الصدر، فسعة الصدر آلة الرئاسة ولا يستطيع الفرد أن يصل إلى الرئاسة الحقيقية بحمل الرسالة وتبليغها إلى الناس، من دون أن يكون صدره واسعاً، وسعة الصدر تعني الصبر، وعدم الحزن أو التأثر من كلام المخالفين و الجاهلين، وبالتالي فإنَّ صاحب هذه الصفة يستطيع أن يصدع بالحق دون أن تأخذه في الله لومة لائم، أو يتأثر بإعلام الناس.

الشرط الثاني: هو القدرة على الحديث والبيان، فلقد كان موسى تماماً لا يحسن الإعراب والإفصاح في حديثه عما يريده.

الشرط الثالث: بذل الجهود المكثفة لإفهام الناس رسالة الله وأحكام شريعته، فليس وظيفة حامل الرسالة أن يكره الناس على تطبيقها تحكماً واستبداداً، وعوها أم لم يعوها.

الشرط الرابع: هو أن يبحث حامل الرسالة عمن يؤازره، ويشترك معه في أمره، وينبغي أن يكون أقرب الناس إليه.

الشرط الخامس: هو أن يكون هو مع هذا الوزير يهدفان إلى تسبيح الله وذكره، والدعوة إليه لا الاستعلاء في الأرض، والطغيان على الناس.

وهذه الشروط تنبه إليها موسى عليه السلام حينما حمل الرسالة، وكان في ذلك دليل على أن اختيار الله موسى لرسالته إنما تمَّ بحكمته البالغة، إذ إن الله أعلم حيث يجعل رسالته، فلننظر كيف يحاور موسى ربه.

بينات من الآيات:

معجزتان

[١٧-١٨] ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ يعلم الله سبحانه مافي يد موسى، ويعلم لماذا هو يحمل عصاه، ومع ذلك فهو يسأله ربها ليمتحنه، إذ إن هذا السؤال يجعل موسى ينتبه الى أهمية عصاه وفوائدها المادية له التي ربما يكون قد غفل عنها.

فعندما يأتيه أمر الله بطرحها وألقائها بعيداً يمتثل لهذا الأمر بوعي.

كما أننا نستفيد من جواب موسى عليه السلام عدة أمور جانبية أخرى وهي: أنه يتعب نفسه في العبادة والشغل بدلالة قوله ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾، وأنه كان يعمل في مهنة الرعي، كما كان يستعمل عصاه في أغراض أخرى، كالدفاع عن نفسه إذا تعرض للاعتداء مثلاً.

[١٩] ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ إن أمر الله لموسى بإلقاء العصا بعد أمره بخلع النعلين بالإضافة إلى ما قلناه من اختبار للطاعة، والتوجه الخالص له سبحانه، فهو أيضاً لإعطاء درس لموسى عليه السلام ولنا من بعده، وذلك الدرس هو أن اعتماد الإنسان يجب أن يكون فقط على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وأن اعتماد الإنسان على الوسائل المادية الموجودة في الحياة ما لم تكن بإذن الله وامتثالا لأمره فإنه لا يغني عنه شيئاً فإنَّ القوة لله جميعاً.

[٢٠] ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ كانت هذه مفاجأة مذهلة ومنظراً رهيباً بالنسبة إلى موسى، وقبل أن يستبد به الخوف ويؤدي به إلى الانهيار جاءه النداء الرحماني.

[٢١] ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي كما كانت من قبل عصا.

[٢٢] ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي اجعلها تحت إبطك، فأدخل موسى يده الكريمة تحت إبطه ثم أخرجها فإذا هي تشرق نوراً. ومعنى من غير سوء: أن البياض لم يكن من البرص كما توحي إلى مثل ذلك التوراة المحرَّفة.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ وذلك تعزيزاً للآية الأولى (العصا).

[٢٣] ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ وعد الله موسى بأن يريه آيات أخرى أكبر من هذه وفعلاً كان فلق البحر وإغراق فرعون وأصحابه آية كبرى، ولا ننسى الآيات المفصلات

الأخرى (الجراد، والقمل، والضفادع، والدم و.. و).

هذه الآيات يجب أن تزيدنا إيماناً بإمكانية الانتصار، وبإمكانية الحصول على آيات أكبر منها، إن الله سبحانه يعطينا بعض الآيات الصغيرة ليشير بذلك إلى قدرته، ويجعلنا نؤمن بأن الآية الكبرى أمامنا هي الانتصار الكبير، وإنما علينا أن نسعى ونبذل جهدنا، ولا نتقاعس أو نجبن ونخاف.

[٢٤] ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ القرآن حدَّد كلمة واحدة حول فرعون وهي الطغيان، ولكن هذه الكلمة تكفينا عن ألف كلمة، فالإنسان الطاغي يفعل كل الجرائم ويرتكب كل الشرور.

الضروريات الرسالية

هذه هي طلبات موسى وفي نفس الوقت هي خطط موسى:

[٢٥] ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ اجعل صدري واسعاً شرحاً لا أتهيب الصعاب التي قد تواجهني في الطريق، إني أعلم بأن حمل الرسالة عملية صعبة لذلك فأنا أحتاج إلى صدر يسع كل مشاكل التبليغ ويزيد.

[٢٦] ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ لعلَّ موسى عليه السلام كان يرى أن فرعون يصعد الموقف مما يدفع بموسى عليه السلام إلى التصعيد أيضاً -خصوصاً- وأن موسى عليه السلام كان مشهوراً بالغضب في الله، فكان يريد أن تمشي المسائل بهدوء بدون حاجة إلى العنف.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنَّ موسى عليه السلام كان يدرك خطورة وصعوبة المسؤولية على عاتقه، فكان يريد التيسير في أموره، ورفع الثقل جراء حمله الرسالة.

هذا إذا علمنا أن الإنسان الذي يحمل هموماً كثيرة بسبب عمله لن يفلح أثناء عمله، لأنَّ الهم والإحساس بثقل العمل يثبط الإنسان عن العمل، فلذلك أراد موسى أن يزيل هموم عمله بدعائه لربّه لتيسير عمله.. الذي يعني الاستعداد للقيام بدور أكبر.

[٢٧-٢٨] ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ كلمة اللسان هنا ربما تعبر عن الإعلام، فموسى عليه السلام كان يطمح إلى إعلام قوي يدخل في الأعماق، وربما هذه الفكرة مأخوذة من قوله ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ وبمعنى آخر أن موسى يطمح إلى أمرين:

الأول: قوة الإعلام الذاتية، وهذا لا يتم إلا بمعرفة منطق الناس، كما قال الرسول

الأكرم ﷺ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[1]، وهذه الفكرة يدل عليها قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ وهي التي تدل عليها الرواية التالية.

الثاني: خلق التأثير أو بمعنى آخر أنه طلب من الله أن يلهم عقولهم التفهم لرسالته، وكأن موسى يدعو لهم بالعقل: وهذا ما تدل عليه الجملة الثانية ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

جاء في تفسير القمي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَقْتُلُ أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلَّ مَا يَلِدُونَ، وَيُرَبِّي مُوسَى وَيُكْرِمُهُ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّ هَلَاكَهُ عَلَى يَدِهِ، فَلَمَّا دَرَجَ مُوسَى كَانَ يَوْماً عِنْدَ فِرْعَوْنَ فَعَطَسَ مُوسَى فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَنْكَرَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَطَمَهُ وَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي تَقُولُ؟!. فَوَثَبَ مُوسَى عليه السلام عَلَى لِحْيَتِهِ وَكَانَ طَوِيلَ اللِّحْيَةِ فَهَلَبَهَا -أَيْ قَلَعَهَا- فَهَمَّ فِرْعَوْنُ بِقَتْلِهِ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: غُلَامٌ حَدَثٌ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ وَقَدْ لَطَمْتَهُ بِلَطْمَتِكَ إِيَّاهُ!. فَقَالَ فِرْعَوْنُ: بَلْ يَدْرِي. فَقَالَتْ لَهُ: ضَعْ بَيْنَ يَدَيْكَ تَمْراً وَجَمْراً فَإِنْ مَيَّزَ بَيْنَهُمَا فَهُوَ الَّذِي تَقُولُ. فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَمْراً وَجَمْراً، فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَمَدَّ يَدَهُ إِلَى التَّمْرِ فَجَاءَ جَبْرَئِيلُ فَصَرَفَهَا إِلَى الْجَمْرِ فِي فِيهِ فَاحْتَرَقَ لِسَانُهُ فَصَاحَ وَبَكَى، فَقَالَتْ: آسِيَةُ لِفِرْعَوْنَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّهُ لَا يَعْقِلُ فَعَفَا عَنْهُ**»[2].

هكذا أضحى موسى عليه السلام منذ ذلك اليوم ألثغاً.

[٢٩-٣٠] ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي﴾ لقد كان هارون أكبر سناً من موسى، وكان جلال النبوة ظاهراً على محياه، وكانت مهمات موسى عظيمة، إذ لم تقتصر على تبليغ رسالات الله فحسب، بل وأيضاً مقاومة طاغوت متجبر كفرعون، وإنقاذ شعب مستضعف ثم قيادته وتوجيهه، فدعا ربه أن يجعل هارون وزيره.

وقد جاء في حديث مأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال الراوي فقلت لأبي جعفر: وَكَانَ هَارُونُ أَخَا مُوسَى لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ! قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ أَمَا تَسْمَعُ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾**؟، فَقُلْتُ: فَأَيُّهُمَا كَانَ أَكْبَرَ سِنّاً؟. قَالَ عليه السلام: **هَارُونُ**، فَقُلْتُ: وَكَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعاً؟. قَالَ عليه السلام: **كَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى وَمُوسَى يُوحِيهِ إِلَى هَارُونَ**، فَقُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْأَحْكَامِ وَالْقَضَاءِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ أَكَانَ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا؟. قَالَ عليه السلام: **كَانَ مُوسَى الَّذِي يُنَاجِي رَبَّهُ وَيَكْتُبُ الْعِلْمَ وَيَقْضِي بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَارُونُ يَخْلُفُهُ إِذَا غَابَ عَنْ قَوْمِهِ لِلْمُنَاجَاةِ**»[3].

[٣١] ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي قوّ به ظهري، ولعل ذلك يعني أنه كان يستخلفه عندما

---

(١) الكافي: ج١ ص٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج١٣ ص٢٥.
(٣) بحار الأنوار: ج١٣ ص٢٧.

يغيب عن قومه.

[٣٢] ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ أي يتحمل جزءاً من مسؤولياته حتى عند وجوده.

[٣٣] ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا﴾ التسبيح هو تنزيه الله كما جاء في الحديث: أنه سئل الإمام أبو عبد الله عن معنى سبحان الله؟ فقال: تنزيهه [١].

[٣٤] ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ولا يعني ذكر الله مجرد تحريك اللسان، بل جعل الله مراقباً في السر والعلن، ويدل على ذلك الحديث الشريف: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**مَا ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالٍ ثَلَاثٍ يُحْرَمُهَا.**

قِيلَ: ومَا هِيَ؟. قَالَ عليه السلام: **الْمُوَاسَاةُ فِي ذَاتِ يَدِهِ، والْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ، وذِكْرُ الله كَثِيراً. أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: سُبْحَانَ الله والْحَمْدُ لله ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ، ولَكِنْ ذِكْرَ الله عِنْدَمَا أَحَلَّ لَهُ وعِنْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»[٢].

[٣٥] ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ بأعمالنا وتصرفاتنا، ولعلَّ هذه الآيات توحي بأن هدف موسى وهارون لم يكن السيطرة بل تطبيق واجبات الرسالة.

ونتساءل: ما الذي دعا موسى عليه السلام إلى أن يطلب من الرب وزيراً كهارون عليه السلام؟ الجواب: أن موسى عليه السلام عرف منذ البدء أبعاد الرسالة التي سوف يحملها، والصعاب التي تعترضه في سبيل تبليغها، والضعف الذي اعترى قومه من بني إسرائيل نتيجة الاستعباد مدة طويلة، والقوة التي طغى بها أعداؤهم من الأقباط بقيادة فرعون.

وكان يشعر -لذلك- بالحاجة إلى من يسند ظهره، ويطبق واجبات الرسالة بلا تردد، فيكون إماماً في الطاعة، وقدوة في تنفيذ أوامر القيادة، فلم يجد أفضل من أخيه هارون.

وهكذا كل صاحب دعوة بحاجة إلى شخصية تتجلى فيه رسالته ويكون مثلاً أعلى لها، كما كان هارون لموسى، وآصف بن برخيا الذي أوتي علماً من الكتاب لسليمان، ويحيى لعيسى ابن مريم، وكما كان علي بن أبي طالب عليه السّلام للنبي محمد صلى الله عليه وآله، وهكذا نجد الرسول يكرر: «**إِنَّمَا أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**».

ولقد حدثت واقعة تاريخية: أظهرت الحاجة إلى ذلك. حيث إن النبي لما أراد الخروج

---

(١) معاني الأخبار: ص٩.

(٢) الكافي: ج٢ ص١٤٥.

إلى غزوة تبوك استخلف أمير المؤمنين عليه السلام في أهله وولده وأزواجه ومهاجره فقال له: «**إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِي أَوْ بِكَ**». فحسده أهل النفاق وعظم عليهم مقامه فيها بعد خروج النبي وعلموا أنها تتحرس به ولا يكون للعدو فيها مطمع، فساءهم ذلك لما يرجونه من وقوع الفساد والاختلاف عند خروج النبي صلى الله عليه وآله عنها، فارجفوا به عليه السلام وقالوا: «لم يستخلفه رسول الله إكراماً له ولا إجلالاً ومودة وإنما استخلفه استثقالا له، فَلَمَّا بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام إِرْجَافُ الْمُنَافِقِينَ بِهِ أَرَادَ تَكْذِيبَهُمْ وَإِظْهَارَ فَضِيحَتِهِمْ فَلَحِقَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ: **يَا رَسُولَ الله إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ خَلَّفْتَنِي اسْتِثْقَالًا وَمَقْتاً؟!**، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: **ارْجِعْ يَا أَخِي إِلَى مَكَانِكَ فَإِنَّ الْمَدِينَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِي أَوْ بِكَ، فَأَنْتَ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَدَارِ هِجْرَتِي وَقَوْمِي أَ مَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[1].

[٣٦] ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ وهكذا منَّ الله على عبده ورسوله موسى بن عمران، فأتاه كل ما سأله مرة واحدة، لأنه كان من وسائل تبليغ الرسالة ولم تكن طلبات شخصية.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٢٠٨.

موسى عليه السلام بين يدي العناية الإلهية

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ(١) فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ(٢) فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ(٣) عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا(٤) فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

سلسلتان من النعم تتوافر عند الإنسان لتكون شرطاً مسبقاً لتلقية النعمة الكبرى، وهي نعمة الهداية الإلهية:

الأولى: النعم المادية: مثل النمو الجسدي، والتكامل العقلي، ووجود أدنى ضرورات الحياة المعيشية.

الثانية: النعم المعنوية: مثل سلامة القلب، وعدم وجود نقص في أية حاجة من الحاجات النفسية، أو في إحساس الإنسان تجاه الآخرين، وسلامته من العقد النفسية التي تمنع الهداية.

---

(١) التابوت: صندوق من خشب.
(٢) اليم: البحر، وهو بحر الأحمر الموجود في مصر.
(٣) وَلِتُصْنَعَ: أي ولتُربّى.
(٤) ولا تنيا: لا تضعفا، من ونى يني بمعنى الضعف والفتور.

تشير هذه الآيات الكريمة إلى أن موسى عليه السلام قبل أن يتلقى الرسالة، تلقى هاتين السلسلتين من النعم، فمن جهة نرى أن الله سبحانه وتعالى أنقذ النبي موسى عليه السلام من قتل محتم، فقد كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، فلما رأى أن نسل بني إسرائيل سوف ينقطع بهذه الطريقة، أخذ يقتل فيهم عاماً ويتركهم عاماً، وقد ولد موسى عليه السلام في تلك السنة التي يقتل فيها فرعون أبناء بني إسرائيل وأنجاه الله مع ذلك من القتل، وبعد ذلك نجي من موت محتم آخر، عندما قتل قبطياً، فهرب إلى المدائن، حيث تشكّل هذه الهجرة الانطلاقة الرسالية الكبرى.

كما تعرَّض موسى عليه السلام لسلسلة طويلة من الأخطار، كذلك كل إنسان يتعرض لأخطار محدقة تكاد تؤدي بحياته، ولكنه ينقذ منها برحمة من الله وفضل، والقليل من الناس من يلتفت إليها أو يذكرها عندما يكبر، وهنا يذكر الله موسى عليه السلام بطفولته حينما كاد جلادو فرعون أن يقتلوه فأنقذه الله، ولابد أن نذكر أنفسنا بتلك الأيام الخوالي التي كادت الأخطار فيها أن تهلكنا فأنقذنا الله منها.

كما يذكّر الله موسى بالسلسلة الثانية من النعم، فقد ألقى الله عليه محبة ممن كانوا يحيطون به، لكي تنمو نفسه نمواً متكاملاً دون عقد أو أدنى نقص، ويكون بذلك مستعداً لتلقي نعمة الهداية، ولكن السؤال هل هذه نعمة خاصة؟

كلا! كل واحد منا قد تلقى أمواجاً من الرحمة والحنان من قبل والديه، ومن قبل المحيطين به، فالكثير نمت نفوسهم سليمة ومستقيمة مستعدة لتلقي نعمة الهداية، ولكن عند موسى يصبح هذا الأمر أكثر وضوحاً، حيث إن الله سبحانه حمل التابوت الذي يحمل موسى إلى بيت عدوه فرعون، وعندما رآه فرعون وقع في قلبه موقعاً حسناً وأحبه فلم يقتله، وحينما فتش فرعون عن المراضع لم يجد إلا أمه وهو لا يعرفها أنها أمه، فعاد موسى إلى أمه كي ينمو في حضن الأمومة الدافىء، الذي يربي نفس الطفل على الاستقامة والسلامة المعنوية، لأنَّ من يفقد حنان الأمومة طفلاً يظل محتاجاً لها كبيراً.

الطفل لا يرضع من ثدي أمه لبناً فقط، وإنما يرتضع من أمه حناناً ودفئاً، وفي قصة موسى رمز إلى هذه الرضاعة.

بعد أن تتوفر هاتان السلسلتان من النعم التمهيدية تأتي النعمة الكبرى وهي نعمة الهداية.. وبعدما ذكر الله رسوله موسى عليه السلام طلب منه أن يبلغ هذه النعمة (الرسالة).

إن نعمة الهداية بالنسبة لموسى، هي نعمة الرسالة، وليس للرسول الذي يبلغ الرسالة فقط، بل هي للمرسل إليه الذي يتلقى الرسالة ويستقبلها محاولاً تطبيقها أيضاً.

بينات من الآيات:

منة النجاة

[٣٧] ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ كما مننا عليك اليوم بالرسالة، كذلك مننا عليك بنجاتك ورضاعتك وتربيتك.

[٣٨] ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ وضعنا خطة لخلاصك من يد فرعون وجلاديه، حيث إننا أوحينا إلى أمك صنع تابوت ووضعك فيه، ثم تتركه في اليم.

إن الإنسان مزود في حياته بتعاليم حول السلامة والاسترزاق دون أن يعرف أن هذه تعاليم، وبطريقة ما ينقذ نفسه وينقذ من كلف به من الأخطار بسببها، جاء في تعقيب صلاة العشاء: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَوْضِعِ رِزْقِي وإِنَّما أَنَا أَطْلُبُهُ بِخَطَرَاتٍ تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِي**»[1]، كل ذلك بوحي من الله سبحانه وتعالى، ولكن ذلك يتجلى عند موسى عليه السلام بشكل أكبر، ليرمز به الله سبحانه في وحيه إلى الناس.. كل الناس.. في سائر الظروف.

[٣٩] ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ قالوا: بأن أم موسى عليه السلام حينما جاءها الوحي أن تصنع تابوتاً لم تعرف كيف تصنع التابوت، فجاءها جبرئيل وعلمها كيف تصنع التابوت، ثم بطنت داخل التابوت بالقطن، لتمنع تسرب الماء إلى داخله، ثم أغلقت التابوت على موسى، فقذفته في اليم، واليم هنا هو نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ أي يقذفه النيل إلى الشاطيء، ولكن أي شاطيء؟! إنه بيت فرعون، وهنا نلاحظ بوضوح كيف تسخر الطبيعة في خدمة الإنسان.

من مأمنه يؤتى الحذر

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ لماذا يربي الله موسى عليه السلام في بيت عدوه؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول للبشرية جميعاً: أيها البشر! أنا خالقكم وأموركم بيدي، فها أنا ذا أربي موسى في بيت فرعون عدوي وعدوه، تحت عيني فرعون، ثم أسلطه عليه، وهذا دليل على أن قوة الله وقدرته قد تأتي من داخل قصور الطغاة، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «**مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ**»[2].

---

(١) البلد الأمين: ص٣٠، ما يختص به صلاة العشاء.

(٢) غرر الحكم: حكمة: ١١١٢٦.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ألبس الله سبحانه موسى عليه السلام ثوب المحبة كما يلبس الإنسان ثوباً، بحيث ينجذب إليه ويحبه كل من يراه.

في تنمية المواهب

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أراد الله أن ينمي مواهب موسى عليه السلام بصورة استثنائية تمهيداً لتحميله الرسالة، وكذلك بالنسبة إلى جميع الأنبياء عليهم السلام حيث إن الله سبحانه يختار أنبياءه منذ طفولتهم فيعرضهم للامتحانات، وينمي مواهبهم بطرق معينة، وهذا لا يخالف الفكرة الإسلامية حول: أن الأنبياء يتعرضون لامتحانات كما يتعرض غيرهم، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٢٤].

إن الله سبحانه وتعالى يعرض أنبياءه لامتحانات صعبة إلى درجة لا يتحملها الإنسان العادي، وإذا لم يتحملها النبي فلا يختاره، ولكن مع ذلك هناك نعمة تسبق نعمة الامتحان، وهي بناء النبي بناءً استثنائياً استعداداً لتحميله مسؤوليات ضخمة في المستقبل، ويمكن أن نضرب مثلاً لهذه الحالة بالتدريب في الوحدات الخاصة في الجيش.

هؤلاء المنتمون إلى هذه الوحدات يتعرضون لتدريب صعب وشاق لتنمو مواهبهم، وتتدرب أجسادهم على الصعاب، ولكن هل يكتفي المدرب بهذه التدريبات الصعبة الشاقة؟ كلا.. إنما يمتحنهم بعد ذلك امتحاناً، فإذا سقط أحدهم في الامتحان يسرح.

النبي كذلك يتعرض منذ نعومة أظفاره لصعوبات، فعيسى عليه السلام تعرض لصعوبة ما، حيث إنه ولد من غير أب، فاتهموا أمه الطاهرة مريم عليها السلام، فأنقذهما الله من هذه التهمة، وإبراهيم عليه السلام ولد في وضع مشابه لوضع موسى عليه السلام، حيث كان نمرود يقتل الأبناء ويستحيي النساء، فولدته أمه في هذا الوضع ونجّاه الله سبحانه، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله تعرض منذ طفولته لليتم.

في بيت فرعون

[٤٠] ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ حينما أنقذ الله موسى من فرعون، أنقذه من خطر مادي، ولكن ينقذه هنا من خطر معنوي ونفسي، ذلك هو تربيته بدون أم وأب، فيفتقد إلى الحنان، وافتقاده إلى حنان الوالدين قد يسبب له عقدة نفسية، فيفقد السلامة النفسية الضرورية لاستقبال الوحي، ولكن الله قدر أن يحل هذه المشكلة.

أخذ فرعون هذا الطفل الصغير من بني إسرائيل فألقى الله محبته في قلبه، ولكنه مع ذلك تجلد، وقال: أيها الجلاد اضرب عنقه، لأنه عرف أن ملامحه هي ملامح بني إسرائيل، فتدخلت زوجته آسية بنت مزاحم: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[القصص: ٩]. وقبل فرعون ترجي زوجته، وبعث إلى من حوله من المراضع فجئن، ولكن موسى عليه السلام هذا الطفل الصغير أبى، أن يرتضع من أي ثدي، وهنا جاءت أخته التي أمرت من قبل أمه بأن تقص أثر التابوت، وتمشي وراءه، وكانت واقفة بباب فرعون حين بعث إلى من حوله من المراضع، فأدخلت وقالت: أني أعرف من يرضعه ويكفله لكم.

العودة إلى الأم

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ تقر عين الأم بوجود طفلها وتطمئن، ويستفيد الطفل من هذا الاطمئنان.والقرآن يشير هنا إلى حنان الأمومة الضروري لتنمية مواهب الطفل، لأنَّ الطفل لا يفهم شيئاً آنئذ، ولكن الأم وحدها هي التي تفهم مدى حنانها إلى طفلها، وإن الطفل قرة عينها وإن افتقاده يسبب حزناً لها.

في محنة القتل

مرة أخرى ينجي موسى من الخطر المعنوي فيقول: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أنقذه الله سبحانه وتعالى مرة أخرى من الموت، ولكنَّ الله لم ينقذه من الموت فقط، بل أنقذه أيضاً من الغم، حيث إن موسى عليه السلام بعد أن قضى في صراعه على القبطي، اغتم بسبب هذه الفعلة، والقلب المصاب بالغم لن يكون مستعداً لتلقي الرسالة، فأنجاه الله من هذا الغم، لكي يكون مستعداً لتلقي زخات الرسالة، وكم نجَّانا الله وأنقذنا من أمثال هذا الغم، الذي يسبب تراكمات في النفس، وبالتالي عقداً نفسية تحجب الإنسان عن فهم الرسالة.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي بقي عشر سنين في مدين عند عمه شعيب، ثم بعد انتهاء هذه السنوات العشر جاء على قدر.. يعني جاء وقد قدَّر الله مجيئه تقديراً.

ونحن نحسب أن كثيراً من أعمالنا إنما هي صدفة، بينما هي أقدار من الله سبحانه، وهكذا قدَّر لموسى أن يأتي بعد عشر سنوات، وأن يتيه في الصحراء، وتلد زوجته، ويحتاج إلى قبس من النار.. قدَّر له كل ذلك، ثم جيء به لاستقبال الرسالة.

الأحداث هي التي تدفعك لأن تختار طريقاً، قد يكون فيه خيرك، فمثلاً: بعض الناس قد لا توجد لديه رغبة أساساً في السياسة، ولا يتدخل فيها، لكن قد ينتمي ابنه إلى حركة إسلامية، فيطارده الأمن، ويفتش عنه في بيته، فيسبه الأمن هو وأهله، فينتبه الأب وتنتبه الأم والإخوة، ثم قد ينتمون إلى هذه الحركة وقد يصبحون قادة لها أو شهداء فيها.

إذا جاءك قدر من هذه الأقدار، فاعرف بأن نعمة من الله سبحانه قد هبطت عليك، وأن الله يريد لك الجنة، ويريد لك أن تكون ذا شأن، فلا تغلقن الأبواب أمام الأقدار الخيرة، ولا تمنع نفسك من بركات السماء.

ثم تأتي مرحلة التربية، ويجب على الإنسان أن يشكر مربيه الذي رباه على الخير والتقوى والاستقامة و..و.. منذ طفولته المبكرة، ويجب على الإنسان أن يشكر ربه الذي وفر له مثل هؤلاء المربين الذين يربونه على الصفات الحسنة، وشكر الله على التربية الفاضلة التي تلقيتها هو أن تستجيب للرسالة التي تهبط عليك.

التربية المثلى

[٤١] ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ خلق الله الإنسان لنفسه، وخلق الأشياء للإنسان، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**عَبْدِي! خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لأَجْلِي، وَهَبْتُكَ الدُّنْيَا بِالإِحْسَانِ وَالآخِرَةَ بِالإِيمَانِ**»[1].

خلق الله الإنسان ليكون منه خلفاؤه في الأرض، وسخَّر له كل شيء من الطبيعة، وكل شيء منه، العلم والإرادة والعقل، ولكن كثيراً من الناس لا يشكرون ربهم، ولا يعرفون منزلتهم فيهبطون إلى حضيض الأنعام، بل أضل سبيلاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٤] والاصطناع الرباني أكثر بروزاً عند الأنبياء، لأنَّ الله يوفر للأنبياء التربية المثلى، ويولدون من آباء وأمهات مؤمنين، فهم في قمة الكمال والصلاح، ولولا صلاح الأبوين لما اختار الله سبحانه وتعالى من أولادهم أنبياء.

جاء في الآية الكريمة حول نبينا محمد ﷺ: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩].

فسَّرت هذه الآية أن النبي كان يتقلب في صلب الآباء والأمهات الساجدين لله سبحانه، وأن جميع آباء النبي مؤمنين وصالحين.

---

(١) الجواهر السنية للحر العاملي: ص٣٦١، مشارق أنوار اليقين لرجب البرسي: ص٢٨٢.

[٤٢] ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ بعد أن وفرنا لك وسائل وظروف الاستجابة للرسالة، من وسائل مادية ومعنوية، وهديناك إلى الرسالة، أحمل أنت وأخوك الرسالة بقوة ولا تضعفا ولا تهنا في تبليغها.

ما هو الذكر؟

قد يكون الذكر هو الرسالة، وقد يكون الذكر هو ذكر الله الذي يربي نفس الإنسان لتحمل صعوبات تبليغ الرسالة.. فأنت حين تبلغ الرسالة تتعرض لمجموعة من الصعاب والمشاكل، وتجاوز تلك الصعاب والمشاكل لا يكون إلا بذكر الله سبحانه، فبذكر الله يطمئن قلبك، وتشتد إرادتك، لذلك على الإنسان الذي يحمل الرسالة ألا يني ولا يفتر عن ذكر الله أبداً، كي ينصره الله على المشاكل.

الحركة الرسالية وأساليب الدعوة

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ[1] أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا[2] وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ[3] (٥٣) كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ[4] (٥٤) ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾.

هدى من الآيات:

في طريق الإنسان إلى ربه عقبات ولابد من تصفيتها:

أولاً: الطغيان (زعم الاستغناء عن الآخرين والتكبر عليهم).

---

(١) يفرط علينا: أي يتقدم فينا بعذاب.
(٢) مهداً: كالمهد للطفل الذي يستقر فيه ويكون سبباً لراحته وصحته.
(٣) شتى: جمع شتيت، أي مختلف.
(٤) النهى: جمع نُهيَة وهي العقل، وإنما قيل له نُهية لأنه ينهى الإنسان عن الفساد.

ثانياً: الاستهزاء (أو انعدام الإحساس بالمسؤولية).

ثالثاً: الرجعية (والحنين إلى سيرة القرون الأولى).

وتعالج آيات هذا الدرس هذه العقبات:

أول كلمة قالها الله لموسى وهارون عليهما السلام حينما أمرهما بدعوة فرعون إلى الهدى هي: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وطغيان فرعون جاء من إحساسه بالاستغناء، فكلما أحس الإنسان بعدم الحاجة، وزعم أن حاجاته تتحقق يطغى، فأمر الله سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام بمعالجة الطغيان عن طريق التذكرة والتوجيه، وبيان حاجة فرعون الحقيقية، بالرغم من زعمه بعدم الحاجة، ثم عالج السياق العقبة الثانية، الاستهزاء ببيان أن الجزاء لواقع، وأن الإنسان لمسؤول عن مواقفه، لأن الإنسان لا يبالي مادام لا يعلم أن عليه جزاء، أما إذا عرف أنه سوف يجزى بمواقفه، فسوف يعود إلى رشده.

أما العقبة الثالثة وهي الحنين إلى الماضي، والخوف من تطويره، فقد عالجها القرآن الحكيم ببيان إن كل الحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها محكومة بإرادة الله، وأن تدبير الله وتقديره وقضاءه يحيط بالحياة إحاطة كاملة، وأن القرون الماضية لا يجب أن تقدس تقديساً مطلقاً، بل إن علمها عند الله، فإذا كانت تلك القرون في طريق الحق فهي لأجل الحق مقدسة، أما إذا كانت في طريق الباطل فعليها لعنة الله لأنها لم تتبع الحق.

هذا ولقد جاءت رسالات الله لتعالج أيضاً كل عقبة أو شذوذ في حياة البشر، إن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل كعنصر مخالف لعنصره، فعالج القرآن هنا هذه العقبة أيضاً ببيان أن بني إسرائيل يجب أن يتحرروا، وبالرغم من أن هذه العقبات ذات أبعاد مختلفة، بعد اجتماعي، وبعد سياسي، وبعد ثقافي و.. و.. إلخ، لكن الآيات الكريمة في سورة طه -كما يبدو- تركز الضوء على البعدين النفسي والثقافي أكثر من أي بعد آخر.

بينات من الآيات:

كيف يعالج القرآن الطغيان؟

[٤٣] ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ الإنسان الذي يطغى إنما يطغى لإحساسه بعدم الحاجة، وإن الآخرين محتاجون إليه، فإذا أحس الإنسان بحاجته انحسر عنه الطغيان.

والطغيان يأتي بسبب إحساس الإنسان بأن أهدافه في الحياة قد تحققت، وأن طموحه قد

بلغت غايته، أما الفرد الذي يشعر بأنه لم يحقق أهدافه، فإنه يخشع للسبل والوسائل التي تحقق ذلك الهدف.

[٤٤] ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ كيف يعالج الطغيان القول اللين؟ لأن الطغيان حالة استكبار وغرور، ومعالجة الغرور قد لا يمكن بالعنف، بل بما ينفذ في الأعماق، ولا يثير دفائن الكبر، ومن هنا كان على الداعية أن يعرف: أن هدفه ليس تحطيم المتكبر، بل إرشاده، وبالتالي فعليه ألا يقابل قوة طغيانه القوة مثلها، بل بسعة الصدر ودماثة الخلق.

القول اللين هو الدرس العملي للطاغية، ليعرف أن طغيانه في غير محله، القول اللين يأتي ليهدم أساس الطغيان وليعرف صاحب الطغيان بأن هناك طريقاً آخر لتحقيق الأهداف.

هناك فكرة أخرى نستلهمها من هذه الآية وهي: أن الطاغية حتى لو بلغ بطغيانه إلى مستوى طغيان فرعون الذي يضرب به المثل، فهو لا يزال بشراً، ولا تزال هناك فرصة لهدايته، لذلك يجب ألاّ نيأس من هداية أي بشر.

[٤٥] ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ كان موسى وهارون عليهما السلام يخافان على الرسالة قبل أن يخافا على أنفسهما، حيث كانا يخشيان مبادرة فرعون بقتلهما، أو تعذيبهما بحيث يقطع عليهما الكلام، أو يمنع وصول الرسالة إلى الناس، ولعلَّ هذا هو معنى ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بمعنى يبادر بالعمل ضدنا.

وعلى هذا المعنى فلم يكن خوفهما هنا على أنفسهما، كما لم يكن خشية موسى في مقام آخر على نفسه، حيث يقول الإمام علي عليه السلام **«الْيَوْمَ أَنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ! عَزَبَ رَأْيُ امْرِئٍ تَخَلَّفَ عَنِّي! مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ! لَمْ يُوجِسْ مُوسَى عليه السلام خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلَالِ!»**[1]، هذا خوف. والخوف الآخر هو أن يسبب الحديث معه المزيد من الطغيان.

هذان درسان لكل داعية، فعليه أن يحاول إيصال الهداية إلى من يريد، قبل أن يبادر هو بقطع كلامه، ويفعل ذلك بحيث لا يزيده طغياناً.

ما هو القول اللين؟

بعض الناس يتصورون بأن القول اللين هو مجرد الخضوع في القول، ولكن يبدو إن

(١) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٢٣٦.

القول اللين أوسع من هذا المعنى، فإنه يشبه الماء الذي ينفذ في كل مكان ممكن، فهو يبحث عن الثغرات في قلب الطرف المقابل للنفوذ من خلالها، فهو ليس أسلوباً واحداً، إنما هو الحكمة في اختيار الأسلوب المناسب في الوقت المناسب.

[٤٦] ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ﴾ بعد أن بيّن القرآن هاتين المشكلتين (الطغيان، الخوف) وحلهما، أعطى حلاً للمشكلة النفسية عند الداعية، وهي مشكلة الخوف.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عندما يطلب الله منهما عدم الخوف، فإنه يوفر لهما سبل نجاح دعوتهما، والحفاظ عليهما، وهذا ما قضاه الله حين قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، والذي يسمع هو القريب، والذي يرى هو الشاهد، ولعلَّ معنى الآية: إني أسمع القول، وأرى الفعل.

الجانب الاجتماعي للرسالة

[٤٧] ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ ﴾ لقد حملت الرسالة الإلهية إلى الإنسانية المعذبة بشرى العدالة، أو ليست الرسالة الإلهية تنزل من أجل إصلاح ما فسد من حياة الناس، أو ليس فساد المجتمع الفرعوني الأخطر هو العنصرية، واستضعاف طائفة من الناس.. هم بنو إسرائيل، هكذا جاءت الرسالة تأمر فرعون الطاغية بهدم أساس حكمه، وإطلاق حرية الفئة المستضعفة.

﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ الهدى هو الإسلام، والإسلام يعني السلام، ولا يمكن أن يتحقق السّلام من دون الهدى، فمن الخطأ أن يتصور البعض بأن السّلام يتحقق عن طريق الظلم.

الإسلام يرفض هذه الفكرة ويقول: إن السّلام يجب أن يقام على أساس (الهدى) وإنه من دون الهدى لا سلام، والحرب والصراع سيبقيان حتى يتحقق الهدى.

[٤٨] ﴿ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يبدو من السياق: أن الفكرة الثانية التي طرحتها رسالة الله هي فكرة المسؤولية، وأن البشر مجزي بعمله، فله السّلام إن اتبع الهدى، وعليه العذاب إن كذب وتولى، وهذه الفكرة التي تؤكدها فطرة البشر، هي حجر الأساس في بناء صرح الثقافة السليمة.

[٤٩] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ كان البشر عبر التاريخ يعتقدون بالله رب السماوات والأرض، ولكن اعتقادهم كان أبداً مشوباً بالشرك، لذلك يطرح هذا السؤال: ماذا أراد فرعون

باستفهامه عن رب موسى وهارون؟.

الجواب: لعلَّ فرعون كان يريد أن ينسب حركة موسى وهارون التغييرية إلى قوة سياسية أرضية، وكان يعني بالرب هنا ما يقال عن (رب العائلة): أي مسؤولها، أي كان يريد أن يقول: إنكم تريدون أن تفسدوا السلطان الذي أملكه، عن طريق الدعوة إلى دولة أخرى، وبالتالي كان فرعون -كأي طاغوت آخر- يتهم الحركات الرسالية بأنها حركات ترتبط بقوى أرضية أخرى، فأجابه موسى عليه السلام: بأننا لا ندعو إلى إسقاط هذه الحكومة وقيام حكومة نحكمها نحن، وإنما ندعو إلى تحرر الإنسان وخاصة بني إسرائيل، ليس من عبوديتك فقط، بل من عبودية أية سلطة، حتى ولو كانت من داخل تجمعهم، والدعوة إلى عبودية الله التي هي الحرية المطلقة.

[٥٠] ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ إننا لا ندعو إلى أحد وإنما ندعو إلى الله الذي خلق الأشياء، ثم هداها في طريقة تنفسها، وأكلها، وشربها، والحماية عن نفسها و.. و.. فالله حينما خلق الأشياء علم أنها تحتاج إلى وسائل تغذية وحماية وتمتع وغيرها، فهداها إلى كل ذلك بفضله! فهو إذن الرب الحقيق بالعبادة، والتسليم والولاية.

ومن خلال هداية الله للأشياء ينبغي أن يهتدي الإنسان بهدى العقل ورسالة الرب، إلى منافعه ومصالحه الحقيقية.

الفكر الرجعي

[٥١-٥٢] ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ الأفكار التي تتشبث بها يا فرعون! هي أفكار القرون الأولى، ويبدو أن الطغاة ينصبون من أنفسهم مدافعين عن التقاليد والعادات، وذلك لهدفين:

أولاً: إيهام الناس بأنهم يدافعون عن مقدساتهم، وبالتالي فهم أجدر بالسلطة من غيرهم.

ثانياً: الخوف من التغيير، لأنه قد يحمل معه ما يهدم سلطانهم، ذلك أن أبرز خصائص النظام السياسي هو الثبات.

هكذا تساءل فرعون عن مصير السابقين، هل هم في الجنة أم في النار، وإذا كانوا كفارا فلماذا لم يعذبهم الله في الدنيا، فأعرض موسى عليه السلام عن الإجابة المباشرة، ببيان السنة الإلهية العامة، وأن عند الله علم هؤلاء في كتاب، وبالتالي فإنَّ حسابهم محفوظ، وتأخير العذاب لا يدلُّ

على نفيه، كما أن الله يحكم عليهم بالقسط، ولا يظلم أحداً شيئاً، وأن هذا الكتاب لا يسجِّل باطلاً ولا يمحى عنه شيء، فلا يضل ولا ينسى.

ثم أشار موسى إلى صفات الرب، لعلَّ فرعون يخشع قلبه لذكر الله، ومن لم يلن قلبه لذكر الله، فإنه أقسى من الصخور الصماء.

[٥٣] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل الأرض بحيث تستطيعون البقاء عليها، إذ لو كانت الأرض من حديد أو رمال متحركة أو أسمك قليلاً، أو أرق قليلاً، لتغيرت معادلة الحياة عليها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ نظرة إلى الكون فيما حول الإنسان، كافية بأن تعطيه فكرة هامة هي: أن هذا الكون مخلوق، لأنَّ كل شيء فيه مرتب ترتيباً دقيقاً لهدف معين، فالأرض أعدت للسكن والزرع وتخزين المعادن والمياه وغيرها، والجبال لترسي الأرض وتصد الرياح وهكذا.

وحسب حاجات الإنسان والحيوان والأرض والبيئة ينبت نبات الأرض وهذا دليل على وجود حكمة بالغة تدبر هذا الكون.

[٥٤] ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أولي النهى: أولو الفكر، وقد قال الله عنهم: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٩١]، وأولي النهى، أي الذين ينهون الناس عن الانحراف.

[٥٥] ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ هذه الأرض هي أمنا الحنون التي خلقنا منها وتحركنا عليها، ثم نعود إلى بطنها ثم نخرج من بطنها مرة أخرى لكي نحاسب، هكذا قال موسى لفرعون.

ولعلَّ مراد الله في هذه الآية تذكير الطغاة الذين يستعلون في الأرض بغير الحق، ويستعبدون الناس، تذكيرهم بأن الناس جميعاً من تراب، فلا تفاضل بينهم في المنشأ، ويعودون إلى التراب، فلا تفاضل بينهم في المصير، ويقومون من التراب للجزاء، وهو الذي يجسد التفاضل الحقيقي بينهم وذلك بالعمل الصالح.

أساليب الطغاة في مواجهة الرسالة

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى[1] ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[2] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ[3] ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ[4] ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

على صاحب الرسالة ألاّ يتصور الطاغوت حديداً لا يلين، إنما هو بشر من لحم ودم، يملك فؤاداً يتقلب بين الخوف والرجاء، والأمل واليأس، وعلى الداعية أن يسعى من أجل تذكيره بشتى السبل الممكنة، ولكن لا يعني ذلك أن الطاغوت يستجيب له أبداً، فقد يؤمن ويهتز ضميره، وقد يبقى على ضلالته علواً واستكباراً.

وتؤكد هذه الفكرة مقارنة بين هذه الآيات وآيات الدرس السابقة، ففيه نجد فرعون

(١) مكاناً سوى: منتصفاً بيننا وبينك فلا يكون أقرب إليك ولا إلينا.
(٢) فيسحتكم: يستأصلكم، أو يهلككم فإن سحت أو اسحت بمعنى أهلك.
(٣) وأسروا النجوى: أخذ بعضهم يناجي الآخر سراً.
(٤) المثلى: مؤنث تفسير الأمثل، أي الأفضل والأحسن.

يتحدَّث وكأنَّ الأمور جميعاً بيده، أما في هذا الدرس فقد تغير منطقه، فصار يتحدث باعتباره نداً لموسى عليه السلام حين قال فلنأتينك بسحر مثله، وقد جعل رأي الناس مقياساً.

وإنما تغير أسلوب الحديث عند فرعون، بسبب الكلمات الصاعقة التي وجهها إليه موسى عليه السلام.

وهكذا قال فرعون لموسى عليه السلام: هل لك أن تأتيني بآية؟ فأراه الآيتين: العصا واليد البيضاء، ولكنه كذَّب مبرراً تكذيبه بالمعاذير التافهة -شأن كل إنسان يكذب بالحقيقة-، والواقع أن هناك ثلاثة أساليب يتذرع بها الطغاة ضد أي تحرك يعارضهم:

أولاً: تلفيق الإشاعات ضد المصلحين، والتي تتكرر بصورة شتى، فمرة يقولون: إن هؤلاء مجانين كما قالوا للرسول، ومرة يقولون: إنهم إرهابيون، ومرة يقولون: إنهم سحرة، ومرة يتهمونهم بالتطرف الديني.

ثانياً: محاولة احتواء حركة الاصلاح، وطرح شعارات كاذبة ومتشابهة لمواجهة مبادىء الرسالة.

وهكذا المستكبرون يغيرون الأشكال الظاهرية لنظام الحكم كلما اهتزت عروشهم، واهترأت أساليبهم، ويأتون بديلاً عنها بأنظمة متناسبة والظروف المتجددة، ويسرقون شعارات المؤمنين، ويفرغونها عن محتوياتها ليخدعوا بها السذج، حيث قال فرعون: فلنأتينك بسحر مثل سحرك، أي إذا كنت قد أتيت بعصا فسنأتيك بعصي وحبال مثلها.

ثالثاً: طرح فكرة الصراع على الناس، حيث طلب فرعون إجراء استفتاء شعبي.

بينات من الآيات:

[٥٦] ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ العصا واليد آيتان، وهناك آيات سبع أخريات ذكرها الله في سورة الأعراف هي: السنون، والنقص في الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وأبلغ من هذه، تذكرة موسى عليه السلام فرعون بالله والمعاد، وبأنَّ أصله من تراب، وأن لا فضل له على الآخرين، فكذَّب وأبى إلا الكفر.

[٥٧] ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ تهمتان وجهها فرعون لموسى: اتهام موسى بأنه مخل بالأمن، واتهامه بالسحر.

[٥٨] ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ ولعلَّ هذا القول يشبه مزايدات الأنظمة المستبدة في طرح شعارات الإصلاح والحرية، وقد حاول فرعون إثارة حفيظة الجماهير ضد موسى، شأنه شأن كل الطغاة الذين يحاولون خداع الجماهير، فطلب من موسى تحديد موعد نهائي في مكان معين يجتمع فيه الناس فيتحدى السحرة آيات موسى.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ فبادر موسى عليه السلام وحدد ميعاد المواجهة حين قال:

[٥٩] ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ يوم الزينة: يوم العيد، ولكن لماذا يوم العيد بالذات؟ لأنه في يوم العيد يتفرغ الناس من أعمالهم.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ وحدَّد موسى عليه السلام وقت التحدي بالضحى، لأن هذا الوقت يناسب الجميع، فالنائم يكون قد استيقظ، والبعيد وصل، والإنسان يكون في أفضل حالاته الفكرية.

[٦٠] ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ وأخذ فرعون يعد عدته، ويجمع كيده، ويلملم قواه.

[٦١] ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ لقد بادر موسى عليه السلام بإلقاء الحجة على السحرة قبل أن يتحداهم.

أولاً: لأنه رسول إليهم أيضاً، وأول واجبات الرسول هو إنقاذ الناس بالموعظة وقد تبيَّن تأثيره لاحقاً.

ثانياً: هزَّ ضمائرهم ليلحق بهم هزيمة نفسية، فكأنه قال لهم أيها السحرة! يامن تخدمون النظام بعلمكم، وتصبحون مرتزقة للظالمين من أجل لقمة خبز.. لا تفتروا على الله كذباً بادعائكم أني ساحر، أو بتأليهكم فرعون وتكذيبكم رسالتي فإنكم إذا كنتم كذلك، سيسحتكم الله بعذاب بئيس، لأنَّ العلم نعمة من عند الله للإنسان يجب أن تشكر، فإذا لم تشكر أصبح نقمة، والسحت اقتلاع الشيء من جذوره، وإذا قلعت الشجرة من جذورها، يقال سحتها.

[٦٢] ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ بين مصدق ومكذب فعلاً بأن الصدق في دعوى الكليم عليه السلام. إن السحرة كانوا نخبة المجتمع المثقفة، وبقايا من المعارف التي بلغها نبي الله يوسف عليه السلام، كانت ولا تزال لدى النخبة سواء السحرة أو بيت فرعون نفسه.

ومن جهة أخرى السحرة هم خير من يميز حقيقة السحر، فيبدوا ارهاصات انكشاف

الحقيقة بدأت لديهم.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ يبدو أنهم اتفقوا على أمر معين واخفوه، ولم يكن اتفاقهم على باطل، لأنهم كانوا متفقين عليه منذ السابق.

يقول بعض المفسرين: إن السحرة اتفقوا على أنه لو غلبهم موسى خضعوا له، وقد كان هذا المنظر مثيراً، لأن السحرة يعتبرون كيداً لفرعون، وأداة ينفذ بها مآربه، وهاهم يناجي الواحد منهم الآخر، خشية بطش فرعون، وتتضح هنا تبعية العلم للقوة وأيضاً ما زالوا يطمعون في ثواب فرعون.

[٦٣] ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يبدو أن المعارضة كانت موجودة، وأن الطاغوت كان خائفاً من أن يميل الشعب تجاه موسى، ولذلك كان يريد أن يخلق الحاجز النفسي بين الشعب ومنقذيه، فادعى أن موسى وهارون يستخدمان السحر للوصول إلى أهداف سياسية، بل أهداف إجرامية تتمثل في إخراجكم من أرضكم، وهذا ما يعمله الطغاة عندما يريدون أن يواجهوا تجمعاً أو حركة حيث يربطون تحركهم بما يكره الناس، ثم بعد أن اتهموا موسى عليه السلام بأنه ساحر أضافوا كلمة أخرى وهذه الكلمة لا يقولها عادة إلا مرتزقة الأنظمة من علماء السوء حيث قالوا: بأن موسى وهارون يريدان أن يذهبا بطريقتكم المثلى، أي إن هؤلاء يريدان أن يخرجاكم من دينكم وقيمكم، وهذا ما يقوم به علماء السوء في كل عصر ومصر، إنهم يدعون بأن المصلحين الرساليين يريدون هدم مقدسات الأمة.

[٦٤] ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ولا يعني ذلك أن الطغاة يدعمون الوحدة، بل يريدون صنع وحدة مزيفة تقف حجر عثرة أمام الرساليين، وعلماء السوء يؤكدون ضرورة الوحدة حتى تلك الوحدة القائمة على أساس باطل، ومن ثم أثار هؤلاء العلماء رغبة نفسية وسخة حين قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ إننا الآن في صراع، وهذا الصراع حاد، وهذه اللحظات مصيرية في حياتنا، ونحن نريد أن تجمعوا كيدكم، وتوحدوا صفوفكم، حتى نتغلب على هؤلاء المتمردين.. هذه الكلمات لا يشيعها إلا وعاظ البلاط ومرتزقة الفكر.

وألقي السحرة سجدا

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ[1] فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ[2] وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ[3] وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ[4] عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣)﴾.

بعد أن هز موسى عليه السلام ضمائر السحرة، استجاب لتحديهم، وقال: ابدؤوا، وهذا التحدي نجده عند الأنبياء دائماً، وهو أبرز دليل على نبوتهم، وأنهم رجال متصلون بالغيب.

وما كان من السحرة إلا أن جاؤوا بمجموعة حبال وعصي، وخلقوا أجواء صاخبة توحي بأنها تسعى، فسحروا أعين الناس، ولم يكن ذلك إلا ضرباً من السحر، أما الحقيقة التي كانت تتمثل في عصا موسى فقد ابتلعت ذلك السحر مرة واحدة، وآمن السحرة بموسى

---

(١) فأوجس: فأحسن، ووجد في نفسه.
(٢) من خلاف: أي تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو بالعكس، ليختل توازن البدن، ويكون عذابه أكثر ما دام الإنسان حياً.
(٣) جذوع: أصول.
(٤) لن نؤثرك: لن نفضلك ونختارك.

وخرّوا لربه وربهم ساجدين.

وإن لنا في ذلك لعبرة، فحينما تكون لدينا الحقيقة، ولا يكون عندهم إلا الخيال الباطل سترى كيف، تبتلع الحقيقة سحرهم.

وحينما سجد السحرة وآمنوا، حاول فرعون إلصاق التهم بهم، ليكون ذلك مبرراً لتعذيبهم أو قتلهم، ولكنهم أصروا وصمدوا أمام التهديد، بصلابة الإيمان وبالاستعانة بالله.

بينات من الآيات:

[٦٥] ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ هل أنت تبدأ أم نحن؟.

[٦٦] فطلب موسى منهم أن يكونوا هم البادئين وكان ذلك تحدياً عظيماً.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ أي إنهم عملوا عملاً أثاروا به خيال موسى عليه السلام، وبالأولى أثاروا خيال المحتشدين!.

ولعلَّ هذا يعني: أن السحر تأثير نفسي في الإنسان من خلال إثارة خياله والإيحاء له، أما هدفه فهو التضليل، وعاقبته الخسران، وأول ما يفكر به السحرة، هو السيطرة على الجالسين نفسياً، بالقيام ببعض الحركات المثيرة، وبعد أن يستحوذوا على أنفس الحاضرين -بسرد القصص الخيالية، وصنع أجواء صاخبة- يضحى كل عمل يقومون به عظيماً، يثير العجب والدهشة في أنفس الناس.

كما أن بعضهم يستفيد من الجن، بالإضافة إلى بعض العلوم الغريبة، والسحرة مجموعة مرتزقة، وضعوا علمهم في خدمة شهواتهم، أو لدعم سلطة ظالمة، شأنهم شأن الأقلام المأجورة التي توظف نفسها عند الظلمة.

هذا هو واقع السحر، إنه تخيلات لا تصمد أمام الحق، ومن كلمتي: ﴿حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾ نستنتج أن السحر ليس إلا تأثيرات نفسية لا يغير من الواقع شيئاً، والتعبير القرآني غاية في الوضوح حيث يقول: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ فهي في الحقيقة لا حراك لها، وما الحركة الظاهرة إلا بتأثير الخيال السحري.

[٦٧] لقد تحداهم موسى عليه السلام وهو يعرف بأنهم على باطل وأنه على حق، ومع ذلك تسرب الخوف الى نفسه حيث قال الله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ فلماذا خاف موسى؟.

لهذه الآية تفسيران:

الأول: هو أن موسى عليه السلام بشر كسائر الناس، من حيث الذات والبنية الجسدية والنفسية، ولذلك ساوره الخوف، والملاحظ أنه كلما تحدَّث القرآن الحكيم عن معجزات الأنبياء، تحدَّث في ذات الوقت عن جانب من ضعفهم البشري، كالخوف والعجلة والجزع والميل في اتجاه الضغوط، إلا أن هذا الجانب سرعان ما يتلاشى بتأييد الله.

وذلك حتى لا يظن البشر أن الاعجاز نابع من ذاتهم، فيقدسونهم ويؤلهونهم ولكي يكونوا حجة على الناس ويقطع عنهم سبل الأعذار.

الثاني: إن موسى عليه السلام لم يكن خائفاً على نفسه، بل خشي أن يستأثر السحرة بقلوب الحاضرين فلا ينفعهم بعد ذلك إعجازه شيئاً ولقد جاؤوا بسحر عظيم يُخشى معه على عام الناس.

[٦٨] ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وتدل هذه الآية على التفسير الثاني بما تحمل من تطمين لموسى بأنه هو الغالب، وهذا النوع من التخوف موجود لدى كل الرساليين، فهم يخشون من وسائل الإعلام والثقافة المضللة أن تفسد الناس، ولكن عليهم أن يتغلبوا على خشيتهم بذكر الله سبحانه وتعالى، وأن يثقوا بأن أقلامهم النظيفة التي تبين الحقيقة تعادل ملايين الأقلام التي تكتب الزيف والباطل، لأن الحقيقة قوة تبتلع سحر المبطلين.

[٦٩] ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ وتقوم عصاك بابتلاع حبالهم، وعصيهم التي صنعوها بما لها من وجود مادي وآثار نفسية.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فكل الذي قاموا به لا يعدو أن يكون مجموعة من الخطط الماكرة الباطلة، التي لا تلبث أن تنتهي بوهج الحقيقة، كما الظلام ينهزم أمام النور، وباستطاعة الإنسان المتصل بالله أن يتجاوز تأثيرات السحر الوهمية، وهكذا فالسحر لا يؤثر فيمن يؤمن بالله حقاً، وقد قال عنه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٠٢]، كما أن ذات الساحر لا يفلح، لأن عمله هذا يكرِّس فيه الانحراف عن خط الفطرة والحياة في الدنيا، ويسبب له العذاب في الآخرة.

[٧٠] صحيح أن عاقبة الساحر هي الخسار ولكن متى، مادام متمسكاً بسحره وانحرافه، أما إذا تاب وتمسك بالحق والرسالة، فإنَّ عاقبته ستكون إلى خير، وهذا يدلنا على أن عاقبة الإنسان، رهينة عمله، لا لونه ولا جنسه.

وقد طلب موسى عليه السلام إلى السحرة أن يكونوا أول الملقين، حتى يكون أثر انتصاره على فرعون عميقاً في أنفس الجميع حتى السحرة، حيث يصبح ذلك السحر الذي أكبروه قبل لحظات هباءً منثوراً.

وبالفعل فقد جاءت النتيجة عظيمة إذ تجاوز الأثر الناس إلى أعماق السحرة.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لقد كان التاثير بالغاً، بحيث وقع السحرة سجداً منهارين أمام نور الحقيقة، فكأنهم ألقوا بغير إرادتهم، وفي الآية إشارة إلى هداية الله بأنها العامل الحاسم في سجودهم.

والسجود هو قمة العبودية والخضوع أمام الله، ولم يكن هذا السجود هيكلياً إذ احتوى أسمى معانيه، وهو الاعتراف بالعبودية لله.

والسؤال: لماذا يذكر الله هارون في هذه الحادثة، مع أن موسى هو الذي واجه السحرة مباشرة، وكان الحديث حتى الآن عنه وحده؟.

الجواب: هناك سببان رئيسيان:

الأول: إن هارون كان الناطق باسم موسى، وهو معروف في أوساط المجتمع.

الثاني: هناك دائماً قيادات ثانية تتمثل في الأوصياء والصالحين، ويقتضي الموقف السليم، أن تبرزها القيادات العليا في اللحظات الحاسمة، كلحظة الانتصار، حتى يتأكد دورها في المجتمع، وهكذا نجد في تاريخ الرسالة الإسلامية أن النبي صلى الله عليه وآله أعطى الراية لعلي عليه السلام حتى حين دخلوا مكة فقال صلى الله عليه وآله: **«الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةُ، الْيَوْمُ أَعَزَّ اللهُ قُرَيْشاً»**[1]. كما أنه صلى الله عليه وآله رفض دخول المدينة حتى يأتي علي عليه السلام، وذلك ليعرف دوره في أداء الرسالة.

[٧١] ولكن هل كان فرعون يقبل بالحق أو يعترف بالهزيمة، أو حتى يسمح للآخرين بذلك؟ كلا.. ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ لقد كان نظام فرعون قائماً على الاستبداد المطلق، ونرى كيف أن الطغيان بلغ بفرعون حداً سلب الناس حريتهم في معتقداتهم.

ولكن الإيمان بالله يقاوم الدكتاتورية، ويعطي الاستقلال، فالتبعية التي وقع فيها السحرة انتهت بمجرد إيمانهم بالله تعالى، والإنسان إنما يكون تابعاً بسبب إحساسه بالضعة، فيعتقد أنه يقوي نفسه ويصبح عظيماً حينما يربط مصيره بالطغاة وأصحاب القدرة، ولكنه يثق

---

(١) بحار الأنوار: ج٢١، ص١٠٩.

بنفسه حينما يتصل بنبع الإيمان، إذ يعطيه الإيمان العزة وروح الاستقلال.

وحينما أحسَّ فرعون بانفصال السحرة عنه، حاول أن ينتقم منهم، فأخذ يبحث عن مبرر للانتقام فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا ديدن الطغاة مع المؤمنين، وسائر أطراف المعارضة الحقيقية، إنهم يلصقون بهم التهم الرخيصة، لتبرير تعسفهم وممارساتهم الجائرة بحقهم.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وكان الصلب قديماً يتم -فيما يبدو- بمد يدي الإنسان على خشبة، ثم يدقون فيها المسامير، وهكذا أرجله ومواضع أخرى من بدنه، ويظل على هذا الحال حتى يموت.

إلا أن فرعون هدَّد بقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف، زيادة في التعذيب، وربما أراد التنكيل بعوائلهم، وتشويه سمعتهم بعد موتهم، إذ قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

[٧٢] ولكنهم صمدوا إمامه بصلابة الإيمان، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن أمام الطغاة صلباً شديداً.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي أكتشفنا الحقيقة، ومن يكتشفها يعشقها، وأقسموا: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ تأكيد لقرارهم ودعماً لموقفهم، وإنه الموقف الحاسم، وأضافوا رداً على تهديداته: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ وهكذا يجب أن يكون المؤمن مستعداً لتحمل تبعات إيمانه واستقلاله.

ولكن السؤال: كيف بلغ هؤلاء السحرة وبهذة السرعة إلى هذه القمة السامقة من الإيمان والجهاد، حيث ألقوا بكلمة الحق أمام السلطان الجائر، وحيث آمنوا ذلك الإيمان العميق بالآخرة؟!.

والجواب كالتالي:

أولاً: إن الحقائق تبقى غامضة إلى أن يتصل القلب بالحقيقة الكبرى في هذه الحياة، والتي تتجلى في معرفة الرب، فإذا عرف الإنسان ربه، ذابت عن قلبه جبال الجليد المتراكمة فوق قلبه، فرأى الحقائق بوضوح كافٍ.

أو ليس الله سبحانه خالق السماوات والأرض، ومبدئ الخلائق جميعاً؟ كذلك معرفته أول كل علم وينبوع كل معرفة.

وهؤلاء السحرة حينما آمنوا بالله صار بديهيًّا أن يتيقنوا بالبعث والجزاء وجملة المعارف الحقة.

ثانياً: عندما يكون طريقه للإيمان بحقيقة معينة مليئاً بالعقبات والضغوط، ولكن يصر الإنسان على تجاوزها فيختصر المسافة إلى الإيمان الخالص، الذي يصعب الحصول عليه في الظروف الطبيعية.

والسحرة، حينما آمنوا بالله، كانوا قد أسقطوا حواجز الإغراء والإرهاب الفرعوني، وتنازلوا عن المكانة الاجتماعية، واقتلعوا أنفسهم من حضيض الدنيا.

وبالتالي وصلوا إلى هذه المرتبة العليا، بل إن مجرد إيمانهم في تلك الظروف كان يعني تحدياً لسلطات الشهوة والقوة، بكل أبعادهما، فطووا كل المراحل في لحظة عظيمة تجلى الرب فيها لقلوبهم، بعد أن استعدوا للتضحية بكل شيء لله، وللحق الذي شاهدوه بأعينهم.

ثالثا: لأنهم عبدوا الطاغوت لبعض الوقت، ولعلهم كانوا قد عرفوا، بوحي ضميرهم، ودلالة عقولهم: أنهم مجرمون، لأنهم يؤيدون مجرماً قذراً جباراً في الأرض، فكانت عقدة الذنب تلاحقهم، فلما آمنوا كانوا يبحثون عمّا يطهرهم ويغسل ذنوبهم الكبيرة، ويشهد على هذا التفسير الثالث، السياق، وهكذا حينما تجلّت الحقيقة في عصا موسى عليه السلام لم يتمالك السحرة أنفسهم فألقوا ساجدين، نعم.. لقد آمنوا بالآخرة وتيقنوا من البعث والحساب فاستهانوا بالدنيا، حتى صار تنازلهم في سبيل القيم أمراً هيناً، ثم استدركوا:

[٧٣] ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ ولو كان هذا الإيمان، وهذه الأمنية بالغفران، يكلفنا العذاب والصلب، وهذا هو الإيمان الحقيقي، الإيمان الذي يستعد صاحبه لكل شيء إلا التنازل عنه.

ومع أنهم يطلبون الغفران بشكل عام، إلا أنهم يخصصون خطيئة السحر، لأنهم أدركوا الأبعاد السيئة لأن يخدم الإنسان نظاماً فاسداً، ويكون وسيلة له لمواجهة الرسالة والمؤمنين؛ قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ بسبب إغراءاتك وتهديداتك، وخططك الماكرة.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ رداً على مقولة فرعون تحدياً: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

قالوا: كلا.. الله –ولست أنت– خير وأبقى.

وأضلّ فرعون قومهُ وما هدى

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا[1] وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم[2] مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

خلاصة رسالات الأنبياء التي تتكرر في القرآن، هي أن الإنسان رهين عمله، فعاقبة المجرمين النار لا موت لهم فيها ولا حياة، بينما عاقبة المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، وليست نتيجة العمل محدودة بالآخرة، بل قد يحصل الإنسان على عاقبة عمله في الدنيا أيضاً كما انحرف فرعون بطغيانه. فعاقبهُ الله بالغرق.

لهذا حذَّر الله بني إسرائيل من الطغيان وكفران النعمة حتى لا يحل عليهم غضبه، أما لو انحرف الإنسان قليلاً فإنَّ باب الرجعة والتوبة الصادقة يبقى مفتوحاً له.

---

(١) دركاً: أي إدراك فرعون لك.

(٢) فغشيهم: أي جاءهم الماء حتى أحاط بهم وغطهم.

بينات من الآيات:

[٧٤] ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ الذي يستمر في جريمته إلى حين لقاء ربه فإنّ مصيره جهنم. والتعبير ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ يوحي بأن المجرم يشتري جهنم بعمله الطالح، حتى تصبح ملكاً له فعلاً.

وكم هو المكوث في النار، حيث يبقى المجرمون بين الموت والحياة، يتجرعون العذاب، ويذوقون الألم؟!.

جاء في الأحاديث: «أَنَّ أَهْلَ النَّارِ إِذَا دَخَلُوهَا وَرَأَوْا نَكَالَهَا وَأَهْوَالَهَا وَعَلِمُوا عَذَابَهَا وَعِقَابَهَا وَرَأَوْهَا يَعْرِفُونَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي ثَوَابٍ عَظِيمٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ فَيَأْمُلُونَ أَنْ يُطْعِمُوهُمْ أَوْ يُسْقُوهُمْ لِيَخِفَّ عَنْهُمْ بَعْضُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ جَلَالُهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ قَالَ: فَيُحْبَسُ عَنْهُمُ الْجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُجِيبُونَهُمْ بِلِسَانِ الِاحْتِقَارِ وَالتَّهْوِينِ إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ، قَالَ: فَيَرَوْنَ الْخَزَنَةَ عِنْدَهُمْ وَهُمْ يُشَاهِدُونَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمُصَابِ فَيَأْمُلُونَ أَنْ يَجِدُوا عِنْدَهُمْ فَرَجاً بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.. فَيُحْبَسُ عَنْهُمُ الْجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُجِيبُونَهُمْ بَعْدَ خَيْبَةِ الْآمَالِ قالُوا: ﴿فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.. فَإِذَا يَئِسُوا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ رَجَعُوا إِلَى مَالِكٍ مُقَدَّمِ الْخُزَّانِ وَأَمَّلُوا أَنْ يُخَلِّصَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْهَوَانِ كَمَا قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.. فَيُحْبَسُ عَنْهُمُ الْجَوَابُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَ هُمْ فِي الْعَذَابِ ثُمَّ يُجِيبُهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.. فَإِذَا يَئِسُوا مِنْ مَوْلَاهُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي كَانَ أَهْوَنُ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَكَانَ قَدْ آثَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْهِ هَوَاهُ مُدَّةَ الْحَيَاةِ وَكَانَ قَدْ قُدِّرَ عِنْدَهُمْ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ أَنَّهُ أَوْضَحَ لَهُمْ عَلَى يَدِ الْهُدَاةِ سُبُلَ النَّجَاةِ وَعَرَّفَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ أَنَّهُمُ الْمُلْقُونَ بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى دَارِ النَّكَالِ وَالْأَهْوَالِ وَأَنَّ بَابَ الْقَبُولِ يُغْلَقُ عَنِ الْكُفَّارِ بِالْمَمَاتِ أَبَدَ الْآبِدِينَ.

وَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ فِي أَوْقَاتٍ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمُكَلَّفِينَ بِلِسَانِ الْحَالِ الْوَاضِحِ الْمُبِينِ: هَبْ أَنَّكُمْ مَا صَدَّقْتُمُونِي فِي هَذَا الْمَقَالِ أَمَا تُجَوِّزُونَ أَنْ أَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَكَيْفَ أَعْرَضْتُمْ عَنِّي وَشَهِدْتُمْ بِتَكْذِيبِي وَتَكْذِيبِ مَنْ صَدَّقَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَهَلَّا تَحَرَّزْتُمْ مِنْ هَذِهِ الضَّرَرِ الْمُحَذَّرِ الْهَائِلِ أَمَا سَمِعْتُمْ بِكَثْرَةِ الْمُرْسَلِينَ وَتَكْرَارِ الرَّسَائِلِ ثُمَّ كَرَّرَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرَافَقَتَهُمْ فِي النَّارِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ فَقَالَ: أَ لَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ فَقَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا

قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ فَيَقِفُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ذُلَّ الْهَوانِ لا يُجابُونَ وَفِي عَذَابِ النَّارِ لا يُكَلَّمُونَ ثُمَّ يُجِيبُهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.. فَعِنْدَ ذَلِكَ يَيْأَسُونَ مِنْ كُلِّ فَرَجٍ وَرَاحَةٍ وَيُغْلَقُ أَبْوابُ جَهَنَّمَ عَلَيْهِمْ وَيَدُومُ لَدَيْهِمْ مَآتِمُ الْهَلاكِ وَالشَّهِيقُ وَالزَّفِيرُ وَالصُّرَاخُ وَالنِّيَاحَةُ»(١).

[٧٥] وعلى العكس من ذلك تماماً هو حال المؤمنين: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فالإيمان المستمر حتى لقاء الله، والمقرون بعمل الصالحات ثمن الجنة.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ فكل صالحة من العمل بدرجة من الجنة، وكلمة الدرجات جاءت هنا بازاء كلمة الصالحات، وفي الخبر أن ما بين الدرجة والأخرى كما بين السماء والأرض.

[٧٦] ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والخلود من أسمى طموحات الإنسان ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إن أعظم وأصعب مسؤولية على البشر في هذه الدنيا، هي أن يزكي نفسه من آثار الشرك، من البخل، والكسل، والضجر، والخوف من غير الله، و.. و.. والذي لا يزكي نفسه في الدنيا يمكث بنسبة رذائله وانحرافاته في جهنم، لأنَّ الجنة لا يدخلها إلا المطهرون، والسبيل إلى الطهارة أما هو التزكي في الدنيا، أو النار في الآخرة.

[٧٧] بعد التحدي بانتصار موسى على فرعون، والحقيقة على السحر، أوحى الله إلى موسى بالخروج.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ الساري هو المسافر بالليل، أما السارب فهو المسافر في وضح النهار، وأمر الله موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلاً، حتى لا يشعر به فرعون ولا جنده إلا وقد فات الأوان، وهذه من رعايته لعباده.

وبالرغم من أن بني إسرائيل يصل عددهم إلى (٧٠٠) ألف، إلا أن واحداً منهم لم يفش السر، ولذلك سماهم الله (عبادي)، فقد كانوا مخلصين يستحقون أن يجعل الله لهم في البحر طريقاً يبساً، ويخلصهم من فرعون وجنده.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ لما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق وصار كل جانب منه كأنه الجبل، وبينهما طريق يابس يصلح للسير عليه.

﴿لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا﴾ أي لن يدركوك ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ لا تخاف من الغرق.

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٠٤-٣٠٥.

[٧٨] ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ ﴾ لما طلع الصباح واتضح الأمر ركب فرعون وجنوده دوابهم ليلحقوا بموسى وبني إسرائيل، ولما وصلوا البحر وجدوا موسى عليه السلام وبني إسرائيل قد عبروا خلال البحر، فدخلوا خلفهم، وقد أعماهم الحقد والتكبر أن يلتفتوا إلى هذه المعجزة الإلهية، فغشيت الأمواج فرعون وجيشه وغرقوا.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ يوحي هذا التعبير القرآني بأن الموقف الذي مر به فرعون وجنوده بلغ من الهول والرعب ما يفوق كل وصف، بلى إن منظر جبال الأمواج البحرية الهائلة وهي تبتلع مئات الألوف من الرجال والدواب، إن هذا المنظر يفوق الوصف فعلاً.

[٧٩] والعبرة التي نستخلصها من ذلك الموقف، تتلخص في الآية الكريمة: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ إن النهاية المأساوية كانت بسبب ضلال الحاكم، واتباع الناس له في ضلالته.

[٨٠] وحتى لا يطغى بنو إسرائيل، أو ينسوا نعمة الله عليهم، يذكرهم الله قائلاً: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ الأمن أساس أولي لأي حضارة، بينما الوحي هو القيم والتشريعات الحضارية التي تحقق العز والفلاح و.. و.. للأمة.

وقد من الله بهما على بني إسرائيل إذ أنجاهم وواعدهم جانب الطور.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ المن هو الحلوى وهو كالطل ينزل على الشجر فيه حلاوة، فكان من عصارات تلك الأشجار، والسلوى طير يشبه الحمام يطير على علوٍ منخفض فيسهل اصطياده. كانا ينزلان عليهما من السماء في زمن التيه أي يسر الله لهم ذلك وما كان معهوداً في تلك المنطقة.

[٨١] نعمة الله هدفها سعادة البشر، ولكن قد تكون عاملا لانحرافه وانفلاته، لذلك حذر الله بني إسرائيل قائلاً: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ وغضب الله هو عذابه الشديد في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ وتعالى الله أن يغضب ويطرأ عليه التغيير مثلنا نحن البشر، إنما هو العذاب، ومن يصيبه فكأنما يهوي من على قمة الجبل الى واديه، وليس هذا التمثيل إلا للتقريب، وإلا فالواقع أدهى وأمر.

[٨٢] ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ من طبيعة الإنسان أن يطغى حين يحس بنعم الله عليه ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[العلق: ٦-٧]، ولكن سبيل

التوبة والعودة إلى الصواب مفتوح أمامه، حينما يتورط في ذلك بسبب غفلته، ونسيانه، و.. و.. وآنئذ سيجد ربه غفاراً لو كانت توبته كما تذكر الآية.. ﴿تَابَ﴾ عن ذنبه ﴿وَءَامَنَ﴾ بالله صادقاً ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ وكان عمله بحيث ينتهي به إلى الهداية.

وفي بعض الروايات أن الهداية هنا بمعنى الولاية -وحينها تكون ﴿لَغَفَّارٌ﴾ بصيغة المبالغة مناسبة لمعنى الشفاعة- فينبغي للإنسان أن يؤمن بالله، ويعمل صالحاً بعد التوبة، وأن يبحث عن القيادة الرسالية، ذلك أنه لا يكمل الإيمان والعمل الصالح إلا بالولاية، ومعرفة القائد، لأن الإمام الذي يهدي إلى سبيل الرشاد يكون عكس فرعون الذي أضلَّ قومه وما هدى، وهذا هو سبيل التوبة النصوح، وهو المعنى الحقيقي لكلمة الشفاعة.

وما أعجلك عن قومك يا موسى

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ [(١)] عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا [(٢)] وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا [(٣)] مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ [(٤)] (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ [(٥)] وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)﴾.

هدى من الآيات:

ذهب نبي الله موسى عليه السلام يناجي ربه، فما عاد إلا وقد حصلت الردة في قومه، وفي الوقت الذي يدلل الأمر على أهمية حضور القيادة في المجتمع لتقاوم محاولات التحريف من

(١) هم أولاء: أولاء جمع الذي أي هم الذين.
(٢) بملكنا: أي ونحن نملك من أمرنا شيئاً.
(٣) أوزاراً: أثقالًا.
(٤) فنسي: أي فقد نسي موسى أن إلهه هنا، فهذب إلى الطور يطلبه، وقيل معناه: فنسي السامري أي ترك ما عليه من الإيمان.
(٥) فتنتم به: أي امتحنتم بهذا العجل.

قبل الانتهازيين، تشير الآيات إلى أن علاقة بني إسرائيل بموسى عليه السلام كانت علاقة بشخصه لا برسالته، مما أدى إلى انحرافهم بعد غيابه عنهم وتمردهم على خليفته هارون، وكان من الضروري تغيير هذه العلاقة، فأمر الله بمد غيبة موسى لهذا الهدف.

وقد انتقد النبي موسى عليه السلام هذا الوضع، وحذَّرهم من غضب الله أن يحل عليهم، وتساءل عن سبب هذه الردة.. وحينما حاول بنو إسرائيل التبرير احتجَّ عليهم الله بأنه أعطاهم عقولاً يميزون بها وكان ذلك أبرز حجة عليهم، أما الحجة الثانية فكان شخص هارون وصي موسى الذي نصحهم ولكنهم لم يسمعوا له.

بينات من الآيات:

[٨٣] ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ لماذا أسرعت إلي وتركتهم وراءك؟.

[٨٤] ﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ أن قومي لا يزالون يقتفون أثري، ويسيرون على نهجي.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ دفعني إلى العجلة حبي لك وشوقي للقائك، وهذه الآية توحي بمدى حب موسى لربه، حيث بادر إلى لقاء ربه، وكان على عجل لنيل رضاه سبحانه. وهكذا حال من ذاق حلاوة مناجاة ربه، وأنس بقربه، وتجلَّى الرب لقلبه، فسرى في إرجائه الوجل، واهتزت جنبات فؤاده بنور الشوق، فوجد من نور خالقه ما جذبه إلى ما يقربه إليه، ولاح له من جمال بارئه ما أنساه كل جمال.

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يجلس في محراب الصلاة على أشد من الجمر شوقاً إلى ميعاد اللقاء، فإذا حان وقت الصلاة هتف ببلال المؤذن: **«أَرِحْنَا يَا بِلَالُ»**[١].

وهكذا المؤمنون الصادقون يدعون الرب ليتجلى لقلوبهم بنور معرفته، فيكونون: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ دَأْبُهُمُ الارْتِيَاحُ إِلَيْكَ وَ الْحَنِينُ وَ دَهْرُهُمُ الزَّفْرَةُ وَ الْأَنِينُ جِبَاهُهُمْ سَاجِدَةٌ لِعَظَمَتِكَ وَعُيُونُهُمْ سَاهِرَةٌ فِي خِدْمَتِكَ وَ دُمُوعُهُمْ سَائِلَةٌ مِنْ خَشْيَتِكَ وَقُلُوبُهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحَبَّتِكَ وَأَفْئِدَتُهُمْ مُنْخَلِعَةٌ مِنْ مَهَابَتِكَ...»**.

ويكررون أبداً: **«يَا مَنْ أَنْوَارُ قُدْسِهِ لِأَبْصَارِ مُحِبِّيهِ رَائِقَةٌ وَسُبُحَاتُ وَجْهِهِ لِقُلُوبِ عَارِفِيهِ شَائِقَةٌ يَا مُنَى قُلُوبِ الْمُشْتَاقِينَ وَيَا غَايَةَ آمَالِ الْمُحِبِّينَ»**[٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٩، ص١٩٣.

(٢) الصحيفة السجادية، مناجاة المحبين.

[٨٥] وكان غياب موسى قد ترك فرصة مناسبة للانتهازيين أن يسعوا إلى مصالحهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ يبدو أن السامري كان منافقاً، وكان يتحين الفرص للقفز إلى أريكة الحكم، وكانت مجموعة من الانتهازيين وضعفاء النفوس ملتفين حوله، ولعلهم كانوا يتآمرون مع بعضهم ضد القيادة الرسالية.

والآن حيث تأخر موسى عليه السلام وظنوا أنه قد أدركته الوفاة، بادروا إلى الفتنة، لكي يبعدوا الخليفة الشرعي لموسى، وهو هارون عليه السلام عن السلطة، فأشاع السامري فيهم أن موسى قد مات، وصنع لهم العجل كرمز لسلطته، وأمرهم بعبادته، مستغلاً حب بني إسرائيل للذهب ورواسب الشرك عندهم، أو ليسوا قد طالبوا نبيهم بأن يجعل لهم إلهاً حين مروا بقوم يعبدون الصنم؟

ولعلَّ ذلك كان ضرورة حضارية، حيث إن موسى عليه السلام قضى على جيوب الفساد عند بني إسرائيل بعد هذه الفتنة، ولو لم تقع الفتنة فربما كان السامري وقومه ينجحون في مؤامرتهم بعد وفاة موسى عليه السلام.

أما الآن فقد افتضح السامري، وعاد موسى بكل ما تميَّز به من الحزم والشدة في الله.

[٨٦] ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ غضبان عليهم، أسفاً مما حدث.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ كالرجوع إلى الأرض المقدسة، والجانب الأيمن من الطور، والبركة، وأن يقيم حضارتكم إن أنتم استقمتم؟! ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾

بالطبع لم يكن بنو إسرائيل يتحدون الله حتى ينزل عليهم غضبه، ولكن اتباعهم السامري هو الاسترسال مع الظروف والشهوات، وهذا يدل على أن البشر بأنفسهم وبمحض إرادتهم يختارون نوع واقعهم ومصيرهم، والذي يتجسد هنا بغضب الله.

[٨٧] ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي لم ننحرف بكامل وعينا، وبما نملكه من عقل وإرادة ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ هذا الانحراف جاء من غيرنا، فالسامري هو الذي جمع لنا الذهب والفضة التي جمعناها من القوم وحملناها وصنع لنا بها عجلاً، والواقع أنهم حاولوا بذلك تبرير واقعهم الفاسد ورفع المسؤولية عن أنفسهم.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ رأس الفئة الانتهازية التي عادة ما تكون موجودة في المجتمعات، والآية الآتية تشير إلى أن المتورط في عملية الإضلال ليس السامري وحده، بل

كانوا فئة متآمرة، ولعلَّ معنى ألقى السامري: أنه ألقى في روعهم وخدعهم، وقالوا معناه: ألقى زينة القوم في النار، أو هو أيضاً ألقى زينته فيها.

[٨٨] ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ جسداً أي ميتاً لا حياة فيه، والخور هو صوت الثور.

وهناك أقوال في العجل، فبعض المفسرين قالوا: إن العجل كان يتحرك لأن السامري أخذ قبضة من أثر جبرائيل عليه السلام الذي جاء راكباً على فرس ليغري فرعون وقومه حين رفضت خيولهم دخول البحر، وكان التراب الذي يدوس عليه فرس جبرائيل يتحرك، والذي قام به السامري أن جعل هذا التراب في جسد العجل، فأخذ يتحرك ويخور بسببه.

وقال بعض المفسرين: إن العجل كان في مكان بحيث يظهر رأسه فقط للحاضرين، ثم يأتي شخص من وراء العجل وينفخ في دبره فيخرج خوار من فمه، أو أنه صنع بحيث يصوت إذا جرت فيه الرياح ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

[٨٩] ولكن هل كانت أعذار بني اسرائيل وتبريراتهم مقبولة عند الله؟ كلا.. لقد أجابهم بأن هناك حجتين عليكم تبطل ادعاءكم:

أولاً: العقل.. فأنتم عقلاء تستطيعون أن تهتدوا إلى الحق لو تفكرتم.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فليس من صفات الإله: أنه لا حراك به، ولا إرادة يضر بها أو ينفع.

[٩٠] ثانياً: حجة القيادة الربانية.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ لقد دعاهم هارون إلى طاعته، بصفته القيادة الشرعية، وأوضح لهم أن ما يدعيه السامري وجماعته باطل.

ومن الآية نستوحي بأن الصراع كان قائماً على قيادة المجتمع، بين الخط الرسالي الذي يمثله موسى وهارون عليهما السلام، وبين الخط الجاهلي أصحاب الردة إلى الجاهلية، ولعلَّ هذا الفريق كانوا هم قيادات بني إسرائيل قبل بعثة موسى فيهم، كما كانت قبيلة بني أمية قبل الإسلام، فتآمرت للوصول إلى السلطة بعد غياب الرسول حتى تسنى لها ذلك على عهد معاوية بن أبي سفيان.

[٩١] ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ يبدو من الآية أن تعلق بني إسرائيل لم يكن بالرسالة بقدر ما كان بشخص موسى عليه السلام، فقد كان هارون أخاه من أبيه وأمه، وكان امتداداً له في المجتمع، والوصي عليهم من بعده، ولكنهم لم يستجيبوا له، عندما دعاهم لطاعته، وقرروا البقاء على الانحراف حتى يعود إليهم موسى عليه السلام.

وكانت هذه الفتنة مفيدة لبني إسرائيل، فقد أفرزت الفئات التي لا تزال تمثل رواسب الجاهلية والفئات المصلحية عن الأخرى المؤمنة الصادقة في إيمانها.أما الفائدة الثانية فهي التحصن ضد الانحرافات الفكرية والاجتماعية التي قد يتعرضون لها في المستقبل وذلك بعد غياب موسى عنهم.

النزعة الشيئية عند البشر

إن من طبيعة البشر هي التمحور حول الأشياء دون القيم، وارتفاع الإنسان إلى مستوى الإيمان بالغيب وعبادة الله تعالى متجرداً عن الأهواء وعن الضغوط المختلفة، يعتبر قمة الحضارة الإنسانية.ذلك لأنه يعني أن الإنسان قد أنهى صراعه الداخلي لصالح عقله، ويتحدى كل الشهوات المحيطة بقلبه، وكل الضغوطات المحيطة به في مجتمعه، حتى يخلص عبادته لله، ولا يهبط إلى مستوى الشيئية في الحياة، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التوجيه والتربية.

ولو ترك الإنسان وطبعه، لهبط إلى مستوى عبادة الأصنام، لأنها تعني التفاف الإنسان حول الأشياء، والخضوع لسلبيات الحياة وضغوطها، بينما الإيمان بالله يعني الارتفاع عن كل ذلك والنظر إلى الأشياء بأنها مخلوقات لله.

وقد هبط بنو إسرائيل إلى مستوى عبادة الأشياء حينما غاب عنهم نبيهم موسى عليه السلام، ثم هداهم الله إليه بعد الضلالة، وفي ذلك عبر عظيمة.

ومن العجب أن بعض المؤرخين يفلسف عبادة الطوطم، والكواكب، والأصنام، وبعض التحليلات المعقدة، علماً بأنها لا تحتاج إلى كل ذلك أذ إنها من طبيعة الإنسان، ففي يوم كانوا يعبدون الحيوان الذي يخافونه لأنه كان يرمز إلى القوة.فبعضهم كان يعبد الفيل ويعتبره رمزاً للقوة، وبعضهم كان يعتبر الأسد رمزاً للقوة فيعبده.أما هذا اليوم فيعتبرون الأباطرة والملوك رمزاً للقوة فيعبدونهم.فإذا أردنا أن نصل إلى عبودية الله علينا أن نتجاوز الأشياء لخالقها، والشيئية إلى القيم، والشهود إلى الغيب.

موسى عليه السلام يعالج الردة الجاهلية

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة، جاء موسى عليه السلام ليجد أكثرهم وقد تحول من عبادة الله إلى عبادة العجل، فبدأ مسيرة الإصلاح بالبحث عن مصدر الفساد حتى يتسنى له علاج الردة.وبدأ ذلك بسؤال أخيه لأنه خليفته في غيابه، وانتهى بتوجيه خطابه إلى بني إسرائيل ولكنه قبل ذلك التفت إلى السامري رأس الردة، وعالج معه الموقف بحزم.

وحتى يقضي على الانحراف قام موسى عليه السلام بشيئين:

الأول: عزل القيادة المنحرفة، التي تعمق الواقع السلبي، وتمده بأسباب البقاء في المجتمع. وفي القرآن يذكر الله النفي كوسيلة لمواجهة الفساد والمفسدين وذلك لكيلا يتأثر أفراد المجتمع بها.

الثاني: تحطيم رموز الردة وذلك حين حرق العجل ونسفه في البحر نسفاً.

ويلاحظ أن موسى عليه السلام كان صِداميًا، فلم يراهن على الواقع السلبي الفاسد، ولا رموزه بل اصطدم معهما بشدة، كما اصطدم من قبل مع فرعون وسحرته. وهذه كلها شواهد على أن حركات الأنبياء عليهم السلام، وحركات الرسالية التي تنبع منها وتمثل امتداداً لها حركات صدامية.

بينات من الآيات:

وهكذا هبط بنو إسرائيل مرة أخرى إلى حالتهم البشرية (عبادة الأشياء) حينما تركهم موسى عليه السلام ولم يصمدوا كثيرا أمام إغراءات العجل. وإنما تؤكد آيات القرآن دائماً على ربوبية الله وحاكميته لكي يعرج الإنسان إلى قمة العبودية له تعالى، ويقوم بعمل جاد من أجل الوصول إلى ذلك المستوى، والاستغناء به عن الأشياء حوله.

وهكذا هبط بنو إسرائيل إلى درك الشرك، فور ما تعرضوا لفتنة السامري. فلما عاد إليهم موسى عليه السلام، وجه خطابه إلى هارون أولاً:

[٩٢-٩٣] ﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾

ولعل السبب كان:

ألف: إن هارون كان خليفة عليهم والقيادة الشرعية المسؤولة عنهم فكان أول من يسأل عنهم.

بـــاء: إن موسى عليه السلام لن يهادن أحداً في قضايا التوحيد حتى ولو كان وصيه وخليفته هارون.

جيم: إن موسى عليه السلام أراد أن يوضّح لجماهير بني إسرائيل، أن قضية التوحيد ليست هينة، وأنه حتى هارون عليه السلام، يتعرض للسؤال بل للمحاكمة، حتى يثبت أنه قد أدى وظيفته بالنسبة إليها، كيف وأن الله سبحانه يسأل المرسلين في يوم القيامة عن أممهم، وكان موسى عليه السلام قد أوصى أخاه قبل مغادرته إلى الطور قائلاً: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وجاء الآن يسأل عما قام به.

أما هارون فقد أجاب موسى عليه السلام بأن بني إسرائيل لا يخضعون إلا لك ولا يزالون معتقدين بك، لذلك إذا أمرتهم بترك عبادة العجل قالوا سنعكف على عبادته حتى يرجع إلينا موسى، فأشاع السامري بأنك مت، ولكنني كنت أعرف أنك ستعود ويكون ذلك دليلاً على

كذبه، ولعلَّ موسى عليه السلام كان يعرف بأن هارون عليه السلام شديد الغضب في الله، لذلك وصاه بإصلاحهم دون القيام ضدهم، ونستوحي من هذا السؤال وجوابه أن التغيير ضرورة في المجتمعات المنحرفة، ولكن على الناهضين أن ينتظروا الأوقات المناسبة لإعلان نهضتهم، ذلك لأنه عندما تشيع فكرة باطلة في مجتمع ما، فإنَّ الجماهير تلتف حولها فلكل جديد لذة، مما يسقط خيار المقاومة لو تعجلوا في محاربتها، فإذا انتظروا قليلاً حتى يذهب بريقها وتظهر عيوبها، فإنَّ مقاومتها آنئذ ستكون ناجحة، ولذلك جاء في الحديث: «**لَا تُعَادُوا الدُّوَلَ الْمُقْبِلَةَ وَتَشْرِبُوا قُلُوبُكُم بُغْضِهَا فَتَدَبَّرُوا بِإِقْبَالِهَا**» [1]، لأنها فتية وتمتلك الجماهير وهي مستعدة لحماية مكتسباتها، أما إذا ظهرت سلبياتها فإنَّ الناس سيتحركون ضدها ويساعدون على إسقاطها، إضافة إلى تنامي عوامل الانهيار فيها بسبب انحراف مسيرتها.

[٩٤] عندما عتب موسى على هارون عليه السلام، وأخذ بلحيته وبرأسه يجرهما إليه، طلب هارون من أخيه ألاّ يغضب معللاً بأن قومه لم يستجيبوا له، ولو أنه أخذهم بالقوة لتفرقوا اجتماعياً ولنفروا من الدين نفسياً، وأن الحركة المضادة قد تكرَّس فيهم الواقع السلبي، فانتظر حتى يعود موسى عليه السلام إليهم. ويبدو أن التفاوت بين هارون وموسى عليه السلام بادىء الأمر كان في تقدير الموقف وليس في الحكم الشرعي، فبينما كان هارون يرى أن الموقف يستدعي التريث، لكيلا تنهار وحدة الأمة، ولذلك طبَّق موقف وصية موسى عليه السلام حيث قال له: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، تساءل موسى عليه السلام: كيف سكت هارون عن انحراف كبير، كتغيير القيادة، والشرك بالله، وعبادة العجل، وأن على هارون أن يتبع نهج موسى عليه السلام في مقاومة الانحراف، وأراد أن يتأكد بأن الضعف البشري لم يدفع بهارون إلى التهاون في مسألة التوحيد، فلما عرف موسى عليه السلام أن مصلحة الرسالة وليس الخوف من الطغاة هو الذي أسكت هارون عن حقه سكن غضبه.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ حينما قال له: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وهكذا كانت حكمة غضب موسى عليه السلام الظاهري توضيح الموقف للناس ولذلك سكت.

[٩٥] بعد أن أنهى موسى عليه السلام الحديث مع أخيه التفت إلى السامري.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ لماذا فعلت الذي فعلت؟

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج٢ ص٣٣٨.

[٩٦] ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي رأيت شيئاً لم يروه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من التراب الذي داست عليه خيل جبرائيل.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ قذفتها في داخل العجل. ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ زينت لي أهوائي الانحراف.

لقد كان السامري -الذي ينتمي إلى سمرون، وهو ابن يشاكر من أولاد يعقوب- وكما يبدو من الآية ممن بلغ به الإيمان درجة عالية إذ أبصر ما لم يبصره الآخرون حيث رأى أثر الرسول، ولعلَّ السامري كان ممن ساءت عاقبته، وهو مثال للخط المنافق في الأمة، والذي يسعى منتهزاً الفرص، كغياب القيادة ليصل إلى مطامعه ومصالحه المادية، ولكن السؤال هو لماذا ينحرف كثير من المؤمنين بعد إيمانهم، أمثال بلعم بن باعوراء والسامري والزبير بن العوام؟!.

والجواب كالتالي:

أولاً: الانحراف في مسيرة البشر شيء ممكن لأنَّ عوامله كثيرة، فربما يواجه فتنة معينة فيتحداها، ولكنه حينما تترى عليه الفتن المختلفة ينهار أمام بعضها، وأصعب فتن الحياة، هي فتنة الرئاسة.

بلعم كان مؤمناً، ولكن حينما رأى أن موسى عليه السلام أصبح نبياً دونه، دفعه نحو الانحراف، حتى قال عنه الله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[الأعراف: ١٧٦]، وهكذا كان السامري من أصحاب موسى عليه السلام ولكنه لم يرضَ أن يكون هارون رئيساً عليه فاصطنع حادثة العجل، وخدعته شهوة الرئاسة، وكذلك الزبير فلقد كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يقاتل معه ويذود عنه، ولكن حينما أراد السلطة انحرف عن القيادة الشرعية المتمثلة في أمير المؤمنين عليه السلام.

إن انحراف هؤلاء يدل على وجود انحراف نفسي عميق في قلوبهم، فلم يقاوموه، وقد جرت عليهم الامتحانات لكي يصبح إيمانهم خالصاً، ولكنهم انهزموا بتكرس الانحراف في أنفسهم.

والصديقون هم الذين يقاومون عوامل الانحراف - من الحسد وحب الدنيا، وإذا تحدوا واستقاموا دخلوا الجنة وإلا سقطوا في النار.

ثانياً: أن ينحرف في آخر لحظة من حياته، ويدخل النار، فالذين يحسنون الظن بأنفسهم عادة ما ينحرفون، وعلى عكسهم المتهمون لها.

ثالثاً: من الأسباب الرئيسية للانحراف طول الأمل، والحرص على الدنيا، لأنهما من بواعث التسويف بالتوبة.

[٩٧] أما كيف عالج موسى الموقف مع السامري؟ فلقد قام بخطوتين رئيسيتين هما:

١- عزل السامري عن المجتمع لأنه جذر الإنحراف: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾.

وهكذا يجب أن تكون الحلول التي تضعها النهضة، حلولاً جذرية تتعدى الآثار السلبية وإزالتها، إلى اجتثاث جذر الفساد، فبدل أن تحارب الخمر، والفساد الخلقي، والبرامج المضللة في وسائل الإعلام، عالج أمر الطاغوت الذي يقف خلفها، لأن القضاء عليه يعني نهايتها جميعاً. ولم يقتل موسى عليه السلام السامري ليبقى عبرة حية إلى كل الانتهازيين من بني إسرائيل، ولكي تتضح عدالة الرسالات الإلهية وكيف أن مواقفها عقلانية، ففي الخبر أن موسى عليه السلام هم بقتل السامري، فأوحى الله له أن لا تفعل فإنه كان سخياً، وثانياً حتى يكون عذابه شديداً يوم القيامة بحيث يستوفي كل ماله في الدنيا ولا يلقى في الآخرة إلا العذاب.ولعلَّ السامري أبتلي بمرض جسدي أو روحي يؤدي إلى عذابه باقتراب الناس إليه، فكان يهرب من الناس ويصيح إذا اقترب منه أحد لا مساس: أي لا تمسوني أو لا تقتربوا مني!.

٢- تحطيم رمز الواقع السلبي..

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

أخذ موسى العجل الذي عُبِدَ من دون الله وحرقه ثم ذره في اليم لكي يقتلع جذر الفتنة، خشية أن يقدس العجل أو قطعاته أو حتى رماده في المستقبل، كما يقدس المرتبطة مصالحهم بنظام الطاغوت آثارة بعد سقوطه.

ونستوحي من هذه العملية أن على السلطات الرسالية أن لا تكتفي بتصفية شخص الطاغوت فقط، بل تحاول اقتلاع جذوره وتصفية آثاره ورموزه، كقصوره، وتماثيله، ولو كان في ذلك بعض الخسارة المادية، لأن الخسارة الحقيقية أن تبقى هذه الأشياء تقدس من قبل المنحرفين الذين لا يزالون يتعلقون بالطاغوت بسبب عدم استجابتهم للتطور الرسالي الذي حدث.

[٩٨] كان الخطاب الأول موجهاً إلى هارون القيادة الرسالية، والخطاب الثاني إلى السامري القيادة المنحرفة، أما الخطاب الثالث فلبني إسرائيل أنفسهم، لأن هذه الجهات هي

المسؤول الحقيقي عن أي تغير سلبي في الأمة.

فلابد أن تحاسب الحركة الإصلاحية: هل تحملت مسؤوليتها أم لا، وكذلك القيادة المنحرفة: لماذا أقدمت على الانحراف، والجماهير: لماذا استجابت إلى ذلك؟!.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تعبدوا العجل، ولا المال، ولا من يملك المال، والعبادة تبدأ من حب الشيء، حباً ذاتياً في القلب، فلتذكر أن الله محيط علما بكل شيء، حتى بخفايا القلوب التي قد تميل إلى الباطل.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسعه من كل صوب وجانب.

خاتمة الآية متناسبة مع أجواء الحدث، حيث كان الذنب وتبرير الذنب مما لا يخفى على الله الذي أحاط علمه بكل شيء.

وخشعت الأصوات للرحمن

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا[1] ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا[2] قَاعًا[3] صَفْصَفًا[4] ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا[5] ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ[6] ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا[7] ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

من العبر الأساسية التي يستفيدها الإنسان من قصص التاريخ هي معرفته بأن الحياة

(١) زرقاً: جمع أزرق، فإن الإنسان المكدّر المهموم تعلو وجهه زرقة.

(٢) فيذرها: فيجعلها.

(٣) قاعاً: أي أرضاً ملساء منكشفة.

(٤) صفصفاً: أي مستوية، لا علوّ فيها ولا نتوء، والصفصف: هو المستوي من الأرض الذي لا نبات له كأنه على صف واحد في استوائه.

(٥) ولا أمتاً: الأمت الأكمة يقال مدَّ حبله حتى ما ترك فيه أمتاً أي انثناءً.

(٦) لا عوج له: أي لا اعوجاج للداعي بحيث يدعو بعضاً ويذر بعضاً، وإنما دعوة عامة شاملة للجميع.

(٧) همساً: صوتاً خفيفاً.

الدنيا ليست دائمة، كما أن معرفته تعطيه معرفة أعمق بالحياة ذاتها، إذ يرى أنها قصيرة، أنها جسر إلى الحيوان الحقيقي في الدار الآخرة.

ونفس هذه الحقيقة نجد تذكيراً بها في كتاب الله، الذي يخسر من أعرض عنه إذ يفقد البصيرة في الدنيا والبصر في الآخرة، كما تتحول ذنوبه وأخطاؤه إلى أثقال يحملها يوم القيامة ذلك اليوم الرهيب، الذي تخشع فيه أصوات الخلائق لربها، ونرى الناس يبحثون عمن ينقذهم من عذاب النار، وليس ثمة شفاعة بدون إذن الله.

فمن أجل ألاَّ نتورط بحمل هذه الأثقال علينا: أن نعود إلى التاريخ فنعتبر، وإلى القرآن فنتذكر.

بينات من الآيات:

[٩٩] ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ البشر إنما يضل سواء السبيل حين يغفل ويخرج عن تمام وعيه، وإنما ابتليت الأمم بمختلف النكسات بسبب الغفلة، والنسيان، ولكي يعي الإنسان واقعه ومستقبله لديه وسيلتان:

الأولى: النظر في التاريخ برؤية وتفكر، فالتأريخ هو ذلك المصباح الذي يضيء للعقلاء درب المستقبل، والتأريخ هو ذلك المعهد التجريبي الذي يتخرج من أروقته أفضل العلماء، والتأريخ هو ذلك الناصح الأمين الذي يوقظ فطرة الخير في ضمير الناهبين.

إنه الذكر الذي يتجلى في آيات القرآن حين تبيَّن لنا سنن الله فيما مضى، وكيف سعد من سعد من الأمم، وكيف شقي من شقي منهم، يقول الإمام أمير المؤمنين، وهو يبين لولده الحسن المجتبى عليه السلام أهمية التجارب التأريخية: **«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ»**[1].

وحين ننظر إلى التاريخ، علينا أن نعتبر بالجوهر، ومن الخطأ أن نعلق بكل لتفاصيل والجزئيات.

الثانية: القرآن، وسمي بالذكر، لأنه ينبه المؤمنين من نومه الغافلين، فيوقض الضمير،

---

(١) نهج البلاغة: رسالة: ٣١.

ويستثير العقل، مذكراً الإنسان بعهده مع الله، وما أودع فيه الله من الفطرة.

وكما تتجلى الحقائق وسنة الله عبر أحداث التاريخ، ومسيرة الحياة، فإنها موجودة في كتابه أيضاً، والذي هو بمثابة الخارطة التي تقود الإنسان إلى الهدف.

ولتوضيح مفهوم الذكر يمكننا أن نشبهه بالخريطة التي يحملها الشخص وهو يريد اجتياز حقل من الألغام، فهو ينظر إليها باستمرار ليحدد المواقع التي زرعت فيها العبوات الناسفة فيتجنبها، وبكل حذر وإرادة، أن لا يغفل عنها لحظة واحدة، لأن ذلك يعني: أن يطير أشلاء في الهواء.

والحياة التي نعيشها أشبه ما تكون بذلك الحقل الملغوم، وإذا أردنا أن نجتازها بسلام يجب أن يكون الذكر نصب أعيننا باستمرار، والإنسان العاجز بذاته، الذي يعيش على أرض محفوفة بالأخطار، ومليئة بالصعوبات، هو بأمس الحاجة الى الله القوي، مطلق العلم، والإرادة و.. و.. ليمد له يد العون، فيدفع عنه الخطر، والذكر هو الوسيلة التي يرتبط بها البشر الضعيف بربه العزيز القادر.

[١٠٠-١٠١] ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ يتنوَّر قلب الإنسان بالمعرفة التي يكتسبها عبر التجربة والتفكير، وعبر النظر للتأريخ والحياة، وأهم من كل ذلك، عبر رسالات الله (الذكر)، بينما تصنع الغفلة حجباً كثيفة عليه تمنع عنه نور الحقيقة، وسحباً متراكمة من الحسد والحقد والعقد

وحب الدنيا والتعلق بزينتها، وهذه الحجب التي تتراكم فوق القلب، وتدعو إلى ارتكاب المعاصي، تصبح هي أوزاراً باهضة تثقل كاهل صاحبها في الدنيا وفي الآخرة.

والوزر هو الحمل الثقيل، الذي يضغط على صاحبه بقوة، فمن حمل كيساً كبيراً من التراب فوق كاهله ينهار من شدة الضغط، كذلك الحاسد والحاقد وعبد الشهوات، والسائر في ظلمات الغفلة، يتعرَّض قلبه لضغط معنوي هائل لا يكاد يتحمله.

والتعبير القرآني عن الغفلة (بالوزر) أبلغ تعبير، أو ليست الغفلة تأتي نتيجة ضغط العوامل المادية؟ كذلك الوزر (الحمل الثقيل) هو من الضغط المادي.

ولا يقتصر ضرر الإعراض عن ذكر الله على الدنيا فقط بأن يفقد الإنسان البصيرة فيها، بل ويمتد ذلك إلى يوم القيامة حيث تتجسد الحقائق، وحيث يحمل من غفل عن ذكر ربه أثقالاً باهضة على كتفيه، كما يفقد البصر وهو يحاول أن يجتاز الصراط فيقع في جهنم، يتذوق ألوان العذاب.

والتعبير القرآني من الدقة بمكان؛ إذ يقول تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ والضمير يعود إلى الوزر، إذ ذنوبه هنا هي أداة تعذيبه هناك، حيث يخلد فيها مهاناً، أعوذ بالله.

[١٠٢] ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ ولا مناص يومها لأحد إلا أن يخرج من قبره شاء أم أبى، فكما يولد الإنسان ويموت من دون إرادته، كذلك يبعث من دون إرادته.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي زرق عيونهم من شدة الخوف، ولعلَّ أهوال القيامة تسبب في زرقة أجسادهم أيضاً.

[١٠٣] ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يتحدَّثون لبعضهم همساً، فيقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ إذ يتضح لهم تفاهة وقصر العيش في الدنيا، التي طالما اعتبروها آخر المطاف، وتوهموا أنفسهم باقين فيها، وذلك حين يقيسونها بالآخرة دار الخلد، إن ملايين السنين لا قيمة لها، أمام الخلد، فكيف والإنسان لا يعيش في الدنيا إلا بضع عشرات من السنين فقط؟!.

[١٠٤] ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ إن علم الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شيء وكل زمان، فهو غير خاضع لقانون الزمن، كما نحن البشر، فالماضي والحاضر والمستقبل في علمه سواء، فهو يعلم الآن ما سيقوله المجرمون يوم القيامة الذي ربما يأتي بعد ملايين السنين.

ولفظة ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، ترفع شبهة قد تتولد في الذهن، بأن المتكلم الأول كان فاقداً للعقل عندما قدَّر عمره في الدنيا بعشرة أيام، فهذا ﴿أَمْثَلُهُمْ﴾ أعقلهم وأفهمهم يقدر الفترة بيوم واحد لا بعشرة أيام.

إن على الإنسان أن يعلم بأن حياته قصيرة جداً، وأن أمامه حياة أخرى لا حصر لأمدها، وأن سعادته أو شقاءه فيها مرهون بعمله في الدنيا، فيسعى جاهداً من أجل أن يكون سعيداً فيها.

من مشاهد القيامة

[١٠٥] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ الضخمة الراسية ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

[١٠٦] ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أرض خالية من كل أثر من آثار زينة الدنيا وزخارفها.

[١٠٧] ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ أي تصير الأرض مستوية، فلا حفرة فيها ولا نتوء، وتزول منها كل المعالم الجغرافية، تصور لو كنت واقفاً على مقربة من جبال الهملايا فإذا

بها تنفجر مرة واحدة، فكم سيكون المنظر مهيباً ومخيفاً؟.

والسؤال: لماذا نجد القرآن يتحدَّث في مواضع كثيرة من الذكر، عن نسف الجبال، وتسجير البحار، وانتشار الكواكب و.. و..؟.

والجواب يبدو: أن كل ما في الكون خلق لهدف هو عبادة الله، وخدمة الإنسان، فما دام الإنسان قد انتهى وجوده ودوره في الدنيا، فإنه ينتهي تبعاً لذلك دور هذه المخلوقات، وفي الحديث القدسي يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان قائلاً: «**عَبْدِي! خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لأَجْلِي..**»[1].

ولعلَّ من أساليب القرآن في التذكرة، هو التعرض لمشاهد القيامة بما فيها من الإثارة وشد الانتباه، ليوقض الضمير، خصوصاً وأن أسلوب العرض القرآني قمة البلاغة.

[١٠٨] ويواصل القرآن الحديث عن يوم القيامة: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ من المفارقات الموجودة بين الدنيا والآخرة، مفارقتان تذكرهما هذه الآيات:

الأولى: المفارقة الزمنية، فبينما الدنيا محدودة زمنياً، نجد الآخرة أبدية.

الثانية: وتذكرها هذه الآية، وهي أن الدنيا حياة الإرادة البشرية، بينما الآخرة (يوم القيامة) يجرِّد الإنسان من إرادته، وبالذات المجرم، ويخضع لله جبرياً.

فهذا البشر الذي كان يتمرَّد على رسل الله ورسالاته، نجده -هنالك- خانعاً خاضعاً لداعي الله، وصوته الذي طالما رفعه يحارب به الله، وعباده، ورسالاته، هذا الصوت تجده خاشعاً لله تعالى، الذي ينتظر منه الجميع كلمة العفو والغفران، ويتبعون داعيه دون أي تلكؤ وبلا عوج، ذلك الداعي الذي يدعوهم إلى صراط الله المستقيم لا عوج له.

[١٠٩] ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ كل العلاقات لا تنفعه يوم القيامة، ولا تبقى إلا علاقة واحدة، وهي علاقة المؤمنين وشفاعتهم وشفاعة الرسل والصديقين والشهداء والصالحين لمن اتبعهم في الدنيا وأطاعهم، فالعلاقة الرسالية إذن هي الباقية يوم القيامة، وليس هناك أنصاف آلهة يفرضون إرادتهم على ا لله، كما يدعي البعض أو يتصورون، وهذه الوساطات والوجاهات التي يتوسل بها الإنسان قد تنفعه عند السلطان، أما عند الله فلا، إلا لمن يعطيه الله صلاحية الشفاعة، ونتساءل: ما هي إذن فائدة الشفاعة ومن ذا

---

(١) الجواهر السنية للحر العاملي: ص٣٦١، مشارق أنوار اليقين لرجب البرسي: ص٢٨٢.

الذي تعطى له صلاحيتها؟.

أولاً: إن الشفاعة هناك نتيجة العلاقات الإيمانية هنا، وبالذات العلاقة بين المؤمنين وقيادتهم الشرعية من رسول ووصي رسول، ومن أمر الله بطاعته وحبه، وكلما ازداد حبك في الله للأنبياء والأئمة وخلفائهم وطاعتك لهم، كلما ازدادت فرص نجاتك من النار، لأنهم وحدهم الشفعاء عند الله.

ثانياً: قد يلقي الشيطان في قلب المذنبين اليأس من روح الله، فيفتح الله لهم باباً واسعاً إلى رحمته عبر الشفاعة ويهديهم إلى صراط التوبة، وهو العودة إلى الله، ومن أمر الله بطاعته، من الرسول وأولي الأمر الشرعيين من بعده.

وسؤال آخر: لماذا التأكيد أن لا شفاعة إلا لمن ارتضى الرب؟.

والجواب: إن فكرة المسؤولية هي أثقل ما في الميزان من فكر، وأن البشر يسعى جهده للتخلص منها، والاستراحة إلى ظل التبريرات، والشفاعة أبرزها، إن الإنسان يخدع نفسه كلما ذكره الله بالجزاء، ويتمنى لو أن شخصاً يشفع له، فيؤكد الله سبحانه: كلا، لا شفاعة عند الله إلا ممن يرتضيه الله سبحانه، هكذا لكي تبقى النفس عارية أمام حقيقة المسؤولية، ويتقبلها طوعاً أو كرهاً.

[١١٠] ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فسلوك الإنسان وخلفياته هي التي تؤثر في مصيره غداً، وكل ذلك يعلمه الله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ وهكذا يقفون أمام سلطان الرب القاهر، عاجزين لا يحيطون به علماً، فلا يمكنهم التغلب عليه، أو مقاومة مكره، إذا ليس أمامهم إلا التسليم له والهروب من عدله إلى عفوه، ومن غضبه إلى رحمته ورضوانه.

المسؤولية... بين التذكر والنسيان

﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ[(١)] لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ[(٢)] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الإنسان خاضع بكيانه الطبيعي لله سبحانه، ويتجسد خضوعه الكامل يوم القيامة، أما في الدنيا فقد أعطاه الله فرصة لتجربة إرادته، فهو يستطيع بها أن يسمو ليصير أفضل من

(١) وعنت الوجوه: العنوة الخضوع والذل، والعاني الأسير وأخذت الشيء عنوة أي غلبة تُذِل المأخوذ منه، وقد تكون العنوة عن طاعة وتسليم لأنه على طاعة الذليل للعزيز.

(٢) وطفقا يخصفان: أي شرع آدم وحواء يلصفان على أنفسهما من الورق حتى لا يتعريا.

المخلوقات، التي تخضع لله خضوعاً قهرياً تكوينياً.

وهذه المسؤولية بحاجة إلى التذكير بها، وإن كان الإنسان بطبعه وفطرته يشعر بالمسؤولية، ولكنه ربما أنسته إياها ضغوط الحياة، ووساوس الشيطان فيها، ومشاكلها، فهو بحاجة إلى تذكير مستمر ليقاوم كل ذلك.

وهكذا جاء القرآن الحكيم تذكيراً للإنسان بمسؤوليته، وثمة عامل آخر يجعل الإنسان ذاكراً لا ينسى، وهو العزم والإرادة، وفي هذه الآيات يذكّرنا الله تعالى بأن آدم لم يكن من أولي العزم حيث نسي عهد الله إليه وأخرج، ولم يخرج آدم من الجنة، التي وفرَّ الله له ولزوجه فيها الطعام واللباس والشراب والسكن، إلا بسبب إثارة الشيطان لغريزتي حب الخلود وحب السلطة، فلما اتبع إبليس، تجرَّد من لباس الجنة (حيث جرَّد نفسه من لباس التقوى) وأضحى عاصياً وقد غوى، إلا أن الله فتح أمامه باب التوبة فاجتباه وهداه.

وفي نهاية الدرس بشارة بأن وراء هبوط الإنسان إلى الأرض بالذنب، التوبة التي هي معراجه إلى الجنة.

بينات من الآيات:

[١١١] ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ عنت أي خضعت خضوعاً ذليلاً، أما الوجوه فهي المظهر البارز من الإنسان، وحينما تقول توجهت أي جعلت كل أبعاد حياتي في هذا الطريق، فعنت الوجوه بمعنى خضعت أبعاد حياة الإنسان للحي القيوم، بلى هذا الوجه الضعيف الفاني، حق له أن يخضع لذلك الوجه الحي القيوم..

هكذا نقرأ في الدعاء: «**سَجَدَ وَجْهِيَ الذَّلِيلُ لِوَجْهِكَ الْعَزِيزِ الْجَلِيلِ، سَجَدَ وَجْهِيَ الْبَالِي الْفَانِي لِوَجْهِكَ الدَّائِمِ الْبَاقِي، سَجَدَ وَجْهِي الْفَقِيرُ لِوَجْهِكَ الْغَنِيِّ الْكَبِيرِ، سَجَدَ وَجْهِي وَسَمْعِي وَلَحْمِي وَدَمِي وَجِلْدِي وَعَظْمِي وَمَا أَقَلَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ**»[1].

ولعلَّ اسمي الحي والقيوم يجمعان أسماء الله الحسنى.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ الخيبة هي الفشل، والذي يخيب هو الذي لا يصل إلى هدفه، والظلم حمل ثقيل على كاهل الإنسان يتجلى في صور سلبية شتى في الدنيا، كعدم التوفيق والفشل و.. و.. أما في الآخرة فيتجلى في صورة العذاب المهين، وهذا خلاف ما ينتظره الإنسان

(١) البلد الأمين: ص ٣٣١ من دعاء الجوشن الكبير.

من وراء ظلمه، أو ليس كان يأمل الظالم أن يحقق لنفسه وأهله السعادة والفلاح، الآن تراه يفشل ويخيب أمله، ويحمل أوزار الظلم.

[١١٢] في مقابل الظلم يوجد العمل الصالح، وهو حالة بناء، سواءً للنفس أو المجتمع، فبدل أن تسجر لنفسك تنوراً في جهنم بالظلم، شيِّد لك قصراً في الجنة بالعمل الصالح، وبدل أن تهدم علاقاتك بالمجتمع عبر الظلم، وسعها ومتنها بالإحسان والعمل الصالح، والذي يعمل الصالحات لا يخاف الهضم ولا الظلم.

ثم إن عمل الصالحات في الخط الفاسد ليس من الصالحات في شيء، لذلك يؤكد القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فحتى تثمر الصالحات يجب أن تكون في خط الإيمان.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لا يمكن في يوم القيامة أن ترى صحيفة عملك وقد ذهبت بيد غيرك، كما لا يمكن أن يضيع الله عملاً صالحاً مهما يكن صغيراً، فلو أنك قمت في أحد الليالي لحظات وسبحت الله ثم نمت فهي ستبقى مكتوبة في صحيفتك يوم القيامة، والفرق بين الظلم والهضم، أن الظلم ذهاب كل العمل، والهضم نقصان بعض الأجر.

[١١٣] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ عربياً: بليغاً يفهمه كل الناس، ويوضِّح كل الحقائق، واللغة العربية تمتاز ببلاغة نافذة -باعتراف علماء اللغة- لا نجدها أبداً في غيرها.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي ثبتنا فيه الوعيد، بأساليب مختلفة ومع أمثلة حقيقية.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي تترسخ فيهم روح التقوى، والذي تترسخ فيه هذه الروح لا يظلم ولا يغفل ولا يذنب، لأنه مسلح بالتقوى والحذر نتيجة الوعيد.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ هدف القرآن هو زرع التقوى في نفس الإنسان، وإذا كان قلب الإنسان لا يتقبَّل التقوى، فلا أقل ليتذكر بالقرآن، والتذكر حسبما جاء في الأحاديث هو تذكر الله عند ممارسة الخطيئة، من هنا يمكن القول بأن التقوى نوع من العصمة أما التذكر فيشبه الكابح.

[١١٤] ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ تعالى عن التشبيه والتصوير والتصور، فهو الملك المالك لكل شيء والمهيمن عليه، وهو الحق وما دونه الباطل، فنحن ملكه يهدينا إلى القرآن.

ولكي نصل إلى علم القرآن لابد من التسليم والاستزادة من الوحي دون العجلة.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾، وفي تفسير علي بن ابراهيم[1]، في سبب نزول هذه الآية، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل تمام نزوله، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ﴾ ولعلَّ زيادة حب النبي وشوقه إلى وحي ربه، كان يدفعه إلى ذلك، فنهاه الرب عنه، ومهما كان السبب فإن ذات العجلة غير حميدة:

١- إذ المطلوب من المؤمن التسليم المطلق أمام الرب، ليزيد الله علمه، ومع الإستعجال بالوحي حتى ولو كان من منطلق الشوق، يفقد كمال التسليم له، وبالتالي لا يزداد علماً.

٢- والمهم قراءة القرآن بتأن وتدبر لاستيعاب معانيه، لأنَّ هذا الطريق فقط هو الذي يجعلنا نفهم القرآن، وخطأ أن نقرأ القرآن بهدف القراءة لأنها ليست مطلوبة بذاتها، إذا عريت عن الفهم والتدبر، الذي يحقق التقوى أو الذكرى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ وإن من آداب تلقي الذكر -بعد التسليم- الشوق إلى زيادة العلم، فمن اغتر بما يملك من العلم لم يؤت الزيادة.

ولذلك نجد كيف يأمر الرب رسوله بطلب الزيادة في العلم -وجاء في الحديث الشريف- عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: «**لَولَا أَنَّا نَزْدَادُ لَأَنْفَدْنَا**»[2].

وفي الحديث المأثور عن عائشة عن الرسول ﷺ أنه قال: «**إِذَا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيْهِ عِلْماً يُقَرِّبُنِي إِلَى اللهِ، فَلَا بَارَكَ اللهُ لِيْ فِيْ طُلُوعِ شَمْسِهِ**»[3].

[١١٥] ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ لقد حدَّد الله سبحانه الهدف من القرآن (التقوى والتذكر)، وكمثال على هذين الهدفين يذكر الله قصة آدم عليه السلام عندما نهاه عن الشجرة وحذَّره من الشيطان أن يخرجه من الجنة.

ومن كلمة (نسي) نستنتج أن عصيان آدم لم يكن متعمداً، ويدل على ذلك عجز الآية: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ كما أن النسيان ضد التذكر، وعهدنا بمعنى أمرنا، فهو لم يتحدّ ذلك الأمر إنما نسَيِهَ.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وهناك تفسيران لهذه الآية:

الأول: إن آدم عليه السلام نسي العهد الإلهي ولكن لم نجد له عزماً على الخطيئة أي تعمداً.

الثاني: لم يكن آدم من أولي العزم وأولو العزم خمسة هم: نوح، وإبراهيم، وموسى،

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٦٥.
(٢) الكافي: ج١ ص٢٥٤.
(٣) مجمع البيان: ج ٧ ص٦٠.

وعيسى، ومحمد ﷺ، وهذا التفسير تأكيد للقول بأن الإرادة (العزم) تمنع الغفلة والنسيان.

[١١٦] ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ إن سجود الملائكة الموكلة بالطبيعة للإنسان يعني أن الله سخّرها للبشر، بل يبقى إبليس موكلاً بالنفس الأمارة التي لن تسجد لله إلا أن يجبرها الإنسان على ذلك.

[١١٧] ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ بيّن الله لآدم وزوجه، أن إبليس عدو لهما، يسعى لإخراجهما من الجنة، ونستفيد من هذه الآية عدة أفكار:

١- إن الإنسان بحاجة إلى أن يعرف عدوه إبليس ويتذكر ذلك أبداً.

٢- إن عداوة إبليس للمرأة كعداوته للرجل، وبالتالي على المرأة أن تكون على أشد الحذر كما على الرجل سواء بسواء.

٣- إن هدف الشيطان هو إضلال البشر وجرهم إلى الشقاء المادي والمعنوي، ووسيلة في ذلك التغرير والمكر والخداع!

[١١٨-١١٩] ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ هذه أربع من النعم المادية التي أودعها الله في الجنة وهي: نعمة الأكل واللباس والشراب والمسكن.

[١٢٠] ولكن هل يترك الشيطان الإنسان لسبيله؟.. كلا؛ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ نستوحي من هذه الآية الكريمة أفكاراً عديدة تعالج قضايا هامة، لازال بعضها موضع بحث ودراسة عند المفسرين:

١- إن الشيطان يوسوس للإنسان، فيستثير طبائعه الدفينة، ويدغدغ تمنياته المكبوتة، ويحرّك تلك الغرائز الخامدة، وهو يفعل كل ذلك بهدف التشويش على بصره، والتمويه عليه، وزرع الشبهات في قلبه، وإلقاء التبريرات والتسولات في نفسه.

وهكذا لا يكفي الحذر من اغواء الشيطان المباشر، بل علينا أن نعرف أنه يشوش علينا، ويشبه الأمور ويخلط الحق بالباطل، ويمكر ويكيد، ويغر ويخدع، لذا ينبغي أن نكون في قمة الحذر، وإلا وقعنا في شركه.

٢- وآدم أول من حاول إبليس اغواءه، ولكنه لم يعزم عصيان ربه، بل أنساه الشيطان

أمر الرب، وخدعه حيث حلف له بالله كذباً أن الله لم ينهه عن تلك الشجرة.

ولم يكن آدم يعلم أن من الممكن أن يحلف أحد بربه كاذباً، ثم شبه عليه بأن المنهي عنه إنما هو شجرة معينة من الحنطة، وليس كل أشجار الحنطة، وهنا استفاد إبليس من نقطة ضعيفة عند البشر حيث يتهرب من المسؤولية بأدنى تبرير، وكانت أداة وسوسته إثارة مشاعر حب الخلود والملك عند البشر، جاء في حديث شريف عن جميل بن دراج عن أحد الصادقين: «سَأَلْتُهُ: كَيْفَ أَخَذَ اللهُ آدَمَ بِالنِّسْيَانِ؟ فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّهُ لَمْ يَنْسَ وَكَيْفَ يَنْسَى وَهُوَ يَذْكُرُهُ وَيَقُولُ لَهُ إِبْلِيسُ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾**»[1].

٣- غريزتا الملك وحب الخلود غريزتان متأصلتان في أعماق الإنسان، فبالرغم من أن الله أسكن آدم وحواء الجنة -وهي دار الخلود- إلا أنهما لا زالا يتنابهما الشعور بالنهاية، وقد أثار الشيطان فيهما هاتين الغريزتين، وهكذا كانت نتيجة غواية إبليس أن أكل آدم من الشجرة فطرد من الجنة.

وإنما كان ذلك من آدم حين أثار إبليس فيه غريزتي (حب الملك وحب الخلود)، ومن المعلوم أنه لم يكن الهدف من خلق هاتين الغريزتين في النفس أن يستخدمهما الشيطان في اغواء الإنسان، إنما أعطاه الله حب الملك والسيطرة، لكي يستعمر الأرض ويتحمل الصعاب والمشاق في سبيل ذلك، وأعطاه حب الخلود لكي يحافظ على نفسه من جهة، ولكي يعرف أنه خلق للبقاء ولكن ليس في هذه الدنيا، بل في الآخرة، وأنه لو لم يخلد في الدنيا، فإنّ هناك داراً أخرى سيخلد فيها.

ولكن إبليس كعادته يحرف غرائز الإنسان، التي لو استفاد منها استفادة سليمة، إذن لكانت وقوده في الطريق الصاعد، أما لو استخدمها بصورة غير سليمة، فإنها ستكون سبباً لهبوطه وترديه. والشيطان حينما يوسوس للبشر فهو قد لا يتراءى له، ولكنه يأتيه في صورة خواطر وأوهام.

[١٢١] **﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾** كانت نتيجة اقترافهما السيئة أن بدت لهما سوآتهما بعد أن ألبسهما الله الرياش. **﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾** عصى بتركه الهدى، وغوى عن رحمة ربه إذ من معاني الغواية الضياع.

[١٢٢] **﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾** وفي هذه الآية إشارة إلى أن بيد الإنسان نفسه سعادته أو شقاءه، وإنه لو وقع في فخاخ الشيطان وانحرف عن الجادة، فإنّ أمامه فرصة

(١)، بحار الأنوار: ج١١ ص١٨٧، تفسير العياشي: ج٢ ص٩.

التوبة التي هي معراجه إلى الفضيلة.

وهناك حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام يوضح الكثير من الشبهات في الآية، والحديث كالتالي: عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ الرِّضَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله أَ لَيْسَ مِنْ قَوْلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ؟. قَالَ عليه السلام: بَلَى. قَالَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِآدَمَ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ -وَأَشَارَ لَهُمَا إِلَى شَجَرَةِ الْحِنْطَةِ- فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ لَهُمَا: لَا تَأْكُلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَلَا مِمَّا كَانَ مِنْ جِنْسِهَا، فَلَمْ يَقْرَبَا تِلْكَ الشَّجَرَةَ، وَإِنَّمَا أَكَلَا مِنْ غَيْرِهَا لَمَّا أَنْ وَسْوَسَ الشَّيْطَانُ إِلَيْهِمَا، وَقَالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ -وَإِنَّمَا نَهَاكُمَا أَنْ تَقْرَبَا غَيْرَهَا، وَلَمْ يَنْهَكُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا:- إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ وَلَمْ يَكُنْ آدَمُ وَحَوَّاءُ شَاهَدَا قَبْلَ ذَلِكَ مَنْ يَحْلِفُ بِالله كَاذِباً، فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَأَكَلَا مِنْهَا ثِقَةً بِيَمِينِهِ بِالله وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ آدَمَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِذَنْبٍ كَبِيرٍ اسْتَحَقَّ بِهِ دُخُولَ النَّارِ وَ إِنَّمَا كَانَ مِنَ الصَّغَائِرِ الْمَوْهُوبَةِ الَّتِي تَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِمْ فَلَمَّا اجْتَبَاهُ اللهُ وَجَعَلَهُ نَبِيّاً كَانَ مَعْصُوماً لَا يُذْنِبُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»[1].

وكلمة أخيرة: إن الشيطان يقدر على اغواء البشر ما دام الإنسان مغروراً بنفسه، غير مستعيذ بربه من شر إبليس وخدعه وأحابيله. وهكذا زلّت قدم آدم حيث اعتمد على نفسه[2]، فعلينا أن نعرف مدى خطورة الشيطان فنستعيذ أبداً منه بالله سبحانه.

---

(١) بحار الأنوار: ج١١ ص٧٨.

(٢) روى الكافي: ج٧، ص٤٤٧: عن سَلَّامِ بْنِ الْمُسْتَنِيرِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا قَالَ: لِآدَمَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ لَا تَقْرَبْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ، قَالَ: وَأَرَاهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ آدَمُ لِرَبِّهِ: كَيْفَ أَقْرَبُهَا وَقَدْ نَهَيْتَنِي عَنْهَا أَنَا وَزَوْجَتِي؟!. قَالَ فَقَالَ لَهُمَا: لَا تَقْرَبَاهَا، يَعْنِي لَا تَأْكُلَا مِنْهَا، فَقَالَ آدَمُ وَزَوْجَتُهُ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا لَا نَقْرَبُهَا وَلَا نَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَمْ يَسْتَثْنِيَا فِي قَوْلِهِمَا: نَعَمْ، فَوَكَلَهُمَا اللهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْفُسِهِمَا وَإِلَى ذِكْرِهِمَا.
قَالَ وَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله فِي الْكِتَابِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ لَا أَفْعَلَهُ فَتَسْبِقَ مَشِيئَةُ اللَّهِ فِي أَنْ لَا أَفْعَلَهُ فَلَا أَقْدِرَ عَلَى أَنْ أَفْعَلَهُ قَالَ فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أَيِ اسْتَثْنِ مَشِيئَةَ اللَّهِ فِي فِعْلِكَ».

هدى الله معراج الفضيلة

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ[2] كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾.

هدى من الآيات:

الإنسان مزيج من حفنة من تراب وومضة من نور، والأولى هي التي تحتوي على جوانب ضعيفة، أما الثانية فتستر سوءات التراب، فإرادة الإنسان تستر شهواته، وعقله يستر جهله، وتقواه تستر غرائزه، ولولا هذا الجانب الخير في حياته لكان أضعف وأعجز من كثير من الأحياء.

نعم إن لباس التقوى هو أفضل ما يستر به الإنسان عجزه وجهله وغروره، ولولا هذا

(١) ضنكاً: ضيّقة.

(٢) أفلم يهد لهم: أفلم يبيّن لهم، وألم يرشدهم: وهذا استفهامٌ استنكاري.

اللباس لما تدافن الناس، ولو تعرى كل إنسان للثاني، لظهر أشد سبعية من الذئب، وأخبث حيلة من الثعلب، وألدغ من الحية، والذي ينزع عن نفسه هذا اللباس فإنَّ أمامه طريقاً عريضاً، ليعود إلى الله، مرة أخرى عبر التوبة.

والإنسان إنما يضعف ويذنب، حينما ينشد إلى التراب، بينما يسمو حينا يميل إلى جانب النور، وإنما هبط آدم عندما تأثر بترابيته لا بروح الله التي نفخها فيه.

ولما خدع الشيطان آدم أنزله الله إلى الأرض ليخوض صراعاً عنيفاً بين الحق والهوى، بين من يتبع هذا ومن يتبع ذاك، وهذا ما يجعل الإنسان محتاجاً إلى رسالات الله لتهديه إلى سبيل الرشاد والسعادة، فمن اتبع هدى الله فلا يضل عن الطريق، ولا يصيبه الشقاء، أما من اتبع هواه وأعرض عن ذكر الله، فإنه يخضع لضغوط الشهوات، ويعيش في زنزانة الجهل والجهالة، ويصاب بمعيشة ضنك، أما يوم القيامة فيبعث أعمى، وحين يتساءل عن ذلك يأتيه الجواب: أو لم تنس آيات الله؟ بلى فأنت اليوم تنسى.

إن المسرفين الذين يكفرون بآيات الله لهم عذاب شديد، في الدنيا - كما أهلك الله القرون الغابرة وأشد منه وأبقى في الآخرة.

إن الله سبحانه وتعالى يهمل الكفار لأجل مسمى، ولولا ذلك لأخذهم بكفرهم.

بينات من الآيات:

[١٢٣] ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ لقد هبط آدم وزوجته فقط، وقد أكَّد القرآن ذلك حين جاء الحديث بلفظ التثنية ﴿ٱهْبِطَا﴾، ولكنه بعدئذ يقول: ﴿جَمِيعًاۢ﴾ فلعلَّه يضم إبلس معهما، ثم يقول: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بصيغة الجمع، لماذا؟.

لأن آدم لم يختلف مع زوجته في الأرض أبداً، بل ظلَّ على وئام معها، حتى صارت لهما ذرية فانقسم هؤلاء، فمنهم من اعتنق مبادىء الخير، ومنهم من اعتنق مبادىء الشر، فنشب الصراع بين الطرفين.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ الضلالة هي الانحراف والشقاء نتيجتها، ولكن الذي يتبع هدى ربه لا يضل ولا يشقى، لأنه يسير في الطريق الصحيح الذي يوصله إلى أهدافه، ولعلَّ الضلالة تعني الجانب المعنوي، بينما الشقاء يعني الجانب المادي ليتقابل مع قوله سبحانه في الآية التالية: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يعني من لم يتبع هدى الله.

[١٢٤] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ من يعرض عن ذكر الله، وعن الحق، وأبرز قضاياه هو تولي القيادة الشرعية، فإنه لا يعرف كيف يستفيد من الحياة لذلك يشقى فيها.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي معيشة ضعيفة تضغط عليه وتجلب له التعاسة، برغم مظاهر الثروة التي قد يكون متلبساً بها ويغبطه الناس عليها، والواقع: أن ضنك العيش يتمثل في واحد من بعدين:

١- فقد يكون بسبب نقص الوسائل المادية التي توفرها المناهج الإلهية، والتي لن توجد من دونها إلا مؤقتة ومشوبة بالمشاكل الأعظم منها.

٢- وقد تضيق النفس بالحياة وتصبح حرجة قلقة، غير مطمئنة ولا راضية حتى ولو توفرت الوسائل المادية، إذ النفسية المعقدة التي تتراكم عليها الصفات الرذيلة كالحسد والحقد والكبر والغرور يعيش صاحبها في زنزانة ضيقة ولو كان جسمه في روضة فيحاء.

وفي السياق إشارة إلى بعض جوانب السعة والضيق في القلب.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ ولماذا يعمى الإنسان في الآخرة؟ لأنه قد ترك الانتفاع بالبصيرة في الدنيا، ذلك لأنَّ العمى في القرآن منه ما هو عمى البصر ومنه ما هو عمى البصيرة، كما قال الراغب في قوله سبحانه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الأسراء: ٧٢] فالأول: على عمى البصيرة والثاني: على عمى البصر»[1]، ولعلنا نستطيع أن نعبر عن عمى البصيرة بعدم الوعي، والذي يعمى عن النور لا بد أن يعمى عما يضيئه ذلك النور من الحقائق، فهدى الله نور جاء ليضيء الحقائق، ويبين السنن الحاكمة في الحياة، وبديهي أن من يعرض ببصره وبصيرته عن رؤية ذلك الهدى، سيعمى عن حقائق الحياة وسننها، وسيصعب عليه تمييز الخير عن الشر، وسيتجسد في الآخرة في عمى ظاهر هو عمى العين، لذلك يقول تعالى:

[١٢٥] ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ يبدو من الآية أن الرجل لم يكن من الكفار، إنما ممن نسي آيات الله بعد أن جاءته، ولذلك احتار في سبب عماه وتساءل: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ وأضاف: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ ولو كان كافراً إذا لم ينسب نفسه إلى البصر، وربنا حين أجابه، ذكَّره بأنه نسي آيات الله، ولم يقل أنه لم يؤمن بها، هكذا جاءت النصوص تفسر الآية بمن ترك الولاية الإلهية أو الحج المفروض، فقد روى أبو بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «مَنْ مَاتَ وهُوَ صَحِيحٌ مُوسِرٌ لَمْ يَحُجَّ، فَهُوَ مِمَّنْ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(١) مفردات غريب القرآن: ص٣٤٨.

أَعْمَى﴾ قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ أَعْمَى! قَالَ: نَعَمْ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَعْمَاهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ»[1].

وحينما يسأل الضال ربه عن سبب عماه يأتيه الجواب:

[١٢٦] ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي أهملتها كما ينسى شيئاً، وكذلك تهمل في النار كمن نسي شيئاً، ويبدو من هذه الآية أن مشكلة الإنسان هي إهماله لتعاليم الرسالات الإلهية، بسبب عدم الجدية (العزم) فيها، وعلاج هذه الآفة بذكر الله تعالى، عبر الصلوات الخمس والعمل الصالح، فالصلاة تذكّر المؤمن بربه باستمرار، وبالتالي تذكره بأوامره ونواهيه التي بلغها الرسل، ومن خلال ذلك يعرف الحياة وسبل تسخيرها، فيفوز في الدنيا والآخرة.

[١٢٧] ما الذي يجعل الإنسان لا يؤمن بآيات الله، إيماناً عملياً ينعكس في واقع حياته، ويلتزم بأحكام الدين بجد وعزم؟.

الجواب: أنها نزعة الإسراف الكامنة في نفسه، والتي تدعوه إلى الاستزادة من متع الدنيا الزائلة، حيث إن التمسك بالدين يتطلب شيئاً من الصبر والتحمل والتضحية، ولعلّه لذلك يقول الرب سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

والإنسان الذي يحاول الهرب من صعوبات الحياة بالالتفاف على آيات الله، فإنه سيواجه في الآخرة نفس الصعوبات والمشاق، وقد اكتسبت صفتين خطيرتين هما الشدة أولاً، والامتداد الزماني الذي يصل إلى درجة الخلود ثانياً ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

[١٢٨] ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ الذي لا يتعظ إما لا يشعر بالخطر فيأمن من مكر الله، أو لأنَّ قلبه قاس لا يستطيع أن يستوعب به العبر، ولا يستفيد من العبر إلا أولي النهى (أصحاب العقول).

[١٢٩] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ كلمة الله سبقة بتأخير العذاب، وإلا لكان لزاما أن يصب الله عليهم عذابه، إن من رحمة الله بالإنسان أن ترك له فرصة كي يهتدي ولم يعاجله بالعقوبة.

[١٣٠] بماذا نتقي النسيان؟ نتقي النسيان بأمرين:

الأول: الصبر ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ عدم التأثر بكلام الكفار وأفكارهم السلبية،

---

(١) الكافي: ج٤ ص ٢٦٩.

وعدم مجاراتهم في كلامهم.

الثاني: ذكر الله بالتسبيح دائماً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ صلاتي المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي وسط النهار وهي صلاة الظهر ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ وهذه الكلمة تقابل ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، فالمعيشة الضنك هي معيشة الإنسان التي تحبس نفسه بسببها في زنزانة السخط على الحياة، أما المعيشة الرحبة فهي معيشة الإنسان الراضي بقضاء الله تعالى.

سلبيات النفس البشرية

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ[1] فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

تحدَّثنا سورة طه عن الإنسان وتقص علينا أنباء أربعة نماذج بشرية هم: موسى وهارون، وهما أعلى قمة بشرية، ثم السحرة الذين اهتدوا بعد الضلالة، ثم فرعون في الحضيض، وأخيراً: جنود فرعون الذين استخفهم فأطاعوه وأضلهم وما هدى.

وفي الدرس الأخير تلخص السورة عبرها، وتبين: سلبيات النفس البشرية، بعد أن أشار إلى عوامل الانحراف فيها، ذلك أن معرفة الإنسان بنفسه، وبالعوامل المؤثرة فيها، تساعده على الاختيار السليم وحيث: إن القرآن يبصِّرنا في هذه السورة بحقيقة وساوس الشيطان، وكيف أن النسيان (وعدم العزم)، والغفلة عن مكر الشيطان، وإهمال ذكر الله، كل أولئك يهبط البشر من جنته إلى أرض الصراع.

بلى إن هناك مجالاً للإنسان أن يسمو ويسبق الآخرين، ولكن ينبغي أن يكون تسابقه

---

(١) متربص: منتظر ليرى المصير، وينتظر لمن الغلب، وأيُّنا يعذَّب وأينا ينعَّم؟.

معهم شريفاً يتجه نحو البناء، وإلا يكون على حطام الدنيا وإلا يتحول إلى صراع هدام.

ولكي نبتعد عن الضلالة، ولا نتأثر بعامل الحسد، فيصير التنافس صراعاً، علينا أن نذكر الله تعالى وأن نقيم الصلاة، ونأمر بها أهلنا، لأنهم قد يؤثرون علينا سلباً لو لم يكونوا مؤمنين، فالصلاة معراج المؤمن، ومن يعرج إلى الله، لا يتأثر بضغوط الهوى، ولا بزينة الحياة الدنيا.

ثم يشير القرآن إلى سبب من أسباب الضلالة، وهو عدم القناعة بقضاء الله، ولا ريب أن الذين يحملون هذه الروح لن يقبلوا برسل الله ولا برسالاته، وسيبررون موقفهم هذا بطلب المزيد من الآيات والدلالات الحسية المادية، ولكنهم يغفلون عن حقيقة هامة، وهي أن كثيراً من الأنبياء السابقين كانت لهم آيات ومعجزات ظاهرة، كعصا موسى ومعاجز عيسى من قبيل إحياء الموتى وإشفاء المرضى ولكن مثل هؤلاء الناس لم يؤمنوا بهم.

بينات من الآيات:

[١٣١] ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ النعم التي يمن الله بها على الإنسان تكون لحكم مختلفة وغايات متباينة، فقد تكون للابتلاء والاختبار لمن هو في مستواها، لعلَّ نفسية شخص لا تتحمل النعم العظيمة، وبالتالي لا يكون من الحكمة تحميله مسؤولية تلك النعمة العظيمة، فالأفضل -إذن- إلا تطاول بنظرك إلى نعم الله على الآخرين. وقد تكون للزيادة في الإثم واستدراج الفرد نحو مصيره الأسود.

وكثيرون هم الذين يسقطون في الامتحان فيحق عليهم العذاب، فلا داعي إذن أن يحسد الإنسان الآخرين على ما في أيديهم من نعم الله، بل يقنع بما في يده ما دامت النعم تعطى بحكمة للبشر، ولو فكَّر أن يستزيد من الفضل فليكن ذلك بالطرق المشروعة.. بالعمل والسعي بدل المكر والسرقة.

[١٣٢] إن التنافس على حطام الدنيا لا يختص بالرجال فقط، بل قد نجد البعض يرضى بقسمته من العيش، إلا أن أهله هم الذين يدفعونهم إلى التكاثر من زينة الحياة، ودائما يقولون له: أفلا ترى أهل فلان كيف يتنعمون بالرخاء، أفلا تعمل كما يعمل لأهله؟ فما هي إذن مسؤولية الإنسان تجاه أهله؟ الجواب: عليه أن يكون فاعلاً في أسرته وليس منفعلاً، فلا يتأثر لضغوطهم الشيطانية، وذلك عبر تربيتهم على الروحانيات ومن أبرزها الصلاة.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وتدل هذه الآية على أن الصلاة ليست عبادة فردية يؤديها الفرد تجاه ربه فقط، بل هي أيضاً عمل اجتماعي متكامل الأركان، نستفيد ذلك من كلمتي (الأمر، والاصطبار)، فالأولى تدل على ضرورة الالتزام الاجتماعي بهذه الشعيرة، بينما تدل الثانية على أن الصلاة تتطلب أعمالاً أخرى فيها مشقة وتعب، فهي بحاجة إلى الصبر والاستمرار.

فالصلاة على سبيل المثال تحتاج إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والالتزام الجاد بتعاليم الشريعة في كافة مجالات الحياة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية و.. و..

ونهتدي من الآية إلى أن الصلاة باب من أبواب الرزق، كما أن فائدتها تعود على مقيمها، مما يجعل الإنسان يقبل عليها بشوق وتلهف، لأنَّ وراءها الرزق والخير أيضاً.

﴿وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لكي نوضِّح بعداً من أبعاد هذه العبارة القرآنية نضرب المثل التالي: قد يأكل الإنسان أكله شهية، ولكنها تحتوي على ميكروب لا تراه عينه، فهو وإن شعر باللذة الآنية، إلا أنه سيجد نفسه طريح الفراش في المستقبل القريب، بسبب تكاثر الميكروب، والآلام التي يسببها، مما يجره إلى إنفاق الكثير من الوقت والمال بين الأطباء والمستشفيات طلباً للصحة، بينما يأكل آخر أكله متواضعة ولكنها نظيفة فيحصل على فوائدها.

إن المفاسد الاجتماعية تشبه الميكروب في الطعام، فالإنسان الذي يكتسب المال عن طريق الحرام، كالسرقة، والاحتيال على الناس، هذا وإن حصل على كثير من المال، فإنَّ عاقبته غير حسنة على صعيد الدنيا حيث يبغضه الناس، وقد يقع ضحية لظلم الآخرين وسرقتهم واحتيالهم، إذ كما أن في المجتمع من هو أضعف منه يمارس تجاهه الظلم، فكذلك فيه من هو أقوى منه يستطيع أن يظلمه، لكل عمل انعكاسا اجتماعياً يشبه أمواج الصوت، ترتد إلى صاحبه قريباً أو آجلاً، ذلك لأنَّ المجتمع وجود حي يتفاعل أعضاؤه فيما بينهم، فمن عمل بالظلم فإنه يكرِّس قانون الظلم في مجتمعه، وسيصبح في يوم ضحية هذا القانون، وقد جاء في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لَمَّا أَقَامَ الْعَالِمُ الْجِدَارَ أَوْحَى اللهُ إِلَى مُوسَى: أَنِّي مُجَازِ الْأَبْنَاءَ بِسَعْيِ الْآبَاءِ إِنْ خَيْرٌ فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرٌّ فَشَرٌّ لَا تَزْنُوا فَتَزْنِيَ نِسَاؤُكُمْ وَمَنْ وَطِئَ فَرْشَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وُطِئَ فِرَاشُهُ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ»[1].

أما الإنسان الذي يتقي، فإنه وإن لم يحصل إلا على قليل من المال لكنه يحس بالبركة والراحة الدائمة في الدنيا، كما يكون سعيداً في الآخرة برضى الله وجنته.

(١) بحار الأنوار: ج٧٦ ص٢٧.

إن موقف الإنسان من نعم الله المادية هو موقفه من نعمه الرسالية المعنوية، فترى الذين لا يرضون بنعم الله عليه ويمدون أعينهم أبداً إلى مالا يملكون من النعم، لانعدام الشكر والرضا والطمأنينة عندهم، هم الذين يطالبون الرسل أبداً بآيات جديدة، ولا يرضون بما أنزل الله معهم من آيات مبينات.

[١٣٣] ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ إنهم يطالبون بآية جديدة تشهد على صدق الرسالة فيجيبهم الله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ لقد أحاط الله رسوله ورسالته بالآيات الواضحات، كالأخبار التي جاءت في الصحف الأولى (التوراة والإنجيل...) التي تنبيء كلها بقدوم النبي محمد ﷺ، وتذكر سائر الصفات والأحوال المتصلة به، وقد تحققت أمام أعينهم صدقاً وعدلاً، ولكن عمى قلوبهم وطلبهم المزيد من الآيات منعهم من الإيمان بها.

[١٣٤] إن العيب موجود فيهم حيث لا تقنع بمعطيات الواقع، ولا ترضى بحكم الله، فإذا بعث الله إليهم رسولاً منذراً مؤيداً بالحجج والآيات الواضحة أعرضوا عنه وعنها، وقالوا نريد معجزات حسبما تراها أعيننا وتلمسها أيدينا، وحين ترسل إليهم الآيات المدمرة يقولون لقد كنا على استعداد للإيمان لو أرسل الله إلينا رسولاً ينذرنا بهذا المصير.

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ إن موقفهم المتعصب لا يعطيهم فرصة للإيمان بالله والخضوع لحاكميته، ولو كانت الآيات ملء الأرض والسماء، ذلك أن الآيات لا تنفع بدون العقل والتفكر العميق.

[١٣٥] ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ الجميع ينتظر المستقبل، ولكن ترقب المؤمن مبني على أساس التعاليم الإلهية، بينما لا يستند تربص الكافرين إلا على وهم، فهم في ضلالة حاضرة ومصير مظلم، وهذه الآية تنطوي على إنذار بالغ لهذه الفئة.

سُورَةُ الأنبياءِ

* مكية.

* عدد آياتها: ١١٢.

* ترتيبها النزولي: ٧٣.

* ترتيبها في المصحف: ٢١.

* نزلت بعد سورة إبراهيم.

فضل السورة

عن النبي محمد ﷺ قال: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنبِيَاءِ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً وصَافَحَهُ وسَلَّمَ عَلَيْهِ كُلُّ نَبِيٍّ ذُكِرَ اسْمُهُ فِي الْقُرْآنِ».**

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٥)

***

وعن الإمام أبي عبدالله عليه السلام قال: **«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنبِيَاءِ حُبّاً لَهَا كَانَ مِمَّنْ رَافَقَ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَكَانَ مَهِيباً فِي أَعْيُنِ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».**

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٢)

الإطار العام

مسؤولية الإنسان تجاه الأنبياء

بدايتها هزة ضمير، ونهايتها ومضة أمل، وبين البداية الصاعقة والنهاية الحانية، يتلو علينا القرآن الكريم آيات الوعي،ليعالج فينا الغفلة والإعراض، واللعب واللهو، مذكراً بعاقبة المكذبين، وأن الحياة جد، وأن الملائكة عباد مكرمون، وأن الآلهة لا تنفع،هي ليست كهفاً منيعاً للاعبين واللاهين، وأن الله واحد أحد، وأن الموت واقع، وأن الاستهزاء بالرسل عاقبته العذاب، كما أنها تذكر بدور الرسل، وعاقبة المكذبين بهم، وشهادة صدقهم في نصر الله لهم.

فما هو -إذن- الإطار العام لهذه السورة؟ هل أنه يحيط بمحور النبوة ودور الأنبياء كما يدل عليه اسم السورة؟أم أن محور السورة قضية الغفلة، وكيف تعالج في النفس، ليشعر الإنسان بمسؤولياته، وأن الحياة جد لا هي لهو ولا لعب؟.

لعل السورة تحدثنا عن الأنبياء عليهم السلام، ولكن من زاوية تذكيرهم البشر، وكيف ينبغي أن نداوي حالة الغفلة من أنفسنابالاستماع إليهم، والإيمان بهم وبما أرسلوا به.

ذلك أن سوراً أخرى تحدثنا أيضاً عن الأنبياء عليهم السلام، ولكن من زوايا مختلفة، مثل طبيعة الصراع الاجتماعي أو السياسي الذي خاضوه؛ مثل سورة القصص، أو الأذى الذي لحقهم وكيف استقاموا حتى نصرهم الله مثل سورة هود.

إن الشعور بالمسؤولية هو قمة الوعي، وإن السبيل إليه مقاومة حالة الغفلة والسهو، والتي لا تتحقق إلا بالإنذار باقتراب موعد الحساب.

وقد جاء النبي يذكرهم، إلا أنهم استمعوا الذكر وهم يلعبون، لأن قلوبهم لاهية، لا تستقر على فكرة.

و بعد أن يذكر السياق بأن إعراضهم عن الذكر بادعاء أنه سحر، أو حلم مختلط، أو افتراء، أو خيالات شاعر.. وبالتالي تبريرهم التكذيب بالحق، بأننا نبحث عن آيات جديدة، بعدئذ ينذرهم بأن الهلاك هو مصير المكذبين (الآيات ١-١٥).

و يبين القرآن أن الحياة جد لا لعب، وأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وبالتالي لا ينبغي اتخاذها لعباً ولهواً (الآيات: ١٦-١٨) ويؤكد ذلك بأن الملائكة وهم الأعرف والأقوى منهم يعبدون الله بجد ويسبحونه وله يسجدون (الآيات: ١٩-٢٠)، ولأنهم يهربون من المسؤولية عادة إلى كنف الآلهة، فيزعمون أنها تنقذهم من جزاء أفعالهم، يذكرهم الرب بأنه الله الواحد (الآيات: ٢١-٢٤).

ويستمر السياق بذكر التوحيد والشواهدالفطرية عليه (الآيات: ٢٥-٣٣)، ثم يعود بعد تزييف فكرة الشرك التبريرية، ليهز الإنسان من أعماقه بذكرالموت، وأن كل نفس ذائقة الموت، حتى النبي الكريم عند ربه (الآيات: ٣٤-٣٥).

أما الاستهزاء؛ (وهو: صورة من صور اللهو وعدم الجدية في استقبال القضية المصيرية) فإن عاقبته الدمار (الآية: ٣٦).

وبعد تفنيد الشرك والاستهزاء يعالج القرآن حالة الاستعجال (الآيات: ٣٧-٣٩) (حيث إن الإنسان يبعد المسؤولية عن نفسه بالقول أنه لو كان لكل فعل جزاء، فلماذا يتأخر الجزاء)؟.

ويعود السياق ليبين مصير المستهزئين، ويقول: إن الله هو حافظكم في الليل والنهار فاحذروه ولا تستهزئوا به، وإنه هو الذي يكلؤكم ولا أحد غيره، وإن الآلهة لا تمنع عنكم العذاب (الآيات: ٤٠-٤٣).

واستمرار النعم، قد يوحي إلى الإنسان بأنه لا نقص ولا جزاء في الحياة، ولكن الرب يذكرنا بأن نظرة إلى الأرض كفيلة بإثبات حقيقة إن الموت والفناء يلاحقان أطرافها (الآية: ٤٤).

إن من يلهو لا ينتفع بالوحي لأنه الصم، وهل يسمع الصم الدعاء، حتى ولو تم إنذارهم بالخطر المحدق بهم؟ (الآية: ٤٥).

إنهم يعترفون بذنبهم إذا أصابتهم نفحة بسيطة من عذاب الله، فكيف يغفلون عن الموازين القسط الدقيقة التي وضعت ليوم القيامة؟ (الآيات: ٤٧-٤٦).

لهذا الهدف؛ وهو تذكرة الإنسان، وإيقاظ ضميره، واستثارة عقله، جاء الأنبياءعليهم السلام، يحملون معهم الذكر، والله أيدهم بنصره، فأهلك المكذبين بهم والمستهزئين، وأنقذهم ومن آمن معهم من العذاب ورفع كلمتهم. وهكذا يقص عليناالقرآن قصة الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام، والنبي محمد ﷺ وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ويحيى ومريم وابنها عيسى عليهم السلام، ويبين كرامتهم عند ربهم وشهادةالصدق على رسالتهم الواحدة حيث إن الاختلاف جاء من قبل الناس أنفسهم (الآيات: ٤٨-٩٣).

ويستلهم السياق من تلك القصص المضيئة أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه (الآية: ٩٤)، وهو الجانب الآخر لفكرة المسؤولية.

وبعد أن يبين أشراط الساعة واقتراب الوعد الحق وندم الكفار وكيف أن الله يلقي الآلهة المزيفة ومن عبدها في النار،يؤكد بأن دخول هؤلاء النار التي لهم فيها زفير، لدليل على أنهم ليسوا بآلهة (الآيات: ٩٥-١٠٠).

أتريد أن تتخلص من النار؟ فكن ممن هداه الله، واستمع الذكر، فهناك لا تسمع حسيسها، ولا يحزنك الفزع الأكبر (الآيات: ١٠١-١٠٣)، هنالك يطوي الله السماء كما تطوى الأوراق، ولكن قبل ذلك اليوم سوف يورث الله الأرض لعباده الصالحين، وهذا البلاغ يفهمه القوم العابدون (الآيات: ١٠٤-١٠٦).

والرسول رحمة للعالمين (وتتجلى الرحمة في يوم وراثة الأرض).وبعد أن يذكرنا السياق بالتوحيد،وينذرنا من مغبة التولي،يخبرنا بأن الله يعلم الجهر وما تكتمون، وأن المتاع الدنيوي فتنة ونهايته قريبة، يختم السورةبالدعاء الذي يأمر به رسوله النذير، بأن يطلب من الله أن يحكم بالحق (بينه وبين الجاحدين)، وهو الرحمن المستعان على الأعداء وما يصفونه من تهم (الآيات: ١٠٧-١١٢).

اقترب للناس حسابُهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ[1] إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى[2] الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ[3] وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ[4] بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) محدَث: جديد.

(٢) وأسروا النجوى: أي أخذ يناجي بعضهم بعضاً في شأن القرآن والرسول.

(٣) أفتأتون السحر: أي كيف تقبلون السحر الذي أتى به محمد، وتأتون بمعنى: تذهبون إلى السحر.

(٤) أضغاثُ أحلام: أي تخاليط أحلام، وأحلام مضطربة، وأضغاث جمع ضغث، وهو: الخلط من الشيء.

هدى من الآيات:

عجيب أمر الناس إنهم يلهون ويلعبون والحساب يقترب إليهم.

لماذا تراهم يعرضون عن الحق، حتى إنهم لا يأتيهم ما يذكرهم إلا تراهم يتخذونه لعباً، وتحيط بأفئدتهم الغفلة ويتناجون بينهم -ظالمين أنفسهم- هل هذا إلا بشر مثلنا، لماذا نتبعه، ويفسرون ذكر الله الجديد وأثره البليغ في قلوبهم، بأنه سحر، ويتناهون عنه.

والرسول يبلغهم رسالات ربه، ويتوكل عليه ويشهد على صدقه الله الذي يعلم القول في السماء والأرض، ويحتارون بماذا يفسرون هذا الذكر المحدث الذي يتهربون منه، بسبب لهو قلوبهم. فتارة يقولون أضغاث أحلام، وحيناً ينسبونه إلى الافتراء، ومرة يقولون إنه خيال شاعر، وأخرى يطالبونه بآيات مقترحة.

ويتساءل السياق إذا لم يؤمن السابقون حتى أهلكهم الله وقد أنزلت إليهم تلك الآيات المقترحة أفهم يؤمنون؟ ومن هم الرسل السابقون؟ أو لم يكونوا رجالاً يوحى إليهم؟ دعهم يسألون من انتفع بالذكر إن كانوا لا يعلمون، بلى كان الأنبياء يتعرضون للجوع ولم يكونوا خالدين.

وكانت -مع ذلك- شهادة صدقهم قائمة في الإمداد الإلهي الذي تجلى في إنقاذهم ثم إهلاك المكذبين بهم، الذين أسرفوا على أنفسهم.

وهذا كتاب فيه ذكر محدث، وعلى المسلمين أن يتذكروا به إن كانوا يعقلون.

بينات من الآيات:

معرفة المصير

[١] ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ معرفة الإنسان لمصيره وحسابه، أفضل وسيلة لهدايته وفي الحديث: «كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظاً»[1] لأنَّ الموت زائر غير مرغوب فيه، يزور الإنسان في أي لحظة يشاء، دون أن يأخذ موافقة مسبقة، فعلى الإنسان أن يستعد للموت في كل لحظة «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»[2]، ومن هنا يظهر الخطأ الفادح لأولئك الذين يزعمون بأن يوم القيامة

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٨ ص٧.

بعيد، إذا فلماذا الغفلة، ولماذا الإعراض عن ذكر الله وعن الرسالة؟!.

والناس على أقسام ثلاث، فمنهم من يتحوَّل قبره إلى روضة من رياض الجنة، وهم الصالحون، ومنهم من يصبح قبره حفرة من حفر النيران، وهم المجرمون.

وواضح أن حساب هؤلاء أقرب إليهم من كل شيء لأنه لا يفصلهم عنه سوى الموت الذي ينزل بهم في أية لحظة.

أما القسم الثالث فهم الذين يلهى عنهم حتى قيام الساعة حسب بعض النصوص، وبالرغم من بعد الحساب عنهم زمنياً إلا أن انعدام شعورهم خلال الفترة يوصل الموت وقيام الساعة ببعضهما في الواقع، ولعلَّه لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «**بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ** -وَأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى- ثُمَّ قَالَ ﷺ: **وَالَّذِي بَعَثَنِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَجِدُ السَّاعَةَ بَيْنَ كَتِفَيَّ**»[1].

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ تحيط بهم الغفلة، ويهربون من مواجهته الحقيقية.

[٢] ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كلما أتتهم آيات جديدة من ربهم، تذكرهم بواقعهم ومصيرهم، إذا بهم يتشاغلون عنها بتوافه الأمور، أو يتخذونها لعباً، فلا يتعاملون معها بجدية. تصوَّر أنك لو مثلت أمام محكمة، وأنت تعتقد بأنها إما أن تحكم عليك بالإعدام، وإما أن تبرىء ساحتك، كيف تقف في قفص الاتهام، أو ليس متحفزاً يقظاً، حتى لا تبدر منك كلمة في غير محلها، لأنها لحظة حاسمة. أما إذا أخذت تدير مسبحة في يدك أو تدخل يديك في جيبك تبحث عن محتوياته العادية فإن ذلك يسمى لعباً.

وكذلك الإنسان في هذه الحياة أشبه ما يكون في قاعة محكمة، وعليه أن ينتظر الحكم عليه بدخول الجنة أو بورود النار، ولهذا ينبغي عليه أن يأخذ الحياة بجدية تامة، ويحسب لأعماله وتصرفاته، وأقواله ألف حساب، وإلا كان من الذين يشملهم قول الله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

تخرصات البشر

[٣] ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إن القلوب اللاهية لا تتقبل حقائق الحياة، ولا تتفاعل معها، تماماً كالأحجار الصلدة التي كلّما صببت عليها الماء فإنها ترفض أن تحتفظ بقطرة واحدة منه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦ ص٣١٥.

﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

لماذا كان حديثهم بينهم نجوى؟.

لأنهم يخافون أن يفتضحوا أمام الملأ بسبب ضعف موقفهم العلمي أمام شواهد الصدق التي تميزت بها الرسالة، ولأنهم انهزموا في واقع أنفسهم أمام قوة الرسالة، فلم يجدوا بُداً من المؤامرة في السرّ ضدها! ولأنَّ ادعاءهم بأنها سحر كان واضح البطلان فاحتاجوا إلى التواطؤ عليه في السر، فالسحر شيء والرسالة شيء آخر، السحر يداعب خيالهم بينها الرسالة تثير عقولهم.

[٤] ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إن الإنسان يبرر عمله أمام الآخرين مادام يعلم أن تبريره يمكن أن ينطلي عليهم، أما إذا علم أن هناك من يعرف حقيقة أمره، فإنه سيخجل من ذاته، ويكف عن انحرافه إن كان أهلاً للموعظة.

لذلك ذكر النبي ﷺ المشركين بأن الله يعلم أن كلامهم باطل وهم بدورهم يعلمون ذلك، فلماذا يتحدَّثون به؟ ثم إن رسولهم الذي جاء بالذكر هو أول من يحْذرُ ربه، لأنه يعرف أنه يعلم القول في السماء والأرض، فكيف يمكن أن يفتري عليه وهو الشاهد الناظر؟.

[٥] ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أي أحلام مختلطة ببعضها.

﴿ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ إن كلامه معقول، ولكنَّه كاذب في ادعائه أنه وحي من الله.

﴿ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ ولما رأوا أن كلامه عميق وذو أثر قالوا: إنه شاعر! لأنَّ الشعر أعلى درجات الثقافة لديهم. هكذا كان حديثهم عن الرسالة متناقضاً ينبىء عن حيرة كبيرة، منشؤها عدم استعدادهم للإيمان بها، وتحمل مسؤولياتها، وترك ما تعودوا عليه، كذلك الإنسان حينها يقرر رفض مذهب أو موقف يتشبث بأعذار واهية وربما متناقضة.

ثم قالوا: ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ ومن الممكن أن نؤمن، لكن على شرط أن يأتينا بآيات جديدة، وأن آيات الله التي تنزل على البشر نوعين:

الأول: هي التي تأتي لإثارة العقل وبيان الحجة من قبيل الآيات القرآنية التي تأتي في زمان الفرصة وفي أيام الأجل.

الثاني: فهي التي تأتي لتفرض على الإنسان الحق شاء أم أبى وإنما تكون هذه بعد انتهاء

الأجل، ففرعون كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وحينما غرق في البحر وتقاذفته الأمواج، قال: آمنت برب هارون وموسى، ولكن هذا الإيمان مرفوض لأنه جاء بعد فوات الأوان.

وهؤلاء حينما يطالبون بهبوط الآيات الحسية عليهم، فإنهم يخطؤون في ذلك! لأن هذه الآيات إذا جاءت فإن فرصتهم تكون قد انتهت، ولن يكون في مقدورهم الاستفادة منها شيئاً.

[٦] ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ أي حينما أنزلت عليهم الآية أهلكت هذه القرية، لتصبح عبرة للأجيال.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إن هؤلاء ينتظرون أن تنزل عليهم آية من نوع آيات القرى الهالكة، ليؤمنوا بالرسالة، في حين أنهم يرفضون الإيمان بالآيات العقلية الكثيرة، وهذا خطأ فادح لأن في ذلك يكون هلاكهم.

حقيقة الرسل

[٧] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ لما زعموا بأنه بشر، أجابهم القرآن بلى إنه لبشر، وكذلك كل الأنبياء السابقين كانوا بشراً.

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لقد أعطى الله سبحانه الجاهل قدراً كافياً من العلم ليهديه إلى ضرورة البحث عن عالم يسأله، وهكذا فإنَّ لم يكن للناس علم بطبيعة الرسالات فليسألوا أهل الذكر والمعرفة عن كل ذلك، والآية تشير إلى أن سؤال الجاهل من العالم أصل شرعي يمكن الاعتماد عليه بشرط أن يكون العالم من أهل الذكر، أي أن يكون قد استفاد من علمه.

[٨-٩] ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ مع ذلك نحن نؤكد لكم: بأن الأنبياء متصلون بالله، وأن كلامهم وعد من الله، وأن الله سبحانه وتعالى ينفذ ما قال، وينجي رسله ويهلك الآخرين.

وتتكرر في القرآن الكريم كلمة الإسراف بصيغ مختلفة لتدلل على حقيقة يجب أن نتذكرها دائماً ونتأمل فيها كثيراً وهي: أن الإسراف هو أحد الأسباب الرئيسية لانحراف البشر، فالإنسان

الذي يأكل ويشرب وينام ويتزوج بقدر حاجته، لا ينحرف لأنَّ الله دائماً يوفر للإنسان رزقه، ولكن الذي يضل عن الصراط هو المسرف الذي يريد أن يجمع أموال الناس إلى أمواله، ويبني سعادته على حساب الآخرين، والقرآن يؤكد هنا: بأن الذين يهلكون إنما هم المسرفون.

دور القرآن

[١٠] ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ القرآن يأتي لينبه الإنسان عن تلك الغفلة التي تفصل بينه وبين الحساب، ولا تدعه يتذكر أنه مسؤول محاسب وأن حسابه قريب.

إذن كلما رأيت نفسك غافلاً فاقرأ القرآن، لأن قراءة القرآن تعطيك ذكراً، وتوجهك إلى الحقيقة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ القرآن لا يقول أليس عندكم عقل، لماذا؟ لأنَّ الناس جميعاً رزقوا العقل، ولكنَّهم يختلفون في مدى استفادتهم من عقولهم، وهو التعقل، كما أن الناس جميعاً يملكون الأبصار، ولكن بعضهم يفتحون أعينهم فيرون، وبعضهم يذهلون عنها فينزلقون، لذلك يقول القرآن: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي لماذا لا تنتفعون بعقولكم؟.

إن الإنسان يبحث في حياته عن هدى ويبحث عن الوصول إلى الحقيقة فإذا قرأ القرآن بعمق وتدبر فيه وصل إلى الحقيقة، فإذا وصل إلى الحقيقة عرف بأن القرآن من الله، لأنه أوصله إلى الحقيقة.

هدفية الحياة

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا(١) مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ(٢) فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا(٣) خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ(٤) وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ(٥) ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ(٦) ﴿٢٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

يتحدَّث القرآن هنا عن الجزاء الذي ينتظر الإنسان اللامسؤول الذي اتخذ الحياة لهواً ولعباً، وحين يحل العذاب فلن يفلح كل من يحاول الهرب منه لأن حكومة الله لا يستطيع الفرار منها أحد، ويأتي النداء إلى هؤلاء بأن عودوا إلى تلك الأسباب التي دعتكم إلى الذنب، فانظروا هل تشفع لكم

(١) قصمنا: أهلكنا، وأصل القصم كسر الظهر الذي يكون مع الصوت.
(٢) ما أترفتم فيه: أي أسباب ترفكم من زخارف الدنيا، والترفة النعمة.
(٣) حصيداً: أي محصوداً، قد شملهم العذاب حتى كأنهم السنبل المحصود الذي يقطع فلا حياة له.
(٤) زاهق: زائل مضمحل، والزاهق من الأضداد، يقال للهالك زاهق وللسمين من الدواب زاهق وزهقت نفسه تزهق زهوقاً.
(٥) لا يستحسرون: الاستحسار الانقطاع عن إعياء، يقال: استحسر فلان عن عمله يعني انقطع عنه إعياء.
(٦) لا يفترون: أي لا يأخذهم الفتور والضعف عن العبادة.

اليوم شيئاً؟ وهل تنفعكم الأموال التي كنزتموها والأولاد الذين من أجلهم تركتم عبادة الله و..؟.

إن هذا اليوم كان نتيجة اللاأبالية واللاجدية في الحياة، وكما يقول القرآن الحكيم: إن نظام الكون قائم على الحق وليس على اللعب واللهو.

إن الكون الذي تعيش فيه -أيها الإنسان- وتخضع لقوانينه وسننه، أنشأه الله بعلمه وقدرته للحق فكيف تريد بالرغم من ضعفك وضآلتك، أن تخرج من دائرة الحق إلى دائرة اللهو واللعب؟! إن ذلك شيء محال!.

يؤكد القرآن الحكيم هذه الفكرة مرة أخرى فيخبرنا: كما أن السماء والأرض خلقتا بحق وليس بلعب، فكذلك المجتمعات، ولذلك فإنَّ السنن الحاكمة فيها هي سنن الحق، وهذه السنن يجب أن تحكم المجتمعات كما تحكم في الأرض والسماوات ولكن بفارق واحد وهو: أنها تحكم في السماوات والأرض بصورة مباشرة وفورية ولكنها تحكم في المجتمعات بصورة غير مباشرة بعد إعطاء الفرصة، وتقديم الإنذار، وبعد محاولة هداية وإصلاح، وهذه نعمة كبيرة من الله، فلو كان الإنسان يحاسب على كل خطأ فوراً وبدون إعطاء أي فرصة للتوبة، لتحولت حياته إلى جحيم.

ولكن إعطاء الفرصة شيء، وتطبيق الحق شيء آخر، فليس معنى إعطاء الفرصة أن الله سبحانه قد نسي الحق الذي فطر عليه السماوات والأرض، وجعله محوراً للخليقة جميعا، بل إن الله لا يزال ينصر الحق، وسوف يطبقه ويدمغ به الباطل.

إن أي شيء ينحرف عن سنة الحياة، سرعان ما ينتهي ويتلاشى.إذن يجب علينا أن نتمحور حول الحق كما يقرره القرآن الحكيم بأن الحق هو عبادة الله وعدم إشراك أحد معه في إلوهيته، فكما أن الملائكة والأرواح والسماوات والأرضين كلها تعبد الله وتخضع له كذلك الإنسان.

وهناك فكرة أخرى توحي بها هذه الآيات وهي: أن الإيمان الصادق هو الإيمان بأن محور الكون هو الحق، فالكون جد لا لعب ولا لهو فيه، وهذا الإيمان هو ضمان لإثارة إحساس الإنسان بالمسؤولية في حياته الدنيا، كما أن اللهو واللعب هما عدوا إحساس الإنسان بمسؤوليته.

بينات من الآيات:

جزاء الظلم

[١١] ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ إن نعم الله التي تحوطنا قد توحي إلينا بفكرة خاطئة وهي: بما أن الله أرحم الراحمين فهو لن يعذب أحداً.ولكي

نسف هذه الفكرة، ونقتلع جذورها من أنفسنا لابد لنا من قراءة التاريخ، والسير في الأرض لنرى آثار الماضين كيف انتهوا وكيف جاءهم عذاب الله، فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد قصم كثيراً من القرى ودمرها بظلمها لأنها رفضت أن تؤمن بالحق وتنصاع له، فالقضية -إذن- جدية، وما ينذرنا الله به قد وقع فعلاً بالنسبة لمن سبقونا، لذلك ينبغي أن نخاف فلا نألوا جهداً عن مواجهة هذا المصير السيء.

ونلاحظ في هذه الآية لفتة لطيفة في التعبير القرآني، حيث يقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾، ثم يقول: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، فلماذا لا يقول القرآن وكم قصمنا من قوم وأنشأنا بعدهم قوماً آخرين؟ أو وكم قصمنا من قرية وأنشأنا بعدها قرى أخرى؟.

والجواب هو حينما يقصم الله سبحانه وتعالى قرية فإنه لا يهلك أهلها فقط، ويترك العمارات والشوارع والمصانع سالمة، وإنما يدمر كل شيء فيها، مرة واحدة، وحينما ينشيء قوماً آخرين فإنه لا ينشيء معهم قراهم، ومعابدهم ومصانعهم، بل يخلقهم، وبعد ذلك يقول لهم: اسعوا في الأرض أي اصنعوا حضارتكم بأنفسكم، فهم المسؤولون عن بناء البيوت والشوارع وتأسيس المصانع.

[١٢] ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ إن إرهاصات غضب الله عليهم كانت قائمة، ولكنهم تغافلوا عنها، ولو أنهم تحسسوا بها وتابوا إلى الله قبل نزول البأس والعذاب لقبلت توبتهم، مثلما قبلت توبة قوم يونس عليه السلام، ولكنهم بقوا على حالتهم حتى أحسوا بأس الله ولمسوه لمساً، آنئذ قاموا يركضون، وظنوا أن الهرب ينفعهم.

[١٣] ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ إلى أين تركض أيها الظالم؟! لماذا تخرج من قريتك التي عمرتها والزينة التي جمعتها؟ ارجع وابق هناك حتى نهدم بيتك على رأسك، وعندما نفجر مصنعك نفجره وأنت فيه، وعندما ننسف بيتك ننسفه معك.

ولعلَّ الآية تشير إلى أن الركض لا ينفع، كما أن كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ في ذيل الآية ربما توحي بالسؤال الشائع من الأطلال وبقية آثار الشعوب، وكأنهم بعد الدمار يتحولون إلى عبرة للأجيال القادمة حيث يقفون على ديارهم ويسألونهم: أين حضارتكم التي اترفتم فيها، أين مساكنكم التي اطمأننتم إليها؟! كما جاء في رائعة منسوبة[1] إلى الإمام علي الهادي عليه السلام:

نَـادَاهُمْ صَـارِخٌ مِنْ بَعْدِ دَفْنِـهِمْ ... أَيْنَ الْأَسَـاوِرُ وَالتِّيـجَانُ وَالْحُـلَلُ

أَيْـنَ الْوُجُـوهُ الَّتِي كَـانَتْ مُنْعِـمَةً ... مِنْ دُونِهَا تُضْـرَبُ الْأَسْـتَارُ وَالْكِلَلُ

فَأَفْصَـحَ الْقَـبْرُ عَنْـهُمْ حِينَ سَـاءَلَهُمْ ... تِلْكَ الْوُجُـوهُ عَلَيْـهَا الـدُّودُ تَقْتَـتِلُ

(١) بحار الأنوار: ج٥٠ ص٢١٢.

والسؤال هو: من يناديهم بهذا النداء؟.

والجواب: أنه واقع حالهم -كما يبدو لي-، وكأنَّ كل من اطلع على وضعهم ناداهم بهذا النداء.

ويظهر أن الآية توحي أيضاً بفكرة هامة هي: إن أي بشر يظلم نفسه أو يظلم الآخرين اغتراراً بعامل مادي، فإنَّ العذاب سوف يأتيه انطلاقاً من ذلك العامل نفسه. فمثلاً قوم فرعون كانوا معجبين بالمياه المتدفقة عبر النيل، حتى إنهم كانوا يعبدون الماء، وكانوا يختارون في أول الربيع أجمل فتاة عندهم فيلقونها في نهر النيل قرباناً لهذا الإله، وكان فرعون يقول: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[الزخرف: ٥١]، فانتقم الله منهم انطلاقاً من ذلك الماء نفسه حيث أغرقهم فيه.

وقوم عاد كانوا يفتخرون بالبيوت الصخرية وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ويتصورون أن تلك البيوت سوف تخلدهم وتمنع عنهم البأس، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم برياح كانت تحطِّم هذه الصخور وتهدمها عليهم، وهكذا غيرهم. فيكون معنى ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ ارجعوا إلى تلك النعم التي بسببها انحرفتم وضللتم لكي تروها وهي تتحول عليكم نقمة.

﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ قبل أن ينحرف الإنسان، ويظلم الآخرين من أجل الحصول على متاع الدنيا وحطامها، عليه أن يسأل نفسه أولاً: هل هذه الأشياء ستنفعه يوم الجزاء، وهل سترفع عنه العذاب عندما يقع؟! وبعد أن يفكر في الأمر جيداً، عليه أن يفعل ما يشاء ويتحمل المسؤولية في كل أعماله وتصرفاته.

[١٤] ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لقد اعترفوا بخطئهم وظلمهم ولكن الاعتراف جاء متأخراً! حيث استمروا ينادون على أنفسهم بالويل حتى لحظة النهاية.

[١٥] ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ لقد حصدهم العذاب حصداً كما تحصد المكائن الزراعية الضخمة السنابل، فلم تقم هناك لأحد منهم قائمة، ثم خمدوا كما تخمد الجمرة فلا حرارة ولا حركة.

هدفية الخلق

[١٦] لماذا يا إلهي فعلت هذا؟! أليس هؤلاء عبادك؟! أو لست أرحم الراحمين؟! بلى ربنا أرحم الراحمين ولكنه خلق السماوات والأرض بالحق، وهؤلاء تجاوزوا قيم الحق ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ إن هؤلاء اتخذوا الحياة لعباً فكان هذا مصيرهم.

[١٧] ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ إن كانت الخليقة بلا هدف، فإنَّ الله كان ينتزع منها الهدفية، ويتخذها لهواً، أي يجعلها بلا غايات مرسومة، ولا سنن دائمة، ولا قوانين دقيقة تفرض على أصغر جزيئة في الذرة بنفس الصرامة التي تفرض على أعظم مجرة في القضاء.

وحيث نرى كل شيء يسعى نحو هدفه، أو بتعبير أفضل يسير إلى غايته، فهل من المعقول أن يكون خلق الإنسان عبثاً، وبلا هدف ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون: ١١٥]؟.

كلا.. أنت بدورك تخضع لقانون الهدف، وبالتالي لمعادلة المسؤولية والجزاء. وفي معنى الآية أقوال شتى إلا أن هذا المعنى العام يمكن أن يستوحي من كل تلك الأقوال.

[١٨] ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ وهذه هي سنة الله الثابتة في الكون على مر العصور والدهور، وعلى الإنسان أن يبني حياته على أساس، إذا أراد أن يفوز ويحقق أهدافه ويتجنب مصارع الردى وينجو من العذاب المحتوم.

وكلمات الآية صاعقة شديدة الوقع نافذة إلى عمق الضمير، فالحق يقذف (يرمي بقوة وربما من مكان بعيد وقد يتأخر قليلاً ليقطع المسافة ولكنه يصل حتماً)، ثم إنه يهدف أم الرأس حيث الدماغ، ويتلاشى الباطل ويضمحل فلا يبقى منه شيء أبداً.

والآية تبصّرنا بواقع الخليقة والأنظمة السائدة عليها، وتوحي إلينا بضرورة تزكية أنفسنا من خلال معرفة تلك الأنظمة، فقانون الجاذبية الذي يسقط به الحجر من علٍ، ليس بأقوى من قانون سقوط الظالم من كرسي الحكم!.

[١٩] ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ هذا الحق يجب أن يتجسد في واقع السلوك البشري، كما تجسد في واقع سلوك الملائكة وسلوك عباد الله الصالحين، الذين لا يستكبرون عن عبادته ويفعلون ما يؤمرون.

[٢٠] ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ الحياة يجب أن تكون جدية، ويجب أن يسبح الإنسان ربه دونما تعب أو استكبار.

لا للتبرير.. نعم لتحمل المسؤولية

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ[1] (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾.

هدى من الآيات:

ما أبهض ثقل المسؤولية على قلب البشر، يكاد فؤاده يتصدَّع حين يعلم أنه لمسؤول، أمام خالق السماوات والأرض لا يخفى عليه شيء في السماء والأرض.

وكذلك تراه يبحث عما يخفِّف عنه هذا الثقل الباهض، وينجيه -بزعمه- من سؤال بارئه.

ويفند السياق القرآني -في إطار تحسيسه بواقع المسؤولية- هذا الزعم، ويقول: هل الآلهة تنشر الموتى؟ أولا يعلمون أن لو كان في السماوات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا وتفطرتا؟

---

(١) هم ينشرون: أي يقدرون على نشر الأموات واحيائهم.

تقدَّس رب العرش عما يصف المشركون، إنه فوق التأثر بخلقه، فهم يسألون عن أفعالهم، وهو لا يسأل عما يفعل. ثم يطالبهم بالبرهان، ويؤكد أن كل الرسالات الإلهية تتفق على كلمة التوحيد، وأن شرك هؤلاء نابع من إعراضهم عن الحق.

وربما زعموا أن الملائكة الأشداد هم أولاد الله، أو لا يعلمون أنهم عباد مكرمون (مقربون إلى الله وهذا سر قدرتهم)، وأنهم لا يظهرون رأيهم بل يطيعون أمر ربهم، وأن الله تعالى محيط بهم علماً، وأنهم لا يشفعون إلا بإذنه، وأنهم يخشون ربهم؟ فكيف يعارضونه؟ وأنهم مجزيون على أعمالهم، فلو قال أحدهم إفكاً إنه إله من دون الله يجزيه ربه جهنم كما يجزي سائر الظالمين.

بينات من الآيات:

[٢١] من العوامل التي تبعد الإنسان عن إحساسه بالمسؤولية وتعطيه مبرراً لتنصله عنها في الحياة هو الاعتقاد بإله غير الله، أنى كانت صورة ذلك الإله، وأنى كان اسمه.

بل إن تعلق الإنسان بأي شيء تعلقاً ذاتياً بعيداً عن الله، يدعوه إلى أن يتقرب إلى ذلك الشيء ويجعله واسطة بينه وبين الله في زعمه، لا لشيء إلا لكي يتخلص من ثقل المسؤولية، ذلك لأنه من الصعب جداً على الإنسان الإحساس بأنه مسؤول أمام قوة قاهرة عليمة حكيمة محيطة به، تجازيه على كل صغيرة وكبيرة تبدر منه، لذلك فهو يحاول -جهده- أن يتهرَّب من هذه المسؤولية، ولولا إحساس المؤمنين برحمة الله لما استطاع أي منهم أن يتحمل ضغط المسؤولية على قلبه.

والقرآن الحكيم يؤكد -المرة تلو الأخرى- عدم وجود أي شيء أو شخص يمكنه أن يقف أمام قدرة الله، وذلك لكي يواجه الإنسان ربه عارياً عن كل التبريرات والحجج الواهية، وبالتالي يصبح جدياً في حياته، ويترك اللهو واللعب، ومن ثم يتحمل هذا الحمل العظيم وهو أمانة المسؤولية التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً.

و تؤكد هذه الآية أن الإله الحقيقي هو الذي يستطيع أن يحيي الأموات، فهل هذه الآلهة المزعومة تستطيع ذلك؟ أم هل يقدر أحد أن يدعي ذلك؟ كلا بل تراهم يعترفون في لحظات الحاجة، عن مدى ضعفهم واستكانتهم، حتى إن نمرود الذي ادعى -مرة- أنه يحيي ويميت، انهار عندما رأى النيران الملتهبة -التي عمل جلاوزته المستحيل من أجل تأجيجها وتهيئتها لحرق

شخص واحد- قد خمدت وتحوّلت إلى ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فقال: من أراد أن يتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبراهيم، وكذلك بهت حينما حاج إبراهيم في ربه، وذلك عندما قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كل شيء في السماء والأرض من أصغر شيء إلى أكبر شيء، دليل على وحدة الربوبية في الوجود، حيث إن الانسجام والتناغم الدقيق الذي نراه فيما بين الأنظمة المختلفة التي تحكم الكون دليل وجود مدبر له، فالنظام الذي يدير أضخم المجرات هو نفس النظام الذي يدير الذرة الصغيرة المتواضعة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ»(١)، بلى لأن النظام الذي يحكم الدورة الحياتية في جسد النملة هو نفس النظام الذي يحكم انتقال الماء والهواء والأملاح في هيكل النخلة.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ وهكذا تبين هذه الآية فكرة وحدانية الله سبحانه وتعالى، في حياتنا العملية وقد سبق أن قلنا: إن توحيد الله سبحانه وتعالى، توحيداً حقيقياً هو أحد أبرز العوامل التي تساعد الإنسان على تحمل المسؤولية في الحياة، وهو ما تسعى إلى ترسيخه سورة الأنبياء، كما أن الاعتقاد بآلهة من دون الله هو أحد أبرز التبريرات التي تحول دون تحمل المسؤولية.

[٢٢] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى، إذا لاضطرب النظام فيهما، لأن تعدد السلطة يسبب فساد المملكة واختلال أمورها، جاء في حديث نجده في (كتاب التوحيد) بإسناده إلى هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قول أبي عبد الله له: «لَا يَخْلُو قَوْلُكَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيّاً وَالْآخَرُ ضَعِيفاً فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَيَتَفَرَّدُ بِالتَّدْبِيرِ وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالْآخَرَ ضَعِيفٌ ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ كَمَا نَقُولُ لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي.

فَإِنْ قُلْتَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَوْ مُفْتَرِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِماً وَالْفَلَكَ جَارِياً وَالتَّدْبِيرَ وَاحِداً وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلَّ صِحَّةُ الْأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَائْتِلَافُ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ ثُمَّ يَلْزَمُكَ إِنِ ادَّعَيْتَ اثْنَيْنِ فُرْجَةٌ مَا بَيْنَهُمَا حَتَّى يَكُونَا اثْنَيْنِ فَصَارَتِ الْفُرْجَةُ ثَالِثاً بَيْنَهُمَا قَدِيماً مَعَهُمَا فَيَلْزَمُكَ ثَلَاثَةٌ فَإِنِ ادَّعَيْتَ ثَلَاثَةً لَزِمَكَ

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٦.

مَا قُلْتَ فِي الاثْنَيْنِ حَتَّى تَكُونَ بَيْنَهُمْ فُرْجَةٌ فَيَكُونُوا خَمْسَةً ثُمَّ يَتَنَاهَى فِي الْعَدَدِ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي الْكَثْرَةِ»[1].

هذا من الناحية العقلية، أما من الناحية النفسية فإنَّ فكرة تعدد الآلهة جاءت لتعكس حالة التبرير والصراع عند البشر، ذلك أن الأساطير التي تتحدَّث عن تعدد الآلهة وإن كانت خرافة وبعيدة عن الحق والحقيقة إلا أنها تمثل انعكاساً لنفسية واضعيها والمعتقدين بها، لذلك فباستطاعتنا أن نكتشف من خلالها طبيعة البشر عبر الأزمنة المختلفة، ونصل إلى قناعة بأنه وإن تغيرتْ صورة الإنسان وأشكال حياته فإنَّ طبيعته لم ولن تتغير.

والأساطير دائماً تقص علينا قصص الآلهة المزعومة وهي تقاتل بعضها أو لا أقل تتنافس مع بعضها في السلطة وتقر بأن كل إله له تفكير وإرادة يختلف تماماً عن شركائه الآخرين.

مثلاً يزعم المجوس وجود إلهين كبيرين هما: (أهور مردا) إله الخير و(أهريمن) إله الشر، و (أهريمن) خلق الشر، فخلق (أهور مردا) الخير مضاداً له، والصراع قائم بينهما. وفي بعض المذاهب المسيحية المنحرفة نرى هذه الأسطورة أيضاً، وهي أن الأب يريد أن يعذب الناس، فيأتي الابن ويشفع لهم رغماً عن أبيه!.

وفي الأساطير اليونانية القديمة كثيراً ما نقرأ عن معارك طاحنة تجري بين الآلهة في السماء. ومن هنا نعرف أن فكرة تعدد الآلهة نابعة من حالة الفرار عن المسؤولية والبحث عن ملجأ موهوم يخلص الفرد من ثقل الجزاء، وأن الزعم بتعدد الآلهة يعكس حالة الصراع الداخلي بين الشهوات والعقل ويأتي لتبرير الشهوات التي تأمر بها النفس الأمارة أمام العقل الناهي عنها أو النفس اللوامة.

إن كل ذلك دليل على أنه إذا كان الآلهة متسالمين مع بعضهم البعض إذا لم تكن هذه الحاجة المزعومة إلى الآلهة المتعددة، لأنَّ احتياج الإنسان المزعوم للاعتقاد بتعدد الآلهة ينعدم آنئذ.

لذلك نرى القرآن الحكيم يبين بأن فكرة تعدد الآلهة المنعكسة عن تناقض الذات، والتي تعتقد بأن في السماوات والأرضين آلهة متصارعة إنما هي فكرة خاطئة لأنَّ وجود سلطات متصارعة في الكون يؤدي لفساد واختلال نظام الموجودات.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ رب العرش رمز لإله السماوات والأرض وكل شيء، والعرش يعني القدرة والهيمنة، وليس هو مكان يجلس عليه ربنا سبحانه وتعالى، ولعلَّ

(١) التوحيد للشيخ الصدوق: ص٢٤٣.

هذه الخاتمة البليغة توحي بأن عدم معرفة الله هو السبب لتصور شريك له، إذ إن الزعم بوجود شريك للرب دليل على جهل صاحبه بأن الله سبحانه هو الملك الجبار الذي لا يغلب سلطانه، ولا يمكن الفرار من حكومته.

[٢٣] ودليل قدرة الله المطلقة وسلطانه الشامل العظيم إنه فوق السؤال، وإنه لا أحد يخرج عن إطار المسؤولية أمامه: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾.

[٢٤] ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ كما أننا نأتي بالبرهان والدليل على إلوهية الله، فعليكم أيها المشركون أن تأتوا ببرهان ودليل على إلوهية آلهتكم. وأن هذه الآية توحي بفكرة هامة وهي: إن الذين يدعون وجود إله غير الله سبحانه وتعالى، إنما يزعمون ذلك انطلاقاً من أهواء نفسية يبررون بها عدم التزامهم بمسؤولياتهم أمام الله، فإذا طالبتهم ببرهان عقلي أو حجة منطقية فسيعجزون عن ذلك وتتبخر دعاواهم، حيث لا تصمد ظلمات أنفسهم أمام وهج الحقيقة.

﴿ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾ هذه ليست فكرة جديدة موضوعة في رسالة السماء، فكل الرسالات الإلهية تؤكد وحدانية الله.

ومن عوامل الضلالة النفسية، إحساس الإنسان بضرورة التوافق الاجتماعي، والقرآن الحكيم يذكرنا هنا -وفي آيات عديدة- بأن كثرة الضالين ليست دليل صدقهم، بل الحق المدعم بالبرهان العلمي هو المقياس ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

[٢٥] واذا كان الناس في بلد (مثل مكة يوم نزلت فيها هذه الآيات) يشركون بالله، فإنَّ هؤلاء هم خط الضلالة، وفي مقابلهم صراط الهدى أقدر وأعمق جذوراً.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾ إن رسالات الله لا تختلف في فكرة التوحيد، وما نراه في بعض الديانات من تعدد الآلهة إنما هو نتيجة التشويه، والتحريف الذي طرأ عليها، وإلا فإنَّ اليهودية الحقيقية والمسيحية الأصيلة وكل ما سبقهما من الديانات إنما هي كالإسلام تدعو إلى توحيد الله، وعدم عبادة غيره بأي حال من الأحوال، وبأية صورة من الصور، وسواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

شفاعة الرسل

[٢٦] ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ هناك أناس طيبون صالحون، ولكن هؤلاء ليسوا أولادا لله، إنما هو عباد الله، وإن صفتهم الوحيدة هي

صفة الكرامة من الله، فلا تتصور -أيها الإنسان!- أن يأتي أحد من هؤلاء يوم القيامة لينقذك من عذاب الله إذا كنت أسخطته في حياتك.

[٢٧] ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ عباد الله لا يقولون الكلام الذي لا يقوله الله، فهم امتداد لرسالة الله وسلطته لذلك فإنهم لا يشكلون تناقضاً مع إلوهية الله وسلطته المطلقة.

[٢٨] ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ في بعض الحكومات الفاسدة، تفرض السلطة قانوناً ما، ولكن أي متلاعب يستطيع خرق هذا القانون بأن يضع مبلغاً من المال في يد أحد المسؤولين، فيساعده على مخالفة هذا القانون والالتفاف حوله.

ولكن الإنسان لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك أمام الله وسننه، فملائكة الله وعباده المكرمون لا يأخذون الرشوة، ولا يحاولون أن يفعلوا أي شيء خارج نطاق مشيئة الله سبحانه.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ الرسل والملائكة هم بدورهم يخافون الله، ويعرفون أنه محيط بهم فكيف يشفعون لأحد ويدخلونه الجنة من دون أمر الله وعلمه؟!.

جاء حديث مأثور عن النبي ﷺ في ذكر ما رأى في المعراج وفيه قال ﷺ: «**ثُمَّ مَرَرْنَا بِمَلَائِكَةٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُمُ اللهُ كَيْفَ شَاءَ وَوَضَعَ وُجُوهَهُمْ كَيْفَ شَاءَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أَطْبَاقِ أَجْسَادِهِمْ إِلَّا وَهُوَ يُسَبِّحُ اللهَ وَيُحَمِّدُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِأَصْوَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ أَصْوَاتُهُمْ مُرْتَفِعَةٌ بِالتَّحْمِيدِ وَالْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَسَأَلْتُ جَبْرَئِيلَ عَنْهُمْ؟ فَقَالَ: كَمَا تَرَى خُلِقُوا إِنَّ الْمَلَكَ مِنْهُمْ إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ مَا كَلَّمَهُ قَطُّ وَلَا رَفَعُوا رُءُوسَهُمْ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَلَا خَفَضُوهَا إِلَى مَا تَحْتَهَا خَوْفاً مِنَ اللهِ وَخُشُوعاً فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ إِيمَاءً بِرُءُوسِهِمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ مِنَ الْخُشُوعِ، فَقَالَ لَهُمْ جَبْرَئِيلُ: هَذَا مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى الْعِبَادِ رَسُولاً وَنَبِيّاً وَهُوَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ وَسَيِّدُهُمْ أَفَلَا تُكَلِّمُونَهُ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ جَبْرَئِيلَ أَقْبَلُوا عَلَيَّ بِالسَّلَامِ وَأَكْرَمُونِي وَبَشَّرُونِي بِالْخَيْرِ لِي وَلِأُمَّتِي**»(١).

إذن لتسقط كل التبريرات السخيفة التي يحاول بها الإنسان تبرير تنصله من مسؤوليات أفعاله في الدينا، وليبقى عارياً أمام أعماله، وآنئذ فقط يصلح عمله وتزكو نفسه.

[٢٩] إن أولئك الذين لهم ميزة في الحياة من عباد الله الصالحين، إنما هم مكرمون بعبادتهم

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٣٢٣.

لله وخضوعهم لحاكميته المطلقة، ولو قال أحد منهم بأني إله من دون الله للقي مصير الظالمين ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فلا يمكن إذن أن نتوسل بآلهة أخرى لتنقذنا من عذاب الله، وهكذا يهدم القرآن فكرة الأصنام التي يتشبث بها الإنسان لكي يبعد نفسه عن المسؤولية ومن ثم الجزاء.

غائية الكون وحكمة الخلق

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا[1] سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ[2] وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) ﴾.

هدى من الآيات:

توحي آيات هذا الدرس، بأن الحياة كلها مبنية على أساس الحق، وبحكمة بالغة، ولغاية محدودة، ونظرة واحدة من الإنسان لما حوله من المخلوقات كافية لإقناعه بأن لكل شيء هدفاً لا يشذ عن ذلك مخلوق أبداً، وأن كل شيء بقدر وحساب، فالجبال الراسيات لها هدف، وكذلك سقف السماء، ولو تمعنا قليلاً لوجدنا الشمس والقمر يسبحان في فلك معلوم ويسيران نحو هدف محدد وبصورة منتظمة.

(١) فجاجاً: الفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين.
(٢) يذكر آلهتكم: أي يقول إنها لا تنفع ولا تضر.

وعلى الإنسان أن يبحث عن فلكه (وهو الحق) وأن يسير ضمنه لا يحيد عنه، ولا يتأتى ذلك إلا حين يعود البشر إلى فطرته، ويتفكَّر فيما حوله، ليرى: أن وراء هذا الخلق تقديراً وتدبيراً دقيقين، وهذا التفكير يقودنا إلى الحق الذي يجب أن نتمحور حوله، وبالمسؤولية التي تنعكس من خلاله على أنفسنا، إذ مادام هناك حق فأنت مسؤول أمامه، ولابد أن تسير في حياتك باتجاهه.

ويبين لنا القرآن في هذه الآيات بأن بداية الإنسان تمت بحق، ونهايته كذلك حق، فهل يستطيع أن يهرب من الموت أحد؟، ومادامت البداية والنهاية ليستا بيد الإنسان، فاستمرارها كذلك ليس بيده.إذن فلابد أن يتكيف مع الحق، وذلك عبر الجدية في تحمل المسؤولية.

بينات من الآيات:

[٣٠] ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي كانتا متصلتين ففصلهما الله عن بعضهما، كيف كانت السماوات والأرض متصلة ففصلت؟.

والجواب:

أولاً: لقد كانت المادة الأولى التي خلقها الله سبحانه، وكان عليها عرش قدرته وسلطانه، ذات كتلة شديدة التركيز، فأحدث الرب فيها انفجاراً هائلاً، لا يزال صداه منتشراً في أطراف الفضاء برغم مرور (١٥) مليار سنة عليه.كما تقول نظريات العلم الحديث، وتضيف: إن الكون لا يزال في اتساع، ولا تزال أجهزة التلسكوب التي تغور بنا في عمق الفضاء الرحيب، تكشف لنا عن مجرات ناشئة أو هي في طور الخلق.

وأن نظرة علمية إلى هذه الحقائق كفيلة بأن تبلور في نفوسنا فطرة الإيمان.

ثانياً: وآية واضحة من تجليات هذه الحقيقة، نراها في ظاهرة الأمطار، كيف كانت السماء رتقاً لا تمطر وكيف كانت الأرض رتقاً لا تنبت ففتقهما الرب[1].

وهكذا يخرج الله الخبء في السماوات والأرض، ويفتق ما رتق من الأشياء باستخراج كنوزها، واستظهار مكنونها، سبحانه.

---

(١) في الكافي: ج٨ ص٩٤ حديث أصل الشام: عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقاً لاَ تُنْزِلُ الْمَطَرَ، وكَانَتِ الأَرْضُ رَتْقاً لاَ تُنْبِتُ الْحَبَّ.. فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى الْخَلْقَ وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ فَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ والأَرْضَ بِنَبَاتِ الْحَبِّ».

إذن فالحياة ليست لعباً ولا لهواً كما يزعمون، بل لكل شيء هدف، وعلى الإنسان أن يشخص هدفه ويسعى نحوه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقد تمَّ خلق الكون بالفتق بعد الرتق، والفصل بعد الوصل، أما وجود الحياة فوق الأرض فتمَّ عن طريق الماء، وهذه هي الأخرى من أحدث النظريات العلمية، والماء يشكل (٧٠٪) من وجود الإنسان، وبالذات من وجود المخ الذي تتجلى فيه الحياة بأبرز صورها.

[٣١] ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ تقوم الجبال بدور الرواسي وهي الثقل الذي يثبت الأرض كما تثبت المرساة السفينة.

إن الجبال أشبه ما تكون بدرع واقية، تلف حول الأرض ومن أعماقها لتحافظ على توازنها:

أولاً: في مواجهة الرياح والعواصف التي تتعرض لها الأرض.

ثانياً: بمقاومة الزلازل العاتية التي يتعرض لها كوكبنا بسبب ضغط الغازات التي في جوفها.

ثالثاً: لتخفيف أثر جاذبية القمر على اليابسة كما تؤثر على مياه البحر.

أرأيت كيف وضع الله هذه الجبال في مواقعها، وكيف ربطها ببعضها في دقة ومتانة، وكيف ألزمها مواضعها؟ فهل لك أن تختار لنفسك اللعب واللهو.. وتزعم أن لا هدف وراء حياتك؟

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وبين هذه الجبال طرق يتحرك الناس عبرها من مكان لمكان، ويتفاعل أهل كل طرف مع الآخرين، ولهذه الطرق فائدتان:

الأولى: الاهتداء من خلالها إلى الأهداف والأماكن التي ينشدها الإنسان.

الثانية: السير عبرها والاهتداء بها إلى معرفة الله عن طريق التفكر في الجبال التي تحفها. وكلمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ تحتمل المعنيين معاً.

[٣٢] ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ حينما ننظر إلى السماء سواء نظرة بدائية كما كان ينظر إليها آباؤنا قبل ألف عام، أو نظرة علمية كما يراها العالم الفلكي اليوم، فإننا نرى الأجرام الكثيرة تسبح فيها صغيرة وكبيرة، وبعضها ذو خطر علينا فمن الذي حفظنا من هذه الأخطار؟!.

إن البدوي في الصحراء عندما يرى النيران في السماء ليلاً يسميها شهباً، أما عالم الفلك فيعرف بأنها قذائف ضخمة، لولا الغلاف الواقي حول الأرض لدمرت الأرض تدميراً، فمن الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً غير الله؟!.

«إن الجو الذي يتكون من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الأرض ضخم إلى الحد الذي يستطيع أن يكون كالدرع الذي يحفظ الأرض من شر المجموعة القاتلة المتكونة من عشرين مليون شهاب سماوي تسير بسرعة ٥٠ كيلومتر في الثانية لتتساقط يوميا على الأرض».

ولقد حفظ الله -برحمته- الكرة الأرضية منها بالغلاف الواقي المكون من الغازات التي تذوب أو تبخر ما يصل إليها من هذه الأجرام الخطيرة.

«إن الغلاف الجوي إضافة إلى فوائده الأخرى ، فإنه يحفظ درجة الحرارة على سطح الأرض في حدود مناسبة تساعد على الحياة، وهو ذخيرة مهمة جدا لنقل الماء والبخار من المحيطات إلى اليابسة، ولو لم يكن كذلك لكانت كل القارات صحاري يابسة لا يمكن الحياة فيها، وعلى هذا فيجب القول بأن المحيطات والغلاف الجوي هي التي تحفظ للأرض توازنها وثباتها في مدارها».

أو ليس الحكمة الإلهية مشهودة من وراء هذا السقف المحفوظ؟ أو كان خلق السماوات والأرض لعباً؟! سبحان الله عما يصفون.

«إن وزن بعض هذه الشهب التي تسقط على الأرض يبلغ جزءا من ألف من الغرام، إلا أن قوته نتيجة تلك السرعة الخارقة يعادل قوة الأجزاء الذرية التي في القنبلة المخربة! وقد يكون حجم تلك الشهب بمقدار ذرة الرمل أحيانا! في كل يوم تحترق ملايين من هذه الشهب قبل وصولها إلى سطح الأرض ، أو تتحول إلى بخار ، إلا أن حجم ووزن بعض الشهب كبير إلى حد تخترق معه الغلاف الجوي وتصيب سطح الأرض»(1).

أو ليس كل ذلك شاهد صدق، على أن الله لم يخلق الحياة عبثاً؟ سبحانه.

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ فبالرغم من كل هذه الآيات التي بثها الله في السماء، فإنَّ الناس يعرضون عنها، لا لأنهم لم يزودوا بالبصيرة الكافية لوعيها، ولكن لأنهم يعرضون عنها تعمداً.

[٣٣] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وهذه الآية تشير إلى الزمن، ولقد وصل العلماء

(١) راجع تفسير الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٠، ص١٥٩-١٦٠.

إلى صنع ساعة تقيس الزمن بدقة فائقة تصل إلى واحد من ألفي جزء من الثانية، ومقياس الليل والنهار الزمني لا يتغير ولا بمقدار جزء من هذه الألفين أو أقل، وليس ذلك إلا دليلاً على أن خلق الكون لم يكن عبثاً، وهكذا يجب أن تكون حياتنا قائمة على أساس الدقة والجدية، وتكييف النفس مع حقائق الحياة.

إن جوهر الحق والمسؤولية في الحياة هو البحث عن الهدف، والسعي الحثيث نحوه.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ هما يسبحان ويتحركان والبشر أيضاً يتحرك، ولكن لابد أن تكون حركته ضمن إطار وخطة من أجل الوصول إلى شيء، لأن الحركة من دون هدف لعب ولهو.

سنة الموت

وتتجلى جدية الحياة، وإنها ليست لعباً ولهواً، في أمرين: الموت والإبتلاء. ولقد جعل الله الموت حتماً على البشر:

[٣٤] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فكل الناس ميتون، ولعل الأدب القرآني السامي يذكر هنا ضمير المخاطب ليجعلنا جميعاً في جو رهيب بحيث نشعر بمرارة النهاية لكيلا نلعب ولا نلهوف في الحياة.

وما دام الرسول وهو أكرم الخلق على الله قد مات فهل يخلد أحد بعده؟!.

[٣٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وتعبير ذائقة يقرب المعنى للذهن أكثر، إذ يصور الموت وكأنه شربة يذوقها الجميع، لكي نتحسس بمرارة الموت عن طريق التذكر المستمر له، ولعلَّ الآية توحي بأنه ليس هناك إنسان إلا ويتحسس الموت بوعي تام، حتى لو كان الموت قد وافاه أثناء نومه.

بلى لابد أن نتذوق جميعا كأس الموت غصة بعد غصة، أفلا نعتبر بمن مضى منا؟ ومن لم يتعظ بهذه النهاية الرهيبة فبم -يا ترى- يعتبر؟ لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام يوماً وقد تبع جنازة فسمع رجلا يضحك: «**كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ وكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ وكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ونَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ ووَاعِظَةٍ ورُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ**»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٣٧٧. والجائحة: النازلة والشدة.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ الخير أفضل من الشر، ولكن القرآن يأتي بذكر الشر قبل الخير ليبين لنا بأننا محكومون بإرادة الله، فلنتكيف مع هذه الإرادة.ولكي نعي حقيقة هامة تبين الآيات الوجه المشتركة لظواهر الحياة المختلفة، فمع أن الشر يختلف عن الخير في ظاهره، إلا أنهما يلتقيان في نقطة واحدة هي إنهما لبلاء الإنسان حيث يتقلب البشر بين الخير والشر، بين العافية والمرض، بين الغنى والفقر، والأمن والخوف و.. و.. ولا حيلة له فيها.فهل رأيت مريضاً يحب الاستمرار في زوبعة الألم، أم هل صادفت فقيراً يستمرىء البقاء في سواد الفقر، أو خائفاً لا يريد التخلص من ضائقة الخوف؟، ولكن تدبير الله المحيط بنا يقلبنا بين الشر والخير ليفتننا بهما، ثم يبعثنا إليه ليحاسبنا، أفلا نوقظ أنفسنا من نومة الغافلين؟! لكيلا نتخذ الحياة لهواً ولعباً.

ومادامت نهاية الإنسان إلى الله، فهو مسؤول أن يجير كل الظروف، خيرها وشرها، في صالح الهدف الأسمى، ويفكر في المستقبل بدل أن يتأثر سلباً بالظرف الذي يعيشه خيراً أو شراً تأثراً آنياً، فيطغى بسبب الخير، أو ينهزم وينحرف بسبب الشر، وهذه من طبيعة الإنسان فهو ينسى أهدافه بسبب ظروفه المحيط به.

ولا ريب إن الذي يعي حقيقة البعث يكون بعيداً عن اللعب واللهو.

[٣٦] ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مع هذه الآيات الجلية في الآفاق، وفي أنفسهم، تجد الكفار يستهزئون بالحق ويتخذونه لعباً، أما القرآن فيبين بأن الحق لا ينبغي أن نستهزىء به، لأنه ينتقم ممن يستهزىء به قريباً أو بعد أمد محدود.

وكم هو صلف هذا الإنسان، ففي الوقت الذي يتميز غضباً حين يسمع إن الرسول يذكر آلهتهم التي لا تغني عنهم شيئاً، ويتساءل: هذا هو الشخص الذي يذكر الآلهة -ولا يبين الكافر كلام الرسول فيها إحتراماً لها-، في ذات الوقت تراه يكفر بالرحمن الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؟!.

خلق الإنسان من عجل

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ[1] فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم[2] بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) ﴾.

هدى من الآيات:

هناك حواجز نفسية تمنع تحسس الإنسان بمسؤوليته الكبرى في الحياة، وتدفعه إلى اللهو واللعب، وتحجبه عما تمليه الرسالة الإلهية من توجيهات ومواعظ، ومن تلك الحواجز النفسية التي يعالجها القرآن الحكيم هنا:

---

(١) فتبهتهم: فتحيرهم.

(٢) يكلؤكم: يحفظكم، من كلأ بمعنى حفظ.

أولاً: حالة الاستعجال عند الإنسان. حيث يعتقد بأن تأخر الجزاء دليل على أن العمل لا يستلزم الجزاء، وهذا يمنعه من التفكير الجدي في الحياة، لأنَّ أكثر الأعمال لا يأتي جزاؤها إلا بعد حين، حسب حكمة الله وتقديره.

ثانياً: الشرك. وهو من الحجب النفسية التي تمنع الإنسان من الإيمان بمسؤوليته الملقاة على عاتقه، والذين يشركون بالله بأي شكل وتحت أي عنوان كان، إنما يهدفون أساساً إلى التخلص من مسؤولية التوحيد، والتي تتطلب قدراً من التضحية والصبر، وتحدي عامل الزمن، ولكنهم بعدولهم من الحق إلى الباطل، يعرضون أنفسهم للجزاء المرهق والعذاب الدائم، في مقابل راحة وقتية وهمية ركنوا إليها بجهلهم وحمقهم.

ثم يشير القرآن إلى فكرة هامة وهي إن الجزاء يأتي في اللحظات التي يزداد فيها غرور الإنسان بنفسه، فالمجتمع في بداية حياته يكون حذراً، ولكن عندما يطول عمره، وتكثر النعم والخيرات عنده، فإنه ينسى حذره ويركبه الغرور ويعتقد: إن ما عنده من الراحة والمتعة سيكون أبدياً، ومع استمراره في الحياة، وإزدياد غروره، فإن سلبياته تتكاثر ويزداد ظلمه، فيتراكم جزاء أعماله وفي لحظة واحدة، يفاجئه الجزاء ويدمر عليه كل شيء، وهذا قانون اجتماعي ثابت لا يستثنى منه مجتمعاتنا في هذا الزمان.

بينات من الآيات:

[٣٧] يستعجل الإنسان الجزاء لأنه خلق من عجل ولكن ما هو العجل، وكيف خلق الإنسان منه؟.

بعضهم قال إن العَجَل الذي خلق منه الإنسان صفة له، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يركز الضوء على خاصية بشرية في خلقة الإنسان وتكوينه، وليست صفة عارضة تكتسب من البيئة المحيطة به.

وبعضهم قال إن المقصود بالعَجَل الطين، أي إن الإنسان قد خلق من مادة دنيئة ذات صفات سلبية، ولذلك فهو يتعجل الأمور ولا يملك الصبر عليها بطبيعته المادية المحضة.

ويبدو إن العَجَل يعني شيئاً آخر أبعد أفقاً، وأكثر عمقاً، وهو إن الزمن قد جُعِلَ من عوامل خلقة الإنسان وأحد عناصره، شأنه شأن كل مظاهر الطبيعة المسخرة له، فكل المخلوقات والموجودات التي نراها في أرضنا وسمائنا، يشكل الزمن جزءاً من طبيعتها وتركيبها.

ولقد كشفت لنا الفيزياء الذرية عن هذه الحقيقة، بسلسلة من التجارب العملية، حتى لم

يعد يحيط بها غموض، وقبل ذلك أشارت إليها جملة من الآيات القرآنية، منها ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويبدو من الآية إن الله جلَّ شأنه جعل الزمن جزءاً من الخليقة حيث مرت بعدة مراحل إلى أن أخذت شكلها النهائي.

وهكذا فالإنسان يحس بالزمن لأنه عنصر أساسي في خلقته الطينية المادية، ولولا روح الإنسان وقيم الرسالات الإلهية التي تبلور هذه الروح وتعطيها خصائص عالية، لكان الإنسان يعيش لحظته وحدها، ولما كان يتطلع إلى المستقبل أو يرى الآفاق البعيدة للحياة.

وهكذا يريد القرآن أن يخبرنا بأن هذه الطبيعة البشرية التي يشكل الزمن جزءاً منها، هي التي تدعو الإنسان إلى اللامسؤولية، لأنه يعيش بطبيعته لحظته وحدها، وبالتالي يعجز عن إدراك حتمية الجزاء، الذي يتطلب مقداراً معيناً من الزمن، لكي يتحقق ويأخذ مجراه.

إنه ينتظر جزاء عاجلاً وقريباً لأعماله، فإذا تأخر عنه فترة، قد تطول أو تقصر، قال: لا جزاء. وطبيعي إن من ينكر الجزاء ينكر المسؤولية كذلك.مثلاً إذا ظلمت حكومة فاسدة شعبها فتحرك للمطالبة بالعدالة بعد عشرين عاماً، لا يقول رجالها: إن هذه الحركة إنفجرت بسبب ذلك الظلم، ولا يرون أيضاً ذلك الظلم، ولا يرون أيضاً ذلك الارتباط الوثيق بين الأمرين، بل إنهم يأخذون بالبحث والتفتيش عن أية علة ليقولوا: إن هذه الحركة توجّه من خارج المجتمع والبلاد، في حين إن العلة الحقيقية تكمن في الداخل، وبالذات في جهاز الحكم الفاسد، فهم لا يفكرون إن ظلمهم سوف يولد حركة نهضوية تتنامى، وتنتشر، وتتحول إلى بركان مدمر ولو بعد حين.

والقرآن الحكيم ينبهنا بأنكم، سواء عشتم مستبقلكم أم لا، وآمنتم به أو كفرتم، فإنَّ الجزاء سياتي حتماً، وسوف يحيط بكم عذابه، وما دام المستقبل حقاً فلابد أن نؤمن به، متحدين بذلك كل الضغوط التي تواجهنا في الحياة، وعلى رأسها طبيعتنا البشرية الاستعجالية.

إن الذي ينكر الجزاء، بأن يسلم قيادته لنفسه النزقة المتعجلة، يسلب الله منه عقله وبصيرته، ويستدرجه شيئاً فشيئاً، فلا يشعر إلا والعذاب مطبق عليه بغتة، سواء كان ذلك عذاب الساعة أو ما هو دونها، فالطاغوت الحاكم يفقد تمييزه للأمور، وتبصره بالعواقب فيستمر في سياسته الخاطئة، وإذا به يصحو يوما ليجد نفسه ملقى عن عرشه، ككثير من الظالمين والطغاة في التاريخ الغابر والمعاصر.

وكذلك بالنسبة لبعض المجتمعات البشرية التي تراكمت أعمال أفرادها السيئة حتى أحاطت بهم، استهزؤوا برسلهم أو بمن يمثلهم من الأوصياء والعلماء، واتخذوا ما جاؤوهم به

لهواً ولعباً، فقد حاق بهم ما استهزؤوا به وأزال حضارتهم.

وكثيراً ما نجد القرآن الحكيم يتحدث عن المجتمعات وليس الأفراد، مما يثير السؤال التالي: مادامت المسؤولية هي مسؤولية الفرد فلماذا يحدثنا القرآن عنها بصيغة المجموع؟.

والجواب: إن ذلك لسببين:

الأول: إن مسؤولية الفرد لا تقتصر على حدود ذاته الضيقة، وإنما تمتد لتشمل المجتمع الذي يعيش فيه، لأن أكثر أعمال الناس هي أعمال اجتماعية، وجزاؤها لابد أن يكون جماعياً أيضاً، وذلك لطبيعة التواجد في مكان واحد والتفاعل نفسياً ومادياً بين الناس.

الثاني: هو أن جزاء الأفراد -عادة- لا يرى، إننا لا نستطيع مثلاً أن نحيي شاباً مات في مقتبل عمره لنسأله ما هي أعمالك السيئة التي أدت بك إلى هذه النهاية، وبالتالي نعرف إن ميتته المنكرة كانت جزاء لانحرافه، وسوء مسلكه، أما المجتمعات فأعمالها تكون ظاهرة، وآثارها واضحة، لذلك يضرب القرآن بها أمثالاً لنعتبر بها.

إن هذه المجتمعات لم تؤمن بالجزاء، فاتخذت المسؤولية لهواً ولعباً، فأحاط بها كفرها حتى أزالها، وعند ذلك لم تنفعها الآلهة التي اعتمدت عليها من دون الله.

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ إن تعجل الأمور، وعدم الاصطبار على الزمن، هو من طبيعة الإنسان، ومن العناصر الأساسية في تكوين خلقته.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ستأتي آيات العذاب وسترونها حتماً، فلماذا العجلة؟!.

[٣٨] ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ إنهم كلما سمعوا وعظاً وتذكيراً من أحد قالوا أين ذلك الجزاء الذي تعدنا به؟! لو كانوا يعلمون إن الجزاء الذي يستعجلونه شديد، وإنه حين يحيط بهم لا يمكنهم الفرار منه بأية صورة كانت، لما لجؤوا إلى السخرية والاستهزاء ولما لووا رؤوسهم معرضين.

جزاء الاستهزاء

[٣٩] ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ وهما المنطقتان الحساستان من الإنسان، وفي ذلك إشارة إلى شدة العذاب وإحاطته ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فلا تنصرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويخضعون لها من دون الله.

[٤٠] ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾

أولاً: تأتيهم النار فجأة كما لو كان ذلك من دون سابق إنذار، لأنهم تعودوا على الكفر بالنذر، وعدم اتخاذها مأخذ الجد، فأصبحوا مع مرور الزمن كالجاهل الذي يفتح عينه على الحقية لأول مرة.

ثانياً: إن النار الرهيبة تسبب لهم البهت، فتسلب عقولهم وتحيرهم، ثم تكتنفهم بعذابها الأليم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إنهم لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولن يعطوا مهلة أكثر مما أعطوه في الحياة الدنيا، ولو بمقدار لحظة.

[٤١] ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ إن الأمم السابقة قد استهزأت بالرسل، فإذا بتلك الرسالات التي استهزؤوا بها تتحول إلى حقائق أليمة تحيط بهم وتنتقم منهم.ولا يخفى إن ذلك إضافة إلى التعذيب البدني عذاباً نفسياً للكافرين.

ولكن هل الرسالة الإلهية بذاتها عذاب؟ وهل هي التي تؤدي إلى الضرر الوخيم الذي يصب المعاندين في جهنم؟.

بالطبع -كلا- فالرسالة بما فيها من أفكار إنما هي تعبير عن الحقيقة، وحينما يستهزىء أحد بها فإنه يستهزىء بالحق ذاته، فحينما أقول لا تأكل هذا الطعام لأن فيه جرثوماً، فإنَّ هذه الكلمة تعكس حقيقة واقعية، وعندما تخالف وتأكل منه، فإنَّ الجرثوم وهو تلك الحقيقة الواقعية، سيحيط بك ويوقعك في الألم والمعاناة، لذلك يعبرُ القرآن عن هذه الحالة تعبيراً دقيقاً، ويقول: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ القرآن في هذه الآية كما في أكثر آيات سورة الأنبياء، يكثر من الحديث عن اللعب واللهو، والاستهزاء والسخرية، فلماذا؟.

السبب هو أن الحديث فيها، يدور حول المسؤولية، وهذه الأشياء نقيض لها، فاللعب، ولهو القلب، والاستهزاء بالرسالة، والسخرية من الرسل، وبالتالي من الحقائق، هذه كلها تقتل إحساس الإنسان بمسؤوليته في الحياة.

ولا يسمع الصم الدعاء

[٤٢] ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ إن تدبير الحياة بيد الله كما أن تقديرها بيده سبحانه، فمن الذي يحفظنا ليلاً ونهاراً من أخطار الحياة سوى الرحمن؟ فهو الذي

يحفظنا بنعمه بلائه، وبرحمته عن غضبه. لأنه جل شأنه قد كتب على نفسه الرحمة، والرحمن هو الذي يكلؤنا ولكن نحن لا نقدر هذه النعمة فنكفر به وبآياته ونعرض عن ذكره.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ الله هو الذي يربيهم، وهو الذي لا يزال يكمل لهم النعم، وينزل عليهم البركات، ومع ذلك تراهم يكفرون به ويستهزئون برسالاته.

وما دام العذاب الإلهي في الدنيا لا رادع عنه، (إلا من قبل الله نفسه)، ولا أحد من الآلهة المزعومة تقدر على دفعه إن حل بقوم، فلنعرف إن الآلهة ليست بشيء، وإنها لا تضر ولا تنفع، وإنها لا تقدر على دفع عذاب الآخرة أيضاً.

[٤٣] ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ الله لم يقطع عنا أياديه ساعة فلماذا نكفر به؟! إذ لم يعطك أبوك نقوداً، ولم يدعك تنام في البيت، ولم يهتم بك، فسوف تبحث عن صديق أو عن جهة من الجهات تؤمن لك ضرورات حياتك، ولكنَّ الله -والأمثال تضرب ولا تقاس- لم يغلق عليك الأبواب، ولم يبعث عليك العذاب حتى تتركه وتوجه إلى آلهة غيره تؤويك إلى كنفها!

ونقرأ في الأدعية تعابير دقيقة، وفي نفس الوقت مثيرة لأحاسيس الإنسان الفطرية في هذا الاتجاه: فما دام الله سبحانه وتعالى لم يغير عادة الاحسان إلينا، فلماذا نفتش عن غيره؟!. ومادام ربنا قوياً قاهراً فلماذا نخدع أنفسنا بالالتجاء إلى الضعفاء من عباده؟! نقرأ في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: **«مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ، لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً، كَيْفَ يُرْجَى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الإِحْسَانَ، وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الامْتِنَانِ»**(1).

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ تلك الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها فكيف تنصر غيرها ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ لا نعتبرهم أصحابنا، لا نعطيهم القوة، ولا هم يمتلكون القوة الذاتية.

[٤٤] ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إن السبب الذي يزيد في نسيان هؤلاء هو استمرار النعم عليهم، لذلك تراهم مع مرور الزمن وتطاول السنين يتزايد غرورهم، ومع تزايد الغرور تتزايد النقم التي تأتي مع النعم، في سلسلة متوازية.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ في كل يوم

(1) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦.

يهلك الكثير من المجتمعات بسبب أعمالهم الفاسدة، ولأن جزاءهم قد آن أوانه. فلماذا لا نعتبر؟!.

وهنا يوجهنا القرآن الحكيم إلى نوعين من الاعتبار:

١- الاعتبار بمن مضى من الأمم.

٢- الاعتبار بمن نعاصرهم من الأمم التي تتحطم وتهلك بسبب أعمالها.

إن على الإنسان أن يعتبر بالماضي من آبائه الذين ماتوا وانقرضوا، وكذلك لمن حوله من أترابه، الذين يموتون كل يوم، كذلك حال المجتمعات [١]، ولكن المشكلة الأساسية هي التي يشير إليها القرآن في الآية الأخيرة:

[٤٥] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ المشكلة هي إن الإنسان قد أصيب بالصمم، ولها قلبه، فجعل يستهزىء بالحقيقة، لذلك حينما يرى العبر فإنه لا يستفيد منها شيئاً.

(١) هناك تفسيرات أخرى لهذه الآية.منها إن نقصان الأرض بموت العلماء.وبه جاءت الروايات.وهو تفسير عميق لا يتنافى مع ما ذكرنا آنفا إذ إن موت المجتمعات إنما هو بنقصان علمائها (راجع تفسير نور الثقلين: ج ٣ ص ٤٢٩).

نفحات العذاب علائم المسؤولية

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ[1] مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ[2] لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ[3] (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٦) وَتَٱللَّهِ[4] لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا[5] إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾.

---

(١) نفحة: أي الوقعة اليسيرة التي تقع كنفخ الطيب الذي هو شيء يسير من ريحه.

(٢) القسط: العدل.

(٣) عاكفون: مستمرون دائمون على عبادتها.

(٤) وتالله: حلف بالله لتأكيد ما يقول، والتاء للتعجب.

(٥) جذاذاً: أي قطعة قطعة، وأصله من الجذ بمعنى القطع.

هدى من الآيات:

في سياق حديث القرآن الحكيم عن مسؤولية الإنسان في الحياة، المرتكزة على الجدية والهدفية، تذكرنا آيات هذا الدرس، بأن من علائم المسؤولية هي نفحات العذاب، التي يتعرض لها البشر بسبب سوء أفعالهم، فلكي تعرف الآخرة، وما فيها من عذاب أو ثواب، لابد أن تتفكر في الدنيا ومافيها من آثار العذاب والثواب ونفحاتها! إلا أن الموازين القسط التي تحسب كل صغيرة وكبيرة فيجازى الشخص بها، مؤجلة إلى يوم القيامة، حيث لا تظلم نفس شيئاً، حتى ولو كان بوزن خردلة.

ولقد جاءت رسالات الله تترى لتعطي الناس ميزاناً يفرِّق به بين الحق والباطل، وضياء يهتدى به في ظلمات الحياة، ويذكر المتقين ليزدادوا إيماناً وعزماً.

فمن أبرز غايات الرسل تذكير الناس بيوم القيامة -حيث الموازين القسط-، ولكن المتقين هم الذين يخشون ربهم بالغيب ويخافون أهوال الساعة.

وهذا الكتاب هو الآخر ذكر مبارك أنزله الله لذات الغاية.

والسؤال هنا هو: ما الذي يحجب الإنسان عن الأخذ بالفرقان، والإيمان بالرسالات الإلهية التي تذكر بالآخرة، وتنبه الغافلين من نومهم في الدنيا؟.

إنه وكما يتضح من القرآن التقليد، وتبعية الآباء من دون تبصر ولا تدبر. هكذا يضرب لنا القرآن مثلاً من حياة إبراهيم عليه السلام الذي وقف أمام قومه الذين اتبعوا منهج آبائهم ففقدوا إحساسهم بالمسؤولية، وصرخ في وجوههم قائلاً: ما هذه الأصنام التي تتمسكون بعبادتها، وتلازمونها على الدوام؟! فلم يكن عندهم جواب منطقي يردون به على هذه الصرخة، إلا أن قالوا: إنما وجدنا آباءنا يعبدونها فحذونا حذوهم.

ولكي يثبت لهم إمكان تحدي الإنسان لتأريخه الباطل بقوة إرادته، أخذ معولاً وذهب إلى معبدهم في يوم عيدهم، وحطَّم الأصنام، واحداً تلو الآخر، ثم وضع المعول في عنق أكبرها حجماً، وذهب إلى بيته، بانتظار أن يعودوا، فيروا إن التماثيل قد حطِّمت، فيكون ذلك نقطة بدء لهم لكي ينفصلوا عن تاريخهم السيء المنحرف، ويعيشوا واقعهم بعقلية متفتحة وبصيرة مستنيرة.

بينات من الآيات:

[٤٦] إن الدنيا مزيج من الجنة والنار، ولقد خلق الله سبحانه وتعالى داراً لأوليائه،

جعل فيها من كل مالذ وطاب من النعم، دون أن يشوبها خوف أو حزن، وخلق داراً أخرى للمعاندين، وجعل فيها من كل عذاب أشده وآلمه، دون أن يكون فيها مكان للرحمة أو مجال للنعمة، وخلق داراً ثالثة تجمع صفات تلك الدارين، فيها ضغث من الجنة وضغث من الجحيم، وهي الدنيا، ثم جعل ما فيها من ثواب ونعم شاهداً على ما في تلك الدار من ثواب ونعمة، وما فيها من عقاب ونقمة، شاهداً على مافي الجحيم من أليم العذاب.وهذا هو مضمون حديث مفصل مروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام.

وفي هذه الآيات يؤكد السياق ذلك، فلكي تعرف إنك مسؤول في الآخرة تدبر في نتائج أعمالك في الدنيا، ولكي تعرف حقيقة العذاب والثواب في الآخرة جربهما في الدنيا.

لذلك تجد الصحابي أبا ذر عليه السلام يذهب إلى الصحراء، يعري جسده، ويلقي بنفسه على الرمضاء حيث تصهره الشمس ويكويه الحصى، ويقول لنفسه يا أبا ذر ذق حرارة الدنيا لكي تبعد نفسك عن نار الآخرة، فإن نار جهنم أشد حراً. وفي الحديث الشريف: «**اذْكُرُوا بِجُوعِكُمْ وعَطَشِكُمْ فِيهِ** -شهر رمضان- **جُوعَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وعَطَشَهُ**»[1].

إن كل ما نواجهه في حياتنا الدنيا من صعوبات ومشاكل ومخاطر، هو نفحة من عذاب الله تذكرنا بحقيقة العذاب الموجود في الآخرة، ويصيبنا إن لم نتبع الفرقان الذي أنزله إلينا ربنا، والذي يفرق لنا بين الحق والباطل، وبين الحلال والحرام، وبين الخير والشر.

﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أول ما يبدأ عذاب الله عز وجل بالنزول على المعرضين والمعاندين، ينزع عنهم السكرة التي كانت مسيطرة على عقولهم، والتي جعلتهم يغترون بالدنيا الفانية، وعن ذلك يعودون إلى رشدهم، ويقولون لقد عرضنا أنفسنا إلى الهلاك بإرادتنا واختيارنا، حينما فرطنا في المسؤولية، وتهاونا في أداء الأمانة.

[٤٧] ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ تلك كانت النفحة، أما الجزاء فسيجدونه في يوم القيامة حيث الحساب، الدقيق والعسير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وتعالى الله أن يظلم أحدا شيئاً.

والموازين القسط هم الرجال الربانيون الأنبياء والأوصياء[2] الذين يتخذ منهم الرب شهداء على الناس، والذين لابد أن يقيس الإنسان أعماله بهم وبنهجهم وسيرتهم.

---

(١) وسائل الشيعة: ج ١٠ ص٣١٣.

(٢) في الكافي: ج ١ ص٤١٩: عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْهَمَذَانِيِّ يَرْفَعُهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قَالَ عليه السلام: الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ عليهم السلام».

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ الخردل: نبات له حبات بالغة في الصغر والخفة، لو أن الإنسان أحسن وعمل عملاً بوزن هذه الحبة، وفي أي مكان على وجه الأرض، وعلى أية درجة من السرية والكتمان، فإنَّ الله سيأتي به -بقدرته وعلمه اللامحدودين- مثبتاً ومسجلاً، يعرضه على صاحبه في يوم القيامة، ثم يعطيه جزاءه العادل عليه.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ولا نحتاج إلى من يعيننا في عملية الحساب هذه.

حجج المسؤولية

[٤٨] لأنَّ الله لا يظلم أحداً شيئاً، سبحانه!، ولأنه رحيم بعباده، ولأن الحساب هناك دقيق وعسير، وبالتالي لأن المسؤولية باهضة. فقد مَنَّ على عباده برسالاته التي هي:

أولاً: الفرقان بين الحق والباطل، بين ما ينبغي وما لا ينبغي من الأفعال.

ثانياً: ويضيء قلوبهم بنور الإيمان حتى يتحملوا مسؤولياتهم ويؤدوا ما عليهم.

ثالثاً: يذكر المتقين منهم حتى لا يعتريهم النسيان.

هكذا أكمل الرب حجته على عباده، فلم يحملهم عبء المسؤولية دون توفير وسائل تحقيقها لهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الفرقان: هو ما يفرق بين المتناقضات الموجودة في الحياة، وبه نعرف الحق من الباطل، ونعين الحدود الفاصلة بينهما، وقد يكون الفرقان هو التوراة كما تشير إليه هذه الآية، وقد يكون واحداً من الكتب الإلهية الأخرى ومنها القرآن، كما أنه يستطيل ليشمل الأشخاص كالأنبياء والأئمة عليهم السلام ومن يقوم مقامهم ويمثل امتداداً حقيقياً لهم.

والضياء: هو النور الذي يشع في القلب، ويمكن المؤمنين من السير في دروب الحياة المدلهمة بثقة واطمئنان.

أما الذكر: فهو ما يثير دفينة العقل، ويمنع الإنسان من الركون إلى الغفلة والنسيان، ويتمثل في المواعظ البليغة التي يستفيد منها المتقون الذين يخافون الله ويراقبونه بأعمالهم.

الساعة والغيب

[٤٩] ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ الإيمان بالغيب هو الذي يدفع الإنسان إلى

تجاوز الشهود، فتراه -حينما يرى شيئاً- لا يقف عنده، بل يعبر من خلاله إلى الشاطىء الآخر للحقيقية أي إلى حكمته وسببه ودلالته، وبكلمة: الإيمان بالغيب هو: أن نصدق بما لا نراه إنطلاقاً مما نراه، وهذا الأمر الذي يتفق تماما مع العقل والمنطق، هو الذي يقودنا إلى معرفة ربنا اللطيف الذي لا تدركه الأبصار، من خلال ما نراه من آثار خلقه وبديع صنعه، وبالتالي نخشاه كأننا نراه، ونقف بين يدي جبروته المطلق بخشوع ووجل، وهذا الشعور سوف ينعكس على أعمالنا، وأقوالنا، وسائر تصرفاتنا، فيصقلها ويهذبها ويوجهها إلى الوجهة السليمة في الحياة. كما يقودنا الإيمان بالغيب إلى الشفقة من الساعة.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي يخشون قيام الساعة.

والإشفاق حالة من الخشية المقرونة بالترقب والإنتظار، ذلك لأنَّ المتقين يعيشون بين الخوف من البعث (لأنهم لا يعلمون نتائج أعمالهم) وبين انتظاره (إذ يرجون جزاء حسناتهم).

[٥٠] ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إن أكثر الكفار، ينكرون الرسالات والكتب الإلهية، لأنهم يشككون أنفسهم في الذي أنزلها، ولذلك يقول الله في هذه الآية: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والتكذيب.

وكما أن التوراة كانت فرقاناً وضياءً وذكراً.. فإنَّ القرآن كذلك ذكر (وهو أعلى صفات التوراة الثلاث). ومثلما أصبح كتاب موسى بركة على بني إسرائيل، كذلك هذا الكتاب سيكون (وفعلاً كان) مباركاً على من اهتدى به، يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعطيهم تكاملاً معنوياً ومادياً.

إبراهيم عليه السلام يحطم الأصنام جميعا

[٥١-٥٣] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ الضمير في ﴿رُشْدَهُۥ﴾ يعود إلى إبراهيم عليه السلام، ولم يقل ربنا: (رشدنا) مثلاً، وفي ذلك إيحاء إلى أن الله خلق الإنسان راشداً، عاقلاً، نقي الضمير، ولكنه يتبع آباءه على غير هدى فتنحرف فطرته ويضيع رشده.

ولقد أدى إعراض قوم إبراهيم عن رشدهم المركوز في فطرتهم، إلى أن يردوا على حجته القوية المنطقية بذلك الجواب السخيف الأحمق فقالوا: إنما نعبد هذه الأحجار لأننا رأينا أسلافنا

يفعلون ذلك.

[٥٤] ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لقد نسف إبراهيم بكلمة واحدة عقيدتهم المهزوزة، وتركهم في حيرة من الأمر، والآية التالية تدل على إنهم لم يكونوا على شيء في دينهم.

[٥٥] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لقد أصابتهم كلمة إبراهيم في الصميم، فطرحوا عليه هذا السؤال كمن يعطي نفسه فرصة لإعادة ترتيب أوراقه ولملمة خواطره المتناثرة.

إن التساؤل ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ يُشير إلى وجود دعوات تحررية، أو تُذكِّر بالتوحيد، لكنها لم تك تمتلك حجج تطاول طغيان المجتمع وإنحرافاته أو لم يمتلك دعاتها رصيداً واستقامة عليها، مما يجعلهم أشبه بالمغامرين أو اللاعبين.

[٥٦] ولكن إبراهيم واصل حجته القوية المنطقية، وأطبق عليهم بهذه الحقيقة الصارخة التي لا سبيل لإنكارها: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لا أحد من آلهتهم كان يدعي أنه خلق السماوات والأرض، أو أنه خلقهم. ولذلك فلابد أن يكون الإله الحقيقي لهذا الكون غير الأصنام الصماء البكماء. وهكذا أصَّر إبراهيم عليه السّلام إنه ليس لاعباً، وليس حديثه من نوع حديث المراهقين الذين يشكون الضعف في عقولهم -حاشاه-، بل إنه يدعو ويجد إلى رب السماوات والأرض، وهو شاهد على صدق دعواه، بثبات قوله، وشجاعة طرحه، واستعداده للتضحية، وسلامة نهجه وصدق مواقفه، وسعادته وفلاحه.

وهنا دحض حجتهم بالكامل، وانقطعوا عن أي جواب، ولكن النفس البشرية ليست من البساطة بحيث تؤمن بالحق أول ما تراه، فهناك عوامل معقدة ومتشابكة اجتماعية وثقافية واقتصادية، تنشأ عنها مصالح واعتبارات يخيل نظرياً للإنسان بأنه لا يستطيع التخلي عنها. إنهم عرفوا الحقيقة وانجلت أمام أعينهم، ولكن اتباعها يتطلب منهم أن يضحوا بالكثير من مكاسبهم المادية، كالجاه والسلطة والثروة وغيرها. ولذلك لم يبادروا بإعلان قبولهم بالحق وخضوعهم له، بل أنهم لاذوا بالصمت كمن ينحني لتمر العاصفة بسلام، ثم يواصل دربه.

[٥٧] ولكن إبراهيم لم يسكت، ولم يفسح لهم المجال للاسترسال في الصمت والتقليد والخوض في الباطل مع الخائضين، بل قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ أي سأحطمها بعد أن تذهبوا لحضور اجتماعات عيدكم. وكان هذا القيد الزمني بسبب إن

إبراهيم عليه السلام كان فرداً واحداً فلم يكن من الممكن أن يكسر تلك الأصنام مع وجود أعداد كبيرة من المشركين عندها.

[٥٨] ثم شفع تهديده الكلامي بالتنفيذ العملي.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ حطَّم تلك الآلهة المزيفة شر تحطيم، وترك واحداً منها، كانوا يعدونه أعظم أصنامهم، وعلَّق معوله في صدره، ليترك لهم مجالاً أكثر للتفكير في حقيقة هذه التماثيل الحجرية التي لا تضر ولا تنفع، وذلك لأنه كان لديه تصور مسبق لما سيحدث بعد ذلك من إلقاء القبض عليه ومسائلته بعد إكتشاف قومه للأمر، وكان يريد أن يكسر جدار الصمت ويوقف مسيرة الاسترسال مع الوضع الفاسد، ولكي يجد فرصة جماهيرية ليبيِّن لهم بأن هذه الأصنام لن تسبب لهم الضرر إن كانت مكسرة، كما أنها لن تنفعهم إن ظلت قائمة على منصاتها، فماذا عسى ينفعهم هذا الصنم الكبير عندما يرجعون إليه ويلوذون به؟!.

وأرادوا به كيداً فجعلناهمُ الأخسرين

﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً[1] ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كما أن نفحة العذاب في الدنيا، شاهدة على العذاب المركز في الآخرة، كذلك الثواب الدنيوي دليل على ما وراءه من ثواب عظيم في الآخرة.

(١) ويعقوب نافلة: أي زائدة، إذ لم يكن يعقوب حسب دعاء إبراهيم وإنما كان لطفاً محضاً من الله عليه.

وكما أن الإنسان حينما تستعبده أصنام التاريخ، أو أصنام المجتمع، فإنه يلاقي جزاءه في الدنيا والآخرة، حيث تتحول تلك الأصنام التي تعبد من دون الله إلى نقمات تحيط به، كذلك فإنَّ الإنسان الذي يتحرر من عبادة الأصنام التأريخية أو البشرية، يبني حياته بشكل سليم ويجازيه الله سبحانه وتعالى جزاءً حسناً.

فهذا إبراهيم قد حطَّم -أولاً وقبل كل شيء- الأصنام التي كانت تستعبد الناس آنئذ، حيث انفصل عن عبادة الآباء، وتحدى ضغوط المجتمع، ولم يكتف بعدم الخضوع لأبيه (آزر) الذي كان يتخذ موقفاً متشدداً، بل حاول أن يجعل أباه يتبعه ويطيعه، لأنه على يقين.

كما تحرر من الخضوع لطاغوت المجتمع، وللسلطة السياسية الفاسدة، بما تملك هذه السلطة من وسائل البطش والارهاب، فكان ذلك الإنسان الذي خلقه الله على الفطرة الإيمانية، وأصبح عبداً مؤمناً صالحاً كما أراده خالقه.

إن الإنسان المتحرر عن عبودية الطاغوت، وعبودية الآباء، وعبودية الشهوات، وسائر العبوديات، يصبح مستقل الشخصية، لا يخضع إلا لخالق الكون العزيز الحكيم، وهكذا بدأ إبراهيم حياته بداية سليمة، فأعطاه الله سبحانه بدل ذلك المجتمع الفاسد مجتمعاً صالحاً، وبدل ذلك الإرهاب والطغيان أمناً وحرية، وبدل ذلك التاريخ الفاسد جعله منطلقاً جديداً لبناء تأريخ صالح.

لقد عوَّضه الله عن كل بلاء صبر عليه بنعمة، فبتحرره من قيد الطاغوت أعطاه الله سبحانه نعمة القيادة وجعله إماماً، وعندما تحرر من قيد المجتمع المشرك أعطاه مجموعة من المؤمنين يتبعونه، وأعطاه الأولاد وجعل ابن خالته لوطاً يتبعه، فأنشأ ذلك المجتمع النظيف.وتحرر من قيد التاريخ المنحرف، فجعله الله سبحانه وتعالى نقطة البدء لتأريخ جديد مجيد، وجعل أولاده أئمة للناس، كما زودهم برسالة متكاملة بإزاء ذلك المنهج الفاسد الذي يتبعه الطاغوت والمجتمع الخاضع له.. برسالة تدعو إلى الخير، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وعبادة الله وحده، دون الخضوع لهذا أو ذاك.

هذا هو بعض ما يمكن أن نستوحيه من هذه الآيات الكريمة.

بينات من الآيات:

[٥٩-٦٠] ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾

من الذي حطم الأصنام؟

لابد إن الذي حطَّمها ظالم لنفسه لأنه عرَّض نفسه لانتقامنا. بلى؛ هناك شخص يدعى

(إبراهيم) يذكر الأصنام بالسوء، ويرفض أن يعبدها ويخضع لها، فمن المؤكد أنه هو الذي حطمها.

[٦١] وتحطيم الأصنام لم يكن يدل فقط على تحطيم الأحجار، وإنما كان يدل أيضاً على تحطيم الأنظمة الاجتماعية والتقاليد الفاسدة، وتحطيمها يعني التحرر منها، لذلك تجد إن مجتمع الطاغوت (نمرود) لم يكتف بمحاولة تعذيب إبراهيم، وبإعدامه، إنما أراد أن يكرس تلك التقاليد والقيم الفاسدة عن طريق فعل كل ذلك عبر تظاهرة اجتماعية صاخبة، ليكون عبرة للآخرين الذين قد تحدثهم أنفسهم باتباع منهجه التوحيدي.

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴾ يمكننا أن نفهم من هذه الآية: بأن ذلك المجتمع قد دبَّتْ إليه أفكار الرفض، حيث كان هناك آخرون غير إبراهيم يدعون الناس إلى التحرر من عبادة تلك الأصنام، وقد سبق أن استوحينا من آية أخرى مثل ذلك تلك الآية هي: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

[٦٢] ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ إبراهيم لم ينكر انه فعله أو لم يفعله وإنما:

[٦٣] ﴿ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ لا شك إن هذا أسلوب ساخر أراد به إبراهيم عليه السلام أن يلفت به أنظارهم إلى حقيقة معتقداتهم الفاسدة، وإلا فهم يعلمون مسبقاً إن هذه أحجار لا تنطق لأنهم هم الذين صنعوها بأيديهم.

[٦٤] ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أول صدمة نفسية أصيب بها هؤلاء هي إنهيار مكانة الأصنام في أنفسهم والتي كانت رمزاً لإيمانهم بالتأريخ الفاسد، وبالخضوع للحاكم الظالم المتجبر، واعتقادهم بالأساطير... إلخ.

فرجعوا إلى أنفسهم وقال كل منهم لنفسه: أنا الظالم، أنا المخطىء الذي رضيت أن أعبد هذا الصنم، الذي لا ينطق ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

[٦٥] ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ ولكنهم باعتبارهم بشر، وباعتبار إن البشر لا يستطيع تحدي واقعه الفاسد بسهولة، أخذتهم العزة بالإثم، وركبوا مطية الغرور برغم أنهم عرفوا الحقيقة وأدركوا بطلان أفكارهم وزيف معتقداتهم فقالوا مكابرين: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾ أي كيف تطلب منا أن نسألهم، وأنت تعلم إنهم لا يتكلمون، أتسخر منا أم ماذا؟!. وإذا كانت الأصنام لا تنطق ولا تتكلم فهي لا تستطيع أن تهدي من يعبدها سواء السبيل، وإذن ما الفائدة منها؟.

إن أهم صفة للإله الذي يعبد هي: أن يكون قادراً على هداية الإنسان، لأن أهم حاجة للبشر هي حاجته إلى الهداية، ثم إن أبرز ميزة في الإنسان هي العقل والإدراك، فكيف يرضى بعبادة مالا يعقل.

[٦٦] لذلك فقد حطَّم إبراهيم عليه السلام في أنفسهم هيبة الأصنام، وأفهمهم إن المحور هو محور الهدى ومنطق الحق، لا محور الضلال ومنطق القوة ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

[٦٧] وأمام موقفهم الجاهلي المتغطرس، يواجههم إبراهيم عليه السلام بمنطق العقل، بكل هدوء وثبات ليستثير عقولهم التي حجبها الكبر والغرور، وعندما يرى إصرارهم يلجأ إلى الهجوم قائلا: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ومرة أخرى أكد إبراهيم عليه السلام على فضيلة العقل في الانسان، وضرورة اهتمامه بها واستخدامها من أجل مصلحته وتكامل ذاته.

[٦٨] فلما أدينوا، ودحضت حجتهم الباطلة: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ وهذا كان آخر كلامهم، وهو: إن إبراهيم عليه السلام يجب أن يحرق، وأن ينتصروا للآلهة مادام عندهم القوة والقدرة، والرجولة والشجاعة.

فأعدوا منطقة واسعة من الأرض جمعوا فيها الحطب لمدة أربعة أشهر، ليس فقط من أجل حرق إبراهيم عليه السلام وإنما أيضاً من أجل إعادة هيبة الأصنام، فالطاغوت يعيش على الهيبة والإرهاب، وإذا فقدهما لا يبقى عنده شيء يسيطر به على الناس.

وكان لهم فلسفة أخرى وهي إشراك الناس في جريمة حرق النبي عن طريق دعوتهم للاشتراك في جمع الحطب وإعداد مكان لاحراقه، حتى لا تتحرك فيهم المشاعر الإنسانية والفطرية، ويثوروا على الطاغية نمرود، تماماً كما فعل ابن زياد الوالي الأموي بأهل الكوفة حيث بعث كل أهل الكوفة لحرب الإمام الحسين عليه السلام حتى يشركهم في جريمة قتل الإمام المفترض الطاعة، وبالتالي يأمن سخطهم وثورتهم مستقبلاً.

وصنعوا لنمرود مكاناً عالياً يجلس عليه ويتفرَّج على عملية حرق إبراهيم ثم توقفوا.. ماذا نفعل؟ النار كانت من الشدة بحيث تحرق كل من يقترب منها! فأوحى الشيطان إليهم بمكيدة فجاؤوا بالمنجنيق، ووضعوا فيه إبراهيم مغلولاً، ثم قذفوا به إلى تلك النار المستعرة قذفاً.

يد الرحمة

[٦٩] ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ حينما قال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أخذ إبراهيم يرتجف من شدة البرد، ولكن سرعان ما قال ربنا ﴿وَسَلَامًا﴾ فاعتدلت درجة الحرارة وقد جاءت قصة مفصلة في تفسير علي بن إبراهيم نذكرها فيما يلي لمزيد العبر التي فيها: تقول الرواية -فيما تقول- «فَحَبَسَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَجَمَعَ لَهُ الْحَطَبَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أَلْقَى فِيهِ نُمْرُودُ إِبْرَاهِيمَ فِي النَّارِ بَرَزَ نُمْرُودُ وَجُنُودُهُ وَقَدْ كَانَ بُنِيَ لِنُمْرُودَ بِنَاءٌ يَنْظُرُ مِنْهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ كَيْفَ تَأْخُذُهُ النَّارُ فَجَاءَ إِبْلِيسُ وَاتَّخَذَ لَهُمُ الْمَنْجَنِيقَ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَتَقَارَبَ مِنَ النَّارِ وَكَانَ الطَّائِرُ إِذَا مَرَّ فِي الْهَوَاءِ يَحْتَرِقُ. فَوُضِعَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فِي الْمَنْجَنِيقِ وَجَاءَ أَبُوهُ فَلَطَمَهُ لَطْمَةً، وَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ وَأَنْزَلَ الرَّبُّ [مَلَائِكَتَهُ] إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إِلَّا طَلَبَ إِلَى رَبِّهِ، وَقَالَتِ الْأَرْضُ: يَا رَبِّ لَيْسَ عَلَى ظَهْرِي أَحَدٌ يَعْبُدُكَ غَيْرُهُ فَيُحْرَقُ؟!. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: يَارَبِّ خَلِيلُكَ إِبْرَاهِيمُ يُحْرَقُ!. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَمَا إِنَّهُ إِنْ دَعَانِي كَفَيْتُهُ، وَقَالَ جَبْرَئِيلُ: يَا رَبِّ خَلِيلُكَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ غَيْرُهُ سَلَّطْتَ عَلَيْهِ عَدُوَّهُ يُحْرِقُهُ بِالنَّارِ؟!. فَقَالَ: اسْكُتْ إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا عَبْدٌ مِثْلُكَ يَخَافُ الْفَوْتَ، هُوَ عَبْدِي آخُذُهُ إِذَا شِئْتُ، فَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ.

فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام رَبَّهُ بِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ: «يَا اللهُ يَا وَاحِدُ يَا أَحَدُ يَا صَمَدُ يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ نَجِّنِي مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِكَ». قَالَ: فَالْتَقَى مَعَهُ جَبْرَئِيلُ فِي الْهَوَاءِ وَقَدْ وُضِعَ فِي الْمَنْجَنِيقِ، فَقَالَ: يَا إِبْرَاهِيمُ هَلْ لَكَ إِلَيَّ مِنْ حَاجَةٍ؟. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا وَأَمَّا إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَعَمْ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ خَاتَماً عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَى اللهِ، وَأَسْنَدْتُ أَمْرِي إِلَى اللهِ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى اللهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى النَّارِ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ -فَاضْطَرَبَتْ أَسْنَانُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْبَرْدِ حَتَّى قَالَ:- ﴿وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وَانْحَطَّ جَبْرَئِيلُ وَجَلَسَ مَعَهُ يُحَدِّثُهُ فِي النَّارِ وَنَظَرَ إِلَيْهِ نُمْرُودُ فَقَالَ: مَنِ اتَّخَذَ إِلَهاً فَلْيَتَّخِذْ مِثْلَ إِلَهِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَاءِ أَصْحَابِ نُمْرُودَ: إِنِّي عَزَمْتُ عَلَى النَّارِ أَنْ لَا تُحْرِقَهُ فَخَرَجَ عَمُودٌ مِنَ النَّارِ نَحْوَ الرَّجُلِ فَأَحْرَقَهُ، وَنَظَرَ نُمْرُودُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِي النَّارِ مَعَ شَيْخٍ يُحَدِّثُهُ فَقَالَ لِآزَرَ: يَا آزَرُ مَا أَكْرَمَ ابْنَكَ عَلَى رَبِّهِ»[1].

[٧٠] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ هذه عبرة لي ولك، تحد الطاغوت وتحد المجتمع الفاسد المنحرف، وتحد الأصنام التي تعبد من دون الله، وفي لحظة المواجهة تدركك رحمة الله سبحانه، فلا تخف، لأنَّ أهم شيء يربطك بعجلة الانحراف هو حبائل الخوف وأغلال الرهبة، فاقطع هذه الحبال وتلك الأغلال حتى تتحرر، وتكون أنت الفائز وأعداؤك الأخسرون.

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٧٢، بحار الأنوار: ج١٢ ص٣١.

الهجرة في سبيل اللّه

[٧١] ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ بدل هذه الأرض المحكومة بالطاغوت، أعطاه الله أرضا حرة ومباركة هي فلسطين.

[٧٢] ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴾ وأعطاه الله سبحانه أيضاً إسحاق، ومن بعده يعقوب، ومن بعد يعقوب جيلاً من المؤمنين الملتزمين الذين يدعون بالأسباط، حيث عوضه الله بهم عن ذلك المجتمع الفاسد الذي اصطدم به في دعوته التوحيدية.

وأنت أيها المؤمن أيضاً.. هاجر ولا تقل هذا أبي وهذا أخي وهذا صديقي.. إلخ، اترك كل ذلك وهاجر من المجتمع الفاسد إذا لم تستطع أن تصلحه وتغيّره، وآنئذ يعوضك الله تعالى بأفضل منهم.

[٧٣] ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ جعل الله الذين هاجروا أئمة وهذه من نتائج الهجرة في سبيل الله.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾ هذا هو برنامج الله للمؤمنين: أعمال الخير والزكاة والصلاة والتحرر الكامل عن سلطة كل من لم يأذن الله بطاعته، والإلتزام بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى فقط.

إن هذه القيادة والإمامة تجسدت في إبراهيم عبر أكثر من خمسة آلاف سنة وإلى يومنا هذا، في ذلك اليوم جاءه حاميه ظاهراً وأقرب الناس إليه وهو عمه آزر -لما غلوا يديه ليلقوا به في النار- فضربه وقال: ألم أنهك يا إبراهيم فلماذا فعلت، هذا هو جزاء فعلتك.. بلى؛ في تلك الأرض لم يكن أحد يدافع عن إبراهيم، ولكن إلى الآن والأجيال التي بعدنا، تلهج ألسنتهم بذكر إبراهيم ومدحه، وكل واحد يبحث عن طريقة إبراهيم ليقتدي به فيها، وهذا جزاء من أحسن عملاً، في الدنيا، أما الجزاء الأكبر فهو ينتظر المحسنين في الآخرة.

هكذا ينصر الله رسله بالغيب

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ[1] إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ[3] لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

هنالك سؤالان يتبادران إلى الذهن عندما يقرأ الإنسان القرآن، وهما:

---

(١) الحرث: الزرع.
(٢) نفشت: النفش بمعنى فرار الإبل أو الغنم ليلًا ليرعى بدون راع.
(٣) صنعة لبوس: اللبوس هو السلاح الذي يلبس كالدرع.

أولاً: لماذا يكثر القرآن من قصص الأنبياء في آياته؟.

ثانياً: لماذا يذكر القرآن قصص الأنبياء بصورة متفرقة وفي سور مختلفة؟.

الجواب على السؤال الأول هو:

ألف: لكي يبين لنا بأن رسالات جميع الأنبياء تسير في خط واحد، وتدعو في جوهرها إلى شيء واحد وهو منهج التوحيد.

بـاء: لكي يكرّس كونهم قدوة وأئمة لنا، وبالتالي نستفيد من أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم ونطبقها في واقع حياتنا العملي الذي نعيشه.

والجواب على السؤال الثاني باختصار:

١- إنّ القصص التي يوردها القرآن ليست هدفاً في حد ذاتها حتى يسردها مرة واحدة.

٢- إنّ تكرار القصة في مواضع متعددة يشعر بأهميتها، ويلفت النظر إلى ضرورة التفكر فيها ودراستها جيداً، ومن ثم الإقتداء بأخلاق الأنبياء ومواقفهم فيها.

٣- عندما يكرر القرآن ذكر القصة الواحدة، فإنه لا يكرر جزئياتها، وإنما في كل مرة ينقل جانباً معينا منها يتناسب مع المواضيع التي يعالجها السياق، وهذا الأسلوب يلقي أضواء كاشفة على أحداث القصة، ويظهر العبر المطلوبة منها، وكذلك يجعلها شيئاً فشيئاً تتكامل في الأذهان لتكون -بالتالي- برنامج عمل في الحياة بالنسبة إلى المؤمنين.

وفي سورة الأنبياء يضرب القرآن الحكيم مثلاً من واقع مسؤولية الإنسان في الحياة، وهي على جانبين:

الأول: مسؤولية أعماله السيئة، ويقابلها العقاب الصارم، كما حدث لقوم لوط ونوح.

الثاني: مسؤوليته تجاه أعماله الحسنة، ويقابلها الثواب الجزيل، كما حدث للوط ونوح ومن آمن بهما.

كما يبين لنا أن الأنبياء كانوا في ساعات الشدة يتوجهون إلى ربهم بالدعاء فينجيهم من بطش أعدائهم، وهذا يكشف لنا إن حياة الأنبياء -أساساً- لم تكن مفروشة بالورد، بل كان

ملؤها الآلام والمشاكل، ولكنهم انتصروا عليها بإذن الله، مما يعطينا شحنة من الأمل والاندفاع في مواجهة صعوبات حياتنا وتحدياتها، إذ سنكون على يقين من إنه، إن عجزت قدراتنا عن الصمود أمامها فإنَّ هناك من يمدنا بالعون اللازم وهو الله العزيز القدير.

بينات من الآيات:

نجاة لوط

[٧٤] ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أهم نعمة يسبغها الرب لعبده هي نعمة الهدى، التي تؤدي إلى معرفة الحقيقة، وغاية الهدى النبوة، وقد أعطى الله لوطاً ﴿حُكْمًا﴾ أي نبوة، والنبوة: ليست مجرد علم غيبي بالحقائق، بل هي أيضاً إذن من الله بالاستخلاف في الأرض وبالتالي إمامة الناس.

ولعلّه لذلك اختلفت معاني كلمة: (الحكم) وموارد استعمالها في الكتاب، فحينا تستعمل في الرسالة، وحيناً في القضاء، وحيناً في العقل، والجميع ينتهي إلى ذات المنصب الإلهي الذي يجمع كل تلك الفضائل.

﴿وَعِلْمًا﴾ أي معرفة الحقائق التفصيلية.

وإلى جانب الحكم والعلم أعطى الله لوطاً: نعمة أخرى وهي نجاته من الأخطار المادية والمعنوية المحيطة به، حيث نجاه من القرية التي كان أهلها يقومون باللواط، وقطع الطرق، وكثير من المنكرات وأنقذه من أذى قومه السيئين والخارجين عن أمر الله والمبعدين عن دينه وشريعته.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ ونسب السياق المنكرات إلى ذات القرية، إشارة إلى أن جميع أهلها كانوا كذلك، حتى وكأن القرية ذاتها كانت تعمل الخبيث.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ كانت أخلاقهم سيئة، وكان عملهم فسقاً، ومثل هؤلاء لا يتوقع منهم إلا الشر والأذى والاعتداء على رسل الله، وعلى كل من يرفع صوته منادياً بالإصلاح والتغيير.

[٧٥] ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ شبه الرحمة بالبيت الذي يدخله الإنسان، فيحيط به من جميع جوانبه ويحفظه من الأخطار الخارجية، ويمده بأسباب الراحة والاطمئنان في الداخل، وقد أدخل الله عز وجل نبيه لوطاً في رحمته الخاصة، لأنه كان من الصالحين، أي كان سليم النية مخلص القلب عالي الأخلاق.

هكذا استجاب الله لنوح عليه السلام

[٧٦] ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ هذه الآية تبين أهمية الدعاء وعظمة شأنه، إذا كان مستكملاً لأركانه وشرائطه، فنوح عليه السلام صبر واستقام في أداء رسالته، وأخلص الطاعة لربه وخالقه، فلما تعرضت الأمة المنحرفة لخطر الطوفان الرهيب الذي لم يكن ليصمد أمامه شيء، ولم تكن حتى سفينة نوح كافية للإفلات من غضبه الأمواج الهادرة، طلب نوح عليه السلام من ربه النجاة، فجاءته الاستجابة الإلهية الكريمة لتشمله هو ومن كان معه باللطف والعناية، وتشير الآية إلى أن هناك شرطين أساسيين للدعاء:

ألف: العمل في مسير الدعاء، أي أن يكون الدعاء مصحوباً بما يتمكن عليه الإنسان من العمل والسعي في إتجاه الهدف المطلوب، لا أن يكون وسيلة للقعود والتهرب من المسؤولية، ونوحاً إنما دعا ربه بعد (٩٥٠) عاماً مـن الدعوة والجهاد.

بـاء: الخشوع والتضرع إلى الله سبحانه، بحيث يتمثل الإنسان نفسه واقفاً بين يدي ملك الملوك جبار السماوات والأرض، أما أن يدعو ربه، ويكون فكره مشغولاً بمواضيع دنيوية أو متعلقاً بأشخاص آخرين، فهذا ليس من أدب الدعاء وليس طريقاً للاستجابة أبداً.

والدعاء الصحيح يحول الإنسان من أعماق البئر إلى ملك يجلس على عرش مصر، كيوسف عليه السلام، ومن رجل مطارد يلقى به في أتون النار الملتهبة إلى إمام للناس يصبح بداية تأريخ، كإبراهيم عليه السلام، ومن شاب مغمور إلى ملك مهاب، كداود عليه السلام، أو من رجل قد أحاط المرض والفقر به إلى إنسان سوي ثري ذي أهل وأولاد وجاه في المجتمع، كأيوب عليه السلام، وكل ذلك جرى بالقدرة الإلهية الغيبية، وبواسطة الألطاف الرحمانية التي شملتهم، بسبب إخلاص طاعتهم وتوجيههم لخالقهم.

وهذا هو معنى المسؤولية، حيث إنها لا تقتصر على العمل وتحمل الأذى والصعاب فقط، وإنما تمتد إلى انتظار الفرج، وتوقع الثواب من قبل الرب الغني الحميد، الذي يعجل بجزء من رحمته لعبادة الصالحين في الدنيا، ويؤجل الأعظم منها إلى الحياة الأبدية في الدار الآخرة.

[٧٧] ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إن إنقاذ الإنسان من مجتمعه الفاسد قضية هامة تركز عليها هذه الآيات بل كل سورة الآنبياء، وإن من الأصنام المجتمع الذي إن لم يقدر على إصلاحه فعليه أن ينقذ نفسه منه باللجوء إلى الله، فإنَّ البلاء إذا نزل عم، وهكذا أنقذ الله نوحاً من القوم الذين كذبوا بآيات الله.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كانت أعمالهم منحرفة ونفوسهم خبيثة، لذلك أغرقهم الله، ولم يبق أحد منهم على الأرض، حيث استجاب الرب دعاء نوح فيهم حين دعاه قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦].

سليمان عليه السلام والقضاء الفصل

[٧٨] ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ من مظاهر رحمة الله بعبده الذي يبحث عن الهدى ويجاهد من أجله، إن الله سيهديه.وسورة الأنبياء تؤكد في مواضع مختلفة على هذه الفكرة وهي: إن العقل والهدى أفضل نعمة يتمتع بها الإنسان، وقد وهب الله هذه النعمة لداود وسليمان حيث كانا يحكمان في قضية معقدة وقعت على عهدهم حيث إن قطيعاً من غنم قوم دخل حقل كرم لقوم آخرين، وأفسد الزراعة.ولعلنا نستوحي من هذه القصة إن مجتمع داود كان ينقسم إلى قسمين: مجتمع زراعي، ومجتمع رعاة، وكانوا يختلفون، حيث إن الرعاة كانوا يأتون بأغنامهم إلى المدينة ويطلقونها فإذا جنَّ الليل تهيج الأغنام فتدخل في الحقول المزروعة وتعبث بها، وكان أصحاب الحقول يطالبون بدفع تعويضات عن خسارتهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ إن الغنم ترعى في الليل بشكل غير منتظم، وهكذا حين دخلت على مزرعة الناس أهلكتها، فلما جاء المزارعون راوا أنه لم يبق من كرومهم شيء، لا العناقيد ولا الأوراق، فحكم داود -كما جاء في بعض النصوص- أن يكون الغنم من نصيب صاحب الحقل، ولعلَّ حكمة هذا القضاء تكمن في أن على أصحاب الماشية حفظها ليلاً بينما على صاحب الزرع حفظها نهاراً، حيث جاء في حديث مأثور عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله: **«إِنَّهُ قَضَى بِحِفْظِ المَوَاشِي عَلَى أَرْبَابِهَا لَيْلاً، وَقَضَى بِحِفْظِ الحَرْثِ عَلَى أَرْبَابِهِ نَهَاراً»**[(١)].

وحسب ما جاء في الحديث: **«كَانَ كَرْماً وَقَدْ بَدَتْ عَنَاقِيْدُهُ، فَحَكَمَ دَاودُ بِالغَنَمِ لَصَاحِبِ الكَرْمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: غَيْرُ هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ! قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: يَدْفَعُ الكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الغَنَمِ، فَيَقُومُ عَلَيْهِ حَتَّى يَعُودُ كَمَا كَانَ، وَيَدْفَعُ الغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الكَرْمِ، فَيُصِيبُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا عَادَ الكَرْمُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ دَفَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ مَالَهُ»**[(٢)].

فيكون أصحاب الغنم قد دفعوا ثمن إهمالهم وتفريطهم، ويكون أصحاب البساتين قد عوضوا عن الأضرار التي لحقت بمزروعاتهم.

---

(١) مجمع البيان: ج٧ ص٧٩.

(٢) روي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام، راجع مجمع البيان للطبرسي: ج٧ ص١٠٣.

[٧٩] ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ لقد أعطى الله الحكم لسليمان حيث كان وصي داود، وكان شديد الاهتمام بتحمل مسؤوليته، وكان يسعى نحو تطبيق العدالة، فوهب الله له حكماً.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ داود أيضاً كان على حق، وهنا نتعرض للسؤال التالي: إذا كان داود نبياً كسليمان، فكيف اختلف قضاؤهما، وهل كان كلا الحكمين صحيحاً، كما نستوحي من هذه الآية، إذا كيف يكون لواقعة واحدة حكمان مختلفان؟»

الجواب:

أولاً: جاء في النصوص ما يوحي إلى أن الحكم الثاني كان بمثابة النسخ، حيث يسأل أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: قول الله عز وجل: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ قلت: حين حكما في الحرث كان قضية واحدة؟ فقال عليه السلام: «إِنَّهُ كَانَ أَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى النَّبِيِّينَ قَبْلَ دَاوُدَ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللهُ دَاوُدَ: أَيُّ غَنَم نَفَشَتْ فِي الْحَرْثِ فَلِصَاحِبِ الْحَرْثِ رِقَابُ الْغَنَمِ ولَا يَكُونُ النَّفْشُ إِلَّا بِاللَّيْلِ فَإِنَّ عَلَى صَاحِبِ الزَّرْعِ أَنْ يَحْفَظَهُ بِالنَّهَارِ وعَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ حِفْظُ الْغَنَمِ بِاللَّيْلِ فَحَكَمَ دَاوُدُ عليه السلام بِمَا حَكَمَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ عليهم السلام مِنْ قَبْلِهِ وأَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام: أَيُّ غَنَم نَفَشَتْ فِي زَرْعٍ فَلَيْسَ لِصَاحِبِ الزَّرْعِ إِلَّا مَا خَرَجَ مِنْ بُطُونِهَا، وكَذَلِكَ جَرَتِ السُّنَّةُ بَعْدَ سُلَيْمَانَ عليه السلام وهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فَحَكَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

ثانياً: جاء في حديث مأثور: «إِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَكْشِفَ لِلنَّاسِ فَضْلَ سُلَيْمَانَ، وَأَنَّهُ وَصِيُّ أَبِيهِ وَخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ»[(٢)].

ثالثاً: إن داود لم يحكم إنما كان يناظر ابنه في الحكم، وبذلك أيضاً وردت أحاديث شريفة أخرى.

رابعاً: إن قيمة ما أتلفه الغنم في حقل القوم كانت بقيمة الغنم، وكانت هناك طريقتان لاستيفاء هذه القيمة: الأولى أخذ الغنم، والثانية أخذ نتاجها لعام واحد، وقد حكم كل نبي بطريقة معينة، وقد قال داود لسليمان بعد الحكم: «فَكَيْفَ لَمْ تَقْضِ بِرِقَابِ الغَنَمِ، وَقَدْ قَوَّمَ ذَلِكَ العُلَمَاءُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَكَانَ ثَمَنُ الكَرْمِ قِيمَةَ الغَنَمِ، فَقَالَ سُلَيْمَانُ: إِنَّ الكَرْمَ لَمْ يُجْتَثَّ مِنْ أَصْلِهِ وَإِنَّمَا أُكِلَ حَمْلُهُ وَهُوَ عَائِدٌ فِي قَابِلٍ»[(٣)].

(١) الكافي: ج٥ ص٣٠٢.
(٢) نور الثقلين: ج٣ ص٤٤٣.
(٣) نور الثقلين: ج٣ ص٤٤٣.

النعمة والمسؤولية

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ هناك تفاسير مختلفة وردت في هذه الكلمات لعل أقربها -والله العالم- إن الله سبحانه وتعالى سخّر لداود عليه السلام الجبال بما فيها من معادن وإمكانات، وسخر له الطيور بما تملك من قدرات على الطيران، فما بال الإنسان يتمرد على ربه، وهو يستخدم المعادن من الجبال، ويسخر الطيور، فيا أيها الإنسان: إن الحديد المسخر لك ليس ملكك إنما هو بيدك لفترة محدودة، وهذه الآلة الحديدية التي تستخدمها قد تأتي يوم القيامة وتقول: إلهي أنت سخرتني لفلان فما فضله علي، فإذا استطعت أن تثبت -يوم القيامة- بأنك كنت إنساناً، وتحملت مسؤوليتك في الحياة فأنت أفضل من الحديد.

إن الطيور والجبال والأشياء كلها لله وليست لنا، ولكن كلما سخرنا الأشياء، كلما ازدادت مسؤوليتنا وكبرت، ويوم القيامة نحاسب حساباً عسيراً. إذا كانت هناك أرض (موات) وكان من الممكن إصلاحها وإستصلاحها بناء أو زراعة أو رعياً أو أي شيء آخر، ولم تصلحها، فإنَّ هذه الأرض قد تأتي يوم القيامة لتشتكي عند الله قائلة: إلهي أنت سخرتني من أجل الناس ولكنهم لم يستفيدوا مني.

إن المسؤولية بالنسبة للإنسان دقيقة وشاملة فهو مسؤول عن كل ما يحيط به، كما هو مسؤول عن نفسه وأهله ومجتمعه.

إن داود لم يكن بالذي يسخر الجبال بقوته الذاتية، والبشر ليسوا بالذين يسخرون الحديد والنار بطاقاتهم الذاتية، بل الله يفعل كل ذلك بقدرته ويسخرها لهم بفضله، فلو نامت البشرية ليلة ثم استيقظت وقد سلب الله منهم العقل لأصبحوا وحوشاً بكماء، فهل يقدرون على شيء من حضارتهم؟ كلا.. ولا تشغيل سيارة أو إنارة مصباح فلماذا لا يشكرون الله بعمل الصالحات، وتحمل المسؤولية؟

[٨٠] ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾
اللبوس: كل أداة حربية يلبسها الإنسان من درع وجوشن وغيره، والبأس الحرب.

لقد كانت حركة داود إصلاحية في الأرض، تتطلب صد هجمات الأعداء والمعارضين، ولذلك فقد ألهمه الله طريقة صنع الدروع، وألان له الحديد، وهناك نكتة ظريفة في الآية وهي: إن الله لم يعلمه صناعة آلات حربية هجومية مدمرة، بل اقتصر على الآلات الدفاعية ولعلَّ ذلك يوحي بأن الرسالات الإلهية لا تدعو إلى القتل والدمار ابتداء، وإنما هي تدعو إلى الإصلاح والسلام، ولذلك فهي بحاجة إلى الدفاع عن نفسها في مواجهة أعداء الإسلام والإنسانية.

[٨١] ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ كانت الريح تحمل سليمان عليه السلام بأمر الله سبحانه لتنقله إلى أي مكان شاء في مدة قصيرة، وقد يأتي يوم يكتشف فيه علماء التاريخ والآثار إن الطائرة كانت مصنوعة من أيام سليمان عليه السلام، حيث كانت تنقله يومياً بين القدس وقلاع بعلبك ليشرف على أمور مملكته.

[٨٢] ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ إلى الآن لم يصل العلم هذا المستوى، ولكن ليس من المستحيل أن يستخدم البشر الشياطين في يوم ما ليقوموا ببعض الأدوار، إن البشر الآن يستخدم أنواعاً من الحيوانات كالدلافين في أعمال الإنقاذ أو عملية التجسس، والكلاب لاكتشاف المجرمين، والحمام الزاجل لنقل الرسائل، وهكذا.. ولكنه في المستقبل ينبغي أن يصل إلى درجة استخدام الأرواح والشياطين بشكل واسع.

الغوص كان أصعب الأعمال حيث لم يكن أحد من البشر في تلك الأيام يستطيع القيام به ولكن الشياطين كانوا يقومون به بكل سهولة بالإضافة إلى أعمال أخرى أيضاً، مثل البناء.

إن الذاهب إلى بعلبك يرى تلك القلاع الضخمة المبنية من صخور هائلة والتي لا يعرف البشر إلى الآن كيف جيء بها إلى هناك من أماكن بعيدة، حيث إن تلك الصخور لم تكن موجودة في تلك الأرض، من أتى بهذه الصخور، ومن بنى تلك القلاع؟ يبدو إن الشياطين فعلوا ذلك.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ إن هذه الطاقة الهائلة المتمثلة بالشياطين لم تكن فالتة الزمام، بل كانت محفوظة في إطارها المرسوم من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذه إشارة للإنسان بأن توجهه إلى الله وتوكله عليه يعطيه إمكانية لتسخير الأشياء، وحل المشاكل في الحياة.

وحدة الرسالات والأنبياء

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۢ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق بيّنا إن الأنبياء عليهم السلام هم قدوات للبشر وإنما تتكرر قصصهم في القرآن الحكيم -المرة بعد الأخرى- وبأساليب مختلفة لكي تتكرَّس قيادتهم للبشرية، ولا تزال آيات القرآن الحكيم تؤكد هذه الفكرة، فبعد أن تذكر قصص بعض الأنبياء عليهم السلام، تبين إن هؤلاء جميعاً كانوا يتبعون خطاً فكرياً واحداً هو التوحيد، ولذلك يجب على الإنسان أن يتبعهم ويتخذهم

قدوات في حياته، وإن أفعال الأنبياء عليهم السلام وصفاتهم وسيرتهم، وإن اختلفت صورها، فإنها واحدة في المحتوى، وإن وحدة الأفعال والصفات والسير عندهم هي بقدر يكفي الإنسان للإقتداء بهم.

وبالرغم من أن القرآن الكريم في هذه السورة بالذات لم يبين جوانب عديدة من حياة الأنبياء، إنما أشار إلى أسمائهم وإلى أبرز صفاتهم إشارة خاطفة، لكنَّه مع ذلك يقول في نهاية قصصهم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، لماذا؟ لكي يقول لنا بأن هذه المجموعة هي المجموعة (القدوة) وهي المجموعة (الإمام) بالنسبة اليكم أيها البشر.

ولتأكيد هذه الفكرة تشير هذه الآيات والتي قبلها إلى هؤلاء وتأتي بأسمائهم متتالية بالرغم من إنهم كانوا في عصور مختلفة وأمصار متفرقة، حتى إن القرآن أتى بإسمائهم بصورة غير مرتبة تأريخياً.

فيذكرنا بموسى ثم بإبراهيم ثم بنوح، ثم بسليمان وأيوب، ثم بإدريس، وبين هؤلاء آلاف السنين، وإن أحدهم قبل أو بعد الآخر، وذلك لكيلا يقول فرد أو مجتمع ما إنني أتبع النبي الأخير ولا أتبع النبي الأول، أو إنني أومن بالنبي الأوسط أو الأول دون الأخير، فكلهم نور واحد، ويجب علينا أن نقتدي بهم جميعاً.

والقرآن الحكيم يتبع ببيانه للقصص والأحكام والعبر والأمثال، خطاً واحداً هو خط التوحيد، والتوحيد هو: صبغة القرآن التي يضعها على كل قصة، وعلى كل عبرة، وكل حكم تشريعي، وكل رؤية وبصيرة.

وإن لله سبحانه أسماء حسنى ويهدينا الذكر إلى أسماء ربنا العزيز، ومن هنا تجد وكأنَّ كل سورة من سور القرآن قد خصصت لبيان اسم من أسماء الله الحسنى، وهذه السورة بالذات تبين اسم المجيب حيث إن الله قريب من الإنسان، يستجيب له ويسمع نداءه والأنبياء عليهم السلام بعد أن توكلوا عليه في أشد لحظات حياتهم، فإذا به يستجيب لهم وينصرهم، ويعطيهم أكثر مما طلبوا.

وهذه من خصائص فضل الله سبحانه وتعالى، إذا فتحت أبواب رحمته فإنها تفيض من كل جانب لكثرتها وتنوعها حتى تكون حياتك أضيق من استيعاب كل رحمة الله، كما إذا فتحت أبواب السماء بالمطر كيف نرى الأرض عاجزة عن استقبال أمطار السماء حتى أنها تعيد الزائد منها إلى البحار مرة أخرى.

بينات من الآيات:

قصة النبي الصابر

[٨٣] أصيب بالمرض ومات أهله، ونفذت مواشيه، وكان عزيزاً في قومه فافتقر، فابتعد عن الناس بسبب فقره ومرضه، وكانت زوجته الوفية هي التي تخدمه، وتنفق عليه وذلك بقيامها بالخدمة في بيوت الناس بعد أن كانت السيدة في قريتها، وحينها يطفح به الكيل يبدأ بالدعاء، ذلك هو النبي الصابر أيوب عليه السلام، ولكن انظر كيف يدعو؟.

[٨٣] ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ لأن الله عالم بما أصاب أيوب، فلابد أن يكون نداؤه استعطافاً ودعاء وكأنه يقول يا رب إن الضر قد بلغ مني غايته. لكن النبي أيوب عليه السلام تكلم بأدب فائق وقال: ﴿مَسَّنِىَ﴾ بالرغم من عظم الابتلاء فهو مجرد مس، فليس فيه تشكي وإنما طلب للعافية. ولعلَّ التعبير بـ (النداء) هنا للدلالة على أن الضر قد دفع بأيوب إلى أن يعلو صوته، مع إن الله قريب يناجى وليس ببعيد حتى ينادى.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أرحم الراحمين، فإليك أتوجه بالدعاء لترفع عني هذا الضر.

[٨٤] ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ هذه عبرة لنا نحن الذين تعبد الله لكي نعلم، أي رب رحيم نعبده، وكيف إنه يستجيب دعاءنا، فلا يكشف السوء عنا فقط، وإنما يزيدنا من فضله أيضاً.

ويبقى سؤال: لماذا ابتلى الرب أيوب وهو النبي العظيم المكرم عند ربه؟ وماذا كانت بليته، وما الذي نعتبره من قصته؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها أنقل هنا نص حديثين مأثورين عن أئمة الهدى عليهم السلام:

١- الحديث الأول مأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه الباقر عليه السلام وفيه الإمام يفند المزاعم التي كانت رائجة وتدعي أن أيوب ابتلي بسبب ذنب ارتكبه، وأنه قد بلغ به البلاء حداً نبذه الناس، يقول عليه السلام: «**إِنَّ أَيُّوبَ ابْتُلِيَ سَبْعَ سِنِينَ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ وَ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُذْنِبُونَ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مُطَهَّرُونَ لَا يُذْنِبُونَ وَ لَا يَزِيغُونَ وَ لَا يَرْتَكِبُونَ ذَنْباً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً.**

وقال عليه السلام: **إِنَّ أَيُّوبَ مِنْ جَمِيعِ مَا ابْتُلِيَ بِهِ لَمْ تُنْتِنْ لَهُ رَائِحَةٌ وَلَا قَبُحَتْ لَهُ صُورَةٌ وَ لَا**

خَرَجَتْ مِنْهُ مِدَّةٌ مِنْ دَمٍ وَلَا قَيْحٌ وَلَا اسْتَقْذَرَهُ أَحَدٌ رَآهُ وَلَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ أَحَدٌ شَاهَدَهُ وَلَا تَدَوَّدَ شَيْءٌ مِنْ جَسَدِهِ، وَهَكَذَا يَصْنَعُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِجَمِيعِ مَنْ يَبْتَلِيهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُكَرَّمِينَ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا اجْتَنَبَهُ النَّاسُ لِفَقْرِهِ وَضَعْفِهِ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ لِجَهْلِهِمْ بِمَا لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ مِنَ التَّأْيِيدِ وَالْفَرَجِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَعْظَمُ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، وَإِنَّمَا ابْتَلَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْبَلَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَهُونُ مَعَهُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ لِئَلَّا يَدَّعُوا لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ[1] إِذَا شَاهَدُوا مَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ مِنْ عَظَائِمِ نِعَمِهِ تَعَالَى مَتَى شَاهَدُوهُ وَلِيَسْتَدِلُّوا بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الثَّوَابَ مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَلَى ضَرْبَيْنِ اسْتِحْقَاقٍ وَاخْتِصَاصٍ وَلِئَلَّا يَحْتَقِرُوا ضَعِيفاً لِضَعْفِهِ وَلَا فَقِيراً لِفَقْرِهِ وَلَا مَرِيضاً لِمَرَضِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُ يُسْقِمُ مَنْ يَشَاءُ وَيَشْفِي مَنْ يَشَاءُ مَتَى شَاءَ كَيْفَ شَاءَ بِأَيِّ سَبَبٍ شَاءَ وَيَجْعَلُ ذَلِكَ عِبْرَةً لِمَنْ شَاءَ وَشَقَاوَةً لِمَنْ شَاءَ وَسَعَادَةً لِمَنْ شَاءَ وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ عَدْلٌ فِي قَضَائِهِ وَحَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا يَفْعَلُ بِعِبَادِهِ إِلَّا الْأَصْلَحَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ»[2].

هكذا يؤكد هذا الحديث: إن حكمة إبتلاء أيوب (أولا أقل العبرة التي نستوحيها منه) عدم جعل البلاء في الدنيا دليلاً على غضب الله، بل قد يكون دليلاً على قرب صاحبه من الله.

٢- أما الحديث الثاني المروي عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام فإنه يفصل القول في بلاء أيوب كيف كان، ومتى طفح كيل الصبر عنده: «إِنَّمَا كَانَتْ بَلِيَّةُ أَيُّوبَ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا فِي الدُّنْيَا لِنِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ فَأَدَّى شُكْرَهَا وَكَانَ إِبْلِيسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لَا يُحْجَبُ دُونَ الْعَرْشِ فَلَمَّا صَعِدَ عَمَلُ أَيُّوبَ بِأَدَاءِ شُكْرِ النِّعْمَةِ حَسَدَهُ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ أَيُّوبَ لَمْ يُؤَدِّ شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ إِلَّا بِمَا أَعْطَيْتَهُ مِنَ الدُّنْيَا فَلَوْ حُلْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُنْيَاهُ مَا أَدَّى إِلَيْكَ شُكْرَ نِعْمَةٍ فَسَلِّطْنِي عَلَى دُنْيَاهُ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى دُنْيَاهُ فَلَمْ يَدَعْ لَهُ دُنْيَا وَلَا وَلَداً إِلَّا أَهْلَكَ كُلَّ ذَلِكَ وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ أَيُّوبَ يَعْلَمُ أَنَّكَ سَتَرُدُّ إِلَيْهِ دُنْيَاهُ الَّتِي أَخَذْتَهَا مِنْهُ فَسَلِّطْنِي عَلَى بَدَنِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةٍ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى بَدَنِهِ مَا عَدَا عَيْنَيْهِ وَقَلْبَهُ وَلِسَانَهُ وَسَمْعَهُ.

فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: فَانْقَضَّ مُبَادِراً خَشْيَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ رَحْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَنَفَخَ فِي مَنْخِرَيْهِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ فَصَارَ جَسَدُهُ نُقَطاً نُقَطاً[3].

فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ وَكَانَ فِي آخِرِ بَلِيَّتِهِ جَاءَهُ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا لَهُ يَا أَيُّوبُ مَا نَعْلَمُ أَحَداً

---

(١) وقد وردت هذه الفكرة في نصوص أخرى أيضاً.

(٢) بحار الأنوار: ج١٢ ص٣٤٨ باب قصص أيوب عليه السلام.

(٣) الى هنا ينقطع الحديث المأثور عن كتاب علل الشرائع عن أبي بصير، ويستمر بعدئذ حديث آخر مشابه له مأثور في الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. أنظر المصدر.

ابْتُلِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ إِلَّا لِسَرِيرَةِ سُوءٍ فَلَعَلَّكَ أَسْرَرْتَ سُوءاً فِي الَّذِي تُبْدِي لَنَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ نَاجَى أَيُّوبُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: رَبِّ ابْتَلَيْتَنِي بِهَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَأَنْتَ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِضْ لِي أَمْرَانِ قَطُّ إِلَّا الْزَمْتُ [لَزِمْتُ] أَخْشَنَهُمَا عَلَى بَدَنِي وَلَمْ آكُلْ أُكْلَةً قَطُّ إِلَّا وَعَلَى خِوَانِي يَتِيمٌ فَلَوْ أَنَّ لِي مِنْكَ مَقْعَدَ الْخَصْمِ لَأَدْلَيْتُ بِحُجَّتِي[1]، قَالَ: فَعَرَضَتْ لَهُ سَحَابَةٌ فَنَطَقَ فِيهَا نَاطِقٌ فَقَالَ: يَا أَيُّوبُ أَدْلِ بِحُجَّتِكَ، قَالَ: فَشَدَّ عَلَيْهِ مِئْزَرَهُ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ؛ فَقَالَ: ابْتَلَيْتَنِي بِهَذِهِ الْبَلِيَّةِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِضْ لِي أَمْرَانِ قَطُّ إِلَّا أَلْزَمْتُ [لَزِمْتُ] أَخْشَنَهُمَا عَلَى بَدَنِي، وَلَمْ آكُلْ أُكْلَةً مِنْ طَعَامٍ إِلَّا وَعَلَى خِوَانِي يَتِيمٌ، قَالَ فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوبُ مَنْ حَبَّبَ إِلَيْكَ الطَّاعَةَ؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفّاً مِنْ تُرَابٍ فَوَضَعَهُ فِي فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ يَا رَبِّ»[2].

ونستوحي من هذه الرواية عدة حقائق:

ألف: إن شكر أيوب كان عظيماً فامتحنه الله سبحانه بأعظم البلاء ليعرف الناس أن الشكر ليس عند الرضاء في منطق الأنبياء، بل وأيضاً عند البلاء، وإن أيوب وسليمان في الشكر سواء.

بـاء: إن حكمة النبوة تتنافى مع التعيير، ولذلك فإنَّ الله لا يدع أنبياءه عليهم السلام يتعرضون للشماتة بل يستجيب دعاءهم.

جاء: إن أيوب ذلك العبد الصابر وذلك النبي الكريم عند الله، تاب إلى ربه فور ما صدر منه ما يبدو أنه نوع من الفخر بعمله، بالرغم من أن صبره وشكره واجتهاده كان كل ذلك عظيماً غاية العظمة.

صبر الأنبياء عليهم السلام

[٨٥] ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يذكر الله سبحانه إدريس وذا الكفل وإسماعيل عليه السلام معاً بالرغم من أن ترتيبهم الزمني كان هكذا: إدريس ثم إسماعيل فذا الكفل، وذلك لكي يبين صفة يجب أن نقتدي بهم منها وهي صفة (الصبر).

لقد صبر إدريس عليه السلام على دعوة قومه فلم يستجيب له إلا قليل حتى رفعه الله إليه.

أما إسماعيل فقد ابتلاه الله حين أمر والده بأن يتركه وأمه بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، فذاق العطش والغربة، وكان فيهما صابراً، حتى إذا بلغ أشده، أمر والده بذبحه فأسلم

(١) أدلى لحجة: طرحها وأصبح بها.
(٢) علل الشرائع: ج١، ص٧٦.

لله صابراً محتسباً.

وأما ذا الكفل فقد كان مرسلاً إلى قومه يتبع شريعة داود عليه السلام وقد كفل مجموعة من الأنبياء يقال: إنهم سبعون، فأطلقهم وبقي مسجوناً في بئر عميقة وضع على رأسها صخرة كبيرة، وظل صابراً، الى أن أهلك الله الطاغوت فأطلق سراحه بعد ذلك.

[٨٦] ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فلأنهم كانوا من الصالحين أدخلهم الله في رحمته، ونحن أيضاً يجب أن نصبح من الصابرين الصالحين حتى يدخلنا الله معهم.

دعاء يونس عليه السلام

[٨٧] ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ إن كلمة ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ تعني لغوياً صاحب الحوت وهي تشير إلى نبينا يونس بن متى عليه السلام، وقصته تلخص في أنه دعا على قومه حيث لم يستجيبوا للرسالة وذلك قبل أن يكون وقت الدعاء عليهم، ثم خرج من قريته التي تضم حوالي (١٢٠) ألف شخص وهاجر عنها وهو يحسب أنه خرج من ضيق قومه حيث ابتعد عن الذين أصروا على عدم قبول دعوته، رغم إنه بذل في إقناعهم جهوداً كبيرة، ولكنه انتقل من مكان ضيق إلى ما هو أضيق منه، في بطن الحوت، الذي ابتلعه فمكث هناك وهو في حالة كرب شديدة.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي اعتقد أنه سيتجه إلى الحرية من بعد ضيق قومه، بينما كان يتجه إلى سجن رهيب، وإلى ما هو أضيق من ذلك.

ذهب إلى شاطىء البحر حيث جاءت سفينة فركب فيها، وإذا بحوت ضخم يهاجم السفينة ليبتلعها، فقال أهل السفينة دعونا نقترع فنأخذ واحداً من ركاب السفينة ونلقي به الى الحوت فيترك السفينة تواصل رحلتها، وهكذا فعلوا فوقعت القرعة عليه كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾[الصافات: ١٤١].

لما اقترعوا ثلاث مرات خرج اسم يونس فيها جميعاً، وهذا كان من تقدير الله سبحانه، لسجن نبيه عبرة لنا، فألقي في البحر حيث يسارع ذلك الحوت إلى ابتلاعه وغاص به في الأعماق فأصبح يونس في ظلمات متراكمة، وهنا أدرك ضرورة الإستغفار فأخذ يستغفر ربه ويناجيه، تائباً معتذراً معترفاً بكمال الله تعالى وبنقصانه هو: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ ﴾.

إن الأنبياء معصومون، ولكنهم يشعرون أمام الله سبحانه بالذنب والتقصير، وحتى عبادتهم لا يعتبرونها عبادة لفرط إيمانهم بالله، وتجلي نور الله في أفئدتهم، ويعتبرون عبادتهم نوعاً من التقصير بحق الله، لأنها بالتالي عبادات بشر ضعفاء عاجزين، لذلك يقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أنت النزيه المقدس، أما نحن فبشر نتصف بالنقص والجهل والعجز.

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأنني من البشر، وأنا شخصياً أتحمل مسؤولية خطئي ولا أحمله ربي أو الأقدار.

[٨٨] ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إن كلمة ﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعطينا الأمل بأننا مهما فرطنا في جنب الله فإنَّ باب الإستغفار مفتوح أمامنا، ورحمة الله قابلة لأن تسعنا فلا داعي لليأس والقنوط.

دعاء زكريا عليه السلام

[٨٩] ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ يقول: يا رب أنت الإله، وأنت الوارث، ولكني أحتاج إلى من يرثني، وزكريا عليه السلام لم يكن طلبه من الله غايته وراثة أموره المادية فحسب، إنما كان يطلب وارثاً يرث رسالته، حسبما يبدو لي، فالوارث لمكانة زكريا وأمواله ينبغي أن يكون متحملاً للرسالة ومستخدماً لإرث زكريا من أجلها.

[٩٠] ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أي جعلنا له أسرة مثالية. فيحيى كان نبياً منذ الطفولة، وزكريا الذي قضى عمراً في تبليغ الرسالة والدعوة إليها، وكان شيخ المرسلين وكانت زوجته صالحة، فكونوا جميعاً تلك الأسرة المتكاملة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ هذه الأسرة قامت على أساس المسارعة في الخيرات، وإن كل تجمع يدور حول محور معين، وذلك المحور يعتبر روح التجمع، والأسرة الفاضلة هي الأسرة التي تتجمع وتتعاون ويندفع أفرادها إلى أعمال الخير التي تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالإزدهار والتقدم.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ ﴾ والصفة الأخرى لهذه الأسرة هي المزيد من التوجه إلى الله سبحانه، والعمل بمنهجه، والتمسك بروح العبادة وجوهر العبادة، ولب الإيمان وهو الدعاء، لأنه حبل متصل بين المرء وربه.

وإذا خافوا من شيء دعوا الله، وإذا أرادوا شيئاً دعوا الله، ولذلك جاء في الحديث

القدسي: «يَا مُوسَى سَلْنِي كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ حَتَّى عَلَفَ شَاتِكَ وَ مِلْحَ عَجِينِكَ»(١).

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ الخشوع: هو صدق التوجه إلى الله، وعميق المعرفة بالنفس وعجزها وتقصيرها.

مريم نموذج المرأة الفاضلة

[٩١] ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ إن الله قد خلق لكل الأجيال ولكل الأفراد ولكل الطبقات، ولكل الحالات البشرية نموذجاً يقتدى به، ومن النماذج المطلوبة في كل زمان وخصوصاً في وقتنا الحاضر، «المرأة القدوة» وكانت تلك المرأة القدوة هي (مريم بنت عمران) عليها السلام.

لقد اعتصمت من الرذيلة فأعطاها الله سبحانه عيسى، وذلك بعد أن نفخ جبرئيل في جيبها فحملت من دون أن يمسها بشر.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن تحمل إمرأة عذراء لم تتزوج ولم يسمها أي بشر، وتلد طفلاً سوياً -معجزة عظيمة- جعلها الله للناس في جميع الأجيال آية دالة على هيمنته على الكون وتدبيره المباشر لما يجري فيه من أحداث.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٩٠ ص ٣٠٣.

الجزاء مصير حتمي

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ[1] يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ[2] أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ[3] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا[4] ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ[5] لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ

---

(١) حدب: أي مرتفع من الأرض كالجبال والآكام..
(٢) شاخصة: الشاخصة هي العين التي لا تطرف من شدة الهول.
(٣) حصب: الحصب كل حجر يرمى به، ولذا قيل للأحجار الصغيرة حصباء.
(٤) حسيسها: صوتها الذي يُحَسُّ به.
(٥) السجل: السجل هو ما يُسَجَّل فيه.

خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٠٤)﴾.

هدى من الآيات:

تذكرنا الآيات بالجزاء، وإن كل قرية أهلكت جزاء لأفعالها في الدنيا، ستعود إلى الآخرة لتلقى جزاءها العادل، متى؟ حين تجيء أشراط الساعة، فتفتح السبل أمام اجتياح أقوام «يأجوج ومأجوج «حيث يتدفقون من كل حدب كالسيل، هنالك يقترب البعث ذلك الوعد الحق، فتظل أبصار الكفار شاخصة من هول القيامة، وهم يقولون: قد كنا في غفلة عن هذا «ثم يعترفون بمسؤوليتهم عن هذه الغفلة التي تشهد شملتهم بالرغم من النذر التمواترة «فهم كانوا ظالمين.ويأتيهم الجواب: أن جزاءكم اليوم أن تنبذوا في نار جهنم، أنتم والآلهة التي زعمتم أنها تشفع لكم، وتخلصكم من الجزاء.

ثم تقول: إن كانت تلك آلهة فعلاً إذا ما دخلت النار! بلى الكل في النار خالداً فيها، لهم فيها زفير من شدة العذاب وهم فيها لا يسمعون.بينما الذين هداهم الله بعيدون عنها، إلى درجة أنهم لا يسمعون حتى حسيسها، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون!.

لا يخشون من الفزع الأكبر، حيث تتلقاهم الملائكة بالبشر والترحاب قائلة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

وفي ذلك اليوم الرهيب يطوي الرب السماء، كما يطوي الكتاب الأوراق، كذلك يعيد الله الخلق كما بدأه، إنه وعد الله الذي ألزم به نفسه سبحانه.

وحدة الرسالات والأنبياء عليهم السلام

بينات من الآيات:

[٩٢] بالرغم من أن الناس يختلفون في انتماءاتهم، وولاتهم -كل يدعي انتماء لرسول وولاء لإمام- فإن المهم في الملأ الأعلى، ليست هذه الانتماءات النظرية والولاءات الصورية، وإنما المهم هو العمل الصالح الذي يكون خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى، تحت ظل الانتماء والولاء المشروع.إن العمل هو الذي يفرّق بين أخوين، كما يجمع بين رجلين غريبين، يختلف كل شيء في حياتهما باستثناء (العمل الصالح).

فالصبر يجمع بين إسماعيل وإدريس وذي الكفل -كما بينا في الدرس السابق- بالرغم

من أن إدريس في بلد آخر، وربما في عصر ما قبل التاريخ المكتوب، بينما ذو الكفل كان في عصر متأخر، وفي بلد ثانٍ.

ويعود القرآن إلى التأكيد على فكرة المسؤولية، وتحطيم الأصنام النفسية، التي تحول دون إيمان الإنسان بمسؤوليته، ومن تلك الأصنام (صنم الطائفية).

بعض الناس يتهربون من مسؤولياتهم في الحياة، اعتقاداً بأن دينهم الذي يلتزمون به ويتمسكون بعقائده أفضل من دين الآخرين ومن عقائدهم، وأن نبيهم أفضل من سائر الأنبياء، وأن إمامهم أفضل من سائر الأئمة، ويحسبون أن ذلك يغنيهم عن العمل، وعن تحمل مسؤوليتهم الجدية في الحياة، ويأتي القرآن، ليهدم هذه العقدة النفسية، ويبين بأن الأنبياء هم أمة واحدة ويشكلون القدوة الحسنة للبشرية. فإذن، لا مجال هناك لإيجاد خلاف بين الأنبياء، لكي نقول: إنا ننتمي الى هذا فنحن أفضل منكم. كلا! إن الذي ينتمي إلى محمد ﷺ ينتمي إلى عيسى وموسى وإبراهيم وإدريس ونوح، وجميع الأنبياء والصديقين عليهم السلام، ومن ينتمي إليهم صادقاً فهو ينتمي إلى محمد ﷺ، والانتماء الحقيقي هو العمل الصالح، لذلك يربط القرآن بين فكرة وحدة الأنبياء وفكرة الجزاء، وفور ما يحدثنا عن وحدة الأنبياء، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

ويحدثنا في آيات تالية عن الآخرة، وعن أشراط الساعة، لأن الأقتصار على الولاء النظري الجامد إنما هو صنمية يجب أن تحطم في نفوس البشر لكيلا يلجأ إليها الإنسان خشية تحمله المسؤولية، ذلك لأن القرآن يعالج الفكرة الخاطئة بأمرين:

أولاً: يكشف القرآن الحكيم زيف الفكرة التي يعتمد عليها البشر، ويبرر بها لا مسؤوليته، ولا جديته في الحياة.

فمثلا يقول: إن الهروب إلى ظل التفرقة الطائفية والمذهبية، للتخلص من ثقل المسؤولية خطأ، ذلك لأن الرسالات الإلهية إنما هي واحدة.

ثانياً: يقتلع الجذر النفسي الذي تعتمد عليه هذه الفكرة.

لماذا يهرب الإنسان إلى ظل الطائفية، والمذهبية؟ ولماذا يريد أن يفرق بين الله ورسله؟ لأنه لم يستوعب حقيقة الجزاء بصورة جدية.

فإذا عرف الإنسان: إن عمله سوف يجازى عليه جزاءاً حقيقية مؤكداً وإنه لا يستطيع أن يهرب من جدية الحياة وتحمل مسؤوليتها فإنه لا يبرر تقاعسه بهذه الأفكار الخاطئة، وهكذا

استخدم السياق القرآني هذين الأسلوبين كما سوف نرى.

والآية تدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية، أما ما نراه اليوم من تعدد الدول الإسلامية وتعدد الأنظمة الحاكمة فيها فهو خلاف المنهج القرآني القويم وهو السر في تخلفنا وشقائنا.

[٩٣] ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ بدل أن يقول القرآن: «وتقطعوا رسالاتهم» قال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، لعلَّه لكي يوضِّح بأنه حتى ولو اختلف الناس في الدين، فإنَّ الدين لا يختلف لأنه واحد، وعندما يتقطع الناس أمرهم، ويختلفون في الرسالات والرسل، انطلاقاً من أهوائهم ومصالحهم المادية في الدنيا، فهذا سيضعهم أمام مسؤولية خطيرة بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ الجميع يعودون إلينا، ولكن لا نقيسهم بأمرهم، إنما نقيسهم بأمرنا (أي برسالاتنا) ورسالاتنا واحدة، وحكمنا واحد.

[٩٤] وحينما يقول الإنسان: أنا مسلم، نسأله أولاً: ما هو عملك؟، أو يقول: أنا أنتمي إلى السيد المسيح عليه السلام، نقول له: المسيح يجازى بعمله وأنت تجازى بعملك وحدك.

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ اعمل أي شيء من الصالحات قليلاً كان أو كثيراً فإنك ستراه وستشكر على سعيك وتعطى عليه الجزاء المناسب، إن كنت مؤمناً.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ مادام القلم بيد الله، والسجل بيده، فهو لا ينسى عملك، فلا تقل: إن هذا العمل لا أحد يعلم به، فما الفائدة من القيام به؟، ونجد في كلمة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى أن على الإنسان أن لا يستصغر أي عمل يكون فيه خير، لأن أعمال الخير الصغيرة عندما تتجمع فإنها ستكون أعمالاً عظيمة، يظهر أثرها في المجتمع على المدى القريب أو البعيد.

دع هذا الإحساس ينمو عندك: بأن الله يراقبك ويسجل كل كبيرة وصغيرة من أعمالك الحسنة، آنئذ تندفع إلى العمل بروح عالية وأمل مشرق.

[٩٥] ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ إن تلك القرى (أي الأمم والمجتمعات التي يدمرها الله بالاستئصال بسبب كفرها وأعمالها المنحرفة) لن تعود إلى الحياة الدنيوية أبداً، وهذا ما يؤيده حديث منقول عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام حول القيامة الصغرى[1]، وهذا نظير قوله تعالى بالنسبة للأفراد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج٣ ص٤٦٠.

ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وهناك معنى آخر للآية الكريمة قاله بعض المفسرين[1]: إن القرية التي تهلك تعود إلى الجزاء الأخروي، وهذا المعنى يفهم من سائر الآيات القرآنية أيضاً، وهو هنا مأخوذ من دخول النفي على النفي. فتشير الآية إلى أن هناك ساعتي هلاك للأمم الظالمة: ساعة خاصة بها، وساعة للكون كله، وهي الساعة العظمى والقيامة الكبرى.

نهاية الحضارات

[٩٦] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي إن الطريق أمام يأجوج ومأجوج قد انفتح، فيندفعون مسرعين من الأماكن المرتفعة ليغزوا بلدان العالم، -أما ذلك السد الذي ذكره القرآن في سورة الكهف- فيكون آنذاك قد انهار، ويأجوج ومأجوج الذين هم رمز الخراب يكونون قد جاؤوا، يقول بعض علماء الحضارة: بأن الحضارة أشبه ما تكون بشجرة إذا مر عليها الزمان تتسوس من داخلها ولكنها تبقى قائمة إلى أن يأتي من الخارج من يقوم بتحريكها حركة بسيطة فتقع على الأرض، وهكذا الحضارات يعيث بداخلها الفساد ولكنها تبقى إلى أن تأتي موجة بربرية من أطرافها فتقضي عليها قضاء نهائياً، وهذه نهاية كل الحضارات في التاريخ.

ولعلَّ هذه الآية تلمح إلى أن نهاية الحضارات البشرية تجري هكذا، باعتبار إن يأجوج ومأجوج قوم برابره همجيون، يهجمون على هذه المجتمعات وينهونها.

ويبدو إنه قبل قيام الساعة ستكون هناك موجة بربرية، وإن الله سبحانه شاء أن ينهي حياة الانسان بيد الإنسان نفسه، أو ليس الظالم سيفه ينتقم به، وينتقم منه.

الوعد الحق

[٩٧] ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ إذا جاء هؤلاء فاعلم بأن الساعة باتت قريبة، وإذا جاءت الساعة فالإنسان لا يعرف ماذا يعمل، إنه يفقد إرادته ويسيطر عليه الخوف، وترى عينه قد وقفت في اتجاه محدد لا تتحول عنه يمنة أو يسرة من هول الموقف وشدة الرعب، لذا يقول القرآن: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ترى هؤلاء يقولون: إنهم كانوا غافلين عن هذا، ولكنهم سرعان ما يتذكرون إن غفلتهم كانت منهم أنفسهم، ولذلك لا تكون مبررة لرفع المسؤولية عنهم، فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

---

(١) مجمع البيان: ج٧، ص١٠٠.

[٩٨] وهذه الأصنام التي تعبد من دون الله، ويعتقد الإنسان أنها تكفيه المسؤولية، هي والذين يعبدون سوف يصبحون وقود جهنم، ويخلدون فيها مهانين، فكيف تعبد أيها الانسان هذا الصنم الذي ينبذ في الجحيم، ويحترق في النار، وتعتقد أنه سوف ينصرك من دون الله؟! ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

[٩٩] ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأن الآلهة لا يعقل أن تدخل جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الذين عبدوا والذين عبدوا من دون الله راضين بذلك. والولاءات التي يعتقد الإنسان أنها تكفيه مسؤوليته في الحياة نوعان:

١ - الولاء للصالحين ولكن بصورة خاطئة اتخاذ هذا الولاء بديلاً عن العمل، فمن يوالي رسول الله محمد ﷺ ولا يعمل بسنته وتعاليمه، فإنه لن يستفيد شيئاً من ولائه.

٢ - الولاءات المنحرفة من أساسها كالولاء لرئيس العشيرة، لرئيس التجمع، للطاغوت، لصاحب المال، لصاحب الجاه، من دون تقوى.

هذه الولاءات خاطئة من أساسها، لأن الله سبحانه لم يأذن للإنسان باتباع أحد، إلا أولئك الذين عينهم في القرآن الكريم أو عرفهم عبر بصائر الذكر الحكيم.

[١٠٠] ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ إنهم لا يملكون سوى الصراخ، ولكنهم من شدة العذاب والألم لا يسمعون صراخ بعضهم.

الذين سبقت لهم الحسنى

[١٠١] إن المؤمنين الصادقين بعيدون عن نار جهنم، وهم في شغل فاكهون يتنعمون في الجنة، بينما هناك أناس يحترقون بالنيران الملتهبة، وقد صُمَّت آذانهم من شدة زفيرها حتى فقدت حاسة السمع، تلك النعمة العظيمة التي لم يشكروا الله عليها في الدنيا ولم يستعملوها في طاعته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الحسنى هي الرسالة الحسنة.. الفكرة الحسنة.. السيرة الحسنة.. وهؤلاء وفقهم الله لها في الدنيا، وبالتالي فهم مبعدون عن نار جهنم في الآخرة.

[١٠٢] ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ من نعيم مقيم وحور وولدان.

[١٠٣] ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى

كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الآيات القرآنية تأكيد على هذه الفكرة: إن الإنسان في الآخرة ينعم بألوان النعم، وهذا يكفيه جزاء لأعماله الصالحات ولكنَّ الله يعطيه نعمة ثانية، بأن يرسل اليه الملائكة ليستقبلوه أحسن استقبال وينقلوا له شكر الله على أعماله وسلامه عليه، وهذا تكريم معنوي عظيم.

[١٠٤] ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ السجل: هو الغلاف، والكتب: هي الأوراق المكتوبة، فالغلاف يجمع الأوراق المكتوبة وبعد فتح الغلاف تنتشر الأوراق، هكذا يطوي الله السماوات فتنتهي الدنيا وتقوم الساعة ويأتي يوم الحساب.

هكذا تكون عظمة الساعة، ولكن مع ذلك يعطي الله السكينة والبشرى للمؤمنين.

ولعلَّ الآية تشير أيضاً إلى فكرة أخرى هي: إن إفناء السماوات والأرض وإعادة خلقها عند الله هو من السهولة مثل الذي يغلق فيها أحدنا كتاباً ثم يفتحه مرة أخرى، وهذا المثال إنما هو لتقريب الأمر إلى أذهاننا لا على سبيل المطابقة.

إن تصور هيمنة الله سبحانه على الكون يجعلنا أقرب إلى واقعيات الحياة، وبالتالي إلى جدية الحياة ومسؤولياتنا فيها.

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ هذه الآية تشير الى فكرة علمية وهي أن بداية الخلق دليل على نهايته، وهذه البداية وتلك النهاية شاهدان يكشفان طبيعة وتفاصيل عودة الخلق، لأن الخليقة وتطوراتها تسير على سنة واحدة لو فهم الإنسان تطبيقها على ظاهرة فإنه سيفهم تطبيقها على بقية الظواهر.

كلمة أخيرة: إن المشكلة النفسية هي الأساس، ومن دون معالجتها سوف تستمر الأفكار الباطلةعند الفرد، هكذا تجد القرآن في آخر سورة الأنبياء يذكرنا باليوم الآخر ويصور لنا مشاهده، ويثير فينا قوة الخيال، وهي قوة هامة عند البشر، وعلى الإنسان أن يستفيد منها في تربية ذاته، فيقول للإنسان تصور وقوفك أمام الله، وتصور لحظة قيام الساعة، وتصور حينما ينفتح الطريق أمام يأجوج ومأجوج؟! كل ذلك لتهتز نفسية الإنسان، ويلين قلبه، ويكون مستعداً لإصلاح قناعاته، وإسقاط حجب التبرير عن نفسه.

رب احكم بالحق

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا[1] لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ[2] عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي[3] أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾.

هدى من الآيات:

لأن الإنسان مسؤول عن أفعاله، فقد من الله على الصالحين من عباده بوراثة الأرض، هكذا كتب في الزبور من بعد الذكر.

بهذا الأمل العظيم يبدأ الدرس الأخير من سورة الأنبياء التي حفلت ببيان كرامة الله للمرسلين عليهم السلام واستجابة دعائهم ونجاتهم من قومهم الظالمين.

ويكفي هذا الحديث بلاغا للعابدين.

إن رسالة الله الى النبي محمد صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين (لا لقوم أو عصر)، وهذه الرسالة ذات

(١) لبلاغاً: أي كفايةً في البلوغ إلى القصد وهو الحق.
(٢) آذنتكم: أعلمتكم.
(٣) وإن أدري: أي وما أدري.

اتجاه واحد، يتلخص في عبادة الرب الواحد، وهي رسالة الإسلام.

أما إذا تولوا فانذرهم وأنبئهم -يا رسول الله- إني لا أدري متى يصيبكم ما أنذرتكم به عاجلاً أم آجلاً، وهكذا تتجلى مسؤولية المجتمع عن أفعاله، ولا أحد يقدر على الهروب منها إلى ظل الكتمان إذ الله سبحانه محيط علماً بما يجهرون وما يكتمون من أقوالهم، (فيعلم مدى كذبهم في ادعاءاتهم التبريرية).

وهم يعتمدون على ما أوتوا من إمكانات، ولكنها فتنة وبلاء، وهي موجودة إلى حين.

ويلجأ الرسول إلى كهف القدرة الإلهية ليحكم بالحق، وربنا المستعان على تبريراتهم ودعاياتهم.

بينات من الآيات:

[١٠٥] يبشر الله عباده الصالحين، بأنهم هم الذين يرثون الأرض وما عليها، ثم يقول: إن هذا بلاغ لأولئك الذين عبدوا الله وسلموا أمورهم لربهم، ما هي العلاقة بين الآيتين؟

الواقع ليست الحقيقة غامضة، بل لها دلائل وشواهد عدة، ولكنَّ الإنسان عادة يصاب بعقدة أو عقيدة فاسدة، أو غفلة مطبقة، وعليه أن يبذل المزيد من الجهد لإصلاح نفسه من عقدها وعقائدها الفاسدة، وكذلك من غفلتها.

إنك متى ما خلصت نفسك من عقدها وعقائدها الفاسدة، وأيقظتها من غفلتها، آنئذ يمكننا أن نحكم بأنك فهمت الحقيقة، وليس ذلك فحسب، بل إن الحقيقة صارت بالغة الوضوح في نفسك.

ويسمي الله سبحانه قوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ بلاغاً، لأنَّ الإنسان بعد ما يصفي نفسه من رواسب العقد والعقائد الفاسدة، ويوقظها من غفلتها، يكون مستعداً لتلقي هذه الحقيقة وهي وراثة الصالحين الأرض جميعاً، كيف؟،

لأنَّ الحياة مبنية على أساس الصلاح، وليس على أساس الفساد، فلو كان الكون فاسداً لتحطَّم وزال.

ثم نتساءل ما هي علاقة هذا الأمر بحديثنا في قوله: ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؟.

الإنسان الصالح هو الذي يسير وفق سنن الله، ولابد أن يسير منسجماً مع مسيرة الكون،

ولابد أن يلتقيها في يوم من الأيام، أما الإنسان الفاسد الذي لا يسير وفق سننه، فإنه من الطبيعي أن يفترق مع مسيرة الكون، وتكون بينهما هوة تتسع مع الزمن، والذي يسير وفق برامج الحق لابد أن يلتقي مع الكون، أما الذي يسير وفق أهوائه فإنه سوف يكون إما وبالاً على الكون فينشر فيه فساداً، أو يكون الكون وبالاً عليه فيهلكه أو يدمره.

إن سنن الله في الكون تطبق شئنا أم أبينا، وإن من يسير وفقها لابد أن يلتقي معها، بينما الذي يسير ضدها لابد أن ينتهي، وعنوان هذه السنن هو الصلاح، وقد بني الكون على الصلاح، والصالحون من عباد الله هم الذين يرثون الأرض، لأنهم يطبقون سنن الله فيها.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ما هو الزبور والذكر، ولماذا خصهما الرب بالذكر، أو ليست هذه سنة إلهية نوهت بها رسالات الله جميعاً؟ بلى، ولذلك احتمل بعض المفسرين أن يكون الذكر هنا هو القرآن بينما الزبور كل كتاب هبط قبله، فيكون إذن معنى ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ الذكر ما يساوي قولنا بالإضافة إلى القرآن.

ولكننا نستظهر من لفظة الزبور نفس معناها عندما استخدمت في موردين، وأريد بها كتاب داود.

بينما نستوحي من آية سابقة في هذه السورة: إن الذكر يطلق على التوراة، ويبقى السؤال إذا بماذا اختصَّ داود عليه السلام من بعد موسى عليه السلام بهذه البشرى؟.

والجواب -كما يبدو لي-: إن الله أنقذ بني إسرائيل، أولئك القوم المستضعفون من سلطة فرعون، وعلى يد النبي موسى عليه السلام، وأورثهم أرض الظالمين.

كما أعطى لداود حكماً وهيأ له أسباب القدرة، فكان من المناسب أن يذكرهما، بأن وراثة كل الأرض تكون للصالحين: أولاً لكي يكون ما تحقق فعلاً على عهدهما شاهداً على ما يتحقق في المستقبل جرياً على نهج القرآن في الإرتقاء بالقارىء من الحقائق المشهودة الحاضرة، إلى الغيب الأوسع مدى، وثانياً ليعلم كل مؤمن بأن الله سوف يورث الأرض للصالحين من عباده كما فعل في عهد داود وموسى، فيكون ذلك أملاً يبعثه إلى المزيد من النشاط، وبصيرة كونية لمعرفة حركة الكائنات التي تنتهي إلى وراثة الأرض جميعاً.

هكذا نستوحي من الآية فكرتين:

أولاً: إن كل مجموعة مؤمنة تعبد الله بحق، وتكون صالحة، تستحق أن ترث أرضها.

ثانياً: إن كل الأرض سوف تسعد بحكومة عادلة، إلهية، وهذه هي التي نجدها فيما

يسمى بـ (مزامير داود) والذي بالرغم من وجود تحريفات في كتب العهدين حفظت لنا الكثير من حقائق الوحي ووصايا الأنبياء، فإننا نقرأ في بعضها ما ترجمته: «إن الله يعلم أيام الصالحين، وسيكون ميراثهم أبدياً»[1].

ولذلك جاءت النصوص الإسلامية عن الرسول ﷺ تترى وتبشر بأنه: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَخْرُجَ فَيَمْلأَهَا عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً**»[2].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام أبو جعفر عليه السلام في تفسير هذه الآية: «**هُمْ أَصْحَابُ الْمَهْدِيِّ (عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ) فِي آخِرِ الزَّمَانِ**»[3].

الصلاح بين تخلفنا وتقدم الغرب

الصلاح مطية التقدم، ذلك لأنه يعني التوافق بين عمل الإنسان وسنن الخلائق، ونتساءل: إذن لماذا تخلفنا وتقدَّم الغرب الكافر، هل هم صالحون فعلاً؟ نقول بلى إنهم قد اكتشفوا بعض سنن الله وعملوا بها مثل (السعي - النظام - التخطيط - العطاء) فتقدموا علينا.

إلا أنهم لا يملكون خلفية عقائدية صحيحة وبالتالي إطاراً سليماً لنشاطهم، ولم يهتدوا إلى الصراط القويم، فكانوا كمن يجد السير على غير الطريق الصحيح فتراه يركض، ويملك من العزيمة على السير، ووسائل التحرك ما يساعده على الوصول إلى الهدف، إلا أنه أضل الطريق فلا يغنيه السعي والنظام والتخطيط والعطاء شيئاً.

هؤلاء (الغرب) حققوا جزءاً من الشرط الثاني دون الشرط الأول والأهم لوراثة الأرض وهو عبادة الله، فلذلك لن يكونوا المبشرين بوراثة الأرض، لأنهم ليسوا عباد الله الصالحين، بلى أنهم يملكون من الصلاح نسبة يجزيهم الله عليها بتقدمهم المحدود والموقت في الدنيا، وعندنا -نحن المسلمين- نسبة من الفساد نتخلف بسببها في الدنيا.

---

(١) هناك نصوص كثيرة نقلت في تفسير (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) في هذا الحقل راجع: ج ١٠ ص ٢٦٠، وهذا النص نقله الكتاب المزبور من الترجمة الفارسية لكتاب العهد العتيق، الذي ترجم في عام ١٨٧٨ تحت إشراف الكنيسة المعروفة بـ: (مجمع الكتب البريطانية للخارجيين).

(٢) من لايحضره الفقيه: ج٤، ص١٧٧.

(٣) بحار الأنوار: ٩، ص١٢٦.

إذا لابد من تطبيق كل الدين حتى نكون صالحين، وكل الدين هو الذي يجعلنا نتعايش مع سنن الكون ونبشر بوراثة الأرض بقدر تسخيرها في سبيل الله.

[١٠٦] ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ إذا لم يكن الإنسان عابداً فإنه لن يصل إلى الحقيقة.

[١٠٧] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إن الصيغة العامة لرسالات الله جميعاً، ورسالة الإسلام بالذات، هي الرحمة، لأنها تهدي الناس إلى نعم الله، والطريق القويم إلى الانتفاع بها، والنهج السليم لبلوغ الأهداف السامية، ولذلك جاء في الحديث عن الرسول إنه قال: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ..**»[١].

وتتميز رسالة نبينا الأكرم ﷺ بأنها رحمة للعالمين جميعاً سواء الأبيض أو الأسود، العربي والأعجمي، والفقير والغني، والرجال والنساء، وأنها -كما السحب الهطول، كما أشعة الشمس، كما سائر نعم الله- تشمل الجميع بلا إستثناء.

ولأنها رحمة للعالمين، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يريدها تسود العالم جميعاً حتى تكون وراثة الأرض كل الأرض للصالحين التابعين لهذه الرحمة.. وهذه بشرى لابد أن يسعى كل مؤمن لتحقيقها.

وهناك تفسير آخر لهذه الآية جاء به الأثر الشريف وهو: إن الرسل من قبل سيدنا محمد ﷺ بعثوا بالتصريح فإذا كُذِّبَ الواحد منهم أنزل الله على قومه العذاب، بينما بعث نبينا بالتعريض فلا يأخذ الله أهل الأرض في عهده بالبلاء الماحق، ويدل على ذلك ما جاء في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام وجهه إلى بعض الزنادقة: وأما قوله لنبيه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وإنك ترى أهل الملل المخالفة للإيمان ومن يجري مجراهم من الكفار مقيمين على كفرهم إلى هذه الغاية، وإنه لو كان رحمة عليهم لاهتدوا جميعاً ونجوا من عذاب السعير، قال: فإنَّ الله تبارك اسمه إنما عنى بذلك إنه جعله سبيلاً لإنظار أهل هذه الدار، لأنَّ الأنبياء قبله بعثوا بالتصريح لا بالتعريض، وكان النبي ﷺ منهم إذا صدع بأمر الله وأجابه قومه سلموا وسلم أهل دارهم من سائر الخليقة، وإن خالفوه هلكوا وهلك أهل دارهم بالآفة التي كانت بينهم يتوعدهم بها ويتخوفهم حلولها ونزولها بساحتهم، من خسف أو قذف أو رجف أو ريح أو زلزلة وغير ذلك من أصناف العذاب الذي هلكت به الأمم الخالية، إن الله علم من نبينا ومن الحجج في الأرض الصبر على ما لم يطق من تقدمهم من الأنبياء الصبر على مثله، فبعثه الله

(١) بحار الأنوار: ج١٦ ص١١٥.

بالتعريض لا بالتصريح، وأثبت حجة الله تعريضاً لا تصريحاً[1].

[١٠٨] لماذا كانت رسالات الله رحمة، وما هو جوهر هذه الرحمة الالهية؟.

إن جوهر الرحمة الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ الشركاء من دونه، ذلك لأن تحرر الإنسان من عبادة الهوى، وتمرده على الضغوط، وخلاصه من نير الطغاة والمستكبرين، وارتفاعه إلى مستوى (عبادة الله وحده) هو قمة الاستقلال والحرية والكرامة.

إن حب الاستقلال والحرية والكرامة غريزة فطرية عجنت بها طينة البشر، ولكن لم يتخلص الناس عملياً من الظلم والاستعباد، لماذا؟.

لأنَّ البشر بحاجة إلى من يوقظ هذه الفطرة ويثيرها ويبعثها ويعطيه عزمة إرادة ومنهج عمل وضياء أمل، وليس ذلك إلا عند الرسل، فهم ومن سار على نهجهم من عباد الله الصالحين يحررون -بإذن الله- البشر من القهر والإستعمار وسيطرة الأقوياء.

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ إنها دعوة بالغة الصراحة إلى الاستقلال والحرية والكرامة، وإنها لعهد بين الرسول ومن أرسل إليهم بأنه لا يريد استعبادهم، بل تحريرهم، ولكنه يطالبهم بالتسليم للحق لكي ينجيهم من عبودية الباطل.

[١٠٩] ولا يطالبهم الرسول بأجر، ولا يدعوهم لمصلحة عنده إنما يَمُّن الله عليهم إذ ينذرهم بعذاب عظيم هم غافلون عنه ويقطع عذرهم بالجهد لهم بالإنذار، وهو سواء معهم في أنه مخاطب أيضاً بالإنذار كما أن القريب والبعيد منهم شرع سواء.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ إيذان شامل لكل الناس وإنذار مبين من الله رب العالمين لا دخل للرسول بتفاصيله، فهو أيضاً لا يدري متى يأمر الله بالعذاب، وإذا لم يكن رسول الله حامل الإنذار يدري فمن -يا ترى- يدري؟ لا أحد، ولقد قرأنا في سورة [طه: ١٥] قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾، فجاءت الرواية[2] تفسر الآية: أكاد أخفيها من نفسي لأن الله لم يحدد للساعة وقتاً.

ياهول المفاجأة، الساعة آتية بما فيها من فظائع الهول، وعظائم الأحداث، ولا يعرف

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١٢٣.

(٢) بحار الأنوار: ج١٣، ص١٠٧.

أحد متى!!.

إن إخفاء علم الساعة أبلغ أثراً لكي تحسس الإنسان بالمسؤولية، فلو حدد الله ميقات الساعة أو ميقات الموت، لتكاسل الإنسان عن واجبه متعللاً بأنه سيتوب قبيل موته، مثلما قال عمر بن سعد بن أبي وقاص عندما أراد قتل الحسين عليه السلام، وبعد أن عرضت عليه السلطة الأموية: (ملك الري) إن هو قتل الحسين عليه السلام، قال وهو يناجي نفسه ويحاول تبرير قراره الأجرامي[1]:

ووالله لا أدري وإني لحائر	أفكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الري والري منيتي	أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
حسين ابن عمي والحوادث جمة	ولي في الري قرة عين
يقولون: إن الله خالق جنة	ونار وتعذيب وغل يدين
فإن صدقوا فيما يقولون إنني	أتوب إلى الرحمن من سنتين
وإن إله الكون يغفر زلتي	وإن كنت فيها أرذل الثقلين
وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة	وملكٍ عظيمٍ دائمِ الحجلين

إن الله سبحانه ينسف هذه الفكرة بإخفاء الساعة، فمن يقول إنك تعيش إلى سنتين حتى تتقرب فيها إلى الله.

وهكذا نقرأ في وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لابنه الحسن عليه السلام: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ولِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ولِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ وأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ** -أي لا يدري ساكنه متى ينتقل عنه- **ودَارِ بُلْغَةٍ** -أي يؤخذ منه الكفاية للآخرة- **وطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ وأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ ولَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ولَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وبَيْنَ ذَلِكَ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ**»[2].

إن وفاة الإنسان كما وفاة المجتمعات غير معلومة، وهكذا الساعة.

[١١٠] وبإزاء جهلنا نحن البشر بيوم الحسرة وساعة قيام الناس للحساب يعلم الله ما ظهر منا وما بطن.

---

(١) كشف الغمة: ج٢ ص٤٨.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٢٠٧.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ ولعلَّ الإنسان يخفي غير ما يقول، ويبرر جرائمه بشتى الأساليب، فالله محيط علماً بما يكتمه ولذلك عليه ألا يظن أنه يخدع ربه أو يلتف على قوانينه ويتهرب من مسؤولياته الشرعية إنما عليه أن يطهر قلبه من الأفكار الباطلة، ووساوس الشيطان وتسولات النفس الأمارة بالسوء.

[١١١] أما نعم الحياة التي يرفل بها الظالمون المستكبرون، ويحسبون أنها تخلدهم، بل يزعم بعضهم أنها دليل رضا الله عنهم، فإنها قد تكون فتنة وبلاء ولعلَّ متاعها قليل وإلى أمد قريب ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

[١١٢] الحق محور خلق الكائنات وقد أمهل الرب برحمته عباده، فلا يأخذهم بما يكسبون اليوم، ولو أخذهم لما ترك على ظهر الأرض من دابة.

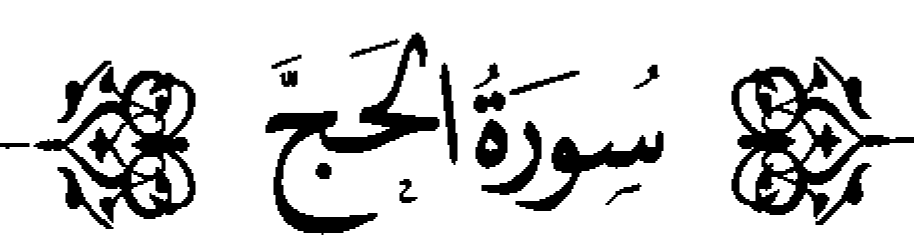
بيد أن الحق بالتالي مقياس أعمال الناس وميزان جزائهم، إليه يعودون آجلاً أم عاجلاً.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بالله الرحمن يستعين الرسول ومن يسير على نهجه على الأقاويل الباطلة، والتبريرات الزائفة والحجج الواهية.

ونستوحي من الآية فكرتين:

١- إن الله يحكم بالحق، استجابة لدعاء الرسول، حيث جاء في الأثر إنه ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء كلما خاض معركة ضد المشركين، مما يدل بأن على الإنسان ألا يتكاسل عن الجد والجهاد ثم يكتفي بالدعاء.. والعكس غير صحيح أيضاً فلا يصح أن يعتمد الإنسان على عمله فلا يدعو ربه.

٢- وهو الذي يرزق عباده الصالحين -إذا دعوه- نوراً يمشون به بين الناس، ويميزون به الحق عن الأباطيل التي يصفها الكفار، ويعطيهم قوة لردها، ومقاومة الإعلام المضلل الذي يدعم الطغاة والكفرة.



* مدنيّة.

* عدد آياتها: ٧٨.

* ترتيبها النزولي: ١٠٤.

* ترتيبها في المصحف: ٢٢.

* نزلت بعد سورة النور.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَجِّ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لَمْ تَخْرُجْ سَنَتُهُ حَتَّى يَخْرُجَ إِلَى بَيْتِ الله الْحَرَامِ وَ إِنْ مَاتَ فِي سَفَرِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٢)

الاسم:

وانبثق اسم السورة من أحكام فريضة الحج التي وردت في هذه السورة.

الإطار العام

التقوى ومعالجة الأمراض الروحية

الآيات: (١-٧) من سورة الحج تصور لنا أهوال الساعة بهدف بث روح التقوى من الله تعالى، بعد أن يهز سياقها الأول ضمير الإنسان هزاً عنيفاً بتصوير اللحظات الحرجة لوقوع الساعة.

ولعل التقوى من الأهداف التي تحققها كل السور القرآنية، إلا أن انعكاساتها على الحياة تختلف، وقد سبق الحديث لدى دراسة الإطار العام لسورة البقرة أن آياتها تهدف بيان صبغة الله التي جعلها للأمة المسلمة، والتي تتجسد في التقوى،وتكاد تكون سورة الحج تأكيداً على تلك الصبغة، حيث أنها تبدأ بأمر الناس بالتقوى، وتذكرنا بمناسك الحج،وواجبات الجهاد، وتنتهي ببيان خصائص الأمة الإسلامية.

ولكن هذه السورة التي اختلف المفسرون في أنها نزلت بمكة أو المدينة، أو فيهما معاً، تتميز عن سورة البقرة -فيما يبدو لي- في أنها شفاء للقلب من أمراض الغفلة والجدل والجهل والنفاق، وهي تعالج أيضاً الأعذار التي يلجأ إليها الإنسان هرباً من المسؤولية؛ مثل التظني والتمني، والاتكال على عبادة الأوثان، والخوف من الطغاة، والخشية من الهزيمة أمام قوتهم.

كيف يشفي الله بآيات هذه السورة تلك الأمراض، ويطهر القلب من الأعذار المانعة عن التقوى؟.

فيما يلي نتذكر معاً الحقائق التي نستوحيها من التدبر في آيات هذه السورة التي تفيض هيبة وجلالاً.

نرى في بدايتها هزة عنيفة تزلزل قناعات الإنسان، السادر في الغي، الغافل عن المصير الفظيع الذي ينتظره في يوم القيامة.

ثم في (الآيات: ٨-١٤) يعالج السياق التبرير القديم الجديد، الذي تلجأ إليه النفس البشرية هرباً من عظمة المسؤولية وهيبة الجزاء.. وذلك هو الجدل في الله بغير علم، والريب في البعث باعتباره مستحيلاً.

و بعد التذكرة بقدرة الله على النشور، يعالج حالة الجدل بغير علم، وحالة الإيمان الحرفي، حيث يهدف صاحبه المصالح العاجلة، ويحذره بأنه الخاسر في الدنيا والآخرة.

و يهدينا السياق القرآني في (الآيات: ١٥-٢٢) إلى ضلالة من يظن بأن الله لا ينصره في الدنيا والآخرة، أوليس هو السلطان الحق للسماوات والأرض، وهو الذي يفعل ما يشاء وهو الذي يفصل بين الناس -على اختلافهم- بالحق؟.

ثم يبين (الآيات ٢٣-٢٩) جزاء المؤمنين، وعقاب الكفار، وبالذات الذين يصدون عن المسجد الحرام، ذلك البيت الذي بناه النبي إبراهيم عليه السلام ويجب قصده ابتغاء مرضاة الرب.

إن من أعظم حكم الحج بث روح التقوى في القلب، لتطهيره من درن الشرك، وذلك عبر ذكر الله، وإطعام البائس والفقير، وتطهير البدن من التفث.

و هكذا يبدأ السياق بذكر الحج من (الآية: ٢٦)، ويستمر ببيان جانب هام من التقوى، هو تعظيم حرمات الله واحترام شعائره، وينهى عن الأوثان، ويأمر برفضها عبر الحنيفية التي تعني الطهارة والنقاء.

إن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب كما أشارت إلى ذلك (الآيات: ٣٠-٣٥)، والهدف من الذبح تنمية التقوى، عبر ذكر الله عليها وقد حدد الله لكل أمة منسكاً، ليذكروا الله على نعمائه.

وأسمى درجات التقوى حالة الإخبات، حيث يذكرنا السياق بصفات المخبتين من خشية الله والصبر وإقامة الصلاة والإنفاق (الآيات: ٣٦-٣٧).

وخلال (الآيات: ٣٨-٤١) يذكرنا السياق بالجهاد الذي هو حصن المقدسات، ودرع الحرمات. والعلاقة وثيقة بين الحج (الذي يسمى بجهاد الضعفاء) والجهاد، أو ليسا يهدفان معاً إعلاء كلمة الحق، أحدهما بصورة سلمية، والثاني بالدفاع الدامي؟.

ولعل الإذن بالجهاد في هذا السياق لتكميل جوانب التقوى، حتى لا يتبادر إلى الذهن أن التقوى تعني العزلة والتقوقع والرهبنة.. عموماً يبدو أن هذه الآيات هي سنام السورة.

ثم يعالج السياق القرآني عبر (الآيات: ٤٢-٥١) تبريراً شيطانيًا آخر، حيث يظن المكذبون بالرسالات أن تأخير العذاب دليل إهمال الله لهم، بينما ينبغي السير في الأرض للنظر في عواقب المكذبين الذين أملى الله لهم ثم أخذهم أخذاً شديداً، بينما أسبغ على الصالحين نعمه ظاهرة وباطنة والسير في الأرض لا ينفع الذين يسعون في آيات الله معاجزين، وهم يعاندونها ويتحدونها ولكن لهم عذاب شديد.

و يداوي الذكر الحكيم عبر (الآيات: ٥٢-٥٧) قلب البشر من التمنيات التي هي أرضية وساوس الشيطان، والله سبحانه يؤيد أنبياءه فينسخ ما يلقي الشيطان، ثم يحكم آياته. وعلينا أن نعالج هذه التمنيات بآيات القرآن، حتى لا تكون فتنة لنا.

ولكن القلب المريض والقاسي يستقبل ما يلقيه الشيطان فيه عند التمني، فيضل عن الصراط السوي. والكفار يترددون في ريبهم، ولهم عذاب شديد.

و هناك عذر شيطاني آخر تعالجه آيات الذكر، وهو اليأس، حيث يتساءل المرء: ماذا ينفع القيام لله والمطالبة بالحقوق الضائعة؟.

بلى؛ إن الذين يهاجرون في سبيل الله، ويدافعون عن أنفسهم ضد البغي ينصرهم الله، ولا يعجز الله شيء في السماوات والأرض، أوليس هو الملك الغني الحميد الرؤوف الرحيم، وإنه يحيي ويميت؟ (الآيات: ٥٨-٦٦).

و لكي نعالج حالة اليأس لابد من النظر في آيات قدرة الله ورحمته.

و لعل ما يعوق الإنسان عن العمل هو الجدل في الدين، والله نهى عنه، ونبّأنا بأنه قد جعل لكل أمة منهجاً ومنسكاً، وإنه عليم بكل شيء.

و الشرك ملجأ المبررين، حيث يزعم المشرك بأن الاعتماد على الشركاء ينجيه من المسؤوليات، ولكن القرآن يذكرنا بأن أولئك لم يخلقوا ذباباً، وأنهم لا يقدرون على مقاومته، (الآيات: ٦٧-٧٣).

وفي (الآيات: ٧٤-٧٧) من السورة يبين الله كيف يصطفي رسلاً من الملائكة ومن الناس، وأنه المهيمن عليهم، فلا يزعم البعض بأنهم أنصاف آلهة.

وفي ختام السورة نقرأ (الآية: ٧٨) التي تحدد ملامح الأمة الإسلامية، وتأمر بالجهاد القائم على تبييت النية المطلقة في التضحية المطلقة في سبيل الله، وتؤكد على أنه نعم المولى ونعم النصير.

معايشة الساعة سبيل الإصلاح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ(١) السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ(٢) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ(٣) ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ(٤) ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ(٥) ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ(٦) مُّخَلَّقَةٍ(٧) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ(٨) لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى

---

(١) زلزلة: الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة وقيل أن أصله زلّ فضوعفت للمبالغة.
(٢) تذهل: الذهول عن الشيء دهشاً وحيرة.
(٣) مريد: المتجرد للفساد، وقيل أن أصله الملاسة فكأنه متملس الخير.
(٤) نطفة: المني ماء الرجل.
(٥) علقة: قطعة دم جامد.
(٦) مضغة: قطعة لحم بمقدار ما يمضغ من اللحم.
(٧) مخلقة: مستوية الخلقة.
(٨) أرذل العمر: أسوء العمر وأخبثه (الهرم).

ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ(١) وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ(٢) ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

في الآيات الأولى من هذه السورة يهز السياق القرآني ضمير الإنسان هزاً عنيفاً بتصوير اللحظات الحرجة الأولى لوقوع الساعة، حيث يذهل الإنسان ويبتعد ذهنياً عن كل العوامل التي كانت تضله في الحياة.

ونسأل: لماذا يضل الإنسان؟ لأنه يحب المال والجاه والولد وما أشبه، فإذا به في تلك اللحظات يذهل عن ماله وولده..، لأنَّ الساعة أدهى وأمر، وأكبر وأعظم من كل تلك الأمور، فالمرأة تذهل عمن ترضعه، والحامل تضع ما تحمله، وكل إنسان يكون كالسكران ولكن ليس بنشوة الخمر وإنما هو سكر العذاب، وهيبة الساعة.

بعد أن يهز القرآن ضمير الإنسان بهذا الهول الرهيب يقول له: أتعرف لماذا تتورط في مثل هذا الهول؟ وكيف تخلص نفسك منه؟!.

إنما تتورط لأنك اتبعت إلهاً غير الله من دون علم، وكذلك لأنك غفلت ولهوت. حينما يريد الإنسان أن يختار فراشاً لبيته أو لوناً لغرفته أو ساعة يلبسها أو أي شيء آخر، تراه يفكر ويخطط ويسأل ويستشير، ولكن حينما يريد أن يعبد إلهاً غير الله، فانه يعبده من دون تفكير أو بحث، وبالتالي يتورط في ذلك الموقف العظيم بالاسترسال.

أما كيف يتخلَّص الإنسان من هذا الهول؟ فهو لا يكون إلا عبر الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث والنشور.

إن كل إنسان مفطور على الإيمان بالبعث، وبما أنه معرض لوساوس الشيطان الذي يزرع الشك في قلبه، فهو يكفر إن لم يحاول قمع تلك الوساوس، ويقمع القرآن هذا الشك بقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) ربت: أي زادت وأضعفت نباتها.

(٢) بهيج: الحسن الصورة.

إن النظر إلى سلسلة الحياة الماضية يهدينا إلى المستقبل، لأنَّ السنة واحدة تنطبق على الماضي والحاضر والمستقبل، فإذا أردت أن تعرف المستقبل فارجع قليلاً إلى الوراء وانظر إليه كيف كان؟.

خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة، فعلقة فمضغة، وبعد الولادة كان في حالة تطور، فمن الطفولة إلى الشباب إلى الهرم إلى الوفاة، وهذا التطور يسير حسب قانون وتدبير رشيدين، من لدن إله قدير مبدع، فلكي تعرف مستقبلك انظر إلى بداية خلقك، فبعد ما كنت ضعيفاً في رحم أمك قويت وسوف تعاد كذلك في أرذل العمر، أوليس الذي أنشأك في ظلمات الأرحام، وفي الحياة خلقاً بعد خلق بقادر على إنشائك من بعد موتك؟!.

ورد في بعض الأحاديث عن يوم القيامة:أن الأرض تصبح كرحم الأم ينشأ الإنسان فيها كما ينشأ في رحم أمه، وإذا كان الإنسان يولد من بطن أمه ولادة، فإنه في ذلك اليوم ينبت من الأرض نباتاً. والفارق: أن الناس في الدنيا يولدون بالتدرج أجيالاً إلا أنهم يوم القيامة يولدون جميعاً.

وقدرة الله في الأرض تتجلى في شيء يأمرنا ربنا بالتدبر فيه وهو أن الله يصنع الأشياء بمختلف الصور، فهو لم يخلق نوعاً واحداً من الحيوانات وإنما خلق كل شيء بمختلف الأحجام والألوان، كل هذه الحيوانات والكائنات خلقها ودبر أمرها وصورها حتى إننا لا نتصور شيئاً إلا وقد خلقه الرب، أوليس الذي استطاع أن يخلق كل شيء بقادر على أن يبعث الإنسان في الآخرة مرة أخرى، كما خلقه أولاً في رحم أمه؟!.

وفي نهاية الآيات يذكّرنا الله بأمرين:

الأول: ضرورة الإيمان بقدرة الله.

الثاني: ضرورة الإيمان بيوم القيامة.

ذلك أن الإيمان بقدرة الله هو الطريق للإيمان بالبعث، فكلما شككنا في البعث لابد أن ننظر إلى آيات قدرة الله، لأن الشك في البعث ناتج من الشك في الله، والذي يعرف الله حقاً لا يشك في البعث.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تشير بسم الله إلى أن الحياة وما فيها مخلوقة من قبل الله سبحانه، وقائمة به، لذلك فإننا كلما تلونا البسملة على أمر فإن توجه هذه البسملة يكون نحو

ذلك الأمر، فإذا قلت بسم الله أقوم يعني أن قيامك بالله، وإذا قلت: بسم الله أنام، يعني أن نومك بالله، وهكذا.

وتختلف سور القرآن الحكيم في معانيها العامة، لذلك فإنَّ كل (بسملة) في بداية كل سورة تشير إلى أن كل شيء هو قائم بالله، فعندما نحج فإنه باسم الله، وهدف الحج هو تقوى الله، والتقوى بدورها من الله وبالله، و عندما نصوم فإنَّ صيامنا باسم الله، وهدف الصيام هو تقوى الله، والتقوى بدورها من الله وبالله.. وهكذا عندما نصلي ونقوم بأي واجب آخر.

[١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الهدف من سورة الحج هو تكريس التقوى التي هي أعلى درجات الإيمان بالمسؤولية. ففي سورة الأنبياء -التي سبقت سورة الحج- كان الحديث عن المسؤولية، أما هذه السورة، فالحديث فيها عن التقوى باعتبارها مرحلة متقدمة من الإيمان.

من الصعب على الإنسان أن يؤمن بمسلمات، ويظن أنها قواعد راسخة يستطيع أن يقيم عليها بناء أفكاره، من الصعب عليه أن يؤمن بغيرها، حتى ولو كانت أقوى، وهنا -بالضبط- يكمن خطأ الإنسان إذا تأسره مسلمات فكرية توجه كل حياته ويزعم أنه ضعيف أمامها، كلا إن الإنسان أقوى من مسلماته، وعلم الإنسان أنفذ من سابقياته الذهنية، ومما يعتقد به مجتمعه وآباؤه، وإن الإيمان بالساعة وزلزالها وأهوالها يحطّم المسلمات، والسابقيات الذهنية، ويعطي البشر قدرة هائلة للتفكير من جديد. عبر جسر الشك المنهجي فيما يزعم أنه من الحقائق المسلمة.

[٢] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ فلا تستطيع المرضعة أن تفكر آنئذ -لهول الساعة- برضيعها.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ إن الحامل تجهض ويسقط جنينها، والمرأة لا تجهض إلا إذا كانت تمر بهول عظيم، وترى كل إنسان كالسكران، لا يستطيع أن يستوعب ما يجري حوله، قد شغلته نفسه عن الآخرين، وأسكره العذاب حتى صار فاقداً لقدراته الفكرية.

إن تصور هذه الأهوال المروعة كفيل بإيقاظ القلب الغافل. وهكذا كان السلف الصالح فقد جاء في قصة نزول هاتين الآيتين من سورة الحج ما يلي: نزلت الآيات من أول السورة ليلاً في غزاة بني المصطلق وهم حي من خزاعة، والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فحثوا الخطى حتى كانوا حول رسول الله ﷺ فقرأها عليهم فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم

يحطوا السرج عن الدواب ولم يضربوا الخيام والناس بين باك أو جالس حزين متفكر، فقال لهم رسول الله ﷺ: أتدرون أي يوم ذاك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار من ولدك، فيقول آدم: من كم كم؟ فيقول عزّ وجل: من كل ألف، تسعمئة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة، فكبر ذلك على المسلمين وبكوا فقالوا: فمن ينجينا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ابشروا فإن معكم خليقتين: يأجوج ومأجوج ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، ما أنتم في الناس إلا كشعرة بيضاء في الثور الأسود، أو كرقم في ذراع البكر، أو كشامة في جنب البعير، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة فإن أهل الجنة مئة وعشرون صفاً ثمانون منها أمتي، ثم قال: ويدخل من أمتي سبعون ألفاً الجنة بغير حساب[1].

[٣] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ وقوله ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ أي من دون تفكير في ذلك الإله الذي يجب عليه أن يطيعه.

إن الجدال بالباطل لشاهد على حالة الاستقرار الكاذب، الذي لا يرضى صاحبه التحول عنه، حيث يزعم أنه يهدم أساس حياته، أو يخالف عزته الشخصية، بينما الإحساس بزلزال يوم القيامة، يجعل المؤمنين قادرين على مراجعة أفكارهم في ضوء العقل والوحي واستقبال الحقائق الجديدة بلا حمية ولا اعتزاز بالإثم، والباطل.

ويزعم الكفار أنهم يحافظون على كرامتهم، حين يعتزون بأفكارهم الباطلة بينما يفقدون استقلالهم وكرامتهم بذلك، إذ إنهم يتبعون شيطاناً مريداً ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ متجرداً عن كل خير متمحضاً في الفساد والإفساد.

[٤] ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ بإرادته وجعله والياً عليه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ من المستحيل أن يكون ذلك الشيطان المريد هادياً لأتباعه، لأن الله قدر أن يكون مضلاً لمن اتبعه، وأن نهايتها هي السعير.

[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ إن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى ماضيكم هل باستطاعتكم أن تقولوا: إن الله لا يقدر على خلقنا من جديد؟ فكيف استطاع إذن أن يخلقكم أطواراً، بعد أن لم تكونوا شيئاً؟!.

وجاء في القرآن والسنة أن الإنسان قد خلق مرتين، مرة في عالم الذر حيث خلق كل

---

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص١٢٦. نور الثقلين: ج ٣ ص٤٦٩.

الناس من تراب، و مرة أخرى حينما أودعهم الأصلاب، ثم الأرحام. فبعد أن تقذف النطفة في رحم الأم، نجدها تتحول بعد فترة إلى قطعة دم، تعلق برحم الأم ﴿عَلَقَةٍ﴾ ثم إلى ما يشبه اللحمة الممضوغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قد تحدَّدت معالمها كالعينين والرأس والأطراف، أو غير مخلقة لا تلبث أن تسقط من الرحم قبل أن تتحدَّد معالمها.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ليفهم الإنسان بأن التطورات التي تحكم وجوده، دليل على أنه مدبر وأن الله هو المدبر الحكيم له وللخلق.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إن المضغة تستمر في الرحم إلى أن يشاء الله ويأذن للجنين بالولادة، وبقاء الجنين في الرحم ليس محدوداً بمدة تسعة أشهر، فقد يولد قبل هذا لذلك قال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ومن معاني ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي نكتب، لأنه كما ورد في الأحاديث أن سعادة الإنسان وشقاءه يكتبان عليه وهو في بطن أمه.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ كانت بداية الآية تبين تطور الجنين في الرحم، أما هنا فتبين تطوره بعد أن يولد طفلاً، حيث يتحوَّل بعدئذٍ إلى شاب يافع قد بلغ أوج قوته (أشده).

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ كأن يموت بمرض أو بأحد حوادث الحياة أو بقتل، وليست له حيلة في وفاته، إنما تكون بأمر الله وتقديره. وقد يبقى طويلاً في الحياة ليعود ضعيفاً كما بدأ.

والواقع أن الزمن ليس دائماً في مصلحة الإنسان، وأن الإنسان ليس أبداً في تكامل ذاتي، كيف وهو إذا بلغ أرذل العمر يعود كالطفل فلو كان تكامله ذاتياً، كان لابد أن يعلو دائماً ولا ينتكس.

حقاً: إن أهم ما يفقده البشر بكبر سنه هو علمه؛ العلم -في ذات الوقت- أعظم نعمة يسعى البشر نحوها ويحاول المحافظة عليها، لأن العلم يميزه عن سائر الخليقة، وحين يفقد علمه لا يعود ذا كرامة في أهله وولده و مجتمعه، أو لا يكون ذلك شاهداً على أن تكامل البشر ليس من ذاته؟! ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ كأنها موات ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ إن تلك الأرض الميتة عندما تستقبل الأمطار فإنها تزيد وتنمو عليها النباتات.

والنباتات ليست ذات شكل واحد، ولو كانت الطبيعة هي التي تحكم الحياة إذن لكانت

عمياء ولكان كل شيء على صورة واحدة، ولكن تلك المواد الواحدة - التراب - الأملاح - الماء - النور - تتحوّل إلى عدة أنواع من النباتات، بل إن الله يخلق من كل نوع زوجين لضمان استمرار كل فصيل ونوع - ثم إن متانة الصنع لا تمنع جماله.

[٦] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إذ لا حق لسواه، وإنه حق لا ريب فيه وفي قدرته، وبما أنه الحق -كل الحق- فهو أحق أن يتبع ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

[٧] ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أولئك الذين كانوا في القبور يبعثون للحساب بقدرة الله سبحانه، تلك القدرة التي تتجلى اليوم في بعث البذور- الكامنة في جوف الأرض- بالنسبة للبذور كالقبر للميت؟ ولكن فكما يحيي ربنا بالماء البذرة وكذلك يحيي سبحانه الإنسان وهو في قبره.

من هنا جاء في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قال: «**إذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ [الخَلْقَ] أَمْطَرَ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ وَنَبَتَتِ اللُّحُومُ**»[1].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٥٣، بحار الأنوار: ج٧ ص٣٩.

الإيمان بين المجادلين والحرفيين

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)﴾.

هدى من الآيات:

تبيِّن آيات الذكر هنا جانباً من حقيقة الإيمان، ومواقف الناس تجاهه. فمنهم المجادلون، ومنهم الحرفيون الذين لا يصمدون أمام الفتنة، ومنهم المؤمنون حقاً الصالحون عملاً.

وتشير الآية الأولى إلى الحجة التي بدونها يصبح الجدال في الله باطلاً. وهي العلم والهدى، أو الكتاب المنير.

ومن لا يملك حجة فهو غير مؤمن، بل مستكبر عن الحق يثني عطفه ويسعى لإضلال الناس عن سبيل الله، و جزاؤه الخزي في الدنيا حيث يشمله الصغار والهوان. أما يوم القيامة فله عذاب الحريق، جزاءً وفاقاً بما جنته يداه.

أما الذين لم تترسخ في أفئدتهم حقيقة الإيمان التي تقاوم الفتن، وتتحدى الضغوط، فتراهم يعبدون الله على طرف السبيل، تطمئن نفوسهم إذا أصابهم الخير بإيمانهم، وينقلبون إلى هاوية الجحود إن أصابتهم الفتنة وتعرضوا لضغط. فيخسرون الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

إن هؤلاء يميلون مع رياح السلطة والثروة فيدعون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم، من أصنام حجرية أو بشرية - ذلك هو الضلال البعيد.

بلى إنهم يضرون أنفسهم بدعوة الأصنام التي هي قيادة سوء وصحابة سوء. أما الذين يعبدون الله باطمئنان وسكينة، ويتحدون الفتن والضغوط، فلهم من ربهم الجزاء الحسن، جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد.

بينات من الآيات:

[٨] الحجة بين الله وخلقه العقل، ومنه العلم والمعرفة، ومنه الهدى، والعقل يدل صاحبه إلى اتباع الكتاب المنير ومن لا يملك هذه الحجة، فإنما يجادل في الله باطلاً.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ فيقول: هل الله قادر على أن يبعث الموتى، أو يفعل ذلك؟ ولماذا؟ ونستوحي من الآية: إن الإيمان بالنشور فرع الإيمان بالله، وبأسمائه ومنها القدرة والحكمة، بل الإيمان بسائر حقائق الدين إنما هو فرع لمعرفة الله، كما ينبغي أن يعرف، بعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

ما هي حقائق هذه الكلمات التي من تمسك بواحدة منها فاز؟.

ألف: العلم، وهو ضوء العقل، وهو انكشاف الحقائق للقلب بنور الله، حيث يغني صاحبه من اتباع دليل أو التماس حجة.

بـــاء: الهدى وهو مستوى أقل من العلم، كمن يمشي في الصحراء تائهاً وإذا به يجد علامة من بعيد تدله على الوجهة التي يجب عليه أن يتبعها. والفرق بين المستويين (العالم والمهتدي) أن العالم يمتلك خريطة مفصلة يمكنه الاعتماد عليها في مسيره إلى الله، فهو لا يحتاج إلى علامة، أما المهتدي فهو كمن يتبع وميض نور يسير على هداه.

جيم: الكتاب المنير قد لا يكون الإنسان عالماً ولا مهتدياً، فيكون سائراً على هدى عالم آخر، كما لو أن جماعة من الناس يسيرون في صحراء خلف دليل، والدليل هو العالم، وقد يكون

الدليل هو الكتاب فهم يسيرون معه أنى اتجه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

[٩] ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي مائلاً ما بين منكبه ورقبته تعبيراً عن التكبر والإعراض، لما يواجه به من الحق، فهو أبداً مول عنه، و يسعى لإضلال الناس عن سبيل الله، وسبيل الله هو الإيمان به والعمل الصالح خالصاً لوجهه.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ لعلّنا نستوحي من الآية: أن من يجادل في الله، يبتلى في الدنيا بخزي أعده الله له لا يمكنه الفرار منه، فإما فشل ذريع، أو ميتة سوء، أو فضيحة عند الناس، أو لعنة أبدية. أو ليس قد اختار لنفسه الذلة باتباع إبليس وطاعة الطغاة، والخضوع للأثرياء؟.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ النتيجة في الآخرة لن تكون أحسن منها في الدنيا، بل هي أشد وأسوأ.. كلما تنضج جلودهم تبدل بجلود غيرها، ليذوقوا العذاب الحريق.

[١٠] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ واليدان تعبير عن كل الجوارح، فهذه حكمة الله، إنه يترك الإنسان في الدنيا يقترف ما يريد ويجرم ما يشاء و لكنه يقف له بالمرصاد يأخذه بذنبه حين يشاء.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنه سبحانه قد أعطاك عقلاً، وبعث إليك رسلاً، وأوضح لك طريقك، وبين لك كيف تعمل، وكيف توفر لنفسك العزة في الدنيا والنعيم في الآخرة، إن الرب قد أراد العزة للخلق حين أمرهم بعبادته، ورفض عبادة المخلوقين، ولكنهم ظلموا أنفسهم فأخذهم بما كانوا يكسبون.

وربما توحي هذه الآية بأن الله لا يأخذ عباده بما ينوون القيام به من السيئات، بل بما يقومون به فعلاً. ولذلك جاء التعبير بما قدمت يداك.

الاتباع على حرف

[١١] كان ذلك واقع المجادلين في الله باطلاً.. وهناك طائفة ثانية يتحدث عنها السياق هنا، وهم طائفة الحرفيين التي تؤمن بالله ظاهراً ولكنها على شك، فإن أصابهم خير اطمأنت نفوسهم وركنت إليه، وإن أصابهم شر ترددوا إلى مهاوي اليأس وسوء الظن، إنهم كمن يمشي على طرف الهاوية يسقط فيها بأقل زلة قدم، ويزعم هؤلاء: أن مقياس الحق ما يحصلون عليه من المنافع، فإذا ما أوتوا قدرا من المال والسلطة إذا هم مع الحق أما إذا محصوا بالبلاء من قبل الله نكصوا على أعقابهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ ﴾ والحرف هو: الحافة والطرف.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ ﴾ إن هذا الاطمئنان ليس بالله، وإنما بذلك الخير الذي أصابه، فهو يتبع قيادة الرسول ما دام يسبغ عليه الخير.

﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾ ولعلَّ الانقلاب على الوجه تعبير عن التغيير كلياً وبصورة فجائية، حيث يقطع علاقته بالمؤمنين تماماً، ويقف في صفوف الكفار كاملاً.

يتحدَّث الله عن هؤلاء قائلاً: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ﴾ لأنَّ الإنسان الذي يمشي على شك لا يصيب من الدنيا متاعاً، ولا ينال في الآخرة أجراً، لأنه في الدنيا كان مع المؤمنين وهم عادة ما يكونون مبتلين بالشدائد، ويعيشون ظروفاً صعبة من الفقر والحرمان والمطاردة، أما في الآخرة عندما يهب الله الأجر للمؤمنين لا يحسب منهم، لأنه ممن كان قلبه متعلقاً بالكفار فهو نائل ما ينالونه.

ويؤكد القرآن وبشدة عذاب هؤلاء، لأنَّ أكثر الناس الذين يدعون الإيمان إنما هم من هذه الطائفة، فهم يصلون في ظروف السلم والهدنة، أما إذا جدَّ الجد وأصبحت الصلاة جريمة يعاقب عليها القانون، فهم ليسوا مستعدين للصلاة، إنهم مع تقلبات السياسة أو الاقتصاد أو المجتمع، كالريشة في مهب الرياح.

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ ولقد فسرت كلمة (حرف) في الأحاديث بأنه الشك، وأبرز مظاهر الحرفية في حياة هؤلاء أن انتماءهم إلى القيادات الرسالية يخضع لقانون الحرفية، فمتى ما وجدوا القيادة في حالة انتصار كانوا معها، ومتى ما كان العكس انفضوا عنها. ولذلك جاء في أحاديث كثيرة ومأثورة: أن الحرفيين هم أولئك الذين يشكون في القيادات الإلهية، إذ إن الطاعة المطلقة للرسول وأوصيائه من الأئمة وبعدهم الفقهاء، هو أبرز مظاهر الإيمان. ولذلك تجد السياق يحدثنا عن مسألة الولاء في الآيات التالية.

[١٢] مقياس الإيمان الحق الانتماء إلى القيادة الإلهية، والثبات معها وطاعتها في الظروف الصعبة رغم مخالفتها للأهواء والمصالح الذاتية.

وأبرز مظاهر الحرفية في الإيمان الشك في القيادة الربانية عندما تأمر بعمل صعب، أو يخالف قرارها هوى النفس، أو حينما تتعرَّض لنكسة أو هزيمة. وإن مصير الحرفيين الارتماء في أحضان القيادات الجاهلية، كالسلطات الطاغوتية، أو الجهات الملحدة، أو الفئات المنحرفة. وهذا يعتبر شركاً ظاهراً في منطق القرآن. وهو في ذات الوقت ضلال بعيد.

﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي من دون الله، والقيادة التي أمر الله باتباعها. من نبي مرسل أو إمام معصوم، أو قائد منصوب من قبله.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أحياناً يتبع الإنسان قيادة لا تنفعه وهو يحسب أنها تفيده بل هو ينفعها باتباعه لها، أوليس الضلال أن يعبئ الإنسان طاقاته من أجل لا شيء، فلا نفع ولا دفع للضرر؟! وأبعد من هذا الضلال أن ينتمي البشر إلى قيادة تضر ولا تنفع.

[١٣] ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ ﴾ حيث يتراءى لهذه الفئة من الناس أن القيادات الجاهلية توفر لهم قدراً من العزة، والثروة، إلا أن العاقبة هي الفقر والاستعباد.

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾ القائد.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ الصاحب.

ولعلَّ هذه الآية تكشف لنا أنه لا يجوز للإنسان أن يأذن للآخرين باتباعه إن لم يعرف في ذاته الكفاءة، ولا يجوز له أن يعتذر بقوله: إن الناس هم الذين نصبوني إماماً وقائداً لهم، بل يجب عليه أن يعتزل عن هذا المنصب، وإذا لم يعتزل فإنه ممن يقول الله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ ﴾.

[١٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ﴾ وهم الذين آمنوا بالله إيماناً راسخاً، وترجموا إيمانهم إلى ممارسات عملية، وسلوك صالح.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ لأنه قادر مريد مطلق القدرة والإرادة، يفعل ما يريد، لا ما يريده غيره، ومن مظاهر إرادته الحكيمة حسن جزائه للمؤمنين الصالحين، وسوء عقابه للمجادلين فيه، والشاكين في أنبيائه وأوليائه.

أو ليس الأولى بنا إذن أن نسعى إلى جنات الرب التي وعدنا إياها إن كنا مؤمنين صادقين؟ وأية جنات هي التي بشر الله عباده بالغيب؟ دعنا نستمع إلى أئمة آل البيت عليهم السلام وهم يفسرون القرآن، وينقلوننا إلى رحاب تلك الجنات التي بشر بها القرآن.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مخاطباً أبا بصير: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ الْجَنَّةَ تُوجَدُ رِيحُهَا مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ وَإِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً لَوْ نَزَلَ بِهِ الثَّقَلَانِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لَوَسِعَهُمْ طَعَاماً وَشَرَاباً وَلَا يَنْقُصُ مِمَّا عِنْدَهُ شَيْءٌ وَإِنَّ أَيْسَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيُرْفَعُ لَهُ ثَلَاثُ

حَدائِقَ فَإِذَا دَخَلَ أَدْنَاهُنَّ رَأَى فِيهَا مِنَ الأَزْوَاجِ وَالخَدَمِ وَالأَنْهَارِ وَالثِّمَارِ مَا شَاءَ اللهُ فَإِذَا شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ قِيلَ لَهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ إِلَى الحَدِيقَةِ الثَّانِيَةِ فَفِيهَا مَا لَيْسَ فِي الأُولَى فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَعْطِنِي هَذِهِ فَيَقُولُ لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا فَيَقُولُ رَبِّ هَذِهِ هَذِهِ فَإِذَا هُوَ دَخَلَهَا وَعَظُمَتْ مَسَرَّتُهُ شَكَرَ اللهَ وَحَمِدَهُ.

قَالَ فَيُقَالُ: افْتَحُوا لَهُ بَابَ الجَنَّةِ، وَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَإِذَا قَدْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الخُلْدِ وَيَرَى أَضْعَافَ مَا كَانَ فِيمَا قَبْلُ، فَيَقُولُ: عِنْدَ تَضَاعُفِ مَسَرَّاتِهِ رَبِّ لَكَ الحَمْدُ الَّذِي لا يُحْصَى إِذْ مَنَنْتَ عَلَيَّ بِالجِنَانِ وَأَنْجَيْتَنِي مِنَ النِّيرَانِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الجَنَّةَ وَأَنْجِنِي مِنَ النَّارِ.

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ فَبَكَيْتُ وَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ زِدْنِي، قَالَ عليه السلام: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ فِي الجَنَّةِ نَهَراً فِي حَافَتَيْهَا جَوَارٍ نَابِتَاتٌ إِذَا مَرَّ المُؤْمِنُ بِجَارِيَةٍ أَعْجَبَتْهُ قَلَعَهَا وَأَنْبَتَ اللهُ مَكَانَهَا أُخْرَى.

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ زِدْنِي، قَالَ عليه السلام: المُؤْمِنُ يُزَوَّجُ ثَمَانَ مِائَةِ عَذْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلافِ ثَيِّبٍ وَزَوْجَتَيْنِ مِنَ الحُورِ العِينِ. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ ثَمَانَ مِائَةِ عَذْرَاءَ!. قَالَ عليه السلام: نَعَمْ مَا يَفْتَرِشُ مِنْهُنَّ شَيْئاً إِلَّا وَجَدَهَا كَذَلِكَ.

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خُلِقْنَ الحُورُ العِينُ؟. قَالَ عليه السلام: مِنَ الجَنَّةِ [مِنْ تُرْبَةِ الجَنَّةِ النُّورَانِيَّةِ] وَيُرَى مُخُّ سَاقَيْهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَلَهُنَّ كَلامٌ يَتَكَلَّمْنَ بِهِ فِي الجَنَّةِ؟. قَالَ عليه السلام: نَعَمْ كَلامٌ يَتَكَلَّمْنَ بِهِ لَمْ يَسْمَعِ الخَلائِقُ بِمِثْلِهِ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟.

قَالَ عليه السلام: يَقُلْنَ نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلا نَمُوتُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلا نَبْأَسُ، وَنَحْنُ المُقِيمَاتُ فَلا نَظْعَنُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلا نَسْخَطُ، طُوبَى لِمَنْ خُلِقَ لَنَا، وَطُوبَى لِمَنْ خُلِقْنَا لَهُ، نَحْنُ اللَّوَاتِي (لَوْ عُلِّقَ إِحْدَانَا فِي جَوِّ السَّمَاءِ لَأَغْنَى نُورُنَا عَنِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ خ ل) لَوْ أَنَّ قَرْنَ إِحْدَانَا عُلِّقَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ لَأَغْشَى نُورُهُ الأَبْصَارَ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص١٢٠، تفسير القمي: ج٢ ص٨١.

هكذا يحيط تدبير الله بالإنسان

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ(١) إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ(٢) (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(٣) وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ(٤) وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢)﴾.

هدى من الآيات:

تطرَّقتْ الآيات السابقة عن أن هناك من يؤمنون بالله إيماناً حرفياً، فإذا أصابتهم نعمة اطمأنوا

(١) بسبب: السبب كل ما يتوصل به إلى الشيء.
(٢) يغيظ: ما أوجب غيظه من المشكلة والفتنة التي وقع فيها.
(٣) الصابئين: هم خليط من الأديان، وقيل لكل خارج من الدين إلى دين آخر صابئ.
(٤) المجوس: عبدة النار كان لهم نبي وكتاب، فقتلوا نبيهم وأحرقوا كتابهم.

بها، أما إذا امتحنوا بفتنة انقلبوا على وجوههم وقالت: إن هؤلاء يتبعون قادة يضرون ولا ينفعون.

وفي هذا الدرس يذكرنا القرآن بأن الحاكم الحقيقي للكون، ومن له الولاية الحق على الإنسان هو الله، ليس فقط في المجال التشريعي وفي الآخرة، وإنما أيضاً في الدنيا وفي المجال التكويني.

ولتأكيد هذه الفكرة تذكّرنا الآيات بعدة حقائق:

أولاً: أن الذين يزعمون أنهم منفصلون عن إرادة الله وتدبيره فليفعلوا ما يشاؤون، وليكيدوا ما يريدون، ثم لينظروا، هل باستطاعتهم أن يخرجوا من حدود قدرة الله وملكوته؟.

ثانياً: هل باستطاعة الإنسان أن يهتدي إلى سواء السبيل، ويعرف الطريق القويم، من دون هدى الله المتمثل في آياته ورسوله وفي توفيقه للهدى؟.

ثالثاً: هل بالإمكان توحيد البشر على أساس غير رسالة الله الحق؟ كلا.. إن رسالة الله والعمل بها هو الأساس الوحيد لتوحيد الناس.

ثم يؤكد الذكر أن كل ما في السماوات والأرض خاضع لله وساجد له، كالشمس والقمر والنجوم والشجر و الدواب، ولكن تبقى مجموعة من البشر تشذّ عن هذه السنة لفترة محدودة، وفي مجال محدود، ينتهون بانتهاء الفرصة التي أعطاهم الله. فليس بإمكان الإنسان أن لا يأكل أو لا يشرب أو لا ينام، وكذلك ليس باستطاعته أن يخرج نفسه من الأرض، أو يتمرد على سنن الحياة، نعم بإمكانه أن لا يصوم أو لا يصلي، في هذا المجال المحدود فقط أعطى الحرية لكي تمتحن إرادته، أما في سائر المجالات فلابد له من الخضوع طوعاً وكرهاً؟.

إذن ما دمت لا تستطيع الخروج عن ولاية الله، فلماذا تتمرد عليه وتتخذ غيره وليًّا؟ هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيساق المجرمون إلى جهنم سوقاً وتفصل لهم ثياب من نار، ويصب من فوق رؤوسهم الحميم فيصهر ما في بطونهم وأجوافهم، ولهم مقامع (مطارق) من حديد ملتهب، وكلما حاولوا الفرار من النار أعيدوا إليها مقهورين.

إذن فبداية الإنسان ونهايته محدودتان بتدبير الله، إنه لا مخرج من ملكوت الله وسلطانه، فحري بالإنسان أن لا يتخذ غير الله وليًّا وقائداً.

بينات من الآيات:

[١٥] ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ (الهاء) في كلمة ﴿يَنصُرَهُ﴾ تعود إلى أحد معنيين،

إما إلى نبينا محمد ﷺ وأما إلى من في جملة ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾.

ففي الحال الأولى يكون المعنى: أنه من كان يحقد على محمد ﷺ، وما جاء به من رسالة الله ويشك في نبوته، ولا يعتقد بأن الله ناصره في الدنيا والآخرة، فليبذل كل ما في وسعه، وليجرب كل حيلة إلى ذلك، حتى لو استدعى ذلك أن يمد حبلاً من أعلى ويشنق نفسه، ثم لينظر: هل استطاع أن يتحدى إرادة الله بمنع رسوله أو بمنع رسالته فيشفي بذلك حقده وظنه؟.

أما في الحالة الثانية فإنَّ الآية تعني أن الله سبحانه ينصر الإنسان، ويحفظه ويعينه في الدنيا والآخرة. ومن كان يظن غير ذلك، فليذهب أنى يشاء، وليفعل ما يريد، حتى ولو شاء خنق نفسه (بمد حبل إلى السماء ثم قطعه) فإنه لن يقدر على تحدي سلطان الله، ولن ينفعه عمله وحقده على الله.

ولعلَّ الآية تتضمن تحدياً إعجازياً للبشر، فإذا كانوا يشكون في قدرة الله إذن فليخرجوا من ملكوت الله، ومن سننه وقوانينه الثابتة التي أخضع لها كل شيء، والتي يكرهون على الخضوع لها، ومن ثم لينظروا - بعد أن يستخدموا كل إمكاناتهم وعلومهم - هل استطاعوا أن يخرجوا من ملكوت الله، أو هل تحرروا من قوانين الحياة المادية والمعنوية، فيشفوا بذلك غيظهم النابع من جهلهم الموجه ضد إرادة الله وسننه التي وضعت لمصلحتهم، والتي كان ينبغي عليهم أن يعملوا بموجبها ويشكروا الله عليها لأنها أهم مظاهر رحمة الله بعباده. فيكون معنى الآية: مدوا بحبل إلى السماء، فهل تقدرون على ذلك؟ والله العالم.

عندما صعد أول إنسان إلى القمر.. هل استطاع أن يخرج من إرادة الله؟! كلا.. إنه لا يستطيع ذلك حتى إنه لم ينس مشاكله العائلية مع زوجته، فقد صرح بعد نزوله إلى الأرض: كنت أفكر وأنا على سطح القمر في خلافاتي مع زوجتي.. وهل هي راضية عن عملي هذا الذي أقوم به أم لا؟.

هكذا يبقى الإنسان محكوماً بالأنظمة والقوى الطبيعية حوله، مادية كانت أم معنوية، شاء ذلك أم أبى، ولا يمكنه والحالة هذه إلا أن يمتثل لأمر مولاه. وإن تكبر واستنكف فلا يضر إلا نفسه.

وأخيراً لو تفكَّر الإنسان: من الذي يرزقه ويسبغ عليه النعم، ومن الذي يدفع عنه آلاف الأخطار التي تحمل في طياتها الموت والدمار، لوجد أنه هو الله الرزاق ذو القوة المتين، وما عداه ليس إلا أسباباً مخلوقة.

الله يهدي من يريد

[١٦] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ كما أن الجانب المادي من حياتنا محكوم بإرادة الله سبحانه فكذلك الجانب المعنوي منها كالهداية، ولو كان العقل والفطرة كافيين لهداية الإنسان، فلماذا يضل البعض ويهتدي الآخرون والجميع يمتلك العقل والفطرة؟ كلا.. إن الله يهدي من يريد. وما دامت الهداية من الله فلنتخذه ولياً، لا نعبد سواه.

[١٧] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ثم إن الاختلاف الناشئ بين البشر دليل واضح على أن الإنسان بحاجة إلى الله ليهديه إلى الطريق القويم وأن الله هو الذي يقضي بالحق، ويفصل بين أتباع المذاهب المختلفة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ إن فصل الله بين المذاهب والآراء المختلفة، وبالتالي بين الحق والباطل في كل قضية صغيرة أو كبيرة، إنما هو تجل لشهادته الشاملة لكل شيء، وإنه المهيمن الذي لا يعزب عن علمه شيء في السماوات والأرض.

ولأنه شهيد على كل شيء، فلابد من احترام محضره المبارك، والتحسس برقابته المباشرة وإشرافه الدائم، وأن يسأل كل إنسان نفسه عندما يهم بعمل أو قول، أو حتى عندما يجيل بخاطره فكرة، ويريد أن يتخذ قراراً أو يصدر رأياً، هل الله راضٍ عن ذلك، إنه تعالى يحاسبه غداً عليه. إن هذا الإحساس هو الذي يبعث نور الهدى في ضمير البشر، ويشد أزر العقل ضد الهوى، ويساعد على منهجية التفكير دون الفوضى، ويقوم سلوك الفرد دون التطرف.. ويجعل له من نفسه واعظاً مرشداً.

[١٨] ثم يوجه القرآن الحكيم نظر الإنسان إلى السماء والأرض.. إلى آيات الله التي تشهد جميعها على هيمنة الله المطلقة وخضوع كل شيء في الوجود له سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إن هذه الأشياء تخضع خضوعاً لله.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لكن كثيراً من الناس لا يسجدون لله وهؤلاء لا يشكلون في الواقع سوى نسبة ضئيلة إذا ما قيسوا بما في الكون من مخلوقات هائلة، وأعداد غفيرة تعجز الكمبيوترات عن إحصائها وتسجيلها.

إن كرامة الإنسان تقتضي السجود لربٍّ تسجد له السماوات والأرض، ومن فيهما، ذلك

الله الفاعل ما يشاء، أما السجود لصنم لا يضر ولا ينفع بل يضر ولا ينفع، أو لبشر ذليل حقير كالسلاطين المغرورين، أو كأصحاب الثروة المفسدين فإنه يستتبع إهانة وذلة وصغاراً.

والله سبحانه حين لا يهدي البشر يبتليه بعبادة الأصنام الصامتة أو الناطقة، فيهينه بذلك، ومن أهانه الله لا مكرم له من بعده.

ولا يقدر أحد تحدي إرادة الله، والخروج عن إطار الإهانة الشركية إلى عز التوحيد، لأن الله يفعل ما يشاء، و لا يفعل ما يشاء غيره سبحانه.

﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾ من إهانة هؤلاء، أو إكرام أولئك الذين يسجدون له، من هنا كان علينا الالتجاء إليه ليهدينا إليه، ويجعلنا ممن أكرمهم بالسجود له.

[١٩] ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فريق هدى وفريق حق عليهم الضلالة.. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ الذين كفروا تقطع لهم ثياب من نار فصلت بمقدارهم، حتى تكون النار أكثر ملامسة لكل جزء من أبدانهم كذلك ليذوقوا العذاب الشديد. ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ عندما يحيط الثوب الناري بالجسم تبقى بعض الأعضاء مكشوفة كالرأس فيصب عليه الحميم الساخن ليكون العذاب شاملاً لكل أجسامهم.

[٢٠] ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ إن الحميم من شدة حرارته (والذي قيل في شأنه أنه الرصاص المذاب) يصهر ما في أجوافهم القلب - الكبد الأمعاء.

[٢١] ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ المقمعة: آلة تستعمل للدق، تحملها الملائكة لتضرب بها رؤوس المجرمين.

[٢٢] ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ بالرغم من أن الكفار في جهنم يعلمون أن لا أمل لهم في النجاة منها إلا أنهم من شدة العذاب يحاولون الخروج منها بسبب غمّها وكدرها، وفي كل مرة يحاولون ذلك يفشلون، وهذا بحد ذاته عذاب نفسي لهم.

هكذا يتبين مدى خطأ الفكرة التفويضية التي ترى أن الله لا ينصر العبد في الدنيا والآخرة، وأنه لا يرتبط به شيء من التقدير والتدبير، كلا.. إن الله هو الذي ينعم ويهدي ويكرم ويجازي، فإلى كهفه نلتجئ، ومن غضبه إلى رحمته نفرُّ، وبه من عذابه نستعيذ.

وأذّن في الناس بالحج

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[1] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا[2] لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[3] ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ[4] ﴿٢٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

انتهت آيات الدرس السابق بإنذار بالغ الشدة للذين كفروا، وذلك بتصوير مشهد من

(١) بإلحاد: الإلحاد العدول عن القصد.

(٢) بوأنا: وطأنا.

(٣) فج عميق: طريق بعيد.

(٤) العتيق: هو الكعبة، وإنما سمي عتيقاً لأنه أعتق من أن يملكه العبيد.

مشاهد العذاب في يوم القيامة، ولأنه كلما ورد إنذار في القرآن الحكيم شفع بترغيب وبشارة فقد جاءت هذه الآيات تبشِّر المؤمنين بأن لهم عند ربهم ثواباً يتجلّى في جنة تجري من تحتها الأنهار، وفي زينة يتزين بها هؤلاء في تلك الجنة، ومن قبل هداهم الله إلى القول الطيب والصراط الحميد. ثم يتناول موضوع الحج باعتباره منسكاً من مناسك الأمة الإسلامية الواحدة، ويهدف تكريس التقوى في نفوس أبنائها، أما الكفار الذين يصدون عن سبيل الله، ومن أبرز مصاديقه المسجد الحرام، فلهم عذاب أليم، بل كل من ينحرف فيه بظلم الناس، فله عذاب أليم. ويعيدنا القرآن إلى اليوم الأول الذي بني فيه المسجد الحرام، وكيف أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء البيت للناس جميعاً، لا من أجل طائفة أو قوم. إنما البيت للقريب والبعيد، للقاصي والداني. ولم يوضع الحرم لكي يشرك بالله عبره، إنما وضع لكي يعبد الله وحده هناك. (بإقامة الصلاة وبالركوع والسجود) فقد أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يطهِّر بيته من الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، في أيام الجاهلية، والأصنام البشرية التي تعبد اليوم هناك وباسمه.

وآيات هذا الدرس هي سنام هذه السورة -في ما يبدو لي- لأنها تتحدَّث عن وسيلة تكريس التقوى، والحج هو أفضل وسيلة لذلك، وقد عرفنا مسبقاً أن التقوى هي أعلى درجات الإحساس بالمسؤولية.

بينات من الآيات:

الجنة نعيم شامل

[٢٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ الذين آمنوا إيماناً صادقاً بالله، هم المؤمنون حقاً، وهم الذين ينعكس إيمانهم في واقع حياتهم، بالقيام بالأعمال الصالحة. والجنات التي يدخلها هؤلاء هي ترجمة لعملهم الصالح، ولهذا جاءت كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بلفظ الجمع باعتبار أن عملهم الصالح على درجات وأن لكل عمل جنة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي يزينون بأساور من الذهب، كما يتوجون أو يقلدون باللؤلؤ النفيس، ويلبسون ملابس خضراء من حرير فاخرة وتصور هذا المنظر يشوق الإنسان إلى الجنة.

[٢٤] ثم لا يكتفي السياق ببيان النعم المادية، بل يضيف إليها النعم المعنوية أيضاً حيث يقول: ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الطيب

من القول هو: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ» وجاء في بعض الأحاديث، أنه كلمة التوحيد[1]، و قد ورد في بعض النصوص: أن الله يرسل إلى أهل الجنة كل وقت بهدية وأنها هي الطيب من القول، وهذا هو المعنى الذي ذهب إليه المفسرون، وكأنَّ الهداية تتم في الجنة!. ويبدو لي أن معنى الآية: أن المؤمنين قد هداهم الله في الدنيا إلى الطيب من القول، وهو كلمة التوحيد والإخلاص. وإلى الصراط الحميد، وهو طريق الأنبياء والأئمة الهداة عليهم السلام.

الصد عن السبيل

[٢٥] بعد ذلك يبدأ القرآن بنبذة عن الكفار، وما هو عملهم، بالمقارنة مع المؤمنين، وعملهم فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليس الكفر هو الكلام النظري أو العقيدة المجرَّدة فحسب. بل هو أيضاً ما نبع من ذلك كله كالعدوان والعمل السيئ، لذلك لا يلبث القرآن بعد أن ذكر الكفار، أن يبين واقع كفرهم قائلاً: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني أن هؤلاء قد كفروا في قرارة أنفسهم، أما عملهم فصد عن سبيل الله، ولذلك تجد كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ جاءت بصيغة الماضي، بينما جاءت كلمة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع الدالة على الحال والمستقبل، فالكفر قرار واحد، أما الصد عن سبيل الله فهو عمل دائب ومستمر.

والصد عن سبيل الله، يقف حاجزاً بين الإنسان وقيامه بالعمل الصالح، أياً كان هذا العمل -أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو بناء مساجد الله وأداء فرائضه- لأن الصد عكس ذلك تماماً كخلق العراقيل التي تمنع الحجاج من أداء فرائضهم، أو منع السلطات عمارة الأرض، وكبت حرية العمل والتجارة، وعموما فإنَّ الكفر يقف حجر عثرة في طريق الإنسان لكي لا يصل ذرى التقدم والتكامل المادي والمعنوي.

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أما الصد عن المسجد فهو نوعان:

الأول: تكبيل الناس بالقوانين الإدارية الجائرة، ومنعهم من السفر إلى الحج أساساً.

الثاني: هو أن يتمكن الحجاج من الوصول إلى المسجد الحرام، ولكنهم لا يتركون ليؤدوا شعائرهم الدينية، كما فرضها الله عليهم بحرية تامة، بسبب هيمنة السلطات الجائرة على الأماكن المقدسة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤ ص٣٨، تفسير القمي: ج٢ ص٨٣.

ضمان حرية الإنسان في الحرم

وقبل أن يسوق القرآن الحديث حول بيت الله ومناهج الحج إليه، يفرض احترام المسجد الحرام، ويتوعد الذين يظلمون فيه، ويعتدون على حرمات الناس، ويصادرون حرياتهم، بالعذاب الأليم.

والحرية هنالك تعني كل شيء، إذ من دونها تكاد تتفرغ مناهج الحج من محتوياتها، فكيف يشهد الحجاج منافع لهم وسيف الظلم مسلط عليهم. وكيف يتفكرون في شؤون الأمة، وأجهزة القمع المتسلطة تلاحقهم، وكيف يخلعون ثياب الشرك، ويتحررون من خوف الجبابرة ليعبدوا الله وحده، وشياطين السلطة يحيطون بهم.

وهكذا نفهم أن أي انحراف يتم بالظلم تشمله الآية، حتى ولو لم يكن من قبل الدولة، بل من أصحاب السلطة الصغار كالزوج والمالك والمدير، و...، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ ظُلْمٍ يَظْلِمُهُ الرَّجُلُ نَفْسَهُ بِمَكَّةَ مِنْ سَرِقَةٍ أَوْ ظُلْمِ أَحَدٍ أَوْ شَيْءٍ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنِّي أَرَاهُ إِلْحَاداً وَ لِذَلِكَ كَانَ يُتَّقَى أَنْ يُسْكَنَ الْحَرَمُ»[1].

أي كانت الإقامة الدائمة بمكة مكروهة شرعاً، لأنَّ الإنسان لا يخلو من ظلم نفسه بواحدة من هذه المحرمات فإذا سكن البيت اعتبرت معاصيه هذه إلحاداً، وضاعف الله عليها العقاب.

﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ﴾ فالمسجد الحرام ليس ملكاً لأحد، لا لعائلة معينة ولا لدولة خاصة إنما هو للناس جميعاً، وقد جعله الله كذلك.

﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي يتساوى فيه المقيم المعتكف بمكة، مع ذلك الذي يأتيه من البدو أي الصحراء، ثم يؤكد الله هذه الحقيقة، مرة أخرى، قائلاً: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

إن من يتخذ المسجد الحرام وحاجة الناس إليه سبباً لتحريف الناس وتضليلهم، أو من يفرض على الآخرين منهجاً معيناً في التفكير.. هؤلاء سوف يذوقون عذاباً أليماً. ومعنى ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بانحراف.

ولكي يمرر الجاهليون ظلمهم وتسلطهم وإفسادهم في الحرم تراهم يحرِّفون الكلم عن

---

(١) الكافي: ج٤ ص٢٢٧.

مواضعه وهذه هي مشكلة الإنسان الرئيسية. حيث إن أصحاب السلطة قادرون على تحريف المناهج التي وضعت لإنقاذه منهم، بحيث لا تنفع، أو تكون أداة لتسلطهم عليه من جديد. ويبدو أن الآية هنا تحذِّر من هذه الحالة لكي لا يتحوَّل المسجد الحرام إلى مكان للظلم والإلحاد باسم جديد!

[٢٦] ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ لقد حدَّد الله سبحانه وتعالى مكان البيت الحرام، لإبراهيم عليه السلام لكي يرفع قواعده عالية شامخة، ولهدف معين هو: أن يكون البيت القاعدة الرئيسية أساس فكرة الشرك أولاً. ولإقامة منهج التوحيد الصحيح ثانياً. والواقع أن الكعبة المشرفة كانت موجودة من قبل إبراهيم عليه السلام ولكنها مع مرور الزمان، اندرست آثارها، ولم يبق لها رسم يدل عليها، ولم يكن إبراهيم عليه السلام ليعلم حدود البيت. كما إنه لم يكن باستطاعته أن يختار بيتاً حسب رأيه الخاص، لأن هذا الأمر يختص بالخالق العظيم، جلَّ شأنه - الذي له الأمر والخلق.. فحدَّد الله مكانها له ثم أمره قائلاً: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي طهِّر بيتي من الأدران المادية والأرجاس الوثنية. وقد ذكرت هذه الآية الحالات الأربع للعبادة عند المسجد الحرام، وهي: الطواف والقيام.. (الإقامة أو الدعاء والذكر) والركوع والسجود وهما يرمزان إلى الصلاة ويعبران عن الكثرة، وهذه العبادات ترمز إلى التوجه الخالص لله، والخضوع له والتسليم لأمره، و اتخاذ شريعته محوراً للحياة.

نداء الحج

[٢٧] ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ جاء في الأثر عن عَلِيِّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الآيَةَ قَالَ: لَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ فَقَالَ يَا رَبِّ وَ مَا يَبْلُغُ صَوْتِي فَقَالَ اللهُ تَعَالَى أَذِّنْ عَلَيْكَ الْأَذَانُ وَعَلَيَّ الْإِبْلَاغُ وَارْتَفَعَ عَلَى الْمَقَامِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُلْصَقٌ بِالْبَيْتِ فَارْتَفَعَ بِهِ الْمَقَامُ حَتَّى كَانَ أَطْوَلَ مِنَ الْجِبَالِ فَنَادَى وَأَدْخَلَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ وَ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ شَرْقاً وَغَرْباً يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ فَأَجَابُوهُ مِنْ تَحْتِ الْبُحُورِ السَّبْعِ وَ [مِنْ] بَيْنِ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ إِلَى مُنْقَطَعِ التُّرَابِ مِنْ أَطْرَافِهَا أَيِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَمِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَ أَرْحَامِ النِّسَاءِ بِالتَّلْبِيَةِ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ أَ وَ لَا تَرَوْنَهُمْ يَأْتُونَ يُلَبُّونَ فَمَنْ حَجَّ مِنْ يَوْمَئِذٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَهُمْ مِمَّنِ اسْتَجَابَ [لله] وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يَعْنِي نِدَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْحَجِّ»[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٩٥.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ رجالاً: أي مترجلين على أقدامهم، وضامر: الدواب المضمرة التي أضمرت بكثرة التدريب أو لطول المسافة، وهذه الآية ترمز إلى أن الحجاج يأتون إلى الحج متلهفين إما راجلين أو ممتطين دوابهم الضامرة.

[٢٨] ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ المنافع المادية والمعنوية المختلفة التي فيها صلاح معاشهم واستقامة حياتهم.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أي في أيام الحج من شهر ذي الحجة.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الأضحيات التي تنحر في منى يوم العاشر.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي كلوا منها أنتم وقراباتكم، و أطعموا الفقير الذي قد بؤس وجاع. وهذه دعوة صريحة للموسرين، من أجل أن يخرجوا من حدود أنانيتهم وشحهم، كي يقضوا حاجات المعسرين المحتاجين.

[٢٩] ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ حيث تصبح شعورهم شعثاء غبراء من كثرة الترحال والمسير، كما تطول أظفارهم، وفي نهاية موسم الحج يقصّون شعورهم ويقلمون أظفارهم. ويطهرون أبدانهم من الأدران، و التفث في اللغة الدرن.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وتلمح هذه الآية إلى أن ضرورة قضاء النذور وهي -عادة- تلك التي يلزمها الفرد على نفسه إن بلغ مكة سالماً، أو إن قضيت حاجاته. ولعلّنا نستفيد من هذه الآية التأكيد بتطهير القلب والتخفيف عنه بالوفاء بالنذور، حتى يعود الحاج إلى بيته بصفحة جديدة. أما الطواف بالبيت العتيق، فقد جاء في الأحاديث أنه الطواف الأخير الذي يسمى بطواف النساء لأن النساء لا يحللن إلا بعده، ويسميه البعض بطواف الوداع، لأنه آخر طواف حول البيت، الذي سماه الرب هنا بالبيت العتيق، لأنه (حرٌّ) عن ملكية الأفراد وعن سلطة الجبابرة، ومركز لحرية الناس. وهو أول بيت وضع للناس (جميع الناس) وقد أعتقه الله من الغرق عند الطوفان الأعظم على عهد النبي نوح عليه السلام.

وكلمة أخيرة: لقد فسرت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام كلمة ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ باللقاء مع (الإمام) أوليس الحضور عند الإمام والالتقاء به في أجواء الحرية عند البيت الحرام يقضي على الأدران المعنوية لقلب الحجاج، ويؤهلهم لبدء رحلة جهادية جديدة، وهذا التفسير يؤكد الجانب الحضاري للحج، المتمثل في تطوير الحياة السياسية و الاقتصادية والاجتماعية للأمة عبر الحج وذلك باللقاء مع إمام الأمة، وقائد مسيرتها، ورائد حركتها المباركة.

وفي حديث آخر: يجعل الإمام إحدى حكم الوفادة إلى بيت الله التفقه في الدين، ونقل أنباء القيادة إلى الأقطار. جاء في الأثر المروي عن الإمام الرضا عليه السلام وهو يبين علل الحج أنه قال: «إِنَّمَا أُمِرُوا بِالْحَجِّ لِعِلَّةِ الْوِفَادَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ وَ الْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ مَا اقْتَرَفَ الْعَبْدُ تَائِباً مِمَّا مَضَى مُسْتَأْنِفاً لِمَا يَسْتَقْبِلُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ وَتَعَبِ الْأَبْدَانِ وَالِاشْتِغَالِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَ حَظْرِ النَّفْسِ عَنِ اللَّذَّاتِ شَاخِصاً فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ثَابِتاً عَلَى ذَلِكَ دَائِماً مَعَ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَ التَّذَلُّلِ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمَنَافِعِ لِجَمِيعِ مَنْ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا وَمَنْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّنْ يَحُجُّ وَمِمَّنْ لَمْ يَحُجَّ مِنْ بَيْنِ تَاجِرٍ وَجَالِبٍ وَبَائِعٍ وَمُشْتَرٍ وَكَاسِبٍ وَمِسْكِينٍ وَمُكَارٍ وَفَقِيرٍ وَقَضَاءِ حَوَائِجِ أَهْلِ الْأَطْرَافِ فِي الْمَوَاضِعِ الْمُمْكِنِ لَهُمُ الِاجْتِمَاعُ فِيهِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّفَقُّهِ وَنَقْلِ أَخْبَارِ الْأَئِمَّةِ عليهم السلام إِلَى كُلِّ صُقْعٍ وَنَاحِيَةٍ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢] وَ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]»[1].

(١) وسائل الشيعة: ج١١ ص١٢.

إلهكم إله واحد فله أسلموا

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ (٣٤) ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

هدى من الآيات:

التقوى تنبت في أرض التوحيد، وفروعها تشمل كل حقول الحياة، وأهم وأبرز مظاهرها هو تعظيم حرمات الله وشعائره.

والذين يخالفون التقوى هم الذين يرتكبون الرجس من الأوثان، فيفعلون ما ينبغي تركه ويتركون ما ينبغي فعله، ويتبعون قول الزور والباطل، فإذا بهم يرتكبون ما حرَّم الله كعبادة الأوثان، ومن جهة أخرى يقبضون أنفسهم عمّا أحلَّ الله لهم زوراً وبهتاناً، وهذا منافٍ للتقوى.

ويعود القرآن -مرة أخرى- ليذكّرنا بأن جذر التقوى في النفس هو تحدي الضغوط، بحيث يكون الإنسان حنيفاً، مائلاً عما يريده الآخرون له، وما يحاولون فرضه عليه. ومن يشرك بالله يكون كمن يهوي من السماء إلى الأرض، فإما أن يلتقطه الشيطان فيبتلع قدراته وقواه، كما تخطف الطيور فريستها من السماء، أو يترك حتى يهوي إلى مكان سحيق.

والدرجة العليا للتقوى هي تعظيم شعائر الله، بتعظيم كل ما يرتبط بالله تبارك وتعالى احتراماً له. ويعود القرآن فيبين بعض مناسك الحج التي هي من شعائر الله: كالإبل التي تساق إلى الحج لتنحر فيه. ويؤكد: أن عمل الإنسان هو الذي ينمّي التقوى في قلبه.

بينات من الآيات:

تعظيم الحرمات

[٣٠] ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ لأن تعظيم حرمات الله وشرائعه يعود نفعه إلى الفرد نفسه، إذ يحتسبه الله له، فيجازيه خيراً منه، سواء في الدنيا بزيادة البركات، أو في الآخرة بالجنات.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إن الله أحلَّ لنا بهيمة الأنعام إلا النزر اليسير، كالموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، وإن الالتزام بما أحلَّ الله وبما حرم، هو جوهر التقوى وأهم مصاديقه.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ هذا الشطر من الآية يبين الأبعاد المعنوية للتقوى، فتنقل الإنسان من اجتناب اللحوم المحرمة، إلى اجتناب الرذائل الخلقية التي تضر بكرامة الإنسان، بل تضر المجتمع وتسيء إليه كله.

ونسأل ما هو الرجس؟.

لقد وقف المفسرون طويلاً عند هذه الكلمة، فمنهم من قال، إنها القمار والنرد والشطرنج، ومنهم من قال: إنها الأوثان التي تعبد من دون الله، باعتبار أن الحج كان ملوثاً عند الجاهلية بعبادة الأوثان، وقد أمر الله سبحانه أن يطهر الحج من عبادة الأوثان. وقال بعضهم: إن الرجس هو مجرد قبول فكرة وجود الصنم في بيت الله الحرام. وقال بعضهم: إنها تلك الذبائح التي تذبح لغير الله. وقد سبق أن قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وفي أماكن متفرقة من القرآن يؤكد الله أن ما ذبح لغير الله

حرام، وأنه رجس.

كل ذلك صحيح ومقبول ولكن يبدو أن هناك فكرة أعمق وهي: أن الإنسان إما أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويلتزم بالقيم التي أمر بها الله سبحانه، وإما أن يخضع للشيء أي شيء كان. بتعبير آخر: الناس اثنان، فإما إنسان قيمي يقدِّس القيم ويؤمن بالغيب، أو إنسان شيئي لا يؤمن إلا بالشهود، وهو يقدِّس الأشياء، إن الرذيلة.. الانحراف.. الظلم.. إلخ كل ذلك ناتج عن شيئية الإنسان وعدم تقديسه للقيم، وقد يحول في بعض الأحيان القيم إلى الشيء، فتراه يذهب إلى الحج ولكنه ليس بهدف الوصول إلى الله من خلاله، بل ينظر إلى مناسكه نظرة شيئية، فيتوجه قلبه إلى هذه الأشياء دون أن يجعلها سبيلاً ورمزاً إلى القيم التي وراءها، فالكعبة يجب أن تكون عندنا رمز التوحيد والوحدة، والذبح يجب أن يرمز إلى أن كل شيء فداء لله، ورمي الجمار يجب أن يرمز إلى ضرورة مقاومة الشياطين... الخ.

والذي ينحرف فيعبد الشيء لا شك أنه سوف ينحرف انحرافات أخرى، ومنها الشطرنج، الذي يشبه إلى حد ما تلك العادة الجاهلية التافهة، التي كانت تقضي بالقرعة عند الأوثان، ثم العمل بمقتضى ما يستخرج منها.

لذلك جاء في الأثر: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال في قول الله عز وجل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، قال: «**الرِّجْسُ مِنَ الْأَوْثَانِ الشِّطْرَنْجُ وَ قَوْلُ الزُّورِ الْغِنَاءُ**»[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: أن من قول الزور: «**قَوْلُ الرَّجُلِ لِلَّذِي يُغَنِّي أَحْسَنْتَ**»[2].

وفي رواية أيمن بن خزيم عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: خطبنا فقال: «**عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الشِّرْكَ بِاللهِ قَالَهَا ثَلَاثاً ثُمَّ قَرَأَ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**»[3]. ومن مجموع هذه الأحاديث نستوحي أن قول الزور هو كل قول باطل.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ صحيح أن كلمة ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ فسرت بالغناء والطرب واللهو، ولكن أهم وأعظم من قول الزور هذا هو: أن يقول الإنسان كلاماً فينسبه إلى الله تعالى، ويتعبد به فيحلل ما حرَّم الله ويحرم ما أحلَّ الله سبحانه.

---

(١) الكافي: ج٦ ص٤٣٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٧ ص٣٠٩.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٤١٦.

الحنيفية دين الله

[٣١] ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ الحنيفية تعني الطهارة من أدران المجتمع والميل إلى ما يريده الله منك، كالميل عن سلوك المجتمع، أو عن ضغط الأهواء والشهوات خالصاً لوجه الله.

فليس من الحنيفية المطلوبة أن تتحدى ضغطاً اجتماعياً لضغط آخر، أو هوىً نفسانياً لهوى آخر أو تحارب طاغوتاً من الغرب، من أجل آخر من الشرق، كلا، إنما عليك أن تتحدى وتقاوم الضغوط كلها والأهواء جميعاً و كل السلطات الظالمة لأجل الله الحق سبحانه.

فالحنيفية طريق واضح ومحجة بيضاء، تختلف تمام الاختلاف، وتتناقض تمام التناقض، مع كل السبل الأخرى ولها وجهان: ميل عن الشركاء والضغوط، واتجاه إلى الله وحده.

والواقع: أن الحنيفية هي فطرة الإنسان الطاهرة النقية التي يؤوب إليها المؤمنون، من هنا جاء في حديث مأثور عن أبي جعفر الباقر عليه السلام حين سأله زرارة: عن قول الله عز وجل: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وعن الحنيفية قال: «**الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله قَالَ فَطَرَهُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ**»[1].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾بفعل الجاذبية يخر الشيء من السماء، فإذا كان هذا الشيء صيداً تسارع الطيور لاصطياده، وإن لم تصطده يستمر في السقوط إلى أن يصل إلى الهاوية، وكذلك الإنسان الذي يشرك بالله، إما أن يصبح من نصيب الطغاة يجيرونه لمصلحتهم وينتفعون من طاقته، وإما أن يكون من نصيب الوادي السحيق، البعيد القعر في جهنم.

أهداف شعائر الله

[٣٢] ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ الالتزام بحرمات الله جانب من التقوى، أما الجانب الأكمل منها فهو تعظيم شعائر الله، الذي يعني تعظيم كل شيء يدلنا على الله. إن تعظيم قطعة قماش منصوبة على طرف عمود ليس تعظيماً لذاتها، إنما هو تعظيم للوطن الذي يمثله هذا العلم، كذلك تعظيم المسجد، والعالم والقرآن إنما هو تعظيم لله، فالله سبحانه هو الحق، وسائر الحرمات والشعائر وسائل إليه، وكل شيء محترم أو شخص مقرب،

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٢.

يقدر لله، لا لأجل ذاته.

والشعائر: جمع شعيرة بمعنى العلامة التي تدل على الشيء. وشعائر الله هي الواجبات الدينية التي تشهد على عظمة الرب مثل مناسك الحج وصلاة الجمعة والجماعة، وسائر مظاهر التوحيد. والشعيرة التي جاءت هذه الآية في سياقها: هي الأنعام التي يسوقها الحاج من منزله إلى بيت الله. وقد علمها بعلامة تدل على أنها هدي، بالغ الكعبة.

[٣٣] ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ باستطاعتكم أن تستفيدوا من الأنعام التي تنوون تقديمها إلى الله، من حليبها وصوفها ووبرها، إلى أن تصلوا مكة. كما أكدت ذلك أحاديث عديدة[١].

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ ﴾ أي منزلها الأخير ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ العتق هو التحرير بعد العبودية، ولقد أعتق الله البيت الحرام من ملكية الأفراد أياً كانوا وجعله للناس سواء، وهو في نفس الوقت مكان العتق، أي إن الإنسان يستطيع أن يحرر نفسه من ذنوبه، ومن كل من يستعبده من شياطين الجن والإنس.

[٣٤] ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ لكل أمة من الأمم شعائر، وضعت من أجل ذكر اسم الله، فتقديس هذه الشعائر لذاتها هو نوع من الرجس والوثنية، أما نحن فعلينا إلا نقدس المناسك لذاتها، إنما نقدس المناسك لأنها تدعونا إلى ذكر الله، وقد سبق القول: بأن المناسك المذكورة في هذه السورة تهدف -في ما تهدف- إلى بيان خلفياتها، لئلا تقدس المناسك ذاتها و يهمل ما وراءها من قيم وأهداف، والهدف من الأنعام التي تذبح لله ليس إهداء لحمها إلى الله، لأنّ الله لا ينال لحومها ولا شحومها، بل تناله التقوى وذكر الله، فذكر الله هو الهدف الرئيسي من كل المناسك، لذلك قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وذكر الله ليس ذلك الذكر اللساني، بل نية القلب، وإخلاص العمل، كذلك قال الله: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]. والمنسك -حسب الراغب[٢]-: العبادة، وحسب الطبري[٣] والرازي[٤]: يقال المنسك ويقصد الذبيحة.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ليس إلهكم الأنعام التي تفدونها، وليس إلهكم الزينة التي

(١) راجع نور الثقلين: ج٣ ص٤٩٧.
(٢) مفردات غريب القرآن: ص٤١٢.
(٣) جامع البيان، الطبري: ج١٧، ص١١٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ج٢٣، ص٢٢٤.

تتزينون بها في يوم العيد، وليس إلهكم مجتمعكم. كلا.. إنما إلهكم إله واحد، وكل هذه النعم من الله وتحترم بأمر الله ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ المخبتون: الذين سلموا لأوامره، وسلموا لوحدانيته.

[٣٥] ويتميَّز المخبتون بعدة صفات هي:

١- وجل القلب بذكر الله. وهو تعبير عن قوة الروح، وعمق الإيمان، وقد بلغت تقوى الله في أنفسهم، درجة تجري عبراتهم بمجرد ذكره، أي وصلوا إلى درجة العرفان، فكان الله أجل وأعظم حقيقة في نفوسهم كما جاء في الدعاء المأثور عن سيدهم الإمام الحسين عليه السلام: **«كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَ مَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ عَلَيْهَا رَقِيباً»**[1].

٢- الصبر على الرسالة، وعلى ظلم الناس، والصبر أيضاً على قمع الأهواء والشهوات.

٣- إقامة الصلاة التي هي رمز لسائر العبادات.

٤- حرصهم ومحافظتهم على بناء صرح المجتمع بالإنفاق.

كذلك قال ربنا وهو يصف المخبتين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦، دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

الجهاد حصن المقدسات

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

هكذا جعل الله البدن، وهي الإبل، من شعائره، حيث تساق إلى البيت الحرام، من شقة بعيدة، فإذا صفت أيديها وأرجلها للنحر، التفَّ حولها الناس، ومنهم الجائعون، يذكرون اسم الله عليها، حتى إذا وقعت منحورة أكلوا منها وأطعموا الفقير والمسكين، وشكروا الله.

لمن هذه اللحوم التي تطعم، وتلك الدماء التي تراق؟ إنما هي للناس، وفائدة الذبح

والنحر تنمية التقوى في النفوس. والهدف من تسخيرها لهم تذكيرهم بعظمة الله. وأن يكبروه على ما هداهم، ويحسنوا إلى الناس.

وبمناسبة الحديث عن الحرمات والشعائر، يبيّن السياق حكم الدفاع عنها، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا إنه لا يحب كل خوان كثير الخيانة دائم الخيانة، الكفور بنعم الله. والخونة هم الذين يقاتلون المؤمنين، ولا يفون بعهد ولا ذمة. أما المؤمنون فعليهم أن يقاتلوا الكفار لأنهم قد ظلموا ويتوكلوا على الله واثقين بنصره، أو لم يخرجوا من ديارهم بغير حق، وإنما لأنهم يقولون: ربنا الله؟ بلى وإنما تبقى للمقدسات حرمة بدفاع المؤمنين عنها. وإلا هدمت بيوت العبادة والله ينصر من ينصر دينه وهو القوي العزيز.

وإنما يهدف المؤمنون بقتالهم التمكن في الأرض وإقامة حكم الله فيها.

بينات من الآيات:

أهداف الشعائر

[٣٦] ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ البدن هي الإبل التي تقلد لتنحر في منى، وهذه من الشعائر المقدسة، ولنا فيها وأمثالها من الشعائر خير، خير مادي ومعنوي، بالاستفادة منها أولاً، وبالحصول على التقوى من خلالها ثانياً.

﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ أي اذكروا اسم الله عليها حين تصف أيديها وأرجلها استعدادا للنحر، وذكر الله واجب عند النحر، وليست هنالك صيغة خاصة له، إلا أن الأثر جاء بنص يعتبر الأكمل، ففي حديث مروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام جاء هذا الذكر عند النحر: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلَاتِي وَ نُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ بِسْمِ الله وَاللهُ أَكْبَرُ اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي**»[١].

وفائدة هذه الشعائر هي أنها تزيد من الكمالات الروحية والمعنوية.

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي خرّتْ صريعة بعد نحرها، حتى استقرّتْ جنباتها على الأرض بالكامل كناية عن انتهاء حركتها.

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ كلمتا ﴿ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ تدلان على معنيين

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٥٠٣.

هما الفقير والمسكين. والفقير هو الذي لا يملك قوت سنته، أما المسكين فهو الذي أسكنه الفقر بيته، وهو أشد فقراً منه.

وأصل كلمة القانع هو الفقير الذي يقتنع بما تعطيه، فهو كما قال الرب سبحانه في آية أخرى: تحسبهم أغنياء من التعفف.. بينما كلمة المعتر: الذي وقع في شدة البلاء والفقر ويظهر على سيماه ذلك دون أن يظهره بلسانه. والكلمة مشتقة من (العر) وهو مرض الجرب يصيب جلد البعير، وكان المعتر قد أصاب وجهه مرض فسقط جلده كناية عن ذهاب ماء وجهه بسبب ما يظهر عليه من ضعف الحال. وجاء في رواية أن المعتر هو الذي يعتريك.. ولا يسأل. وفي حديث آخر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«القَانِعُ الَّذِي يَرْضَى بِمَا أَعْطَيْتَهُ وَلَا يَسْخَطُ وَلَا يَكْلَحُ وَلَا يَلْوِي شِدْقَهُ غَضَباً وَالمُعْتَرُّ المَارُّ بِكَ لِتُطْعِمَهُ»**[1]، أي أن المُعتر هنا من الاعتراء وهو: الضعيف الزائد، أي المتعرض للسؤال من غير طلب.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الهدف من تسخير الله الأنعام للإنسان هو الشكر له سبحانه، وعموماً فإنَّ الهدف من النعم المادية هو التكامل المعنوي.

ونستوحي من هذه الآية: أن النعم المادية في الحياة الدنيا وسيلة للتكامل المعنوي، فالإنسان الجائع الذي لا يمتلك مأوى يأوي إليه ليحميه من قيظ الصيف وبرد الشتاء، من الصعب عليه أن يسعى من أجل بناء كيانه المعنوي، أن ينمي علمه وإيمانه وتقواه، أما الذي استطاع أن يتجاوز ضرورات حياته، فإنَّ باستطاعته أن يتفرغ لما هيأ له.

وضرورات الحياة تشبه وقود السيارة، فحينما تمتلئ الوقود للسيارة تصبح مهيأة للسير، فالسير هو الهدف بينما الوقود ضرورة الهدف، فالسيارة لم تصنع لكي تبتلع الوقود، إنما صنعت لكي تنطلق، وكذلك الإنسان لم يأت إلى الحياة لكي يأكل ويشرب وينام، و.. و.. إنما أتى إلى الحياة وفرضت عليه تلك السنن، لكي يسمو بروحه ويعرج في مدارج الكمال.. وهذه الفكرة نستوحيها من الآيتين الأوليين من هذا الدرس.

[٣٧] ثم إن التقوى كالشجرة التي تنبت في القلب بحاجة إلى تنمية، والأضحية تنمي شجرة التقوى في القلب.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ ثم يبيِّن الله سبحانه بأنه ليس لربِّها نصيب في لحومها أو دمائها، إنما النصيب راجع إلى الناحر الذي يزداد بذلك تقوى وإيماناً **﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾**.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٤ ص١٦٣.

كذلك جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق: «مَا عِلَّةُ الْأُضْحِيَّةِ؟، فَقَالَ عليه السلام: إِنَّهُ يُغْفَرُ لِصَاحِبِهَا عِنْدَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقْطُرُ مِنْ دَمِهَا عَلَى الْأَرْضِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ يَتَّقِيهِ بِالْغَيْبِ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: انْظُرْ كَيْفَ قَبِلَ اللهُ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَرَدَّ قُرْبَانَ قَابِيلَ»[1].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إن نحر الأنعام أو ذبحها يهدف شكر الله. وفي آية سابقة، ذكر الله. إن هدف الشعائر هو تقوى القلوب، أما هدف التسخير فهو تكبير الله، كل ذلك يوحي بأن الهدف الأسمى من النعم المادية التكامل المعنوي. وتكبير الله هو إخراجه من حد التعطيل والتشبيه، كما جاء في الحديث، وتكبير الله على الهداية تمجيده على أن هدانا للإيمان، وأرشدنا إلى الحنيفية البيضاء. والآية تشير إلى التكبير أيام التشريق في الصلوات بمنى في عقيب خمس عشرة صلاة، وفي الأمصار عقيب عشر صلوات[2].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كيف يمكن للإنسان أن يستفيد من النعم في مجال تكامله المعنوي والروحي؟.

يجيب القرآن على هذا السؤال ويقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فبالإحسان تخرج من شح الذات إلى فضاء الخير، فالعطاء مفتاح الرزق، وطريق الإيمان.

شرعية الجهاد

[٣٨] الإيمان ليس مجرد كلام يقال، ولا حتى عقيدة مقطوعة الجذور، كلا ذلك لأنَّ الإيمان حقيقة راسخة في القلب يصدقها العمل، وإنما يتضح إيمان الإنسان، هل هو مستقر أم مستودع؟.

حينما ينزل في حلبة الصراع، فيعرف مدى إيمانه، وللصراع فوائد كثيرة أهمها:

١ - أنه يجعل الإنسان مؤمناً صادقاً، ويزيل عنه رواسب كفره وشكه، وجهله وغفلته، كما أنه يكشف الأفراد الضعفاء إيماناً وإرادة في المجتمع الإسلامي والذين لا يستحقون أن يكونوا أعضاء مؤثرين فيه.

وبكلمة موجزة: إن الجهاد يكرس الإيمان في المجتمع ويُعزِّز المؤمنين.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٤ ص٢٠٦.
(٢) راجع الكتب الفقهية، وأيضاً نور الثقلين: ج٣ ص٥٠٠.

٢- والجهاد حصن المقدسات ودرع الحرمات والشعائر، فإذا كانت الحرية مكفولة لجميع الناس عند حرم الله، وإذا كان المؤمنون يقصدون -بكل أمان- بيت الله ومعهم شعائرهم من أقصى الأرض، فلأنَّ المجاهدين يحمون البلاد من أطرافها، وإذا كانت القوى الكافرة والمنافقة والمترفة لا تهتك حرمات الناس داخل البلاد فلأنَّ المجاهدين يقفون لهم بالمرصاد. وإذا كانت مراكز الطاعة المقدسة تعلو في آفاق الأرض فلأنَّ حولها ليوث الجهاد الأشداء. يحمونها كما يحمي الأسد عرينه.

وبالتالي فإنَّ المساجد، والمعابد، والكنائس إنما تقوم على أساس دفاع المؤمنين عنها، ولولا دفاع المؤمنين عن مراكز عبادتهم، ومحل إقامة شعائرهم ومناسكهم، إذن لتهدَّمتْ هذه المساجد والمعابد والكنائس على أيدي أعداء الله وأعداء دينه.

فالكعبة مثلاً قائمة على دفاع المؤمنين، عن وجودها وحرية العبادة فيها، فإذا ترك المؤمنون الدفاع عنها فإنها تزول حرمتها وقداستها.

إن ربط المقدسات بعمل المؤمنين وجهادهم هي أهم وأبرز فكرة حضارية يحتاجها المسلمون اليوم، إن بعض المسلمين اليوم يظنون أن وجود رسم القرآن بينهم يجعلهم أعزاء، كلا.. إن إيمانهم بالقرآن ودفاعهم عنه هو الذي يجعل القرآن عزيزاً بينهم وعزيزاً في العالم أجمع.

فليس وجود الكعبة يعزُّ المؤمنين فقط، إنما وجود المؤمنين حولها يجعلها عزيزة أيضاً، ومن دون هذه العزّة التي يسبغها المؤمنون على مقدساتهم، فإنها لا تبقى، ونحن هنا نؤمن بدور الغيب الذي يظلل المؤمنين بظلال من التأييد والرعاية، ذلك أن الصراع بين الحق والباطل ليس بعيداً عن هيمنة الغيب، أوليس الله يدافع عن المؤمنين، بلى؛ ولكنه قد يدافع عنهم بأيديهم، وبكلمة: إن بداية أي تحرك يكون من الناس، ثم يأتي التأييد والنصر من الله.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ وهذه الآية تزرع الأمل والثقة والاطمئنان في قلوبنا، لأنَّ الله يدافع عنا، ومعلوم أن الأمل وقود الثورة، و الثقة وقود العمل، والاطمئنان قاعدة السعي.

[٣٩] إن شياطين الجن والإنس يحيطون بقلب الإنسان ويملؤونه باليأس والخوف، أما ذكر الله فهو -على العكس من ذلك- ينمّي فينا التطلع، ويحفّزنا للأخذ بحقنا، كما أنه يزرع الخوف والقلق في نفوس أعداء الدين، وسراق الحرية، الذين لا يزالون يخونون أمانة الله والناس، ويكفرون بنعم الله.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يبحث الإنسان المؤمن عن شرعية الجهاد، والله يعطيه هنا الشرعية بقوله: ﴿أُذِنَ﴾ فلقد أذن الله للمعتدى عليهم المظلومين، أن يرفعوا راية القتال لرد ظلامتهم، وذلك لأنك، مهما أصابك من الظلم والاستضعاف، لا يجوز أن تيأس من النصر، بل جدِّد العزم لأنَّ الله قادر على نصرك، فما دمت تملك شرعية الجهاد و تحمل في جنبيك الأمل، وكان هنالك من يدافع عنك ويحميك، فماذا تنتظر بعدئذ؟ اقتحم كل حصن ووكر، وجاهد كل ظلم وانحراف، فإن قوة الله وعزته تتجلى في سواعد المؤمنين وبهم يدفع الله أعداءه وأعداء دينه، وأعداء البشر.

[٤٠] ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ هذه أبرز صورة من صور الظلم الذي قال عنه سبحانه: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ ذلك لأنَّ أولئك الذين قالوا ربنا الله بصدق، هم الذين رفضوا تسلط الطغاة، وقاوموا هيمنة الجبارين. الذين أرادوا فرض قوانينهم وثقافتهم على الناس. فكفروا بهم وآمنوا بالله الواحد. ثم استقاموا وأخرجوا من ديارهم لأنهم احتفظوا باستقلالهم. ولعلَّ الطغاة لم يفرضوا عليهم الخروج بل إنهم هاجروا خشية بطش الجبارين، واستعدوا للقتال حتى تحرير الناس من هيمنتهم. كما فعل المسلمون عندما أمرهم الله ورسوله بالهجرة إلى المدينة. حيث نزلت الآية فيهم وجرت في غيرهم.

عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِ الله تَبَارَكَ وَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وَ عَلِيٍّ وَ حَمْزَةَ وَ جَعْفَرٍ وَ جَرَتْ فِي الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَجْمَعِينَ»[1].

وكلمة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ هي هدف الهجرة وهدف الجهاد، وهي في ذات الوقت وسيلة النصر وسبب الفتح. إذ إن أهم شروط الانتصار الاتجاه الكلي إلى الله، والمحافظة على استقلالية العمل في سبيله، وألا يتصوّر المؤمنون يوماً أن النصر يمر عبر التعاون مع مراكز الظلم والانحراف والاستكبار، لأنهم أعجز من القدرة على نصرنا، وهم أعجز من نصر أنفسهم، بل إن الله أمرنا بمقاومتهم لأنهم مصدر بلاء الناس، وهم المسؤولون الحقيقيون عما يجري على المؤمنين.

فهؤلاء المخرجون من ديارهم هم المظلومون الذين تكفل الله بنصرهم وبتأييدهم، شريطة أن يتجهوا إليه سبحانه.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ

(١) الكافي: ج٨ ص٣٣٧.

فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صوامع: معابد يبنيها البعض في الأصقاع النائية يتعبدون فيها، أما البيع: فهي معابد اليهود، والصلوات: هي معابد النصارى وكنائسهم، والمساجد: محاريب المؤمنين، وكل هذه المراكز تهدف ذكر الله، وذكر الله لا يتم إلا بالتحشيد الاجتماعي، وتعبئة الناس إيمانياً من خلالها، فإذا هدمت فإنَّ سبباً من أسباب تجميع الناس على الإيمان سوف ينهار، فالمسجد والكنيسة والدير هي رمز للمؤمنين فتحطم هذا الرمز يعني زوال سبب وحدة المؤمنين وتجمعهم حول مبادئهم، لذلك فإنَّ المؤمنين مأمورون بالحفاظ على مقدساتهم هذه.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ انصروا الله والقيم، حافظوا على المقدسات وكرامتها، دافعوا عن حرية الإنسان إنكم حين تعملون كل ذلك ينصركم الله، وإذا نصركم فلا غالب لكم، إن الله قوي يمتلك أدوات القوة فهو: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ (وهو عزيز) وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: ٢٦]. فهو يعزكم إن نصرتموه وإلا أذلكم، وإن نصرتموه حقاً أذل أعداءكم.

أهداف الحركة الإسلامية

[٤١] ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تُبيِّن هذه الآية أهداف الحركة الإسلامية التي يجب أن يبصرها كل فرد رسالي، ويخلص نيته في السعي وراءها، والعمل الجدي من أجل بلوغها وهي:

١- إقامة الصلاة: إذ إنها رمز لكل العبادات من ناحية، ومن ناحية ثانية: فإنَّ إقامة الصلاة تعني توفير الشروط الموضوعية لإقامتها، كبناء مساجد الله، والسلامة الروحية، وما أشبه.

٢- إيتاء الزكاة: وهو يشمل كل أبعاد الإنفاق الواجب والمستحب ويساهم في إرساء العدالة الاجتماعية، بل وفي توفير الرخاء في المجتمع المسلم.

٣- الأمر بالمعروف: القيام بما أمر به الشارع المقدس، من التشجيع على الصالح من الأعمال.

٤- النهي عن المنكر: القضاء على كل المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، و.. هكذا.

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إن الذي يجعل عمله وحركته متجهة إلى الله، فإنه سوف يمسك

بزمام الأمور وبالتالي فإن له من الله العاقبة الحسنى.

وهذه الآيات الكريمة توضح أهداف الحركة الإسلامية، وشروط المجاهدين في سبيل الله، الذين أذن لهم بالقتال، وهم الذين يطبقون بأنفسهم التعاليم الإسلامية، ثم يندفعون لنشرها بين الناس، وفي الحديث المفصل التالي تبيان بالغ الأهمية لأهداف الحركة الإسلامية، وشروط القائمين بها، ونكمل هذا الدرس به: جاء في الكافي مسنداً عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: «أَخْبِرْنِي عَنِ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ أَهُوَ لِقَوْمٍ لَا يَحِلُّ إِلَّا لَهُمْ، وَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ، أَمْ هُوَ مُبَاحٌ لِكُلِّ مَنْ وَحَّدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَآمَنَ بِرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَ كَذَا فَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟.

فَقَالَ عليه السلام: ذَلِكَ لِقَوْمٍ لَا يَحِلُّ إِلَّا لَهُمْ، وَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ أُولَئِكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ فَهُوَ الْمَأْذُونُ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَائِماً بِشَرَائِطِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجِهَادِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ فَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِي الْجِهَادِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ حَتَّى يُحَكِّمَ فِي نَفْسِهِ بِمَا أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرَائِطِ الْجِهَادِ.

قُلْتُ: بَيِّنْ لِي يَرْحَمُكَ اللهُ. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الدُّعَاءَ إِلَيْهِ وَوَصَفَ الدُّعَاةَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ لَهُمْ دَرَجَاتٍ يُعَرِّفُ بَعْضُهَا بَعْضاً.. إلى أن قال عليه السلام: ثُمَّ أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالْقِتَالِ إِلَّا أَصْحَابَ هَذِهِ الشُّرُوطِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[الحج: ٣٩]. وَذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَتْبَاعِهِمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَمَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَالظَّلَمَةِ وَالْفُجَّارِ مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالْمُوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِمَا مِمَّا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ظَلَمُوا فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا أَفَاءَ اللهُ[1] عَلَى رَسُولِهِ فَهُوَ حَقُّهُمْ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَدَّهُ إِلَيْهِمْ[2].

ثم قال عليه السلام: **وَإِنَّمَا أُذِنَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَامُوا بِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْقِتَالِ حَتَّى يَكُونَ مَظْلُوماً، وَلَا يَكُونُ مَظْلُوماً حَتَّى يَكُونَ مُؤْمِناً، وَلَا يَكُونُ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُونَ قَائِماً بِشَرَائِطِ الْإِيمَانِ الَّتِي اشْتَرَطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ شَرَائِطُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ مُؤْمِناً، وَإِذَا كَانَ مُؤْمِناً كَانَ مَظْلُوماً، وَإِذَا كَانَ مَظْلُوماً كَانَ مَأْذُوناً لَهُ فِي الْجِهَادِ، لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ**

---

(١) وفي المصدر: (مما أفاء الله) وفي الوافي (فما أفاء الله).

(٢) لعلنا نستفيد من هذه الكلمة: أن السلطة في العالم يجب أن تكون للمؤمنين الصادقين فهي لهم حقاً.

عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَكْمِلاً لِشَرَائِطِ الإِيمَانِ فَهُوَ ظَالِمٌ مِمَّنْ يَبْغِي وَيَجِبُ جِهَادُهُ حَتَّى يَتُوبَ، وَلَيْسَ مِثْلُهُ مَأْذُوناً لَهُ فِي الجِهَادِ وَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ المَظْلُومِينَ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ فِي القُرْآنِ فِي القِتَالِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ فِي المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أُحِلَّ لَهُمْ جِهَادُهُمْ بِظُلْمِهِمْ إِيَّاهُمْ وَ أُذِنَ لَهُمْ فِي القِتَالِ.

فَقُلْتُ: فَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي المُهَاجِرِينَ بِظُلْمِ مُشْرِكِي أَهْلِ مَكَّةَ لَهُمْ فَمَا بَالُهُمْ فِي قِتَالِهِمْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي قَبَائِلِ العَرَبِ؟.

فَقَالَ عليه السلام: لَوْ كَانَ إِنَّمَا أُذِنَ فِي قِتَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَقَطْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَى قِتَالِ جُمُوعِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَغَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ سَبِيلٌ، لِأَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوهُمْ غَيْرُهُمْ، وَإِنَّمَا أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لِإِخْرَاجِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَوْ كَانَتِ الآيَةُ إِنَّمَا عَنَتِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ كَانَتِ الآيَةُ مُرْتَفِعَةَ الفَرْضِ عَمَّنْ بَعْدَهُمْ، إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالمَظْلُومِينَ أَحَدٌ، وَكَانَ فَرْضُهَا مَرْفُوعاً عَنِ النَّاسِ بَعْدَهُمْ إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالمَظْلُومِينَ أَحَدٌ، وَلَيْسَ كَمَا ظَنَنْتَ وَلَا كَمَا ذَكَرْتَ؛ لَكِنَّ المُهَاجِرِينَ ظُلِمُوا مِنْ جِهَتَيْنِ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَقَاتَلُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَظَلَمَهُمْ كِسْرَى وَقَيْصَرُ وَمَنْ كَانَ دُونَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ العَرَبِ وَالعَجَمِ بِمَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، مِمَّا كَانَ المُؤْمِنُونَ أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ، فَقَدْ قَاتَلُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ[1].

وَبِحُجَّةِ هَذِهِ الآيَةِ يُقَاتِلُ مُؤْمِنُو كُلِّ زَمَانٍ وَإِنَّمَا أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَامُوا بِمَا وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّرَائِطِ الَّتِي شَرَطَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى المُؤْمِنِينَ فِي الإِيمَانِ وَالجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ قَائِماً بِتِلْكَ الشَّرَائِطِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَهُوَ مَظْلُومٌ، وَمَأْذُونٌ لَهُ فِي الجِهَادِ بِذَلِكَ المَعْنَى، وَمَنْ كَانَ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ وَلَيْسَ مِنَ المَظْلُومِينَ، وَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِي القِتَالِ، وَ لَا بِالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ، وَلَا مَأْذُونٍ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يُجَاهِدُ مِثْلُهُ، وَأُمِرَ بِدُعَائِهِ إِلَى اللهِ، وَلَا يَكُونُ مُجَاهِداً مَنْ قَدْ أُمِرَ المُؤْمِنُونَ[2] بِجِهَادِهِ، وَحَظَرَ الجِهَادَ عَلَيْهِ، وَمَنَعَهُ مِنْهُ، وَلَا يَكُونُ دَاعِياً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أُمِرَ بِدُعَائِهِ مِثْلُهُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَالحَقِّ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَا يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ مَنْ قَدْ أُمِرَ أَنْ يُؤْمَرَ بِهِ، وَلَا يَنْهَى عَنِ

---

(١) قال المجلسي رحمه الله: «حاصل الجواب إنا قد ذكرنا أن جميع ما في أيدي المشركين كان من أموال المسلمين؛ فجميع المسلمين مظلومون من هذه الجهة المهاجرون ظلموا من هذه الجهة، ومن جهة إخراجهم من خصوص مكة».

(٢) وفي بعض النسخ: (أمر المؤمنين) ولعله الأوفق بالسياق لقوله (ومنعه منه).

المُنكَر مَنْ قَدْ أُمِرَ أَنْ يُنْهَى عَنْهُ، فَمَنْ كَانَتْ قَدْ تَمَّتْ فِيهِ شَرَائِطُ الله عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي وَصَفَ بِهَا أَهْلَهَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مَظْلُومٌ، فَهُوَ مَأْذُونٌ لَهُ فِي الجِهَادِ، كَمَا أُذِنَ لَهُمْ[1] فِي الجِهَادِ لِأَنَّ حُكْمَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَفَرَائِضَهُ عَلَيْهِمْ سَوَاءٌ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ أَوْ حَادِثٍ يَكُونُ، وَالأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ أَيْضاً فِي مَنْعِ الحَوَادِثِ شُرَكَاءُ، وَالفَرَائِضُ عَلَيْهِمْ وَاحِدَةٌ، يُسْأَلُ الآخِرُونَ مِنْ أَدَاءِ الفَرَائِضِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ الأَوَّلُونَ، وَيُحَاسَبُونَ عَمَّا بِهِ يُحَاسَبُونَ.

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى صِفَةِ مَنْ أَذِنَ اللهُ لَهُ فِي الجِهَادِ مِنَ المُؤْمِنِينَ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ، وَلَيْسَ بِمَأْذُونٍ لَهُ فِيهِ حَتَّى يَفِيءَ بِمَا شَرَطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ شَرَائِطُ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُجَاهِدِينَ فَهُوَ مِنَ المَأْذُونِينَ لَهُمْ فِي الجِهَادِ، فَلْيَتَّقِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ، وَلَا يَغْتَرَّ بِالأَمَانِيِّ الَّتِي نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا، مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الكَاذِبَةِ عَلَى الله، الَّتِي يُكَذِّبُهَا القُرْآنُ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا، وَمِنْ حَمَلَتِهَا وَرُوَاتِهَا، وَلَا يَقْدَمْ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ بِشُبْهَةٍ لَا يُعْذَرُ بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ المُتَعَرِّضِ لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ الله مَنْزِلَةٌ يُؤْتَى اللهُ مِنْ قِبَلِهَا، وَهِيَ غَايَةُ الأَعْمَالِ فِي عِظَمِ قَدْرِهَا، فَلْيَحْكُمِ امْرُؤٌ لِنَفْسِهِ، وَلْيُرِهَا كِتَابَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَيَعْرِضْهَا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْلَمُ بِالمَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنْ وَجَدَهَا قَائِمَةً بِمَا شَرَطَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الجِهَادِ فَلْيُقْدِمْ عَلَى الجِهَادِ، وَإِنْ عَلِمَ تَقْصِيراً فَلْيُصْلِحْهَا وَلْيُقِمْهَا عَلَى مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا مِنَ الجِهَادِ، ثُمَّ لْيُقْدِمْ بِهَا وَهِيَ طَاهِرَةٌ مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جِهَادِهَا، وَلَسْنَا نَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ الجِهَادَ وَهُوَ عَلَى خِلَافِ مَا وَصَفْنَا مِنْ شَرَائِطِ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُجَاهِدِينَ لَا تُجَاهِدُوا، وَلَكِنْ نَقُولُ: قَدْ عَلَّمْنَاكُمْ مَا شَرَطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَهْلِ الجِهَادِ، الَّذِينَ بَايَعَهُمْ وَاشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالجِنَانِ، فَلْيُصْلِحِ امْرُؤٌ مَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ مِنْ تَقْصِيرٍ عَنْ ذَلِكَ، وَلْيَعْرِضْهَا عَلَى شَرَائِطِ الله، عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ رَأَى أَنَّهُ قَدْ وَفَى بِهَا، وَتَكَامَلَتْ فِيهِ فَإِنَّهُ مِمَّنْ أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ فِي الجِهَادِ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجَاهِداً عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى المَعَاصِي وَالمَحَارِمِ، وَالإِقْدَامِ عَلَى الجِهَادِ بِالتَّخْبِيطِ وَالعَمَى، وَالقُدُومِ عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ بِالجَهْلِ وَالرِّوَايَاتِ الكَاذِبَةِ، فَلَقَدْ لَعَمْرِي جَاءَ الأَثَرُ: فِيمَنْ فَعَلَ هَذَا الفِعْلَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصُرُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ، فَلْيَتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ امْرُؤٌ، وَلْيَحْذَرْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ وَلَا عُذْرَ لَكُمْ بَعْدَ البَيَانِ فِي الجَهْلِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله، وَحَسْبُنَا اللهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ»[2].

(١) أي لأصحاب النبي ﷺ.
(٢) الكافي: ج٥ ص١٣-١٧.

فكيف كان نكير

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن(١) مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا(٢) وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ(٣) (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار الحديث عن أهداف الحركة الإسلامية، والدعوة إلى الله، (موضوع الدرس السابق) يذكرنا السياق بالتأييد الإلهي للرسالة، وخذلانه لأعدائها المكذبين بها.

لم يكن الرسول بدعاً من الرسل، ولم يكن تكذيبه جديداً، فلقد كذبت رسالات الله

(١) كأين: كم من.
(٢) خاوية على عروشها: يقال خوت الدار أي خلت من ساكنيها.
(٣) قصر مشيد: المرتفع من الأبنية.

قوم نوح وعاد وثمود، كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين، وهكذا كذب فرعون وقومه موسى عليه السلام.

إن الرسالة وتكذيبها حقيقة تكررت، وتراكمت حولها تجارب غنية، أفلا ندرسها لنعتبر بها، فلماذا لا نسير في الأرض، وننظر في عاقبة ذلكم التكذيب المتكرر، على أولئك الكافرين ولا نغتر بتأخير العذاب، إذ إن ربنا يملي لهم، فيستدرجهم ليأخذهم بغتة؟ فها هي القصور.. فارغة من سكنتها، وهنالك البئر المعطلة لا تستقى، والقصر المبني لا يسكن.

إن التجارب التاريخية كثيرة، والأبصار التي تراها كثيرة، إلا أن القلوب التي تعقلها وتستفيد منها هي القليلة. قد أصابها العمى وأنكر العمى عمى القلوب التي في الصدور.

ولأن أفق البشر ضيق، فهو لا يحسب لمستقبله حساباً، فتراه يستعجل الرسول بالعذاب، ولا يعلم بأن صبر الله وإملاءه عظيم، فاليوم هنالك كألف سنة مما يعده البشر هنا، وأن وعد الله لا يتخلف، وهاهي أمامنا القرى التي أمهلها الله، وأملى لهم بالرغم من أنها كانت ظالمة ثم أخذها وإليه المصير! وهذه رسالة الله تنذر الناس، بمثل ذلكم العذاب، وتبلغهم الإنذار ببيان واضح.

فالمؤمنون الذين يعملون الصالحات جزاؤهم مغفرة الذنوب التي ارتكبوها، ورزق كريم للصالحات التي كسبوها. أما الذين يسعون في آيات الله معاجزين يتحدونها، ويعوقون طريقها، ويحسبون أنهم يسبقون الرب و يعجزونه، فأولئك أصحاب الجحيم، يملكونها وتمتلكهم.

لقد غرتهم الفرصة، فأخذهم الله في لحظة، أخذ عزيز مقتدر، وفي نهاية هذا الدرس تأكيد على مهمتي التبشير والإنذار في رسالات الله (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فالإنذار عادة ما يسبق البشارة، لأنَّ الإنذار يهدف إلى خلق الأرضية في نفس الإنسان، فخشية الإنسان من فقده ما في يده، أكثر من خشية فقده ما في يد غيره، فالإنذار مؤشر خطر عند الكفار لأنه ينذر بزوالهم وزوال نعمهم، فلذلك يندفعون إلى الإيمان خوفاً، ومن ثم فإنَّ البشارة تأتي لتسد هذا الخوف مبشرة بالجنة.

بينات من الآيات:

عاقبة المكذبين

[٤٢-٤٣-٤٤] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ

إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ﴾ التكذيب عادة جرت عليها أسلاف هؤلاء المكذبين، وهذه أمثلة من التاريخ حيث كذب هؤلاء الرسل وأصروا على منكرهم، فلا ينبغي أن ننتظر ما دمنا في خط الرسل القبول السريع والمؤكد من أقوامنا، ولكن لنطمئن، فإنَّ طريقنا وتحركنا ينسجم والخط العام للحياة. لأن الخط العام للكون وطريقنا آنئذ يسيران معاً في اتجاه واحد، إلى الله. ليس من مسؤوليات الرسول أن يكره الناس على قبول رسالته، كما أنه ليس عليه أن يقلق لتكذيبهم، فإنه عادة الناس، ولكن واجب الرسول الصبر وانتظار الفرج، وسواء استمع إليه الناس أم أعرضوا.. صدقوه أم كذبوه.. فدوره ينتهي بتبليغ الرسالة، ومن ثم، فالنتيجة بيد الله، إن شاء عذبهم، أو أمهلهم حتى حين.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ لم يكذب موسى عليه السلام من قبل قومه وإنما كذبه فرعون وملؤه، ولذلك لم يعطف السياق على السابق وإنما قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي أعطيتهم مهلة من الوقت قد تطول أو تقصر ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فجاءهم العقاب المدمر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ لقد سلَّط الله عذابه عليهم، فمحقهم محقاً، ووضع حداً لما هم عليه من التكذيب والجحود، وهكذا ينكر الله على الناس تكذيبهم إنكاراً عمليًّا. أرأيتم كيف يكون نكير الله؟.

[٤٥] إن الله سبحانه قد جعل في التاريخ حتمية لا محيص عنها، وهي حتمية الانتقام من أعداء الله، إذ إن سنن الله في الطبيعة تلتقي مع الحق في كل النقاط، وتجاوز الحق، تعد على تلك السنن، فلابد لها أن تنتقم بإرادة الله سبحانه، وبأي شكل كان، سواء على شكل صاعقة تنزل، أو في صورة بركان يتفجر، أو حرب تدمر، أو قحط شامل، أو طاعون ينشر الموت. وعلى الإنسان أن لا يأمن مكر الله، فينسى نقمته، ويظن أن ما يحيط به من نعمه وفضله وآلائه، هو كل ما في الحياة، كلا بل إن للحياة وجهاً آخر، تتمثل في الانتقام الشديد.

بلى؛ من الصعب على الإنسان أن يصدق بأن ذلك الإله الرحيم الكريم، الذي تولى خلقه طوراً فطوراً، وكان معه في كل حركة من حركاته، والذي تتجلى رحمته وفضله عليه في كل شيء، أنه تعالى يمكر به وينتقم منه أشد الانتقام، لذلك نجده تستدرجه النعم، وتغره الأماني، حتى إذا أحاط به ذنبه ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾[المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. فلكي لا يصبح هكذا يجب عليه أن يذكر نفسه بما مضى من الأمم، وما جرى عليهم، وأن يسير في الأرض بحثاً عن تلك الحضارات التي سادت ويتساءل لماذا بادت. إن السير

في الأرض، وزيارة المتاحف الأثرية، وأطلال المدن الكبرى، ودراسة التاريخ، لا سيما تاريخ الحضارات البائدة، كل ذلك يوحي إلينا بتلك الحقيقة التي لا تستهوينا، ولا نريد معرفتها، وهي أن الله يمكر بالإنسان إذا ظلم وطغى. وينتقم منه بأشد العذاب.

وتؤكد آيات هذا الدرس هذه الفكرة، وتشير أيضاً إلى مصير أولئك الذين كذبوا هذه الحقيقة الناصعة، ولم ينفعهم النهي عن المنكر الذي قام به أنبياء الله عليهم السلام، ومن سار على دربهم.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ تبيد الحضارة في بعض الأحيان بصورة طبيعية كما يموت الإنسان بعد أن يشيخ وتضعف بنيته الجسدية، فتنطفىء شمعة الحياة شيئاً فشيئاً، وقد تباد الحضارات بصورة فجائية وبعذاب إلهي فتكون كما يموت الشاب بموت الفجأة بالرغم من أن جميع أعضائه تبدو سالمة، كل ما في الأمر أن الروح تفارق جسده، هكذا حال الحضارات، فعندما تنحرف عن أهدافها المرسومة لها، فإنَّ الله يوجه إليها ضربة قاضية في صورة زلزال مدمر أو صاعقة من السماء، فتبيد حضارتهم البشرية، بالرغم من أن المظاهر المادية لهذه الحضارات تظل سالمة لتبقى عبرة للأجيال.

ولعلّنا نستوحي هذه الفكرة من قوله سبحانه ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ التي تدل على أن الهلاك نزل بهم حين ظلمهم.

لقد خلق الله سبحانه الطبيعة بحيث لا تتلاءم مع الانحراف والجريمة، فهي تصبر زمنا ثم تتفجر غضباً -حين يشاء الله- لتعيد الأمور إلى نصابها.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي خالية من ساكنيها بالرغم من سلامة أبنيتها وعمرانها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ هي التي ما زال ينضح ماؤها، ولكن أمست بلا رواد. أما القصر المشيد فإنه يرمز إلى مباني الملوك والحكام الظلمة، حيث ذهبوا ولم تغنِ عنهم قصورهم من الله شيئاً.

لقد هلك القوم وتداعت البيوت فيها فهي خالية، وعروشها قد تهاوت، أما البئر التي هي محور الحياة في الصحراء ويعتبر مالكها سيد الناس، فقد تعطلت بعد أن كانت مركز التجاذب وسبب الصراع، بينما بقيت القصور المشيدة التي تعالت وتجصصت خالية ترمز إلى فناء أهلها.

وفي الأحاديث أن العالم الصامت، هو البئر المعطلة، بينما العالم الناطق هو القصر

المشيد[1]، ولعلَّ المناسبة بين هذا التأويل وذلك التفسير ليست مجرد التشبيه، بل وأيضاً: لأن هلاك الظالمين إنما هو بتعطيل العلم، وذلك بعدم الاستفادة من العالم الصامت «الْبِئْرُ الْمُعَطَّلَةُ» ولا من العالم الناطق «الْقَصْرُ الْمَشِيدُ».

ترى كيف يصور القرآن هذه الحقائق تصويراً بديعاً بحيث لو أخذت ريشة وصورتها لخرجت مكتملة الملامح معبرة عن الفكرة، أبلغ تعبير خذ الآن ريشة وحاول أن ترسم قرية خالية بأبنيتها وشوارعها، ثم ارسم بئراً قد تدلى عليها دلوها وعليها بكرتها ولا أحد عندها، ثم صوِّر قصراً فخماً مهجوراً، ثم انظر ماذا ترى، إنك ترى لوحة تنطق بالموت الرهيب وتعطي للذين غرّهم تقلبهم في الحياة، العبرة الزاجرة.

حين يعمى القلب

[٤٦] ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي لماذا لا يسيرون في الأرض، ليعتبروا بآثار السابقين إنهم يسيرون فيها ولكن لا يعتبرون.

﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ قد يكون اشتقاق ﴿ قُلُوبٌ ﴾ لغوياً من الفعل (قلب - يقلب) أي تقليب الأمر بشتى وجوهه واحتمالاته فيكون مدلول القلب قريباً من مدلول (الفكر)، فيكون معنى الآية: أفلا يتفكرون في الحياة، ويعقلون حقائقها، وكيف حلَّ بمن قبلهم لما عصوا وكانوا يعتدون.

والظاهر أن القلب هو النفس البشرية التي ألهمها الرب فجورها وتقواها، فالتقلب بينهما. ونسبة العمى للقلب في آيات أخرى بمعنى فقدانها العقل. ولعل ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ مثل: ﴿ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ فقد يكون أذن لا تسمع ﴿ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وكذا يكون قلب غير عاقل.

﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الإنسان: إما أن تكون له القدرة على فهم الحقائق شخصيًّا، وإما أن يسمعها ويتلقاها ممن تفكر بها، لذلك يقول القرآن: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ بصورة مباشرة، ﴿ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ بالاستفادة من علوم الآخرين وتجاربهم.

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ حينما لا يوجد عند

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٢٧ والحديث هو: عن الإمام موسى عليه السلام: «الْبِئْرُ الْمُعَطَّلَةُ الإِمَامُ الصَّامِتُ وَالْقَصْرُ الْمَشِيدُ الإِمَامُ النَّاطِقُ».

الإنسان فكر، وينطفئ نور قلبه، ولا يستوعب العبر، فماذا تنفع العين، وماذا تعني الأذن؟!.

إن تعبير ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يشير إلى أن الفساد لا يصيب الظاهر من الإنسان، ولكن الذي يفسد -في الحقيقة- هو داخل الإنسان، نفسيته وروحه وكيانه. جاء في الحديث الشريف: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام -وهو يذكرنا بعمى القلب وكيف يتم اتقاؤه-: «تَاهَ مَنْ جَهِلَ، وَ اهْتَدَى مَنْ أَبْصَرَ وَعَقَلَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. وَكَيْفَ يَهْتَدِي مَنْ لَمْ يُبْصِرْ؟ وَ كَيْفَ يُبْصِرُ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ؟!.

اتَّبِعُوا رَسُولَ اللهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَقِرُّوا بِمَا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاتَّبِعُوا آثَارَ الْهُدَى، فَإِنَّهُمْ عَلَامَاتُ الْأَمَانَةِ وَالتُّقَى»[1].

الزمن عند الله

[٤٧] ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ من المشاكل النفسية التي يعالجها القرآن الحكيم في آياته المرة تلو الأخرى هي مشكلة الاغترار بالفرصة، فترى الإنسان يقول، عندما يرى ألوان النعم تصب عليه: أين هو عذاب الله؟ ولماذا لم يأت؟ فيكفر بالعقاب أساساً لأنه يبطئ عليه.

لقد وعد الله بالعذاب وعداً حتماً، ولكن يعطي الإنسان مهلة كافية لعلّه يكتشف خطأه، ولو بعد حين، فيتوب إلى الله متاباً، فإذا لم يكن للاعتراف والاستغفار في قلبه محلٌ، وحان أجله آنئذ لا يستقدم ساعة ولا يستأخر.

جاء في الدعاء: «سُبْحَانَكَ مَا أَعْجَبَ مَا أَشْهَدُ بِهِ عَلَى نَفْسِي، وَ أُعَدِّدُهُ مِنْ مَكْتُومِ أَمْرِي. وَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَاتُكَ عَنِّي، وَ إِبْطَاؤُكَ عَنْ مُعَاجَلَتِي، وَ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ كَرَمِي عَلَيْكَ، بَلْ تَأَنِّياً مِنْكَ لِي، وَ تَفَضُّلًا مِنْكَ عَلَيَّ لِأَنْ أَرْتَدِعَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ الْمُسْخِطَةِ، وَ أُقْلِعَ عَنْ سَيِّئَاتِي الْمُخْلِقَةِ، وَ لِأَنَّ عَفْوَكَ عَنِّي أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ عُقُوبَتِي»[2].

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لو كان للزمن عند الله قيمة إذن لأهلكنا عند أول ذنب. ولكن الله الذي لا يقدر أحد على الفرار من حكومته، ولا يفوته شيء في السماوات والأرض، لا يبادر بالجزاء ويكون اليوم الواحد عنده كألف سنة.

---

(١) الكافي: ج١ ص١٨١.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعائه عليه السلام إذا استقال من ذنوبه.

إنه سبحانه ليس كما نحن، إننا محددون بالزمان والمكان، وعلومنا وقدراتنا محدودة، بينما الله على كل شيء قدير، وهو مهيمن على خلقه، قادر على أن يقبض المكذبين متى شاء كيف شاء، فلماذا العجلة، وإنما يعجل من يخاف الفوت، سبحانه؟.

[٤٨] إن تأخير العذاب، وتلاشي قانون الزمن عند الله، لا يعني أن العذاب لن يأتي، فكم من أمة أعطاها الله مهلة بالرغم من أنها ظالمة، ثم أخذها بالعذاب حين حقت عليها كلمته ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أين يذهب هؤلاء أو ليس إلى الله؟ بلى إنه سبحانه لا يخشى الفوت، ومن لا يخشى الفوت لا يبادر بالانتقام.

[٤٩] إن وظيفة الرسول هي تبليغ الرسالة للناس، لتكون لهم نذيراً بين يدي عذاب شديد. إن هم أصروا على المعصية. وبالرغم من أن الرسول بشير أيضاً إلا أن السياق أكّد جانب الإنذار لأن الإطار العام للحديث هنا التكذيب والعذاب ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

[٥٠] ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ من يقف بجانب الرسالة ويؤمن بها وبالرسول ويعمل الصالح بموجبها، فإنه يفوز بجائزتين: أولهما المغفرة وحط الذنوب، وثانيهما الرزق الكريم، إنها جائزة معنوية تتمثل في التطهير من الذنوب وأخرى مادية و هي الرزق الكريم، أي يوفر كرامة الإنسان ذلك لأن من الرزق ما يذهب بها، ويسبب له الهوان.

وليس في الآية ما يدل على الآخرة فقط بل يشمل الدنيا أيضاً. ذلك أن المغفرة وكفران الذنوب وتطهير الواقع الفردي والاجتماعي من آثار الانحراف والفساد، وتزكية النفس من قذر العقد والأحقاد، إن كل ذلك نعمة عظيمة يسبغها الله على المؤمنين في الدنيا أيضاً.

كذلك الرزق الكريم يوفره الله لعباده المؤمنين، الذين يرفضون الخضوع لأصحاب السلطة والثروة، ويتعالون على الذلة والهوان، أو لم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]؟.

[٥١] ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أولئك الذين يبذلون قصارى جهدهم في سبيل تعجيز آيات الله، حسب ظنهم، أي عرقلة مسيرتها، وتعويق تطبيقها، وتحديها والتكذيب بها أو تأويلها، إنهم أصحاب الجحيم.

ويسعى هؤلاء نحو إلحاق العجز بالآيات، بتحديها ومواجهتها، فهم بعكس المؤمنين الذين يسلمون بالآيات، ويقولون: كل من عند ربنا بلا مكابرة ولا جدال.

ويدخل ضمن هؤلاء:

- أولئك الذين يكذبون بالآيات رأساً.

- وأولئك الذين يؤولونها ويحرفون مواضعها، مثل خدم السلاطين من علماء السوء.

- وأولئك الذين يعوقون تطبيقها كالحكام الظلمة.

- وأولئك الذين يحبسونها في حدود ضيقة.

وكلمة ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ من معاجزة، على وزن مفاعلة وهي صرف الشيء عن وجهه.

والإنسان الذي لا يريد أن يطبق أوامر الله وشريعته يبدأ بتأويل الآيات القرآنية المحتوية على الأحكام والشرائع فيبعدها عن مقاصدها، وهذه هي المعاجزة.

يؤكد القرآن مثلاً محاربة الطاغوت، أما المُعاجِز فيقول: صحيح أن القرآن يؤكد محاربة الطاغوت ولكن الطاغوت المقصود في القرآن هم (فرعون، نمرود..) وليس هؤلاء طغاة اليوم، والقرآن يحرم الربا، ويقول المعاجز إنما نأخذ الفائدة.

إن الآيات من الوضوح بحيث لم تدع سبيلاً لتحريف مدلولاتها، إن الطاغوت هو الطاغوت، ولا سبيل إلى التستر عليه بعد أن سلّطتْ عليه الآيات القرآنية الأضواء الكاشفة، ففرعون قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، والسلطان الجائر قال مثل ذلك بعمله وتصرفاته. وهما سواء.

إن في القرآن الحكيم العلاج الناجح لأدواء الإنسان وأمراضه، فالقرآن لا يشير إلى العلاج فقط، بل ويقوم أيضاً بمعالجة الإنسان مباشرة، بشرط أن يتفاعل مع آياته ولا يعاجزها فيزداد مرضاً على مرض.

كيف نتحدى التمني بالذكر؟

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٥٢) لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ (٥٣) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٥٤) وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ[1] (٥٥) ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٥٦) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (٥٧)﴾.

هدى من الآيات:

في إطار تذكرة سورة الحج بمواقف الناس من الهدى، وبعد الحديث عن موقف التحدي (المعاجزة) عند البعض، تبين آيات الدرس: خطأ التمني، وأنه حتى الأنبياء والرسل لو تمنوا، ألقى الشيطان في أمانيهم، بيد أن ربنا يعصمهم مما يلقيه الشيطان بآياته الحكيمة التي تنسخ إلقاءات الشيطان، التي هي فتنة يتبعها مرضى القلب، وقساته من الناس، وذلك بسبب ظلمهم الذي يضلهم عن الطريق السوي بعيداً بعيداً.

---

(١) عقيم: أي لا مثيل له في عظم أمره.

أما المؤمنون فإنَّ هدى الله ينور قلوبهم، ويطهرها من أماني الشيطان، فيعلمون أنه الحق من ربهم فيؤمنون به، فتصبح قلوبهم خاضعة للحق، مسلمة لأمر الله، ويهديهم الله بإيمانهم إلى صراط مستقيم، بينما يفقد الكفار نعمة اليقين فتراهم لا يزالون في ريب منه برغم كل آيات الصدق، حتى تأتيهم الساعة بغتة بالموت، أو يأخذهم الرب، بعذاب يوم عقيم.

ويوم القيامة، يتجلى ملكوت الله الذي يحكم بينهم، ويكرم الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم كما يهين الكفار الذين كذبوا بآيات الله، فيلقيهم في عذاب أليم.

بينات من الآيات:

[٥٢] شاءت الحكمة الإلهية أن يبلو عباده بأن يمتحنهم بعبادته ويبتليهم بالفتن المضلة، واقتضت الحكمة الإلهية أن تتوافر للبشر عناصر الهداية وعوامل الضلالة جنبا إلى جنب ليتكامل الامتحان: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس٧-١٠].

وكما جبل النفوس على الفطرة فقد أردفها بتقلبات الحياة الضاغطة والماسخة للفطرة النقية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وكما بعث الأنبياء منذرين ومبشرين فقد جعل تعالى لكل موسى فرعونا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

تعرض آيات هذا الدرس الكريم إلى موقفين للإنسان تلقاء الذكر الحكيم:

ألف: موقف التحدي والمعاجزة.

بـــاء: موقف التمني.

وتحتمل الآية في ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ وجهين:

الأول: بتفسير التمني بمعنى التقدير والرجاء.

الثاني: بمعنى التلاوة. فيقال تمنيت الكتاب أي تلوته. ويكون الإلقاء في الأمنية هو إلقاء ما يصرفها عن وجهها.

والمعنى الأول يشير إلى سعي النبي ﷺ ورجاءه في نشر الدعوة ونجاحها وضم المزيد إلى ساحة الإيمان، بيد أن الشيطان والكفار يفسدون عليه ويحاربونه يريدون أن يطفئوا نور الله، ويشاء الله -في نهاية المطاف- أن يتم ما يريد ويظهر دينه.

والمعنى الثاني: أي التلاوة يشير إلى أن النبي حين يتلو الوحي يلقي الشيطان وساوسه ليجادله الكفار والمنافقون ويثيرون الشبهات ليفسدوا غرض التلاوة أي الإبلاغ والتعليم، لكن الله يتم حجته ويقطع وساوسهم بالحجة البالغة.

وكمثال للسعي الشيطاني في الإضلال ما قصّه القرآن من قصة السامري: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]. وكان غياب موسى عليه السلام وتأخره عشر أيام في ميقات ربه قد ترك فرصة مناسبة للانتهازيين أن يسعوا الى مصالحهم. والآن حيث تأخر موسى عليه السلام وظنوا أنه قد أدركته الوفاة، بادروا الى الفتنة، لكي يبعدوا خليفة موسى الشرعي هارون عليه السلام عن السلطة، فأشاع السامري فيهم أن موسى قد مات، وصنع لهم العجل كرمز لسلطته. وقد وصف القرآن ماحدث بـ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [طه: ٨٥]، ناسبا الفتنه له تعالى، وقد كشف الذكر عن بعض معالمها: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، ونسبة الفتنة للتدبير الإلهي ورد في أكثر من مكان في القرآن، مثل:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

- ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

- ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

- ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

تمني الأنبياء عليهم السلام

هل الأنبياء يتمنون؟ بلى؛ وما هي أمنياتهم؟، إنها الخير للناس جميعاً. وهل تتحقق أمنياتهم بسهولة؟، كلا، لأن شياطين الجن والإنس يحاولون وبشتى الوسائل منع الأنبياء من تحقيق أمنياتهم. وهكذا الصراع الأبدي بين أمنيات الأنبياء التي هي الخير للناس جميعاً وبين القاءات الشياطين.

فمن قال في هذه الآية: إن التمني يعني تلاوة الكتاب.. ومن قال: التمني هو هداية الناس. فإنها مما تحتملها الآية، فلفظ التمني هنا جاء مطلقاً، ومعناه إن الشيطان يحاول مواجهة كل التمنيات الخيرة التي للأنبياء عليهم السلام.

والشيطان لا يحارب الرسالات من خارج إطارها فقط بل ويحاول الدخول في رحابها وتزييف كلماتها وتغيير مسار أهدافها وتمنياتها، ولذلك فعلينا التنبه أبداً لمثل هذه المكيدة الشيطانية. ولعله لذلك عبّر القران بـ (التمنّي).

فقد يلبس الحق بالباطل، ويفسر النصوص بالآراء ويدخل الأقيسة الباطلة في الدين وهكذا..

كلمة اخيرة:

التمني بين الأماني والسعي

من الناس من يصارعون الحق ويسعون في آيات الله معاجزين متحدين. ومنهم من يتمنى بدون تقدير للأسباب، فيخلط بين الحقائق والأحلام، بين ما هو حق وواقع، وبين ما يصبو إليه ويتطلع نحوه.

ولعل العلاقة بين المعاجزة والتمني المجرد عن السعي، هي أن كلا الموقفين نابعان من عدم التسليم للحق كما هو، مع فارق في الطريقة، فأصحاب المعاجزة يتحدون الحق، ويكفرون به، بينما أولو التمني كأنهم لا يؤمنون بالسنن الإلهية التي قدرها في خلقه؛ فتارة يتصورون أنهم بمجرد الإيمان يكونون قد أدوا ما عليهم، وقد أصبحوا بمنأى عن الفتنة، وهو ما نفاه الذكر في مطلع العنكبوت: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت٢-٣]، بل وجعلت هذا التصور الخاطئ بإزاء تصور الكفار والمنافقين الخاطئ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤].

وتارة أخرى يرفضون طريقة تحقيق الحق، وتكريسه، من السعي والاجتهاد والقتال.. ثم القبول بالنتائج، لكن الذكر يقرر: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ..... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، و﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فإذن فالفارق بين تمني الأنبياء وتمنيات الحالمين يتجلى في أمرين:

١ - أنه تمني يبنى على التقدير الحكيم والدراية بالأسباب.

٢- أنه تمني يرافقه سعي حثيث لتحقيقه.

من هنا لا ينبغي أن يسترسل المؤمن مع زخم أمنياته فيذهب مع رياح الأحلام، أنى اتجهت، وحتى الأنبياء العظام، والرسل الكرام لو تمنوا بطبعهم البشري؛ مثل أن لو هدى الله الناس جميعاً، أو أهلك الظالمين فوراً، أو أسعد الخلق بوافر نعمائه بلا سعي ولا عسر، أو أخلد الصالحين ولم ينزل عليهم مصيبة الموت، أو ما إلى ذلك من أحلام تنبع من فرط حس للخلق وللقيم الرسالية، فإن هذه الأمنيات لا تتحقق لأنها لا توافق سنن الله في خلقه.

ولكن على المؤمنين أن يعرضوا هذه التمنيات على الحق الذي أنزله الله في آيات الكتاب فيلزموا أنفسهم حقائق الكتاب ويعرفوا أن الله قد خلق الدنيا دار ابتلاء، ولم يجعلها دار جزاء، حتى يعجل للكفار العذاب، أو للمؤمنين بالثواب!.

وأن الهداية ليست كرها على الناس، وأن الله قد فرض القتال على المؤمنين لحكمة بالرغم من أنهم له كارهون.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ إن النبي والرسول والإمام المحدث يتمنى، ويسعى حثيثا ويلقي الشيطان في طريق النبي ما يحول بينه وبين إنجاح الدين ونشره.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بإبطال سعي الشيطان، ويمكرون ويمكر الله.

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ ﴾ بالتأييد الذي يجعل كلمة الرسول نافذة تامة. -

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يحيط علما بمكر الشيطان ويبطله بحكمته.

ومن المفارقات الغريبة أننا نجد تلفيقات من إلقاءات الشيطان حول هذه الآية.

حيث جاء في بعض الأخبار المروية: أنَّ رسول الله ﷺ جلس في أحد نوادي مكة، وقرأ على المشركين سورة (النجم) حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]. أضاف إليها: وإنهن لهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى ومضى في قراءة السورة حتى انتهى إلى السجدة في آخرها فسجد وسجد المشركون معه، ولم يتخلف منهم أحد، فأعلنت قريش رضاها!.

وفي بعض الروايات أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ سورة النجم في الصلاة، فعندما كان يقرؤها فإذا بأحد خلفه يردد آيات الغرانيق فرددها الرسول عدة مرات على غفلة منه، فنزلت هذه الآية.

وإنَّ هذه الرواية وأمثالها لا تحتمل التصديق لأن سورة النجم نزلت في مكة وسورة الحج نزلت في المدينة، عوضاً عن أن الرسول يعلم علم اليقين أن سورة النجم التي تحتوي على سجدة واجبة لا تقرأ في الصلاة.

المهم جاءت هذه الآية لتؤكد بأنَّ شفاعة هذه الغرانيق لا ترتجى، وأن هذه القصة ليس سوى أمنيات ألقاها الشيطان ليختبر بها الله عباده المؤمنين، فما هي إلا أسطورة لا أكثر ولا أقل. لأن الرسول أرفع من أن ينزل إلى مستوى الجهل بأهم أصل من أصول رسالته، الذي يعتبر الركيزة الأولى التي قام عليها الدين بأكمله وهي التوحيد، بالإضافة الى أنَّ رسل الله معصومون عن الذنب، والخطأ والسهو النسيان وبالذات رسول الله محمد خاتم النبيين ﷺ الذي يقول عنه الرب سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. إنَّ هذه الآية نقرؤها في سورة النجم بالذات التي نسجت حولها هذه الأسطورة ثم هل من الممكن أن نتصور رسولاً يبعثه الله لإبلاغ رسالة التوحيد ثم ينسى هذه الحقيقة، ويبدلها بخرافة الشرك؟!.

إنَّ هذا الحديث إنما تقوَّله الجاهليون الحاقدون على الرسول نكاية به، وتناقله الجاهلون الذين لم يعرفوا رسول الله بل لم يعرفوا رسالات الله.

ولو افترضنا -جدلاً- صحة هذه الرواية فلابد أن يكون هذا الكلام من إلقاءات الشيطان في قلوب المشركين، التي أضافوها إلى الآيات، وأشاعوها بين الناس، ليشبهوا على الناس، إلا أنَّ الله سبحانه -الذي وعد بحفظ القرآن عن عبث العابثين وتحريف المبطلين-

أحكم آياته، وفضح إلقاءات الشيطان، وقد ذكر كثير من المفسرين هذا الاحتمال في هذه الرواية التاريخية.

[٥٣] إن قلوب الناس على ثلاثة أنواع:

١- السليم.

٢- المريض.

٣- القاسي.

والقلب السليم يعصمه الله مما يلقي الشيطان في أمنياته، بينما القلب المريض والقاسي يتلقفان ما يلقيه الشيطان، ويصبح بالنسبة إليهما فتنة تستهويهما ويصعب عليهما التخلص منها ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فما هو القلب المريض والقاسي؟ لعلَّ أمراض القلب هي تلك العقد النفسية، التي تظهر في الصفات الرذيلة كالحسد والحقد والكبر واليأس، وحب الرئاسة، والجدل في الله بغير حق.

وأما قسوة القلب فهي التي تنشأ بسبب تراكم آثار الذنوب عليه، فإذا به لا يستجيب للحق، ولا يهتز للإنذار و التبشير، ولا يعتبر بمصير المجرمين، ولا ينتفع بآيات الله في الآفاق.

وكيف تصبح إلقاءات الشيطان بالنسبة إليهما فتنة؟. لأن القلب المريض أو القاسي يبحث أبداً عما يتوافق معه، فإنه يستجيب سريعاً لوساوس الشيطان ويكون مثله مثل الجسم المريض الذي تكاثرت فيه الجراثيم، وضعفت مناعته الذاتية، فإذا به يتلقف الجراثيم الجديدة بسهولة، إن مقاومة هذا الجسم للمرض ضعيفة، فخطر المرض عليه شديد، كذلك القلب المريض أو القاسي، يصعب عليه مقاومة الإشاعات الشيطانية التي تنتشر وتلقى هوى في النفس.

مثلاً: إنك ترى قلوب الجاهليين المريضة بحب «الْغَرَانِيقُ الْعُلَى»، والتي تراكمت عليها آثار عبادة الأصنام، وتحن إلى أيام الصبا حيث كانوا يتساقطون أمام الأصنام المزخرفة، ويسحرون على وقع الأناشيد والطبول، وفي احتفالات اللعب واللهو وبانتظار موائد الطعام والشرب والمسكرات.

إنك تراها اليوم تتلهف إلى إشاعة تروج في مكة، بأن النبي قد مدح هذه الأصنام، ووقع ساجداً لها، وأعطي الشرعية من جديد لها، وتتناقل الأفواه هذه الشائعة المفضوحة بشوق عظيم، وإذا بها تصبح مادة إعلامية لكل مَنْ سوَّلت نفسه النيل من مقام سيد البشر ومنار الهداة وقدوة الصالحين محمد بن عبد الله الطهر الطاهر المطهر، الذي عصمه الله من كل ذنب،

صلى الله عليه وعلى آله المعصومين.

وتستمر الأفواه تتناقلها حتى اليوم حيث تتلقفها أقلام المستشرقين وتنسج حولها بيوت العنكبوت ومن راجع كلمات المستشرقين ومحاور تركيزهم وجدها تدور في الأغلب حول تلك الإشاعات الكاذبة التي روجتها أفواه الحاقدين على الرسول ﷺ، ثم دخلت في كتب التاريخ إما بسهو أو عبر أصحاب القلوب المريضة الذين تظاهروا بالإسلام، وهم ينوون النيل من الإسلام كبني أمية، وأشياعهم.

ومع الأسف استرسلت أقلام بعض المفسرين مع هذه التقولات الكاذبة حتى صنعت من الرسول شخصية مفروزة، ولم تلتفت إلى الحديث المجمع عليه والمأثور عن النبي ﷺ: «سَتَكْثُرُ مِنْ بَعْدِي الْقَالَةُ»[1]، ولم تلتفت إلى حذر أصحاب الرسول من بعده عن قبول الأحاديث إلا إذا شهد عليها شاهدان، لأنهم أكثروا من نقل الحديث غثه وسمينه.

وقد تصدى أئمة أهل البيت عليهم السلام بحزم لهذه الظاهرة الخطيرة وأصروا بأن يعرض كلام الرسول وكلامهم أيضاً على كتاب الله. فما وافق كتاب الله أخذ وما خالف كتاب الله ضرب به عرض الحائط، واستطاعوا أن يفندوا الكثير من الإشاعات الضالة بهذا المقياس الرشيد.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٖ﴾ إن الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، حتى مرضت قلوبهم وقست واستجابت لفتنة الشيطان إنهم بعيدون عن الحق كثيراً.

ويستوحى من الآية الكريمة: إن قسوة القلب مرحلة تالية لمرضه، و إن ما يسبب مرض القلب هو الظلم فإذا فحش وازداد قسا القلب.

[٥٤] ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ يتميز الذين أوتوا العلم، بأن موقفهم آخذ في التكامل فمن العلم إلى الإيمان إلى الإخبات، ذلك لأن العلم هو اكتشاف الحقيقة والإيمان هو الاعتراف بها، والإخبات هو أن تتبعها بكل كيانك.

وهذا التكامل يتم عبر الصراط المستقيم الذي كلما مشى فيه الإنسان ظهرت له معالم الحق، والله هو الذي يهدي المؤمنين إلى هذا الصراط، ولا أحد سواه قادر على الهداية إليه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

[٥٥] أما الذين كفروا فهم باقون أسرى شكهم النابع من جهلهم. ولا يمكنهم

(١) المعتبر المحقق الحلي: ج١، ص٢٩.

التخلص من هذا الشك إلى اليقين بسبب كفرهم ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ الساعة هي يوم القيامة، أما العذاب العقيم فهو العقاب في الدنيا.

[٥٦] هنالك عند قيام الساعة، يتجلى ملكوت الرب، وقضاؤه الفصل وجزاؤه العادل، فهو الملك والحاكم و المدبر ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فله السلطان الظاهر، حيث يطوي بعزته سلطات الجور التي نشرها الشيطان، وأمهلها الله بحكمته إلى أجل مسمى ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ فلا أحد يستطيع رد حكمه، والادعاء كذباً بأنه على حق كما هو اليوم في الدنيا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

[٥٧] ذلك هو مصير المؤمنين العاملين للباقيات الصالحات، أما مصير الكافرين فهو العذاب المهين.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ كلمة ﴿مُّهِينٌ﴾ توحي بأن أهم العوامل التي تدعو الإنسان للشك واتباع الأماني هو التكبر، والإهانة هي العذاب النفسي الذي يصيب المتكبرين. ولعلّه أشد ألماً من العذاب المادي.

الهجرة جهاد وانتصار

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾.

هدى من الآيات:

هنالك هجرتان: هجرة معنوية وأخرى مادية، فالهجرة المادية عادة ما تتبع الهجرة المعنوية، لذلك نجد القرآن الحكيم حينما يحدِّثنا في هذا الدرس عن الهجرة المادية من دار الكفر والكبت والحرمان، إلى دار الحرية و الإسلام، لا يلبث أن يحدِّثنا عن الجوانب المعنوية لهذه الهجرة.

وبمناسبة الحديث عن الهجرة يحدِّثنا القرآن الحكيم عن قدرة الله، وأهم وأبرز مظاهر هذه القدرة حركة الليل والنهار، وإيلاج كل واحد منهما في الثاني، فكما يبدل الله -سبحانه- الليل نهاراً، فإنه كذلك يبدل ظلام الإرهاب والكفر والجاهلية إلى نور العدالة والإسلام والحرية.

تلك القدرة المهيمنة على الكون هي ذاتها القدرة المهيمنة على المجتمع، لأن قيادة هذا الكون، وولايته سواء في السماء أو في الأرض لله الحق وحده.

بينات من الآيات:

[٥٨] بعد أن ذكَّرنا الرب سبحانه ببعض حقائق الإيمان في آيات آنفة، جاءت هذه الآية تذكِّرنا بدور الهجرة في الله. لماذا؟ لأن الطريق إلى الإيمان يمر عبر الهجرة والجهاد. إذ إن الطغاة لا يدعونك حراً تؤمن بالله وحده، وتطبق منهجه فقط، إنما يريدون أن تميل عن عبادة الله إلى الشرك به بعبادتهم، ولابدَّ من تحديهم حتى تصبح مؤمناً بالله وحده. ومن هنا تبدأ مرحلة الجهاد بالهجرة من ديار الكفر إلى بلاد الإسلام. والواقع فالهجرة ذاتها مرحلة متقدمة من مراحل الإيمان، فليس كل مؤمن مستعداً للهجرة إلى الله بعيداً عن أهله ووطنه، والهجرة لا تتم من دون معاناة، فالمهاجر عادة يتعرض للقتل بسبب أو بآخر.

وليس هناك ما يعوض القتل أو الموت إلا الرزق الحسن من الله، فهذا المهاجر الذي ترك موارده الخصبة في بلده، يعوضه الله خيراً منها دار الخلود، وبدل خروجه من وطنه ساخطاً يدخله تلك الدار راضياً مرضياً.

هذا لمن يهاجر ويلقى حتفه، أما الذي يبقى حياً فإنَّ الله سوف ينصره نصراً مؤزراً على من كانوا السبب في تهجيره وتشريده، وبما أن الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان تنشأ من السخط على الأوضاع الفاسدة -السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية- فإنَّ الهجرة في عرف الطغاة تشكل رأس الحربة، لذا فهم يسعون لوأد هذه الحركة بقتلهم المهاجرين، أو التضييق عليهم كأن يبرموا الاتفاقات مع الدولة الأخرى -التي يلجأ إليها المهاجرون- كي يسلموهم، أو يضيقوا عليهم حتى يستحيل عليهم النصر فيموتوا بعد سني النضال الطويل ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هكذا يعرفنا الله نفسه من الآية: (٥٨) إلى الآية: (٦٥) يذكرنا القرآن بـ (١٥) اسماً من الأسماء الحسنى، هي: (خير الرازقين، العليم، الحليم، العفو، الغفور، السميع، البصير، العلي، الكبير، اللطيف، الخبير، الغني، الحميد، الرؤوف، الرحيم).

ونستوحي من منهج القرآن في ذكر أسماء ربنا هنا وفي سائر السور، إن الله يريد أن يعرِّفنا نفسه في مختلف جوانب الحياة التشريعية والاجتماعية، أو المادية التكوينية، وأن هناك مسافة تفصل بين الإيمان والمعرفة، كما تفصل مسافة مماثلة بين الإسلام، والإيمان، فليس كل مسلم مؤمناً، وليس كل مؤمن عارفاً وأن للعرفان درجات.

إن الله سبحانه وتعالى قد تجلى في آيات القرآن لعباده، كما تجلى في آيات الحياة ليعرِّفنا نفسه، فكيف نعرف الله؟ باستطاعتنا أن نعرف الله سبحانه عبر صفاته وأسمائه الحسنى، المبثوثة في آياته القرآنية والكونية، فكل شيء وكل آية هي تجلٍّ واضح لأسماء الله وصفاته.

جمال الربيع، وبهجته، وعبق أزهاره، يقودنا إلى جمال الله، وعظمة الليل والنهار، ودوران الفلك العظيم بشموسه وأقماره، يهدينا إلى عظمة الله، وأنه علي كبير.

وقطرات المطر التي تنزل من السماء ثم تستقر في رحم الأرض، وتتفاعل مع حبات التراب، وإذا بتلك البذرة الصغيرة ترتفع نحو السماء، فتصبح شجرة عظيمة، كل ذلك يقودنا إلى لطف الله في صنعه. أما إذا نظرنا إلى ما في الجبال من خزائن، وما في البحار من ثروات معدنية وحيوانية، وما في الأرض من كنوز ومعادن، فسنعرف آنذاك أن ربنا غني حميد. وأنه على كل شيء قدير.

وحين نعرف بأن ربنا سبحانه قد جعل في السماوات والأرض أنظمة وسننا -يحفظنا بها- ولو لا ذلك لانتهت حياتنا على الأرض، أو تحولت في أحسن الظروف إلى جحيم لا يطاق.

إن نظام الغلاف الجوي كأبرز مثال من الدقة بحيث لو أنه كان أقل سمكاً لتهافتت النيازك والشهب فأحرقت الأرض، ولو أنه كان أسمك قليلاً لما استطاعت الأرض أن تأخذ قدراً كافياً من أشعة الشمس فكانت تتجمد، وهكذا الجاذبية، وسماكة الأرض.. أقول إذا عرفنا كل ذلك هدانا الله إلى أنه سبحانه رؤوف رحيم.

وكذلك تحولات حياتنا من الموت إلى الحياة، ومن الحياة إلى الموت، يدلنا على أن تدبير الأمور بيد غيرنا لا بيدنا نحن، وأن الرحمن على العرش استوى. وهكذا نجد في هذه الآيات منهجاً قرآنياً عظيماً. حيث يذكرنا بآية من الآيات، ثم بصفة من صفات الخالق، واسم من أسمائه، وهذا هو الأسلوب المناسب لمعرفة الله سبحانه، وبتعبير آخر التحول من درجة الإيمان إلى درجة المعرفة.

جزاء الهجرة

[٥٩] ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ قد يكون هذا المدخل الذي يرضونه في الدنيا، لأنهم خرجوا غاضبين في سبيل الله، وقد يكون المدخل هو الجنة لأن اللام في قوله: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم ﴾ تفيد المستقبل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ فهو يعلم عملك وسيجازيك عليه -ولكن بعد حين- لأنه حليم لا يعجل، فمن جهة يعطي الكافرين مهلة أطول، ومن جهة أخرى يطلب من المؤمنين الصبر حتى يعلم صدق إيمانهم.

[٦٠] ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ ذلك لأن الذين خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى الله سوف يرجعون إليها فاتحين بإذنه، فيقتلون أعداء الله وأعداءهم، لأنهم تعرضوا للبغي، والبغي هو أن تطالب بحقك المغصوب فلا تعطى إياه، بل وأيضاً تواجه بالقمع و الإرهاب. إذ لا يجد غاصبوك سبيلاً لإسكاتك إلا بالقضاء عليك.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ أي مواجهة الإعدام بالإعدام.. مثلاً بمثل، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ ﴾ أي ظلم بعد أخذه لحقه المشروع ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ﴾ في هذه الكلمة تأكيدان على تحقيق النصر، أولهما يدل عليه لام التوكيد، وثانيهما تعبر عنه نون التوكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ عفو غفور مما تجاوزتم، ودلالة عفوه وغفرانه نصره لكم.

استوحى بعض المفسرين من الآية فكرة هامة أن الصراع في الإسلام ليس قاعدة مطردة كما في النظرية الماركسية، إنما هو حالة اضطرارية، فالإسلام يدعوك إلى أن تضرب صفحاً عمن يظلمونك أو يسلبون بعض حقوقك البسيطة، أما حين يتعدى هؤلاء الحد في السلب والظلم، آنئذٍ يجب عليك أن ترفع عقيرتك في وجوههم و تواجههم فيكون صراعك لا من أجل الصراع ذاته، بل من أجل العدالة، وحالما يعود إليك حقك آنئذ تقف عند هذا الحد. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[الإسراء: ٣٣].

إذا وقبل كل شيء يجب أن يكون الصراع في الله وبالله، نهب متى استنهضنا ونقف عندما يأمرنا بذلك.

الليل والنهار

[٦١] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ ما يحدث في الطبيعة مثل حي تمر به الأمم، فمرة يمتطي صهوة التاريخ كفرة فجرة، فيصيب المؤمنون جام انتقامهم عليهم، فتعود مؤمنة كما كانت، لكنها لا تلبث أن تضمحل وتتلاشى وتعود من جديد كافرة فاجرة.. وهكذا تتعاقب الأمم حتى يأذن الله لأوليائه الصالحين بالنهوض لإزالة الجاهلية والضلال من أرض الإنسانية جميعاً.

إن معنى الإيلاج هو الإدخال، فمرة يلج الليل في النهار ويدخل فيه، ومرة يلج النهار في الليل ويدخل فيه، ففي المرة الأولى يكون الفصل شتاء، وفي المرة الأخرى يكون الفصل صيفاً، لأن إيلاج الليل في النهار يعني اقتطاع الليل قطعة من النهار فيصير الليل أطول، وهذا فصل الشتاء، والعكس من ذلك إيلاج النهار في الليل.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أي إن الله قريب من السنن الجارية في السماوات والأرض ومن مظاهر قربه سمعه وبصره، وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة.

أسماء الله

[٦٢] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ سلطته أعلى من سلطة الآخرين، هذا إذا سلمنا جدلاً بأن للآخرين سلطة، وإلا فهم في الحقيقة سراب يحسبهم الظمآن ماءً والله هو الحق المبين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فما سواه ليس علياً ولا كبيراً إلا به، والعلو والكبر تعبيران عن قدرة الله وسعة سلطانه، فلتسقط الأصنام البشرية والحجرية التي تعبد من دون الله، وليخلص العارف نيته وعمله لله الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل لأنه وحده الحق وما سواه هو الباطل.

[٦٣] وإنه لطيف خبير، لطيف بعباده يرزقهم من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون، وخبير بحاجاتهم.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ السماء تمطر والأرض تستقبل حبات المطر، لتتحول تلك الحبات إلى بساط أخضر، فطعام لنا ولأنعامنا. إن كل ذلك يدل على أن الله لطيف خبير.

إن علماء النبات يعرفون، كم هي دقيقة وعظيمة تلك القوانين التي تنظم نمو النبات، التي عادة ما نمر نحن عليها بلا تأمل أو اعتبار. فبعد أن صرفوا المبالغ الطائلة في المختبرات النباتية لم يعرفوا وإلى الآن سر التركيب الضوئي.. كيف أن شعاع الشمس يتحوَّل إلى ثمرة كالتفاح مثلاً الذي تعتبر أكثر مواده من نور الشمس.

[٦٤] ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ إن الله سبحانه وتعالى يمتلك كل الأشياء، ويسيِّر قوانينها، وهو بالرغم من أنه يمتلك الأشياء وقوانينها فهو غني عنها ولا يحتاج إليها، فهي لا تعطيه القوة، بل هو من جهة غني عنها، ومن جهة أخرى حميد يعطيها الوجود والحركة تبارك وتعالى.

[٦٥] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ كل ما في الأرض مسخر لنا.. بقسميها البري والبحري، فالقسم البري يحوي المعادن والكنوز، والأشجار والحيوانات، ويحوي القسم البحري الحيوانات والمعادن ولعلَّ أهم فائدة نستفيدها من البحر، هي جريان سفننا بأمر الله فيه وإن من أمر الله الرياح التي تدفع السفن وتحركها إلى الأمام.

الجاذبية

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ إن النجوم والكواكب وسائر الأجرام السماوية تبقى في مساراتها بقدرة الله، ولو أن الجاذبية غير موجودة لاختل نظام الأفلاك ولاصطدمت ببعضها وتناثرت على الأرض فدمرتها. وربما يكمن التفسير الصحيح في الآية ذاتها في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي من الممكن أن تسقط إذا أذن الله لها بالسقوط، وما هي السواقط تلك؟

إن السواقط التي يعبر الله عنها بالسماء هي: النيازك والشهب التي تهبط إلى الأرض بإذن الله، ولم يكتشف العلم الحديث والى اليوم سر الجاذبية، ما هي؟ وأين هي؟ ولكن الله يعبر عنها بقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي أن الجاذبية بيد الله... وضعها حسب ما شاء و باستطاعته أن يعدمها، ولكن كلمة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ لا تدل على أن الله يعدم الجاذبية بل هو إثبات لها، فالنيازك و الشهب التي تسقط على الأرض بفعل الجاذبية نفسها.

ومعلوم أن تقلص الأرض هو نتيجة طبيعية لأعمال الإنسان، بسبب صرفه لطاقات الأرض إذ تزايد في الآونة الأخيرة استخدام الطاقة، واستحلاب الأرض من معادنها وغير

ذلك. كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾[الروم: ٤١].

ولعلَّنا نستوحي من هذه الآيات أن الله لا يأذن للأرض بالدمار إلا بسبب فساد الناس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ آية رأفته ورحمته أنه سخر لنا ما في البر والبحر، وأمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وإلا فهو قادر على أن يجعل كل ذلك جحيماً علينا، فهناك احتمالات رهيبة في الكون لا يمكن أن تصدق، وأبرز مثال على ذلك أن هناك الكثير من الشهب والنيازك تتساقط على الأرض وبأعداد هائلة، ولكنها لا تلبث أن تتلاشى إذا اصطدمت بالغلاف الجوي وهكذا نقرأ في الدعاء، سبحان من لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب سبحان الرؤوف الرحيم.

[٦٦] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾

ثم بعد عرض آيات الله، وبعد عظيم علمه ورأفته ترانا نكفر بنعم الله. إن المشكلة في الإنسان أنه محدود النظرة، فلو نظر إلى ما حوله من آيات الله، بل لو رأى خلقه.. وتقلبات كل ذلك من حياة إلى موت لآمن، ولكن الإنسان كفور بنعم ربه، وبعطائه، ولعلَّ كفره هذا هو علة كفره بالله رأساً.

ولو اجتمعوا لن يخلقوا ذباباً

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ(1) بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

لكي يزداد البشر تقوى وإحساساً بمسؤولياته في الحياة، لابد أن يزداد معرفة بالله وبأنه محيط به علماً، ولابد أن يشعر بأن هناك رقيباً يراقبه، ويحيط به، وهذه المعرفة تعطيه التزاماً أكثر بمسؤولياته.

---

(١) يسطون: إظهار الحال الهائلة للاخافة.

وفي هذا الدرس ما قبل الأخير من سورة الحج التي تركز حول موضوع التقوى نجد -في هذه الآيات- إيحاءات تدل على علم الله بالكون، وأن المسؤولية ليست أمام الرسول ولا أمام المؤمنين بقدر ما هي أمام الله رب العالمين، فالله هو الذي يشرع لكل أمة مناسكها، وهو الذي يطالبها بأدائها، ويحاسب على تركها، فلماذا إذن يجادل هؤلاء الكفار الرسول؟.

إن مسؤولية الرسول هي الدعوة إلى الله عبر الصراط المستقيم ومسؤولية الرسول لا تتجاوز هذا الحد، أما حساب الناس فهو على ربه وربهم.

إن الله محيط علماً بما في السماوات والأرض، وإن كل شيء عنده مكتوب في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وذلك على الله يسير. لأن تسجيل حوادث الدنيا ومتغيراتها وإدراجها في كتاب أمر بسيط، فإذا حانت ساعة الحساب فإنَّ يدك كتاب، وجلدك كتاب، وعينك كتاب، وكل ما فيك كتاب شاهد عليك، فما تفعله لا يذهب هباءً، ومع كل ذلك، فإنك تجد أناساً يعبدون من دون الله أناساً عاجزين مثلهم ويخضعون لأصنام بشرية أو حجرية.

إن الإنسان ينبغي له أن يتبع أحد أمرين: إما أن يتبع شريعة الله ويخضع لأوامره، ونواهيه، و إما أن يتبع العلم، فمن لم يتبع أحد هذين الأمرين فهو ظالم لنفسه، ومن يظلم نفسه، أيحسب آنئذ أن الأصنام الحجرية أو البشرية ستشفع له؟! إنها ستكون عليه ضداً، وسيحشر معها في جهنم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨].

وإنك لترى مدى التعصب للباطل عند عبدة الطاغوت، حيث تتبين في وجوههم المنكر.. فإذا بها تظلم وتعبس، كلما تليت عليهم آيات الله، البالغة الوضوح، حتى إن أعصابهم تتحفز وكأنهم يستعدون لمعركة، ويكادون يرفعون أيديهم للسطو على من يتلو عليهم الآيات، ودون النظر إلى محتوى الآيات، وإن التالين لها ليسوا سوى مبلغين وإن قول الحق إذا كان مراً لأن فيه تهديداً وإنذاراً بالعقاب الواقعي، فإن ذات العقاب وهو النار التي وعدها الله الذين كفروا أنه أشد حرارة وأسوأ مصيراً.

وبمناسبة الحديث عن الأصنام التي تعبد من دون الله، يتحدى الله الأصنام البشرية موجهاً إليها المقال بأن ليس في إمكانها خلق ذبابة واحدة حتى لو احتشدت كل القوى العظمى ما استطاعت إليه سبيلاً.

إنهم يعجزون عن صنع حشرة صغيرة كالذبابة، وإن تسلبهم الذبابة شيئاً، فإنهم أعجز من أن يستنقذوه منها، بالرغم من ضعف قوتها: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ إذن فلماذا الطغيان، ولماذا عبادة هؤلاء الضعفاء؟!.

بينات من الآيات:

اختلاف الشريعة ووحدة المشرع

[٦٧] ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ذكر المفسرون: إن لكل أمة مناسك وطقوساً خاصة، تختلف من أمة إلى أخرى، وهذه الاختلافات لا تدل على اختلاف المشرع، أو على اختلاف الشريعة الإسلامية التي أتى بها كل الأنبياء وغاية ما في الأمر هو أن الله الذي أوحى بشريعة نوح قد نسخ هذه الشريعة بشريعة إبراهيم، ثم نسخ هذه الشريعة بشريعة موسى، ثم بشريعة عيسى، ثم نسخها بشريعة محمد ﷺ.

هذا التفسير صحيح لكنه ليس كافياً، فهناك أحكام مختلفة بالرغم من وحدة الرسالة ووحدة النبوة، وهناك واجبات تختلف من فرد لآخر حسب أحواله وظروفه المكانية والزمانية والمعاشية وغيرها، ومن باب أولى أن تنسحب هذه المسألة على الشعوب والأمم، والمقياس الوحيد لتقدير هذه الظروف المختلفة هو وحي الله سبحانه، وما على الإنسان إلا الانصياع لمن له الخلق والأمر، وما دام الله هو رب الشرائع جميعاً، فلماذا الاختلاف إذن؟! لنتوجه إذن لإصلاح ما بيننا حتى يعم السلام والأمن ربوع المعمورة.

ولعلَّ الآية توحي بأن البحث عن جزئيات المناسك العبادية لا يجدي نفعاً، بل لا بد أن يكون الحديث حول أصل صدق الرسالة، فمتى ما أيقن المرء أن الرسول يدعو إلى الله عبر طريق مستقيم. فلا يجوز أن يجادل في الفروع.

وأنه لماذا الصلاة إلى الكعبة، وليس إلى المسجد الأقصى، ولماذا الصوم في شهر رمضان، وليس في أيام عيد الفطر، ولماذا لا يحرم الإسلام ما نهت عنه شريعة موسى، وما إلى ذلك مما كان الكفار يجادلون فيه، و يتخذونه ذريعة لجحودهم، ومما لا يزال بعض أنصاف المثقفين يتخذونه مادة للجدل العقيم، ويبررون به فسقهم عن الدين وكفرهم به.

وأساساً كلما منعت البشر العصبية عن منهج سليم، ولم تفلح أدلته في رده، أخذ يناقش في الجزئيات التي لا علم له بها والتي لا يستطيع أحد إقناع أحد فيها.

ولعلَّنا نستوحي من الآية: أن الأمة الواحدة مهما اختلفت طرائق وشيعاً فإنها تقوم على أساس منسك واحد، فالمنسك هو رمز مبدئية الأمة ووحدتها، فالمسلمون قد يختلفون في أي شيء إلا في الصلاة إلى الكعبة والحج إليها والصوم و.. و.. والمسيحيون يختلفون كذلك في كل شيء إلا في بيت المقدس ومجموعة مناسك يتفقون عليها مثلاً.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أنت لا تملك أيها الرسول سوى البلاغ وليس لهؤلاء حق في أن ينازعوك أو يناقشوك فيما أمرك به الله، خصوصاً في المناسك، وفي هذا نهي حتمي عن الخوض في مثل هذا الجدل.

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ إنك على هدى، تعرف الغاية وتعرف أيضاً الطريق المستقيم إليها، فلا تلتفت إلى جدلهم ونزاعهم، وأمعن في طريقك داعياً إلى الله سبحانه.

[٦٨] ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لا تحاول أن تورط نفسك في الجدال العقيم معهم، بل اتركهم إلى ربهم فهم مسؤولون أمامه، وليسوا أمامك إلا بمقدار الدعوة والبلاغ.

[٦٩] ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ إذا وضع الإنسان الله مقياساً له وأنه رقيب عليه، فإنّ الخلافات سوف تتبدد وتنتهي ولعلَّ الآية تدل أيضاً على أن هناك اختلافات لا تستدعي الصراع، بل إن الإنسان هو الذي يسبغ على هذه الاختلافات الطبيعية لون العداء.

[٧٠] ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ إن الله يعلم كل ما يجري في السماء والأرض، وكل شيء عنده مكتوب في اللوح المحفوظ الذي يسميه القرآن هنا بالكتاب، وهذان الأمران -علم الله وتسجيله للأحداث- يمثلان موعظة بليغة للإنسان إذا التفت إليهما جيداً، حيث يراقب جميع أقواله وأفعاله، ومعتقداته، فيعمل على إصلاح شؤونه، ويبتعد عن كل انحراف يجرح فطرته.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ بالرغم من أن الإحصاء الدقيق في اللوح المحفوظ فوق تصورات البشر إلا أنه بالرغم من ذلك على الله سهل يسير.

إن الأفعال تطبع آثارا لا تمحى في صحائف شتى، لا يقرؤها إلا أصحاب العلم. وكلما زاد العلم تقدماً كلما توغل في معرفة الآثار التي تخلفها الظواهر.. وأبرز مثل لذلك المرض فإنه يخلف آثاره على كل جوارح الفرد. و على نظام دورته الدموية، وشبكة غدده، وإفرازاتها، ومختلف أنسجة جسمه. إلا إن علماء الطب يختلفون من عصر لعصر في قدرتهم على اكتشاف المرض من خلال تلك الآثار، فمنهم من يكتشفها من النبض ودقات القلب، أو من لون البشرة أو من خطوط الكف، ومنهم من يكتشفها بالموجات الكهربائية المنبعثة من حركة القلب أو الدماغ أو من تحليل الدم والإفرازات. وهكذا تجد أن التأثيرات مكتوبة على لوحة الطبيعة،

وإنما الاختلاف في القدرة على قراءتها.

وهكذا كل أعمالنا تكتب على عشرات الألواح، وتتجلى يوم القيامة أمامنا فتعقل ألسنتنا عن الإنكار.. ألا فلتستعد لذلك اليوم الرهيب الذي تبلى فيه السرائر.

ضعف الطالب والمطلوب

[٧١] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي إنهم يعتقدون أن بإمكانهم أن يفلتوا من قبضة الحق، ومن نطاق المسؤولية عبر عبادة غير الله التي ما أنزل بها من سلطان، فلم يعط إذناً صريحاً بيناً لهم بعبادتهم.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أن تتعبد بعلم هذه حجة قطعية وفي غير هذه الحالة لابد أن تتعبد باتباع من تعرف يقيناً أن الله جعله ولياً عليك، أما أن تتعبد بلا علم ولا شريعة، فعبادتك باطلة، وعملك هباءً.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي أن هذه الأصنام لن تكون المنتصرة لهم من الله سبحانه إذا أخذهم، فهذه الأصنام التي تعبد لن تخلص نفسها فكيف تخلص الآخرين.

[٧٢] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ حينما يسمعون آيات الله تبدو على وجوههم آثار الاستنكار والرفض، عميقة وشديدة إلى درجة يظن فيها الناظر أنهم يهمون بالبطش بمن يتلون عليهم تلك الآيات، وكأنَّ هؤلاء لو لم تتلى عليهم هذه الآيات سيكونون في حل من القيام بمسؤولياتها.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إن انحرافكم هذا يؤدي إلى النار، وإذا كان مجرد إنذارهم بالنار لا يعجبهم ولا يستطيعون تحمله فيا ترى هل النار نفسها تعجبهم، ويمكنهم احتمال حرها؟!.

[٧٣] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ كما هو ثابت علمياً أن الذباب إذا أكل شيئاً فإنه يتحول بسرعة عبر عدة تفاعلات كيمياوية إلى مواد أخرى تستفيد منها هذه الحشرة، ويستحيل آنئذ إعادتها من جديد، وهكذا يكون عجز البشر ظاهراً إذ إنهم لا يقدرون على استعادة ما يأخذه الذباب عنهم، إضافة

إلى أن حجم الذبابة صغير، بحيث لا تستطيع أدق الآلات أن تستخلص المواد من جوفها، علماً بأن المواد السكرية، والكربوهيدراتية والبروتينية تتكون من مادتين رئيسيتين هي: الأوكسجين والكربون فإذا تحللت هذه المواد في بطن الذبابة إلى موادها الأولية، آنئذ يستحيل على البشر أن يعيد العناصر الأولية إلى مادة.

وأخيراً فالقرآن يؤكد -المرة تلو الأخرى- أن الطاغوت لا قوة له إلا في النفوس المريضة، فقد يضخمه أتباعه حتى يصير عندهم ربهم الأعلى، وقد يقزمونه حتى يصير أحقر من الذبابة.

هكذا يصطفي الله الدعاة إليه

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الآيات التي جاءت في سورة الحج يذكّرنا ربنا تعالى بأسمائه الحسنى التي لما عرفنا اسماً جديداً منها كلما ازددنا إيماناً بالله ومعرفة به وبما خلق، وكلما ازداد الإنسان معرفة بالخالق والمخلوق كلما كان أكثر استقامة وهدى.

إن المحور الأساسي الذي تلتقي فيه كل الخطوط، هو توحيد الله ومعرفة أسمائه الحسنى، لذلك فإنَّ الآيات الأولى من هذا الدرس تؤكد مجدداً أسماء الله تبارك وتعالى، إن من الواجب على العباد أن يعرفوا خالق هذا الكون، وموجد هذه الحياة، ولكنهم لم يقدروا الله حق قدره إذ عدلوه بخلقه.

إن الله ليس لا يقاس فقط بالأنداد، بل لا يقاس حتى بتلك القوى التي هي أعظم من

الأنداد كالملائكة والرسل إلا أن من الناس من جهل الله ولم يقدره حق قدره، فقاسه بالطغاة فعبدهم، ومنهم من أشرك معه الملائكة فتوجه إليها، ومنهم من عدله برسله.

إن الله هو الذي يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس لينقلوا شريعة الله ورسالته إلى الناس، ويقوموا فيهم بأمره في الوقت الذي يحيط بهم سمعاً وبصراً دون أن يستطيعوا التقول عليه سبحانه وإذا عرفنا الله معرفة حقيقية فإنّ جوارحنا وجوانحنا تهفو إلى عبادته قربة له، لأن من يعرف الله سبحانه يتصل بنوره، ومن يتصل بنوره ينعكس ذلك على كيانه كله، فيندفع إلى مرضاة ربه بصورة عفوية.

فجوهر العبادة إذن المعرفة، وإذا تمت المعرفة اتصلت روح الإنسان بنور الله، وتحركت جوارحه في طاعة الله بصورة عفوية، لذلك يأمرنا الله بالركوع والسجود وفعل الخير، ثم يأمرنا بحمل رسالة السماء إلى الحياة.

إن الإنسان الذي يجد حلاوة الإيمان في قلبه ويعرف حقيقته وفوائده الجليلة، ينبغي له أن يندفع في توجيه الآخرين إلى الإيمان، وبيان فوائده ومنافعه لهم، وكذلك يأمرنا سبحانه بالجهاد فيه حق الجهاد، إنك بقدر معرفتك بالله يكون جهادك وتضحيتك في سبيله، لأنك كلما ضحيت في سبيله وأنت عارف به كلما شعرت بأن تضحياتك أقل وأحقر من مقام ربك الأعلى.

ثم يعدّد ربنا سبحانه بعد ذلك نعمه علينا كمجتمع فيقول: أيها المسلمون أنتم مجتمع فاضل، اختاركم الله لتحملوا رسالته إلى الناس جميعاً، فيجب أن تكونوا كذلك: (إن الدين يسر لا عسر)، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ومن ثم فأنتم مجتمع قائد لسائر المجتمعات مثلما كان الرسول قائدكم وأخيراً فإنّ مجتمعكم يحمل تجربة جهادية منذ عهد إبراهيم عليه السلام قبل خمسة آلاف عام أو أكثر حيث ابتدأ المسيرة التوحيدية الجديدة في العالم، فعليكم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتعتصموا بالله وتتمسكوا بحبله. (كتاب الله ورسوله خلفاؤه بمعنى آخر شريعة الله وإمام مؤيد من تلك الشريعة) وآنئذٍ تكونون قد أخلصتم عبادتكم لله، مولاكم ونصيركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

بينات من الآيات:

ما قدروا الله

[٧٤] ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ما قدروا الله حقّ قدره بأن قاسوه بعباده، ولم يعبدوه حق عبادته، وكل الفساد والضلال والويلات إنما نشأت بسبب عدم

معرفة الله حقاً.

ما هو الفرق بين القوة والعزة؟ يبدو أن الفرق بين القوي والعزيز هو أن القوي يستخدم -بسبب أو آخر- قوته في السيطرة على الآخرين، و لكنه ليس بعزيز، أما إذا كان قوياً واستخدم قوته وقدرته في الساحة الاجتماعية، فآنئذٍ يسمى عزيزاً أي مرهوب الجانب، والله سبحانه كذلك إلا أنه لا يقاس بخلقه فهو قوي مطلق القوة، وعزيز يستخدم هذه القوة في تدبير شؤون الخلق، فلا يتصور أحد أنه قادر على تحدي الله أو أن باستطاعته بعد ذلك أن يفلت من عقابه، و عموماً فإنَّ القوة والعزة توحيان بضرورة التقوى حيث يعاقب الله من لا يقدره حق قدره.

رسل المسؤولية

[٧٥] ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ إن الله سبحانه وكما جرت سنته لا يعذب قوماً من دون أن يرسل إليهم رسولاً حتى ولو لم يقدروه حق قدره، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: ١٥]، فالله وقبل كل شيء يصطفي رسلاً من الملائكة ومن أهل الأرض، فيرسل بالوحي هؤلاء إلى هؤلاء، فرسل الله في الأرض هم رسل المسؤولية، وهذه الآية توحي بأن رسل الله سواء كانوا ملائكة أو بشراً هم على درجات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ وعندما يصطفي سبحانه من الملائكة ومن الناس رسلاً فإنه لا يتخلى عن عباده، بل هو سميع بهم وبصير بما يعملون، يدبر أمورهم، ويسجل أعمالهم، ويعلم ما في سرائرهم وضمائرهم، وأن اصطفاءه للرسل إنما يتم بعلمه، وبسمعه وبصره فلا يكون عبثاً، ولعلّنا نستوحي من قوله سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أن الله يصطفي من المؤمنين من يحمل الرسالة، فهناك الرسول، ورسول الرسول، وهكذا ودليلنا على هذه الفكرة قوله تعالى في آخر آية من هذا الدرس، حين يتحدث عن المجتمع الإسلامي: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨]، وآية أخرى يقول فيها سبحانه:﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾[محمد: ٣٨] فالله سبحانه يختار من سائر عبيده، من يحمل الكفاءة العلمية والعملية والقيادة، ويحمله مسؤولية نقل رسالته.

[٧٦] والله سبحانه يحيط علماً بمن يصطفيهم من الرسل فلا يقدرون على مخالفته ومعصيته، ونقل مالا يرضى من القول إلى الناس وإنه لضلال مبين أن نقيس ربنا بمن يجتبيهم من رسله الذين: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ إن علم الله شامل لرسله أيضاً، فهو معهم ويعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أمور الأنبياء وأمور الناس،

وحينها يأخذ للمحسن من المسيء، ويجازي المحسن بإحسانه، والسيئ بإساءته.

[٧٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ من هذه الآية وما بعدها يلخص الله السورة مجملة كما إنه يذكر الخلاصة التي يريد طرحها.

هذه الآية تبين مراحل الإيمان وهي:

١ - الخضوع، ودليله الركوع لله.

٢- الخشوع بكل الجوارح، والشعور بالحقارة أمام الله، ودليلها السجود.

٣- استمرار الخضوع والخشوع والاستقامة عليهما، وهذا هو معنى العبادة.

٤- العطاء المستمر سواء بالإنفاق أو العلاقات الحسنة أو.. أو..، وهذا معنى قوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾.

ونتيجة هذه السلسلة من الأوامر هي سعادة الإنسان، ووصوله إلى غاياته وتطلعاته، وهو قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد ابن الحنفية رضي الله عنه: «يَا بُنَيَّ لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ فَإِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَسْأَلُكَ عَنْهَا وَذَكَّرَهَا وَوَعَظَهَا وَحَذَّرَهَا وَأَدَّبَهَا وَلَمْ يَتْرُكْهَا سُدًى فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ثُمَّ اسْتَعْبَدَهَا بِطَاعَتِهِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ فَهَذِهِ فَرِيضَةٌ جَامِعَةٌ وَاجِبَةٌ عَلَى الْجَوَارِحِ»[١].

وعن الخير الذي أمرنا به في خاتمة الآية جاء في الحديث النبوي: «رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ وَاصْطِنَاعُ الْخَيْرِ إِلَى كُلِّ بَرٍّ وَ فَاجِرٍ»[٢].

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦٢٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٠٢.

الاجتباء وحق الجهاد

[٧٨] ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ هنالك علاقة بين الأمر بالجهاد وقوله سبحانه: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩١]، وهذه العلاقة هي أنه بمقدار معرفتك بالله يكون جهادك في سبيله.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي اختاركم، ويبدو هنا أن الاجتباء هو درجة أقل من الاصطفاء، لأن الله قال عن الرسل بأنه يصطفيهم، أما المؤمنين فيعمهم الاجتباء، وربما السبب أن الله يصطفي رسله بالغيب أما المؤمنون فإنه يجتبيهم إذا ما توافرت فيهم الشروط المطلوبة وحسب السنن الجارية.

إن الاجتباء مستوى رفيع لا يصل إليه كل إنسان، بل الصفوة، فإذا ما وصل إليه فلابد أن يعرف أن الله قد وضع على عاتقه المسؤولية بعد أن اجتباه، والاجتباء لا يكون بالإخبار المباشر ولكن بالقذف في القلوب والإلهام. من هنا جاء الحديث المأثور عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله المأمون العباسي عن زيد بن علي، فقال عليه السلام: «كَانَ زَيْدٌ وَالله مِمَّنْ خُوطِبَ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾»[1].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ أحكام الإسلام أحكام سهلة، فالذين لا يصلون يتصورون أن الصلاة صعبة، ولكن الذين يؤدون الصلاة بخشوع لله فإنهم ليس فقط يرونها سهلة، بل يجدون فيها اللذة أيضاً، وقد يسَّر الإسلام كل العبادات فلم يجعل من الصلاة حركات رياضية صعبة مرهقة كتسلق الجبال إنما جعلها خفيفة، وكذلك فإنه لم يجعل الصيام عملية تجويع متعبة، وإنما هي سويعات صبر وبعدها نعود إلى مآكلنا ومشاربنا، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنَّ الإسلام يخفف بعض الأحكام في الحرج، حيث لا يستطيع الإنسان أن يؤدي الفرض كاملاً.

جاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال: «عَثَرْتُ فَانْقَطَعَ ظُفُرِي فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ؟. قَالَ عليه السلام: يُعْرَفُ هَذَا وَأَشْبَاهُهُ مِنْ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ امْسَحْ عَلَيْهِ»[2].

لذا الجهاد: هو بذل الجهد كل الجهد، قبل الوصول إلى سقف الحرج، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص١٧٤.

(٢) الكافي: ج٣ ص٣٣.

صفات القائد

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ إن هذا الدين له جذور تاريخية ومجد تليد، ابتدأه أبوكم إبراهيم عليه السلام ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في هذا الدين الإسلامي تكون مسؤولية الرسول، حيث من مهمة الرسول أن يصنع منكم قادة للأجيال وشهداء على تطبيق الرسالة، وهذا المقطع من الآية يجسد لنا الطموحات التي يجب أن نسعى إليها، فلا تجعل هدفك أن تكون فرداً كسائر الناس، بل اجعل هدفك أن تكون قائداً، وشاهداً عليهم.

قد يسمى القائد في الإسلام إماماً، لأنه أول ما يجب عليه تطبيق الدين فيؤمه الناس، وأما سبب تسمية القائد بالشهيد فلأنه يكون شاهداً على الناس في تطبيقهم للرسالة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾.

إن أهم صفات القيادي:

١- إقامة الصلاة.

٢- إيتاء الزكاة.

٣- الاعتصام بالله والتمسك بحبله.

هذه الكليات الثلاث هي أحكام اجتماعية، حتى الصلاة بالرغم من أنها علاقة بين الفرد وربه إلا أنها وخاصة الجمعة والجماعة تركز الروح الاجتماعية، وعموماً فإنَّ أهم شرط يلتزم به القيادي هو تقوية ارتباطه بالله، عبر إقامته لفرائضه، أما الزكاة فواضح مردودها الاجتماعي، من سد فقر المعوزين، والإحساس بآلامهم و. و...، والاعتصام بالله أي التمسك بحبله الذي مدَّه لخلقه، وهم أئمة الهدى وقادة أهل التقى.. وبتلخيص شديد فإنَّ صفات الإنسان القيادي: اتصال روحي بالله، وعلاقة حسنة مع الناس، وخط سليم.

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هذا المقطع يفسر آية: [١١: سورة محمد] وهي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ إن الله هو مولانا الذي نتلقى منه الأوامر باعتزاز، فنعم المولى هو الله إذ لم يكلفنا فوق طاقاتنا ولم يتركنا بدون هدى، ونعم النصير ينصرنا على أعدائه وأعدائنا.

سُورَةُ المُؤْمِنُون

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١١٢.

* ترتيبها النزولي: ٧٤.

* ترتيبها في المصحف: ٢٣.

* نزلت بعد سورة الحج.

فضل السورة

عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ بَشَّرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالرَّوْحِ وَالرَّيْحَانِ، وَمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُه عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ».

(مصباح الكفعمي: ص٤٤٣)

***

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ خَتَمَ اللهُ لَهُ بِالسَّعَادَةِ إِذَا كَانَ يُدْمِنُ قِرَاءَتَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ وَكَانَ مَنْزِلُهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى مَعَ النَّبِيِّينَ وَ الْمُرْسَلِينَ».

(ثواب الأعمال: ص١٠٨)

الإطار العام

المؤمنون ومشروع الإصلاح القرآني

الإطار العام لسورة المؤمنون -بإيجاز شديد- هو الإيمان، أو صفات طائفة متميزة من البشر وهم المؤمنون،الآيات (الآيات: ١-١١).

ولكن يبقى السؤال عن علاقة موضوعات هذه السورة بهذا الإطار العام؟ دعنا نذكر أولاً موجزاً من موضوعات السورة:

١- مراحل خلق الإنسان (الآيات: ١٢-١٦).

٢- إن حركة الشمس، والقمر، ووجود المطر، والزرع، والثمرات، والأنعام، كل ذلك يخدم حياة البشر (الآيات: ١٧-٢٢).

٣- كذب قوم نوح بالرسل، وكذلك قرون بعدهم كثيرون، فأهلكهم الله باستكبارهم. كما أهلك فرعون وملأه حين كذبوا برسولهم موسى بن عمران عليه السلام (الآيات: ٢٣-٤٨).

٤- ولقد آوى الرب مريم الصديقة وابنها الكريم ربوة، وأمر الرسل بأكل الطيبات، والقيام بالأعمال الصالحة(الآيات: ٤٩-٥٢).

٥- لقد اغتر الكفار بالنعم الإلهية، فكانت عاقبتهم النار (الآيات: ٥٣-٥٦).

٦- والصفات المثلى للمؤمنين (الآيات ٥٧-٦٢).

٧- جزاء الكفار في الدنيا (الآيات: ٦٣-٩١).

٨- موقف النبي من ذلك الجزاء (الآيات: ٩٢-٩٨).

٩- عقاب الكفار في الآخرة (الآيات: ٩٩-١١٥).

١٠- مشاهد من يوم القيامة، وثواب المؤمنين فيها (الآيات: ١١٦-١١٨).

و لعلنا نجد في الجواب التالي على هذا السؤال، ليس فقط الرابط بين هذه الموضوعات وبين الإطار العام فيها، بل وأيضاً الرابط بين موضوعات سائر السور القرآنية الكريمة وبين الأطر العامة فيها.

والجواب هو: إن القرآن ليس مجرد دعوة للإصلاح، بل هو الإصلاح ذاته؛ وليس وصفة طبيب، بل دواء للمريض،وشفاء عاجل؛ إنه ضياء ونور وهدى.

أو ليست حقائق الإيمان ظاهرة، وشديدة الظهور، أو ليس الله خالق السماوات والأرض أكبر شهادة من كل شيء؟.

فلماذا -إذن- لا يؤمن به أكثر الناس بالرغم من حرص أصحاب الرسالات على هدايتهم؟!.

لأن القلوب مريضة، والعيون مصابة، وفي الآذان وقر. إن ركام العقد، وحجب الغفلة، وسحب الكبر والغرور والسخرية لاتدع أنوار الحق تغمر القلوب.

و بالقرآن يعالج المؤمنون كل هذه الأمراض، وموضوعات السورة هذه تصب في هذا المجرى.. كيف؟.

بعد أن حدد الذكر ملامح التجمع المؤمن، وبَيَّن أنهم هم المفلحون (الآيات: ١-١١)، ذكرنا الله بنفسه،من خلال آياته في خلق الإنسان، أو ليس أساس الإيمان معرفة الرب؟! ثم عدد نعمه علينا، وكيف أنها تحيط بالإنسان،وتهدينا إلى ذلك التدبير الرشيد في الخلق، ولكن أو ليست هذه الآيات ظاهرة، وتشهد على وحدانية الرب، من خلال وحدة التدبير؟ بلى؛ إذن، لماذا يكفر أكثر الناس بربهم؟ لأنهم مستكبرون (الآيات: ٢١-٢٢)، وكيف نعالج الاستكبار؟ إنها بمعرفة عاقبة من استكبروا من قبل، وقوم نوح أبرز شاهد، حيث أغرقهم الله بالطوفان العظيم، وحمل المؤمنين وحدهم في الفلك المشحون. وهكذا عاد وثمود، وقرون متمادية، حيث أتبع الرب بعضهم بعضاً، وجعلهم أحاديث.(الآيات: ٢٣-٤٤).

و هكذا استكبر الملأ من قوم فرعون لما ذكرهم النبي موسى عليه السلام بربهم، فأغرقهم الله في النيل، ونجى بني إسرائيل من الغرق، وأنزل على النبي موسى عليه السلام الكتاب فرقاناً وضياءً لعلهم يهتدون (الآيات: ٤٥-٤٩).

إن إنقاذ المؤمنين دليل رحمة إلهية تخصهم، بينما الشيطان يريد أن يغرينا بوساوسه التي

منها أن الإيمان يضر البشر. كلا؛فهذه مريم وابنها البار، يؤويهما الرب إلى ربوة ذات قرار ومعين، ويأمر الأنبياء بأن يأكلوا من الطيبات، ويعملوا صالحاً، ويعبدوا ربهم الواحد، ولا يتفرقوا شيعاً. إلا أن موقف الكفار من النعم، بل ومن رسالات الله كان خاطئاً،حيث تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً، لأنهم اغتروا بالنعم وفرحوا بها، وزعموا أن ذلك دليل سلامة خطهم، وهم لايشعرون (الآيات: ٥٠-٦٥).

أما قدرة الإيمان فنجدها في الذين يشفقون من خشية الله، ويستجيبون لآياته، ولا يشركون بربهم، وحتى عطاؤهم في الله لا يطمئنون إليه، بل لا يزالون وجلين لأنهم يؤمنون بالرجوع إلى الله سبحانه، فهم لذلك يسارعون في الخيرات ويتسابقون إليها (الآيات: ٥٧-٦١).

ولكن لا يعني ذلك أن الله ينهكهم بالمسؤوليات، بل ربنا الرحيم لا يكلف نفساً إلا ما تقدر عليه وتطيقه، وأن الله يكتب لهم أعمالهم كلها وهم لا يُظلمون (الآية: ٦٢).

ثم يذكّرنا القرآن بأن أولئك الكفار -الذين أشارت الآيات السابقة إلى بعض ملامحهم- يعيشون في غمرات الشهوات والضلالة، يمارسون أعمالاً إجرامية ويستمرون عليها حتى يأخذ الله مترفيهم (وهم قياداتهم الفاسدة والمفسدة) بالعذاب، فإذا بهم يتضرعون من هول العذاب، ولكن لا ينفعهم ذلك، أفلم يكونوا يتولون هاربين كلما تُليت عليه آيات الله وهم يستكبرون بها، وعندما يسهرون بالليالي كانوا يقولون كلاماً تافهاً ضدها؟ (الآيات: ٦٣-٦٧).

ولماذا الاستكبار على الحق؟ لماذا لا يتدبرون في القرآن ليجدوا أنه يهديهم إلى الحق؟ ألا يعرفون رسولهم بإخلاصه وصدقه وأمانته؟ فلماذا إذن ينكرونه؟ ولماذا يتهمونه بالجنون؟.

إن سبب جحودهم له، أنه يدعوهم إلى الحق الذي يكرهه أكثرهم (الآيات: ٦٨-٧٠) والحق هو مجموعة القوانين والسنن التي خلق الله الكون على أساسها، فعليهم أن يتبعوا الحق حتى تصلح الأمور، أما إذا جُعلت القوانين والسنن تابعة لأهوائهم فإن السماوات والأرض ومن فيهن تفسد (الآية: ٧١).

وهنا تأتي آيات الذكر الحكيم لتساعدنا على تجاوز العقبات التي تعترض طريق الإيمان، وهي: الخوف على الثروة،والمحافظة على التقاليد، ووساوس الشيطان بأن الإيمان بالحق لا يكشف الضر (الآيات: ٧٢-٧٧).

ثم بعد تطهير القلب من هذه الوساوس يعود ويذكرنا بنعم الله علينا (الآيات: ٧٨-

٨٠) ويخص السياق جانباً هاماً من آيات آخر السورة بالإيمان بالآخرة، لأنه بذاته جزء من الإيمان، وفي ذات الوقت، مكمل للإيمان بالله، وشرط للإيمان بالرسالات.

فالله يحيي ويميت، ويدبر الحياة، وهو بالتالي قادر على أن يعيد الإنسان بعدما كان تراباً وعظاماً(الآيات: ٨١-٨٣).

ويساعدنا الذكر الحكيم مرة أخرى على تجاوز عقبات في طريق الإيمان، كالجهل، والغفلة، والفسق، والتأثر بضلالات الغواة (الآيات: ٨٤-٩٠).

ومن تلك العقبات الزعم بأن لله شريكاً سبحانه وتعالى، والقرآن يذكرنا بسخافة هذا الزعم (الآيات: ١-٩٢).

ولكي يتميز المؤمنون عن الكفار يأمر الله رسوله بأن يستعيذ بالله من العذاب الذي ينزل على الظالمين، ويأمره بالسيرة الحسنة، الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، بل وحتى من مجرد حضورهم (الآيات:٩٣-٩٨).

ولعل كل ذلك يخدم حالة التميز المطلوبة بين المؤمنين، والمغوين الذين يسحرون الناس، ولا يدعونهم يؤمنون بربهم الكريم.

ولابد أن نحذر عاقبة هؤلاء الذين يندمون عند نزول الموت بهم، ويطلبون العودة إلى الحياة حتى يصححوا مسيرتهم،ويأتيهم الجواب: كلا؛ بل سوف يبقون في البرزخ حتى ينفخ في الصور، وآنذاك لا أنساب بينهم، ولا هم يتساءلون عنها، ولعل الاعتماد على الأنساب عقبة في طريق الإيمان (الآيات: ٩٩-١٠١).

ويحذرنا الرب من الموازين، حيث يخسر الذين خفت موازينهم، بينما يفلح المؤمنون الذين تثقل موازينهم. ويبدو أن ذلك أعظم وسيلة لتربية النفس، حيث يسعى المؤمن للتخلص من النار التي تصيب أولئك الذين كذبوا بآيات الله،واعترفوا بشقائهم،طلبوا العودة إلى الدنيا، فرفض طلبهم وأسكتوا؛ أو ليسوا كانوا يسخرون من عباد الله حين يدعون ربهم، فنسوا ذكر الله (بتلك السخرية)؟! (الآيات: ١٠٢-١١١).

ويبدو أن السياق يعالج -بعدئذ- حالة التسويف في النفس والتي هي الأخرى عقبة في طريق الإيمان.

فإذا بسائل يقول: كم لبثتم في الدنيا؟ فلا يعرفون حساب بقائهم، ولكنهم يعتبرونه يوماً أو بعض يوم، بلى؛ لقد لبثوا قليلاً في الدنيا (بالقياس إلى زمن الآخرة)، ولكنهم لم يعلموا ذلك

وإلا لما استهانوا بحياتهم الآخرة (الآيات: ١١٢-١١٤).

ويعالج العبثية التي يزعم أصحابها أن الحياة بلا هدف، ويذكّرهم بأنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب، وأنه تعالى الرب الملك الحق، فلا عبث ولا لعب ولا لهو في الخلق

ويذكرنا الرب بالتوحيد، وأن حساب المشركين عسير عند ربهم، وأنهم لا يفلحون، وتنتهي السورة بفتح باب التوبة والدعاء، إلى الله وهو أرحم الراحمين، (الآيات: ١١٥-١١٨).



قد أفلح المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

هدى من الآيات:

تبيّن هذه الآيات أبرز صفات المؤمنين والتي تمتاز بأنها سلوك متأصل في شخصيتهم، وليست مجرد أعمال عارضة، والفرق بين السلوك والعمل هو:

١ - إن العمل يمارس حيناً، ويترك حيناً، بينما السلوك يبقى مستمراً مع اختلاف الظروف والأحوال.

٢ - إن السلوك نابع عن قناعة فكرية، بينما العمل قد لا يكون كذلك، فإنه يخضع لمختلف النيات والعوامل النفسية، فلربما يصدر من شخص عمل ما في وقتين، ولكن بنيتين متناقضتين، فالصلاة تكون مرة عبادة لله ومرة أخرى رئاء الناس.

أما الصفات المثلى التي يتحلى بها المؤمنون فهي:

١ - الخشوع وهو الإيمان حقاً.

٢- الإعراض عن اللغو.

٣- العطاء (الزكاة).

٤- تحديد الشهوات.

٥- رعاية الأمانات والعهود.

٦- المحافظة على الفرائض والحدود.

ولا شك أن هذه الصفات سوف تنتهي بصاحبها إلى جنة الفردوس بفضل الله.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إن فلاح المؤمنين ووصولهم إلى سعادتهم يكون (ببسم الله) لا بذاتهم.

صفات المؤمنين

١- الخشوع لله

[١-٢] والخشوع هو جذوة الإيمان التي تلتهب في القلب، وينتشر شعاعها إلى سائر أنحاء السلوك، فالإيمان حقيقة هو الخشوع الذي يعني تسليم النفس إلى إرادة الله من خلال الالتزام برسالته، وإطاعة أوليائه، فقد يصبح الإنسان عالماً بشيء ولكنه لا يؤمن به. إذ الإيمان ليس مجرد العلم، بل المؤمن هو الذي تسلم نفسه للمعرفة، وتخشع للحق.

والنفس الخاشعة لا تتكبر، لأنه لو وجد في قلب الإنسان ولو بمقدار حبة الخردل فإنه سيمنع الخشوع، كما إن النفس الخاشعة أبعد ما تكون عن القساوة، لأنَّ القساوة تجعل النفس كالصخرة، لا ينبت عليها الزرع، ولا تستقبل أمواج النور.

إذن الخشوع هي الصفة الأساسية التي يتحلى بها المؤمنون، بل هو الإيمان ذاته ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إن فلاح المؤمنين، ونيلهم سعادتهم يكون بتأديتهم الصلاة بخشوع، لأنَّ الخشوع يتجلى عند الصلاة أكثر من أي وقت آخر، ولهذا كان الإمام الحسن عليه السلام إذا توضأ لها اصفر لونه، وتغيرت ملامحه حتى ينكره الذي يعرفه، وقد أمر الدين بالخشوع القلبي دون الظاهري في الصلاة، فقد جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مَا زَادَ خُشُوعُ الْجَسَدِ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ فَهُوَ عِنْدَنَا نِفَاقٌ»[١]. ونهى الدين عن العبث أثناء الصلاة لأنه يتنافى مع خشوع القلب. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لِيَخْشَعِ الرَّجُلُ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّ مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ، فَلَا يَعْبَثْ بِشَيْءٍ»[٢].

٢- الإعراض عن اللغو

[٣] لأنَّ القلب المؤمن خاشع فهو يعي مسؤوليته، أوليس يسلم للحق، ويعرف أنه سيسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ويحاسب عليها، ويعلم أن الحياة جد، لا عبث فيها، ولا لغواً بينما الذي لا يعرف أن وراء حياته جزاء، وأنه يجب أن يكيف حياته على هدى ذلك الجزاء، فإنه يتخذ الحياة لهواً ولعباً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لذي يكون لديه مريض في حالة خطيرة لو مر على جماعة يلعبون فهل سيقف معهم؟ كلا.. وهكذا حال المؤمن فإنَّ قلبه مهموم بأهدافه ومسؤولياته في الحياة، مما يجعله يترفع عن صغائرها وتوافهها. وحتى لو جاءه اللغو يسعى فإنه لا يعيره أي اهتمام، ولا يقول القرآن عنهم: إنهم لا يفتشون عن اللغو، بل قال ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي لو حاول أحد أن يؤثر عليهم، فهم لا يتأثرون به وبلغوه.

وقد فسر اللغو في كلمات أئمة أهل البيت عليهم السلام بالإصغاء إلى مالا يحل الإصغاء له، مما يشمل الفحش، والغيبة، والخوض في آيات الله.

وجاء في حديث مأثور عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «أَنْ يَتَقَوَّلَ الرَّجُلُ عَلَيْكَ بِالْبَاطِلِ، أَوْ يَأْتِيَكَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ فَتُعْرِضُ عَنْهُ للهِ»[٣].

وجاء في حديث آخر تفسير اللغو بالغناء، والملاهي، وفسر في حديث آخر بالاستماع إلى القصاص، أما الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «كُلُّ قَوْلٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَغْوٌ»[٤].

٣- العطاء

[٤] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ﴾ والزكاة التي يذكرها القرآن هنا، ليست مجرد العشر الذي

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٩٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج٥ ص٤٧١.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٤٥.
(٤) المصدر السابق: ص٤٥.

يعطيه المسلم على تسعة أشياء هي الغلات الأربع، والأنعام الثلاث، والنقدين، و إنما كل زكاة، وزكاة كل شيء بحسبه، فزكاة العلم نشره، وزكاة الجاه بذله، وزكاة المال إنفاقه، وزكاة الصحة النشاط.

إن نظرة المؤمنين إلى الحياة تنبع من خشوعهم للحق المتمثل في رسالات ربهم، فلأنهم خاشعون لله يعملون بشرائعه، ويشكرون ربهم على نعمائه بالإنفاق، فلأنهم يرون كل نعمة منه، وكلمة «فاعلون» تختلف عن معطون. إذ توحي باستمرار الإنفاق، وأنه سلوك لا حالة طارئة، أي أن فعلهم وعملهم هو الزكاة، والواقع أن الزكاة قرينة الصلاة في القرآن دائما، ولا تقبل الصلاة إلا بها، وقد أكد الإسلام عليها، وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ مَنَعَ قِيرَاطاً مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَ لَا بِمُسْلِمٍ وَ لَا كَرَامَةَ»[1].

٤- تحديد وتوجيه الشهوات

[٥] لقد خلق الله الإنسان مزوداً بشتى الغرائز، وليس ذلك إلا ليستفيد منها، ولكن بالشكل المناسب، والمؤمنون وحدهم الذين يستثمرونها لصالحهم، لأنهم يهيمنون على أنفسهم، ويكبحون جماح الشهوات بالخشوع والتسليم للحق.

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ وقد يعني الحفظ هنا -بالإضافة للالتزام بالشريعة، وتوجيه الغريزة وفقها-، الحفاظ على فرج الإنسان من الناحية الصحية أيضاً، وذلك بعدم الإفراط في الشهوة، والالتزام بالمنافذ الشرعية لها.

[٦] ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من الإماء ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي غير مؤاخذين عند الله، لأنهم يصرفون شهواتهم في محلها المناسب، ولعل في الآية إشارة إلى خطأ الابتعاد كلياً عن الشهوات، وأن وساوس الشيطان هي التي تزرع اللوم في أفئدة البعض إذا مارسوا الشهوات بقدرها، وعلى المؤمن ألا يأبه بها.

[٧] ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ الذين يستحقون الجزاء في الدنيا بالحدود الشرعية، وفي الآخرة بالعذاب المهين، والعادي أو المعتدي: الذي يتجاوز الحدود.

وفي الآية بيان فساد كل استغلال للشهوة في غير موردها مثل استثارة الشهوة بالنظر إلى الأجنبية، والصورة الخليعة، والأفلام الجنسية، أو باستماع قصص الغرام.

أما الشذوذ الجنسي، والعادة السرية (الاستمناء)، ونكاح البهائم، فإنَّ الآية تنطق بحرمتها صراحة.

---

(١) الكافي: ج٣ ص٥٠٣.

وجاء في الحديث: عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَبْعَدُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ إِذَا لَمْ يُهِمَّهُ إِلَّا بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ**»(١).

وعنه أيضاً: الإمام الصادق عليه السلام قال: «**تَحِلُّ الْفُرُوجُ بِثَلَاثَةِ وُجُوهٍ نِكَاحٍ بِمِيرَاثٍ وَ نِكَاحٍ بِلَا مِيرَاثٍ وَ نِكَاحٍ بِمِلْكِ الْيَمِينِ**»(٢).

٥- أداء الأمانات والعهود

[٨] وعلاقات المؤمنين مع الناس قائمة على أساس الالتزام والمسؤولية، وليس اللامبالاة، فإذا أخذوا شيئاً من أحد تحول في نظرهم إلى كرامة، تتضرر شخصيتهم لو لم يردوه إليهم، وأكثر من هذا الوازع يدفعهم لرده الخشوع والإيمان خوفاً من الله. دافع إنساني ودافع ديني، لذلك يرعون الأمانة والعهد.

والعهد والأمانة هما شيء واحد، فالإنسان مسؤول أمام الآخرين فيما يأخذ وفيما يقول.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ والتعبير في هذه الآية دقيق جداً حيث استخدم القرآن كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ فلم يقل: ردوا الأمانة وذلك لسببين:

الأول: حتى تشمل الكلمتين العهد والأمانة، فالعهد لا يرد لأنه شيء معنوي لا مادي.

الثاني: كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ أدق حتى في موضوع الأمانة من كلمة (الرد) إذ تبيّن حرص المؤمنين على أموال الآخرين، فليس همهم أن ترد الأمانة بأية صورة، وإنما يظلون يرعونها ويحافظون عليها ربما أكثر من ممتلكاتهم الشخصية حتى تسلم إلى صاحبها، بينما نجد أن أكثر الناس يكون حفاظهم على ممتلكاتهم الشخصية أشد من ممتلكات غيرهم.

وهكذا يرعون العهد بالثبات عليه، وتأكيد الالتزام به، ومن أعظم العهود التي يرعاها المؤمنون حق رعايتها، عهد الولاية. حيث يؤدونه إلى أهله، وقد جاء في أحاديث آل البيت عليهم السلام تفسير العهد بالولاية.

٦- المحافظة على الفرائض والحدود

[٩] بعد تبيان هذه المجموعة من الصفات يذكّرنا القرآن بأهمية المحافظة على الصلاة،

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣١٩.
(٢) الكافي: ج٥ ص٣٦٤.

وربما تختلف الصلاة التي يذكرها في أول الصفات عن هذه التي في آخرها، فبينما الخشوع في الصلاة يعني في ذات الصلاة، وهو أصل الإيمان وحقيقته، أما المحافظة على الصلاة فهي المحافظة على حدودها، وهذا يوضح ما للصلاة من انعكاس على جميع أبعاد الحياة لدى الفرد، فأي انحراف في أي بعد يؤثر على صلاته، وهكذا تعني المحافظة عليها الالتزام بسائر الحدود الشرعية، والمؤمنون لا يتهاونون في الأحكام الشرعية بحدودها، وشرائطها، باسم جوهرها. فلا يتركون الصلاة مثلاً بحجة أن الخشوع هو الأصل فيها، فإذا تحقق فلا أهمية للركوع والسجود، كما يتصور ذلك بعض المتصوفة، إذ تراهم لا يحترمون الحدود الشرعية بزعم أنها وسائل للوصول إلى الحق، وأنهم يصلون إليه عبر وسائل أخرى، وأنهم إذا بلغوا الحق واتصلوا به سقطت عنهم التكاليف لأن الله يقول: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: ٩٩] وهم -في زعمهم- قد أوتوا اليقين.

كلا.. المؤمنون حقاً هم المحافظون على حدود الصلاة، ولكنهم لا يلتزمون بالحدود فقط بعيداً عن جوهر الصلاة، وسائر العبادات، فهم من جهة في صلاتهم خاشعون مراعون لجوهرها، وهم من جهة أخرى على صلواتهم يحافظون، ويراعون حدودها ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

وراثة الفردوس

[١٠-١١] لماذا يؤمن الإنسان؟ لأنه يعرف أن إيمانه سينتهي به إلى جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ولهذا يأتي الحديث بعد هذه الصفات عن الجنة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ ولهذه الآية معنيان:

الأول: ما جاء في الأحاديث من أن لكل إنسان بيتين. أحدهما في الجنة، والآخر في النار، فمن أصبح من أهل النار ورث المتقون بيته في الجنة، فقد روي عن النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ فَإِنْ مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ**»(١).

الثاني: إنهم يرثون الفردوس وهي أعلى مراتب الجنة من دون عمل يذكر، إلا انتسابه للجنة، كالذي يرث مال أبيه لا بعمله وكده، بل لانتسابه إليه.

والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن يتصل بسبب إلى الجنة، حتى إذا مات ورثها ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٩١.

فتبارك الله أحسن الخالقين

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ[1] مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

السبيل إلى الإيمان معرفة الله، معرفة تغمر أرجاء النفس وتبلغ أعماقها، ولكن كيف يتسنى للإنسان وهو المخلوق الضعيف، المحدود في عمله وقدراته، أن يعرف الخالق القوي العزيز؟!

إننا لا نستطيع أن نتعرف على الله إلا إذا عرفنا نفسه، وقد ورد في الدعاء «بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ وَلَوْ لَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْت»[2] ولقد عرَّف الله سبحانه نفسه

(١) سلالة: السلالة اسم لما يسلُّ من الشيء وتسمى النطفة سلالة والولد كذلك والجمع سلالات وسلائل، فالسلالة صفوة الشيء التي يخرج منها.
(٢) البلد الأمين: ص٢٠٥، دعاء أبو حمزة الثمالي.

إلينا حينما تجلى في آيات الكون بما فيها الإنسان نفسه تارة، وفي آيات القرآن تارة أخرى، بما في تلك الآيات، وهذه من إثارة للعقول نحو أهم المعارف وأجلها، وهي معرفة الله.

إن التفكير في أطوار خلق الإنسان من طينة، إلى نطفة، إلى علقة، فمضغة، حتى يصير بشراً سوياً. بعد أن ينفخ الله فيه الروح، ويزوده بالعقل والإرادة، وسائر الجوارح وهو يسير إلى الموت، وإن نظرة عميقة إلى الكون وما فيه من آيات الله تهدينا إلى معرفة الله وهي -بدورها- تهدي إلى وعي حقيقة الحياة، أما حين نفصل معرفة الله عن معرفة الأشياء فإنها تظل ألغازا حائرة.

فإذا نظرنا إلى حاجة الجسم إلى قدر من المواد، ثم وجدناها جاهزة في دهن الزيتون، أولاً يهدينا ذلك إلى أن هناك مدبراً لهذا الكون.

إلا أن جهل البشر وتكبره ورجعيته تحجبه عن معرفة الخالق، كمثل قوم نوح إذ دعاهم رسولهم إلى عبادة الله وحده، فحجبهم عن عبادته ومعرفته، التكبر. حيث قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً -كما حجبهم التقليد فقالوا:- مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ -ثم اتهموه فقالوا:- (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥]، ولكنه توكل على ربه، وطلب منه النصر على تكذيبهم إياه.

بينات من الآيات:

[١٢] إذا عرف الإنسان ربه حينئذ يكون اتصاله به أسمى من ذلك الذي يؤمن خوفاً من النار أو رغبة في الجنة، فالإيمان الحق إنما هو الذي يكون منطلقه المعرفة والقناعة كإيمان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والذي كان يقول عنه: «**مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَ لَا طَمَعاً فِي جَنَّتِكَ لَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُك**»[1].

والسبيل إلى المعرفة بالله هو:

١- التفكر في النفس

ومن هذا المنطلق يعرف الله الإنسان حقيقته: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»[2].

فيقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ فالإنسان ينسل من طين الأرض

(١) بحار الأنوار: ج٦٧ ص١٨٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٢ ص٣٢.

انسلالاً، ومن الطين يحوله الله إلى نطفة.

[١٣] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ في صلب الأب أولاً، وفي رحم الأم ثانياً، والنطفة هي الماء القليل.

إن التفكر في خلق الله يهدينا إلى معرفة بعض أسماء الله الحسنى، كيف خلق الله من الطين الميت نطفة حية، وكيف أودعها من صلب إلى رحم في ذلك الموقع الآمن، وأمن له النمو حتى أصبح بشراً سوياً، ثم ألهمه العقل، وسخر له الأشياء سبحانه.

ويزعمون أنها الصدفة، وهل يمكن أن تنبثق خلية واحدة بالصدفة؟! يقول بعضهم: إن هذا الزعم يشبه القول، بأن انفجاراً في المطبعة، سبب (صدفة) صدور دائرة معارف ضخمة، بكل ما فيها من علوم! ويقول عالم غربي آخر إن تطور الخلية الحية بالصدفة يشبه القصة الخيالية التالية: «إن رجلاً كان يعيش على كوكب الأرض، ضمن المجموعة الشمسية، ضمن مجرتنا، وكان بجانب مجرتنا مجرة أخرى، وفي إحدى المجموعات الشمسية، في إحدى الكواكب، وفي أحد الأقاليم نهر به سمكة، فحدث صدفة أن أطلق هذا الرجل طلقة، فطارت من كوكبنا متخطية مجموعتنا الشمسية، متخطية مجرتنا، لتدخل في المجرة التالية، من المجموعة الشمسية المعينة، في ذلك الكوكب، لذلك الإقليم، في ذلك النهر، لتصيب الطلقة رأس السمكة»!.

[١٤] ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي إن النطفة صارت من نطفتي علقة الأب والأم، أي فتعلقتا ببعضهما وأصبحتا علقة على جدار الرحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ والمضغة هي مقدار ما يمضغ من اللحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ويلاحظ أن في الآيات: (١٢-١٤) سبعة أفعال تبين دور الإرادة الإلهية في التحولات التي يمر بها الإنسان من كونه طيناً حتى يصير بشراً سويًا، وهي (خلقنا، جعلناه، خلقنا، فخلقنا، فخلقنا، فكسونا، أنشأنا) وذلك حتى لا يتصور الإنسان أن القانون الطبيعي هو الذي يخلق، كلا.. بل الله هو المهيمن والمدبر من فوق القانون ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

من هنا نقول بأن أمور الإنسان بيد الله، فهو يخضع لتدبيره تكوينياً، فكيف لا يخضع لتدبيره تشريعياً وسلوكياً؟! وثمة ملاحظة هامة هي: أن الله في كل مراحل الخلق لم يقل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ إلا في المرحلة الأخيرة، إذ أعطى فيها الإنسان العقل، وهنا يجب أن نجل صاحب هذا الفضل ونقول: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

[١٥-١٦] ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ هكذا

ينقلنا القرآن من معرفة النفس، وتطورات الخلق إلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء، ومن قدرة الله إلى البعث بعد النشور، وبالتالي إلى المسؤولية، وهكذا نرى أن منهج القرآن هو التذكرة بالحقائق العلمية من أجل إغناء وعي الإنسان بالحقائق لكي يحس بدوره في هذا الكون.

٢- التفكر في الكون

[١٧] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ سبع سماوات لكل واحدة منها طريقتها، وفلكها، وطبيعة الخلق عليها، وحولها.

ماذا تعني الطرائق هذه؟ هل في السماوات السبع، أم طرقها؟ وما هي السماوات السبع هل هي سبعة أغلفة لهذا الكوكب تحافظ عليه؟ أم هي سبع كرات؟ أم سبع مجرات؟ أم سبعة عوالم؟ تقع كل المجرات التي عرفها أو سوف يعرفها البشر في المستقبل ضمن عالم واحد منها فقط، ولا يعلم إلا الله ومن ارتضاه لسره ماذا في العوالم الأخرى؟.

المهم أن دقة خلق الله، ترى في النطفة كما في السماوات، وتناغم الخلق بين النطفة والسماوات، دليل فطري على وحدة التقدير والتدبير -سبحان الله-!.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ فالله خلق السماوات، وهو يدبرها، ويهيمن عليها، وهذه سنته في الخلق جميعاً، لا كما يدعي اليهود: أنه خلق الكون ثم تركه هكذا فهو -تعالى- وان جعل للحياة سنناً، ولكنه هو الذي يجريها كما يشاء كيف يشاء.

[١٨] وتتجلى هيمنته على السنن الجارية، في حكمته البالغة، فالمطر لا ينزل صدفة وبدون حساب، إنما ينزل من السماء لمصلحة الأرض وأحيائها.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ المطر الذي ينزل من السماء يكون بقدر حاجة الأرض حالاً ومستقبلاً، فلو أن البحار تبخرت جميعاً، وتحولت إلى سحاب، ثم إلى مطر لحدثت الفيضانات وأهلكت الزرع والضرع، كما فعل طوفان نوح عليه السلام، وعلى العكس من ذلك لو صارت الأمطار شحيحة، لا تكفي الناس لماتوا عطشاً، ولكن الذي خلق حاجات الإنسان خلق إلى جانبها أشياء بقدرها، فأودع في الأرض مخازن تحفظ مياه الشتاء للصيف.

والذي شاهد المخازن تحت الجبال يعرف كيف أن الله جعل في رحم هذه الجبال مخازن، تستقبل مطر الشتاء، ليتفجر نهرا طوال الصيف.

ولكن هل تعني هذه الحقيقة العلمية أن المطر بعيد عن إرادة الله؟ كلا.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ وكمثال على ذهاب الله بالأمطار، ما يقوله الخبراء عن الصحراء الكبرى في أفريقيا، من أنها كانت في يوم ما مزروعة ومعمورة، بسبب هطول الأمطار عليها، أما الآن فنادراً ما تتلبد سماؤها بالغيوم، ويداعب المطر حبات الرمال فيها.

[١٩] بعد أن ذكر الله بأن المطر تحت إرادته، ينزله، ويذهب به متى يشاء، عاد السياق يوضح بعض منافع الماء والتي من أهمها وأكبرها أثره في الزراعة، وذلك حتى لا يصاب الإنسان بالغرور فيتكبر عن الحمد حين يرى الخيرات.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فبالإضافة إلى الأكل الذي يحصل عليه الإنسان من الجنات والبساتين، هناك نعم أخرى في الأشجار، أوليست الغابات والمزارع تستمطر السماء، وتزيد من قدرة الأرض على تخزين المياه بسبب تكون الأحواض تحتها، وتوفر لحوم الطيور وغذاء الأنعام، وتمنع زحف الصحراء برمالها الخطيرة على المدن، كما تحجز الرياح السامة، وتلطف الهواء في الصيف والشتاء وهي -بالإضافة إلى كل ذلك- تعتبر المواد الأولية للصناعات المختلفة. وكان الإنسان يعتمد عليها في بناء المساكن، وتهيئة الملابس، وتعبيد الطرق، وبناء الجسور، وما أشبه؟! وبعد كل ذلك تزرع المساحات الخضراء البهجة في أفئدة الصغار والكبار.

هذا خلق الله، فكيف ترانا نشكره؟!.

[٢٠] ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ الشجرة هي الزيتون، والطور الجبل الصغير، وسيناء اسم للجبل الذي فيه حقل الزيتون، وكل مكان تزرع فيه أشجار الزيتون يسمى في اللغة العربية ﴿سَيْنَآءَ﴾، وهي شجرة نافعة، من فوائدها: أنها تعطي الدهن، وتشكل غذاءً جيداً ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾.

وفي هذه الآيات يذكر الله بثلاث ثمار هي (التمر، والعنب، والزيتون) وهي في الواقع أنفع الثمار للإنسان وفيها حاجاته المختلفة.

[٢١] وكما الفواكه نجد أن الحيوانات أيضاً خلقت بشكل يمكننا الاستفادة منها، وتسخيرها.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ والعبرة كلمة مأخوذة من العبور، ويعني أن لا نقف على حدود الأشياء، بل نتحول منها إلى دلالاتها، فإذا رأينا الإبل يتحمل العطش والجوع مدة طويلة، يساعده ذلك على حملنا في المفاوز المترامية الأطراف، وأن له من المنافع الشيء الكثير،

فلا يجب علينا أن نقف إجلالاً لهذا الإبل أو نعبده، بل يجب علينا أن نكبر خالقه.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ من حليبها ومشتقاته. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من وبرها، وصوفها، وجلدها و.. و. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لحمها وشحمها.

[٢٢] وبعضها كالجمال، والحمير، والبغال، والخيول تصلح أن تكون وسيلة للتنقل عليها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وهكذا نجد الحياة مليئة بنعم الله، فالدواب تحملنا في البر، حتى إذا وصلنا إلى البحر وجدنا السفينة تحملنا في عرضه.

وكلمة أخيرة: إن القلب الطاهر، والأذن الواعية، والعين البصيرة، شرط لاستقبال نور المعرفة الإلهية، المنبثق من آياته الظاهرة، فأنى نظرت، رأيت تناسقاً، وتنظيماً، وتدبيراً، ورأيت عمق الصلة بين المخلوقات، وبالذات بين الإنسان، وسائر ما خلق له.

إنه يخلق من سلالة من طين، وتقيده يد الرب في تطوراته، ثم إذا خرج إلى الدنيا وجد أمامه كل حاجاته. وجد السماء سقفاً محفوظاً، ووجد الماء يهبط له منها، وهو أصل كل خير، ووجد الزراعة تتناسب وحاجاته المختلفة، ووجد الحيوانات مسخرة له. أفلا يدعوه ذلك إلى الخضوع والتسليم لرب العالمين؟!.

ربي انصرني بما كذبون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ[1] فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) جنة: جنون.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن الإيمان في هذه السورة يحدِّثنا هذا الدرس عن عاقبة الذين استكبروا على الله، ولم يؤمنوا بالرسالة الإلهية أو من يمثلها، ويأتي هذا الدرس بعد تذكير القرآن بآيات الله، بهدف تذليل العقبات التي تعترض طريق الإيمان بالله، وأبرزها الاستكبار، وكان يمثل الولاية في الأرض آنئذ رسول الله نوح عليه السلام حيث استكبر قومه فلم يسمعوا له، زاعمين بأنه مادام بشراً، فلا يمكن الخضوع له، وعلوا في الأرض، فماذا كانت عاقبتهم؟.

لقد أمر الله نوحاً أن يصنع الفلك، فلما اكتملت جرى الطوفان، فأنجى الله من في السفينة، وأغرق الباقين، وقد تجلى علم الله، وقدرته على يد نوح في الأرض، وهذا يكفي دليلاً على أنه يمثل ولاية الله الحق.

إذن لا داعي للاستكبار على من يمثل هذه الولاية، ولا نعتقد يوماً أن رفضنا له سيغير من الواقع شيئاً. إذ سيبقى ولياً قبلنا أم رفضنا، وإذا لم نقبل بولايته تشريعياً بالطوع. فسنقبلها تكوينياً بالإكراه، ولنا في الماضين عبرة.

إن ولاية نوح لم تكن ذاتية، وإنما كانت بأمر الله وقدرته، لذلك دعا ربه أن ينزله منزلاً مباركاً. فيه الخير والأمان.

وتكررت قصة نوح مع آخرين بعدهم، إذ لم يتعظوا بمن قبلهم -وهذه سنة إلهية عامة- فقد أهلكهم الله لأنهم كذبوا بالرسول، واستكبروا على الرسالة، والأسباب هي:

١ - أنهم كانوا ينظرون للرسول نظرة مادية. حيث أرادوه صاحب مال ومنصب، أما أن يكون مثلهم، فقد زعموا أنهم سوف يخسرون لو أطاعوه، وغاب عنهم أن القيمة الحقيقية للإنسان هي بما يملك من قيم وسلوك صالح، وبالتالي إذن الله.

٢ - كانت تلك عقبة الاستكبار، والعقبة الثانية في طريق الإيمان بالرسالات، الريب في البعث، فقالوا: إنه يعدكم بالنشور بعد أن تموتوا، وتصبحوا تراباً، وعظاماً. إنه وعد بعيد، ثم قالوا: بل هو وعد كاذب، وإنما هي الحياة الدنيا نموت ونحيا فيها.

وتمادوا في غيهم، فكذبوه، وقالوا: إنه مفتر على الله، وعقدوا العزم على عدم الإيمان به أبداً. لقد كان التكذيب عظيماً على قلب نوح عليه السلام ذلك العبد الصالح، الذي غمرت معرفة الرب أرجاء قلبه الخاشع، ولم يجد لنفسه من نفسه قوة، فدعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

بينات من الآيات:

[٢٣] في آيات آنفة رأينا نعم الله على البشر، ولكن لماذا نجد الإنسان بالرغم من تجلي الله له في كل شيء، يكفر به، ويجعل بينه وبين معرفته حجباً زائفة، معرضاً عن آياته تعالى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إن خضوع الإنسان لقوى أخرى هو الذي يبعده عن معرفة الله، والطاعة له، والآية تبيّن مشكلة قوم نوح أنهم كانوا يخضعون لقوى أخرى، وتتعرض الآية التالية إلى اثنتين منها:

[٢٤] **الأولى**: تقديس الذات الذي يقودهم إلى التكبر على الحق.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فهم يرون من الرسالة فقط تبوأ النبي قيادة المجتمع المؤمن، فالتفسير الذي يفترضونه هو صراع على الزعامة.

ولو كان الإنسان يجعل الحق هو المقياس لا ذاته، لما همه لمن يخضع ما دام يمثل الحق رسالة وسلوكاً.

الثانية: تقليد الآباء. ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾

[٢٥] وهذان السببان هما اللذان حملاهم على اتهام نبي الله نوح عليه السلام بالجنون.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إن المعرفة قريبة من الإنسان، وميسرة له، ولكنه قد يبتلي بالكبر أو التقليد الأعمى، فيكون أبعد ما يكون عن الإيمان والمعرفة، وحتى نخلق الإيمان في نفوسنا يلزم أن ننبذ الكبر، وأن نغير طائفة من عاداتنا وتقاليدنا السلبية التي درج عليها الأولون، بل وحتى بعض العادات الجيدة قد لا يكون الأنسب توارثها تباعاً لاختلاف الظروف بل الأنسب تطويرها أو تقديم غيرها عليها.

وبقي شيء لابد من ذكره من خلال قصة نوح وقومه هو: أنهم حينما أرادوا إنكار القيادة الإلهية العادلة أنكروا الله من الأصل، ولكي يكتمل الإيمان لابد من الالتزام بقيادة إلهية، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ مَاتَ وَ لَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[1].

وصدق الإمام علي عليه السلام إذ قال: «**هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ...**»[2].

(١) وسائل الشيعة: ج١٣ ص٢٤٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥ ص١٥٩.

والذين ينكرون القيادة الإلهية منحرفون، وعليهم أن يشككوا في إيمانهم، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً لخضعوا لمن وضعه الله عليهم، ولبرمجوا حياتهم حسب ما أمر الله، لا حسب الالتزام بالماضي، فالأصالة جيدة و لكن ليس على حساب الإبداع في حدود موضوعية حقة.

[٢٦] ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ إن اطمئنان الرسول بحتمية نصره، وتأييده من قبل الله هو الذي يدفعه نحو هذا الدعاء، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الإيمان المطلق بالله لدى الرسل والأنبياء والأولياء.

[٢٧] حينما أحسَّ نوح من قومه الكفر والجحود، طلب من الله النصر ليتبين لهم أنه بالفعل يمثل الولاية الإلهية، فجاءه النصر، وهذا يدل على أنه كلما ازدادت الضغوط على الرسالي وهو يؤدي مسؤوليته في الإصلاح كلما قرب النصر، ونصر الله قريب ممن لم تنصره العوامل الذاتية، والمادية شرط أن يبذل قصارى جهده.

إن نصر الله لا يأتي دائماً على هيئة صيحات وزلازل، بل يجري قسم منه على يد المؤمنين، أولم يكن الرب الذي أمر السماء والأرض أن تتفجر طوفاناً هائلاً في لحظات بقادر على أن يخلق لنوح سفينة، ثم يأمره بالصعود؟ بلى؛ ولكنه أراد أن يشارك هو في نجاة نفسه ومن آمن معه.

وفي الأحاديث أنه بعد أن دعا نوح ربه جاءه جبرائيل بنواة تمر، وقال له: نجاتك في هذه، ازرعها، فزرعها حتى صارت نخلاً، وبعد ثلاثين سنة أمره أن يأكل الثمر ويزرع النوى، وهكذا مرة ثانية، ثم أمره أن يقطع جذوع النخل ويصنع السفينة، وعندما بدأ بصنعها كان الله يرعاه بعلمه، وقدرته، وكان قومه يستهزئون به عندما يمرون عليه، لأنه كان يصنع السفينة في بلاد لا بحر فيها.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ نحن قريبون منك ننظر إليك، ونساعدك.

وأما قولنا: تحت عين الله فيعني تحت رعايته وظله، أما الوحي: فإشارة إلى العلم والمعرفة التي زود الله بها نوحاً عليه السلام.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ روي في نور الثقلين: «إنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب»[1].

ولعلَّ التنور كان يوضع في مكان مرتفع، فإذا فار ماء دلَّ على أن أمراً خارقاً للقوانين

(١) نور الثقلين: ج٣ ص٥٤٣.

الطبيعية قد وقع، ولذلك جعل ذلك علامة لنوح عليه السلام ببدء الطوفان.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ فإنهم سيغرقون ﴿مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وهذه إشارة لحب نوح إلى قومه، وكيف أنه كان يأمل هدايتهم، ولكن الله نهاه أن يخاطبه في الظالمين.

[٢٨] ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي السفينة. ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حينما يأتي نصر الله يجب أن نشكره، ونذكر أن النصر ليست من ذواتنا، وذلك حتى لا نصاب بالغرور، وقد أمر الله نوحاً أن يحمده حتى لا يتصور قومه أنه إله، وأنه هو الذي أنقذهم.

[٢٩] ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ فلا تفكر أن حاجتك إلى الله قد انتهت، فأنت تحتاجه في كل لحظة، فقد ترسو هذه السفينة في منطقة قاحلة، لا زرع فيها، ولا ضرع، وكلمة البركة تدل على ما تدل عليه كلمتي التكامل والتنامي بإضافة مفاهيم وإيحاءات أخرى، وحينما ندعوا الله أن يبارك لنا في شيء، ويكمل حياتنا به، فلندعه أن يعطينا التكامل في أبعاد الحياة.

وسؤال نوح ربه بالمنزل المبارك دعاء بأن لا يجعل نزوله على الأرض نهاية لنعم الله عليه، بل بداية لذلك، وبالفعل حينما نزلوا إلى الأرض شرعوا في بناء حضارة، لا ليأكلوا على حساب ميراث السابقين، والمؤمنون حينما ينتصرون، ويسقطون الطاغوت يعرفون بأنها نقطة البداية، وآنئذ تبدأ مسؤوليتهم الأصعب في البناء الحضاري والتكامل.

[٣٠] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ الدنيا ليست على شاكلة واحدة، فهي مليئة بالمصاعب والمشاكل، ومسؤوليتنا الاستعداد لهذه الحياة، لا أن نفقد عزيمتنا، أو تخور إرادتنا أمام الشدائد وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ فيه تأكيدات على البلاء.

[٣١] ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ القرن في تعبير القرآن هو الجيل أو الأمة. إذ يعاصر بعضهم بعضاً، ويقرن إليه، ولا ندري من هم هؤلاء، فلعلّهم كانوا قوم ثمود، فهم الذين أهلكوا بالصيحة، ولعلّهم قوم عاد، إذ هم أقرب تاريخياً إلى عصر نوح.

ولعلَّ إخفاء اسمهم كان بهدف جعلهم أقرب إلى واقعنا، وإن عذاب المكذبين سنة إلهية، لا تختص بقوم دون قوم، ولا عصر دون عصر، لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام وهو ينصح قومه: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ وَ لَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ، وَقَدْ قَالَ

جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾»[1].

فالله لا يجور علينا، ولكنه يبتلينا، وعلينا أن نخشاه أبداً، لأنه لا يخص قوماً دون قوم في الابتلاء.

[٣٢] ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ونؤكد مرة بعد مرة: أن دعوة الأنبياء لم تكن مجردة أو ناقصة، بل كانت دعوة ذات وجهين:

الأول: إسقاط الطغاة.

الثاني: إقامة حكم الله، تحت ولاية أوليائه، ويدل على ذلك جواب قومهم.

[٣٣] ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ الأشراف الذين كانت سلطتهم على الناس مهددة، والذين يسميهم القرآن بالملأ، هم الذين كانوا يعارضون الرسل قبل غيرهم، ولماذا كانوا يعارضون؟. يقول القرآن: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

فالأسباب ثلاثة:

١- كفرهم، وحجبهم أنفسهم عن الحقيقة.

٢- تكذيبهم بالآخرة.

٣- ترفهم في الحياة الدنيا، وبطرهم، وغرورهم بنعمها. حيث كان ترفهم مهددا بهذه الدعوة، لأنه قائم على الظلم، والابتزاز، والاستغلال والرسالات تعارض كل ذلك.

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ أي أن هذا من طبقتكم، وطبيعتكم، فلا تطيعوه، وإذا عرفنا أن أكثر الطغاة كانوا يضللون الناس البسطاء بأن عنصرهم أفضل من عنصر الناس، وأنهم متميزون عنهم ذاتياً ووراثياً، ولأنهم الأقوى والأغنى. إذن عرفنا بعدا من أبعاد مثل هذه الآية، وكان الملأ يقولون للناس: بأنهم أولى بالطاعة من الأنبياء، لأن الأنبياء من طبقة المحرومين، يأكلون مثلهم، ويشربون مثلهم، فهم لا يستحقون القيادة، بينما هم -أي الطغاة- يتميزون عن الناس في مأكلهم ومشربهم.

[٣٤] ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ عندما ندرس حياة الأنبياء قد نتصور أنهم رجال ضخام، ونتخيلهم ضمن هالة من القيم المادية، أما إذا تصورناهم رعاة

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٢٠.

للغنم، ثيابهم خلقة.. ويأتي أحدهم إلى فرعون وهو جالس في قصره، تحيط به الجنود، وشهرته طبقت الآفاق، ويطلب منه أن يطيعه، ويسلم الأمر إليه، فإننا نعرف مدى صعوبة الإيمان بهم.

[٣٥] ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ هل من الممكن أن يعود الرميم، وتصير العظام البالية بشرا؟!.

[٣٦] ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي بعيد أن يتحقق ما يعده الرسل، وأن يعود الإنسان ثانية بعد الموت، وهنا احتمال آخر لهذه الكلمة هو: إن الكفار كانوا يسوفون، فحتى لو كان البعث حقاً، فإنه سيكون في زمان بعيد جداً، وهكذا يسوف أهل المعاصي، وجاء في الدعاء: «**وَأَعِنِّي بِالْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِي فَقَدْ أَفْنَيْتُ بِالتَّسْوِيفِ وَالْآمَالِ عُمُرِي**»[1].

[٣٧] ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وهذه الفكرة منبعها الكفر بالله والتشكيك في قدرته تعالى.

[٣٨] ثم وجهوا التهمة لشخص الرسول، ففي البداية قالوا إنه رجل مثلكم، ثم ادعوا أن أفكاره خاطئة، والآن ينسبون إليه الافتراء ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ الإيمان حق، ويوم الآخرة حق، ولكن ماذا ينفع كل هذا، من دون أن يتجسد عملاً صالحاً، ونظاماً اجتماعياً في الحياة الدنيا؟! هؤلاء بخبثهم، ومكرهم شأنهم شأن كل المضللين عبر التاريخ، حاولوا أن يفصلوا الدين عن الدنيا، بين الإيمان بالله من جهة، وبين تطبيق نظام ديني قائم على الأرض من جهة ثانية، فقالوا: إن الله حق، ولكن هذا الرجل لا يمثله في الأرض، ولا يملك ولايته.

[٣٩] وعندما يئس منهم نبيهم دعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وهي نفس الكلمة التي قالها نوح عليه السلام وقد تركت من الآثار ما هو آية للناس على مر الزمان، وهكذا ينصر الله كل من يجسد قيمه على نفسه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٨٧ من دعاء السحر للإمام علي بن الحسين عليه السلام.

بعدا للقوم الظالمين

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) ﴾.

هدى من الآيات:

لأن القرآن بذاته شفاء، ولأن سورة المؤمنون تعالج النفوس المريضة، بذكر عبر الماضين لتصفي القلوب، وتتصل بنور الإيمان البهي، ولأنَّ أمر التوحيد لا يخص قوماً دون آخر، فإنَّ السياق القرآني هنا يذكِّر بعاقبة أولئك الذين كذبوا الرسول، فأنذرهم بأنهم سيصبحون نادمين حين ينزل الله بهم العقاب، ويعرفون أنه جزاء أفعالهم، وهكذا أخذتهم الصيحة، جزاء عادلاً لغفلتهم، وجحودهم، فإذا بهم غثاء كغثاء السيل، تلاحقهم اللعنة، فبعداً لهم لأنهم كانوا ظالمين.

وخلق الله قوما غيرهم، ومضت سنته تعالى فيهم، كلما كذبوا أمهلهم حتى ينتهي أجلهم، أما إذا جاء أجلهم، فلا يتقدم ولا يتأخر، والرسل يتعاقبون رسولاً بعد رسول، ولكنهم كانوا يكذبونهم، فجعل الله بعضهم يتبع بعضاً في الهلاك. حتى أصبحوا جميعاً أحاديث تروى، ولا

أثر لهم في الحياة إلا ما تحمله ذاكرة التاريخ من عبرهم، و أمثالهم، ولعنات الله لهم، فبعداً لهم لأنهم لم يؤمنوا.

ويبدو أن حياة هؤلاء كانت متشابهة، ولكنها تطورت عند فرعون وملئه ولذلك أفرد بالذكر، فهذا موسى وأخوه هارون، يرسلهما الرب إليهم، فيستكبرون ويعلون في الأرض طغياناً ويقولون: عجباً! كيف يأمراننا بالإيمان، والطاعة لهما، وقومهما يعبدوننا؟! وهذا التكبر أرداهم، حيث إنهم كذبوهما، فجرت عليهم سنة الله في هلاك المكذبين.

ولكن الله لم يرد هلاكهم إنما أراد هدايتهم. إذ بعث فيهم رسولاً، وآتاه كتاباً.

بينات من الآيات:

[٤٠] بعد أن دعا النبي عليه السلام (ظاهراً هو صالح المبعوث لثمود) قومه، واستكبروا عليه، سأل الله أن ينصره عليهم، فجاء الخطاب الإلهي: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ فنهايتهم قريبة، وسيعرفون أنها نتيجة لعملهم، وسيندمون، وقال الله ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ لأنهم استبعدوا الجزاء بقولهم «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ».

[٤١] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ كثيرا ما تتكرر كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[البقرة: ١١٩]، ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[الأعراف].

وهكذا.. وتوحي كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ بعدة أفكار:

١- إن الحياة قائمة على أساس سنن، وقوانين لا تحيد عنها، وأن علينا أن نكيف أنفسنا معها، وإلا فإن إرادة الله اقتضت أن تتكيف معها، كالكافر الذي لا يسجد لله، ولكن ظلاله رغماً عنه يسجد له.

٢- إن هذه القوانين والأنظمة ليست عبثاً، وبلا حكمة، وإنها لن تتساهل، فإذا خالفها الإنسان هلك.

٣- إن قدرة الله وتدبيره غير محدودين، ولكنه -تعالى- لا يعمل شيئاً دون تلك القوانين والسنن التي وضعها إلا في حالات خاصة لأنه فوق كل ذلك، فمن الناحية النظرية قدرة الله فوق كل قدرة، ولكنه عملياً أبى أن يجري العدالة في الكون إلا برحمته وحكمته، فإذا أراد العذاب لإنسان ما أنزله بقدر ذنبه، وبالطريقة المتناسبة معه.

فالذي كان يعبد الماء يغرقه بالنيل، والذي كان يفتخر بالقوة تقتلعه الرياح، والمتكبر تأتيه الصيحة من فوقه، والصيحة التي يتحدث عنها هذا الدرس كانت حقاً، وجاءت لتطبق الحق.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ الغثاء هو ما يجتمع حين السيول، أو وراء حواجز الأنهار. من أوساخ لا ينتفع بها الإنسان، وهكذا تكون نهاية المتكبرين، ولن يقرر هلاكهم عطف أحد، لأنهم ظالمون، بل تلاحقهم اللعنة ليل نهار ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٤٢] والله حين يهلك هؤلاء فإنه لا يعبأ بهم، لأنهم لم يكونوا يزيدون في ملكه شيئاً، ولم يحدثوا فراغاً بهلاكهم، لأن ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢]. لذلك فقد خلق غيرهم. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾.

[٤٣] ولكل أمة من هذه القرون أجل محدود. ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

إن يقين الإنسان بأن فرصته في الدنيا محدودة وأنه حين يأتي أجله لا يقدر على تأخيره، يجعله يخشى ربه و يتقيه، علماً بأن نهاية الأجل غير معروفة له، فقد يعاجله العذاب في أية لحظة.

والآيات القرآنية عادة ما تشير إلى الجماعة (الأمة - الشعوب - الطائفة،...) لأن الإنسان يتحمل مسؤولية أمام الآخرين. شاء أم أبى.

[٤٤] وسنة الله في الحياة أنه يرسل إلى كل أمة هادياً ورسولاً. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ يؤيد بعضهم بعضاً في ذات النهج، وبالذات الهدف.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ كما أن الله يرسل الرسل واحداً بعد الآخر، كذلك يهلك الأمم المكذبة الواحدة تلو الأخرى ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ والأحاديث جمع أحدوثة، وليس جمع حديث، والأحدوثة هي الحادثة النكراء التي تتناقلها الألسن، وهي عبرة لهم ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ تعساً لهم وإبعاداً عن الرحمة والحق.

[٤٥] ومن الأمم التي بعث الله إليها الرسل فكذبوهم أمة فرعون: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الآيات هي التوراة، أما سلطان الله عند موسى فهو الثعبان، وسائر الآيات.

[٤٦] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وهنا مقابلة، ففي طرف يقف موسى وهارون، وفي الطرف الآخر فرعون وملأه، وهكذا أرسل كل الأنبياء إلى طواغيت زمانهم، ومن يلف لفهم

من المرتزقة وأصحاب المصالح.

وهنا مفارقة بين هذه الآية وقصص الأنبياء السابقة، فهناك مقابل الأنبياء الملأ، وهنا فرعون والملأ وهذه إشارة إلى درجة تعقيد وتقدم السلطة في مصر. فالفئة الحاكمة يوازيها الملأ من رجال المعابد والاقتصاد وما شاكلهم بينما في الأقوام السابقة يبدو أن الفئة الحاكمة هم الملأ.

والذي يتدبر في قصة موسى وفرعون يهتدي إلى أن القضية كانت كبيرة جداً. حيث يرسل الله اثنين (موسى و هارون) وذلك لعظم المسؤولية. حيث إنها نقلة حضارية من ذلك المستنقع الآسن الذي تردى إليه فرعون وجماعته، إلى القمة السامقة من التوحيد والإيمان، وموسى من أعظم أنبياء الله، وقصص موسى قريبة من واقع الأمة الإسلامية، فلا تزال البشرية تعيش ظروفا مشابهة لتلك التي عاشها قوم موسى، حيث لا يزال المستكبرون من ملأ فراعنة الأرض يستضعفون سائر الناس، ويجعلونهم شيعاً، ويعلون في الأرض بغير الحق، فنحن بحاجة إلى التدبر في هذه القصة لنزداد وعياً، وعزماً، وجهاداً حتى يأذن الله لنا بالنصر، ولذلك يذكر القرآن هذه القصص زهاء سبعين مرة.

ولكن هل استجاب فرعون وملؤه لرسول الله موسى ولأخيه هارون عليهما السلام؟ كلا.

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ الإنسان ربما يستكبر ولكنه لا يملك شيئاً من مقومات الاستكبار، فتراه فقيراً، وذليلاً.. إلخ، وحيناً آخر يستكبر الإنسان وهو يمتلك المقومات الظاهرية لذلك، كفرعون الذي كانت تجري الأنهار من تحت قصره، والذي يسيطر على شعب مصر.

[٤٧] لذلك لما جاءهم موسى وأخوه كذبوهما: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ ولم يقل وهما لنا عابدان؟ لعله لأنهما في الواقع ما عبدوا، وما خضعوا للطاغوت، وإنما قومهما (بنو إسرائيل) هم الذين خضعوا لفرعون وملئه.

[٤٨] ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بالإغراق.

[٤٩] ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ الكتاب الذي أرسل إليهم عبر موسى كان يهدف هدايتهم إلى الصراط المستقيم، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الكتاب.

إن الله لم يخلق الناس، ليهلكهم، بل ليرحمهم بالفلاح، والهدى في الدنيا، والجنة في الآخرة، ولكن الناس هم الذين يرفضون ذلك.

وكل هذه الآيات دعوة لنا للتفكير فيها وتطبيقها على أنفسنا ومجتمعاتنا. فبإمكاننا أن نصير موسى، وبإمكاننا أن نصير فرعون، وذلك إذا حملنا رسالة موسى في الحياة، أو سلكنا مسلك فرعون، جاء في الحديث: «**طُوبَى لِمَنْ عَصى فِرْعَوْنَ هَوَاهُ وَأَطَاعَ مُوسَى تَقْوَاهُ**»[1].

ومهما اختلفت طرق العذاب، والانتقام الإلهي فإن الحقيقة واحدة، ويجب أن لا نستبعد العذاب عن أنفسنا إذا انحرفنا عن هدى الله.

(١) عيون الحكم والمواعظ: علي بن محمد الواسطي: ص٣١٤.

من هم المؤمنون

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا[1] ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لأنَّ سورة المؤمنين تذكِّرنا بواقع الإيمان، فإن هذا الدرس فيها -كما يبدو- قد خصص لبيان المقياس الحق للمؤمن، بعد أن ذكرت الدروس الماضية بعاقبة الإنكار والجحود.

فهذه مريم وابنها آيتان، حيث آواهما الرب إلى مرتفع من الأرض فيه القرار والماء، وهذا دليل على أن الله سبحانه - إنما أرسل الأنبياء لراحة البشر، لذلك أمرهم بأن يأكلوا من الطيبات ويعملوا صالحاً.

ومنهج الرسل واحد، وإنما اختلف أهل الكتاب، وتفرقوا أحزاباً لفرحهم بما أوتوا من

(١) زبراً: كتباً.

أموال وبنين، وزعموا أن الله يسارع لهم في الخيرات، وهم لا يشعرون، فلعلَّه استدراج لهم حتى يأخذهم عندما يحين أجلهم.

أما قدرة الإيمان فنجدها في الذين يشفقون، وجلين من خشية الله، ويستجيبون لآياته، ولا يشركون بربهم، وحتى عطاؤهم في الله لا يطمئنون إليه، بل لا يزالون وجلين لإيمانهم بأنهم إلى ربهم راجعون. فهم لذلك يسارعون في الخيرات ويتسابقون إليها.

ولا يعني ذلك أن الله ينهكهم بالمسؤوليات، بل ربنا الرحيم لا يكلف نفساً إلا ما تقدر عليه، وتطيقه، وأن الله يكتب لهم أعمالهم كلها وهم لا يظلمون.

هذا هدى المؤمنين. دعنا نقتدي به.

ونجد في آيات هذا الدرس: مقاييس لا تخطئ للإيمان.

بينات من الآيات:

[٥٠] إن الهدف من التجمع المؤمن ليس إشقاء الناس، بل تزكيتهم، وجعلهم صالحين لينتفعوا أكثر، بنعم الله، وبالتالي ليرحمهم الله، وذلك بأن يجسد أفراده حياة عيسى وأمه مريم، اللذين جعل الله ربوة تحتضنهم، وتسقيهم من معين سائغ شرابه، وكذلك يريد الله للرسل ومن يشكل امتداداً لخطهم من المؤمنين، أن يأكلوا الطيبات، ويعملوا الصالحات، ويشكروا الله.

وحرام على إنسان يأكل نعم الله أن يعصيه بعمل الخبائث، كما لا يستطيع آكل الحرام أن يعمل الصالحات بصورة كاملة، أو لم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[الأعراف: ٥٨].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ فمريم ولدت عيسى من غير زوج، كما أن عيسى كلم الناس وهو في المهد صبياً ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ بعد أن كانا يفتقران إلى المسكن، وفر الله لهما الربوة، وهي المرتفع من الأرض، ولها ميزات: أنها بعيدة عن الهوام والأسقام، وهكذا عندما يأمر ربنا بالتيمم يقول: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

ومن معاني الصعيد المرتفع من الأرض، وفي علم طبقات الأرض أن المرتفعات التي فيها الماء هي أفضل المواقع. أمنيًا وزراعيًا وصحيًا.

ويتساءل المفسرون: أين كانت هذه الربوة؟ هل كانت مدينة الناصرة في فلسطين. حيث

التجأت إليها مريم عليها السلام خشية أعداء ابنها عيسى عليه السلام من اليهود؟.

أم كانت منطقة خاصة في مصر. حيث عاشت مريم وابنها هناك ردحاً من الزمن؟.

أم أنها كانت في (دمشق) أم مدينة (رملة) حيث عاشا فيها أيضاً فترة من الوقت؟.

أم أنها لم تكن سوى ذلك الموقع الذي وضعت مريم ابنها فيه، في أطراف بيت المقدس ذاته[1]. وفي رواية مأثورة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: إن «**الرَّبْوَةُ: الْكُوفَةُ، وَالْقَرَارُ: الْمَسْجِدُ، وَالْمَعِينُ: الْفُرَاتُ**»[2].

وعلى أي حال: فإن في الآية درساً في اختيار الموقع المناسب للمسكن، كما إن الآية التالية تذكرنا: بضرورة اختيار الطيبات للطعام.

[٥١] ولم تكن هذه النعم إلا لكي تقيم أود الإنسان، ولكن الهدف الأبعد منها أن يستخدم جسده في خير نفسه والناس، من خلال الصالحات.

وقد كان هذا نداء الله لكل الرسل، ومن بعدهم للمؤمنين، أن يأكلوا لا ليعيشوا أو يتلذذوا بالنعم -فحسب- بل ليعملوا الصالحات.

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ كما إن المهم في العمل أن يكون خالصاً لوجه الله حتى يأتي بثماره -دنيا وآخرة- وهل يخلص لله إلا الذين يتحسسون برقابته، وعلمه بهم؟! ويجب على المؤمنين أن يعملوا بما يمليه عليهم الشرع والعقل دون أن ينتظروا رضى الناس.

ويبدو أن الإسلام يرجع الناس إلى عقولهم. البعيدة عن الهوى والضغوط، والتي جعلها الله حجة بينه وبين العباد، فتكون الطيبات التي تدعونا إليها هذه الآية هي التي يحكم بها العقل، وهكذا العمل الصالح، وإنما الشرع يثير العقل ويبلوره. جاء في وصية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: «**إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ: حُجَّةً ظَاهِرَةً، وَحُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَالْأَئِمَّةُ عليهم السلام، وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ**»[3].

[٥٢] إن المقاييس الإيمانية التي وضعها الله سبحانه، هي التي تكشف حقيقة الكثير ممن يدعون الإيمان، إذ إن مقياس الإيمان وحقيقته ليس ما يدعيه البشر أو يعتقد به، بل ما يضعه الله

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان: ج٧، ص١٧٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٤، ص٣٦١.
(٣) الكافي: ج١ ص٦٠.

سنة، وما يعلمه من واقع كل إنسان ومجتمع.

والمشكلة أن الإنسان الذي يغمره إحساس ساذج بالإيمان الصادق لا يكتشف خطأ ادعائه إلا بعد فوات الأوان. حيث ينقله الموت من دار البلاء والعمل، إلى دار الحساب والجزاء، فلا يستطيع أن يغير من أمره شيئاً.

إذن لابد أن نضع مقاييسنا الذاتية جانباً، ونبحث عن الموازين الحق الإلهية لتكون حجة بيننا وبين الله سبحانه، عند الحساب والجزاء. لا لكي نقنع الآخرين بأننا مؤمنون، لأنهم يقتنعون منا، بما يقتنعون من أنفسهم من ممارسة الشعائر الظاهرة، ثم ماذا تجدي الإنسان قناعة الناس سوى بعض المصالح المحدودة في الدنيا؟ ولعلّه يظهر على حقيقته يوماً عند الناس أيضاً أن المهم هو أن يكون الله راضيًا عنا.

وفي هذه الآية يضع القرآن الحكيم المقياس الاجتماعي الذي يميز المنافق عن المؤمن، وهو مقياس الوحدة الإيمانية، فلو ادعى جماعة أنهم مؤمنون، ثم تفرقوا أحزاباً وشيعاً. انطلاقاً من أهوائهم ومصالحهم، فإنَّ ادعاءهم سيكون باطلاً وسخيفاً، لأنَّ المؤمنين تجمعهم كلمة واحدة هي كلمة التوحيد، وأن التقوى هي محور نشاطهم، وصبغة أعمالهم وحياتهم ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾.

[٥٣] ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ لكي نعرف المؤمنين، لابد أن نعرف المنافقين الذين يتناقضون معهم، فبينما يتجه المؤمنون للوحدة على أساس القيم والقيادة الرسالية. نرى هؤلاء في سعي حثيث للنيل من الوحدة بتمام معنى الكلمة، وكلمة ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ مبالغة في التقطيع، فهؤلاء يسيرون في نفق التقسيم، والفرقة. بحيث تنقسم كل جماعة على نفسها باستمرار.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ إن الأساس في هذه الفرقة، وهذا الانقسام هو اغترار كل بما لديه من رجال، ومال، وأفكار، بينما نجد المؤمنين مشفقين من خشية ربهم، والفرح هو آية الغرور، ويبدو أنه يعكس حالة الرضا عن النفس.

وإن الفرح هو السبب المباشر للتحزب. حيث إن قصر نظر الفرد، وحرج صدره، وضيقه، وتفاهة أهدافه، وتحقيره لنفسه، ولقدراتها. كل ذلك يجعله معجباً بنفسه، وبما يملك، ويزعم أنه وما يتصل به أفضل مما سواه، فيتقوقع على ذاته، ولا يعترف للآخرين بفضل، ولا يرى الأهداف العظيمة التي تحتاج إلى الوحدة، وتراكم الجهود.

[٥٤] ويشبه القرآن هؤلاء حينما يطغى عليهم الإعجاب، والفرح بالغريق الذي يغمره

الماء من كل ناحية ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فلا توقظهم إلا صاعقة العذاب. تأتيهم بغتة.

[٥٥-٥٦] والسؤال لماذا يفرح هؤلاء؟ لأنَّ غاية ما يطمحون له أن يصبحوا أصحاب مال وبنين، ولفرط حبهم لذاتهم، ولما يتعلق بهم خاصة من مال وبنين تراهم يجعلونهما مقياساً للخير والصلاح، ويزعمون بأنه لو لم تكن أفكارهم صائبة، ولم يكن الله راضياً عنهم إذا لم يكونوا يحصلون على المال والبنين، وبالتالي إن حصولهم عليهما في الدنيا دليل صلاحهم، و حصولهم على الفلاح في الآخرة، كما قال قائل منهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٦].

ولا يزال العالم المادي اليوم يعتبر ميزان التقدم الدخل القومي، ويزعم بعضهم أن الله معه، لأنه أصبح أشد بطشاً وإرهاباً في الأرض، ويكتب على أوراقه النقدية - بالاعتماد على الله، ثم يتلاعب بمصير الشعوب بتلك الأموال -حاشا لله- إنه لا يسلط الظالمين على البشرية، ويرضى عنهم.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ هل يتصور هؤلاء أن الخير والكمال هو المال والرجال؟ وأننا حين نعطيهم ذلك يعتبر حباً منا لهم أو رضى بهم؟!.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ لأن الخير الحقيقي هو فيما يقوله القرآن، لا ما يملكون، وهو أيضاً ما يجسده الذين تتحدث عنهم الآيات التالية:

[٥٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ فالمؤمنون يعملون، ولكنهم لا يغترون بعطائهم، بل يشفقون على أنفسهم، لأنهم يعرفون أن هذه الأجساد لا تحتمل لهب النار، فيبقى همهم وشغلهم الشاغل هو إنقاذ أنفسهم من جهنم، ويكررون في دعائهم قوله تعالى: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وفي الآية القرآنية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وتؤكد هذه الآية وما بعدها على الفروق بين التجمع المؤمن، والآخر المصلحي القائم على أساس المال والرجال، وهي:

ألف: الإشفاق من العمل، فدائماً ما يستقل المؤمنون أعمالهم، ويساورهم هاجس التقصير، بما يحسسهم أنها قد لا تبلغ مرضاة الله، مما يزيدهم عزيمة وإصرارا على العطاء الأكثر، والإخلاص الأنقى، أما المنافقون فإنهم يفرحون بأعمالهم ويكبرونها، فلا يقبلون الانتقاد بما

يرونه في ذواتهم من كمال وعصمة، بينما يرحب أولئك بكل انتقاد بناء. حيث إنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير، فلعلّهم أخطؤوا أو غفلوا، ومحور هذه المقارنة هو الخشية عند فريق دون الفريق الآخر، فكلما عمل المؤمنون لا تزال فيهم بقية إرادة، وعزيمة خشية التقصير، و أنهم لما يفكوا رقابهم من النار.

جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام وهو يصف المؤمنين: «**فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ، مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ، وَأَوْلِيَائِهِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَ رَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ، وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَكَانُوا قَوْماً مُسْتَضْعَفِينَ قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ، فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالِاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالِاقْتِدَارِ**»[١].

وقد نصح لقمان ابنه فقال له فيما قال: «**خَفِ الله عَزَّ وَجَلَّ خِيفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَيْنِ لَعَذَّبَكَ وَارْجُ الله رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ**»[٢].

ونحن نقرأ في سيرة أولياء الله ما يجعلنا نتصاغر في أنفسنا. أين نحن من واجبنا، وإلى متى نغفل عن مصيرنا، ونحن لا نعلم هل خلقنا للجنة، أم أن عاقبتنا النار؟!.

فهذا زيد بن علي بن الحسين عليه السلام يقصُّ علينا سيرته سعيد بن جبير قال: «قُلْتُ: لِمُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ كَيْفَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ؟. فَقَالَ: لَا أُحَدِّثُكَ عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَلَكِنْ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: النَّازِلِيُّ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: صَحِبْتُ زَيْداً مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَكَانَ يُصَلِّي الْفَرِيضَةَ ثُمَّ يُصَلِّي مَا بَيْنَ الصَّلَاةِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَيُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَيُكْثِرُ التَّسْبِيحَ وَيُرَدِّدُ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩]، فَصَلَّى بِنَا لَيْلَةً ثُمَّ رَدَّدَ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ فَانْتَبَهْتُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقُولُ: **إِلَهِي عَذَابُ الدُّنْيَا أَيْسَرُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ**، ثُمَّ انْتَحَبَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ الله لَقَدْ جَزِعْتَ فِي لَيْلَتِكَ هَذِهِ جَزَعاً مَا كُنْتُ أَعْرِفُهُ!. قَالَ: **وَيْحَكَ يَا نَازِلِيُّ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ وَأَنَا فِي سُجُودِي إِذْ رُفِعَ لِي زُمْرَةٌ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مَا رَأَتْهُ الْأَبْصَارُ حَتَّى أَحَاطُوا بِي وَأَنَا سَاجِدٌ. فَقَالَ كَبِيرُهُمُ الَّذِي يَسْمَعُونَ مِنْهُ: أَ هُوَ ذَلِكَ؟، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أَبْشِرْ يَازَيْدُ فَإِنَّكَ مَقْتُولٌ فِي الله وَمَصْلُوبٌ وَمَحْرُوقٌ بِالنَّارِ وَلَا تَمَسُّكَ النَّارُ بَعْدَهَا أَبَداً. فَانْتَبَهْتُ وَأَنَا فَزِعٌ وَالله يَا نَازِلِيُّ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُحْرِقْتُ بِالنَّارِ ثُمَّ أُحْرِقْتُ بِالنَّارِ وَأَنَّ**

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٢.

(٢) الكافي: ج٢ ص٦٧.

الله أَصْلَحَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَهَا»[1].

بـــاء: الاستجابة للحق، فلو كانوا على خطأ سرعان ما يتذكرون ويعودون عنه، لأنهم يجعلون الحق -وليس ذواتهم- محور حياتهم، لأنهم يعرفون خشوع الإيمان، والتسليم للحق في الدنيا خير من خشوع الذل في نار جهنم.

[٥٨] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهم منفتحون على الحقائق التي يجدونها في آيات الله، ولا يمنعون أنفسهم خيرات الحق بالعصبيات والتقاليد والتحزب، بل يبحثون عن الحق أنى كان، حتى لو خالف مصالحهم أو تقاليدهم أو عزة أنفسهم.

[٥٩] ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾

جيم: وتوحيدهم لله يتجلى في سائر جوانب الحياة، السياسية والاجتماعية و...، فإذا اختاروا قيادة فإنما يختارونها بدافع إيمانهم لا بعامل الهوى، فليس لأنَّ فلان من بلده، أو حزبه، أو طائفته فإذن هو قائده، كلا.. إنما المقياس الوحيد عندهم هو ما يقوله الله وما يرتضيه.

خوف التقصير

[٦٠] ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾

دال: وبينما المنافقون يفرحون بقليل ما يصدر عنهم، تجد هؤلاء في حالة عطاء دائم مصحوب بوجل، وخوف من التقصير، لأنَّ المسألة لو كانت متوقفة على رضى الناس عنهم لنالوه بعطائهم الظاهر، ولكنهم يبحثون عن رضى الله، الذي لا ينال إلا بالإخلاص، وأنى لهم اليقين بقبول الله لأعمالهم وهو القائل عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧].

ويدفعهم خوف التقصير إلى المزيد من العطاء، ذلك أن الشعور بالكمال يمنع مسيرة التقدم، والاستمرار في العطاء، وحينما يسأل رجل الإمام الصادق عن سبب خوف هؤلاء، ووجلهم يجيبه «أَنْ لَا تُقْبَلَ لَهُمْ حَسَنَةٌ وَلَا يُغْفَرُ لَهُمْ سَيِّئَةٌ»[2] وما أكثر الثغرات في الحسنات التي نعملها، وقد يكون بعضها سبباً في عدم قبولها.

فنحن لا نستطيع أن نتأكد من أننا قد فزنا. إذن دعنا لا نقف عند حد في عطائنا وإنفاقنا، ولا نفرح، لأنَّ الفرح من جنود الشيطان.

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص٢٠٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٢٧.

[٦١] إن خوف هؤلاء من التقصير يدفعهم نحو العمل، بل المبادرة إليه.

هاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ التسابق بين هؤلاء ليس في الشهرة، بل في عمل الخير، وهذه صفة نقيضة لما يعيشه التجمع المنافق، فبينما يلهي أولئك التكاثر في الأموال والأولاد، ترى هؤلاء يتسابقون إلى الخيرات.

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ وهذه الآية تحتمل معنيين:

الأول: إن أنفسهم مجبولة على الخير، والعطاء، والعمل، وهذه الصفات ليست وليدة ظرف معين، بل وليدة صفة راسخة في النفس، فمع أنهم يتصدقون الآن مثلاً، ولكن أنفسهم قبل هذه الصدقة كانت تحمل هذا المعنى الخير (مساعدة الضعيف).

الثاني: المبادرة فهم دائماً يسبقون غيرهم للخير، إذ يكتشفون مجالات ووسائل جديدة للعمل الرسالي، وهذا ناتج عن الهم الذي يحملونه لتطوير مسيرتهم وتحركهم، مما يدفعهم باتجاه البحث عن المجالات والأبعاد الجديدة للتقدم بمسيرة العمل، أو لمواجهة العقبات والمشاكل التي تعترضه.

إن هؤلاء يسعون دائماً لنيل رضى الله، فيفكرون في أساليب جديدة للعمل ويطبقونها.

[٦٢] ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ الله هو الذي خلق الإنسان، وهو أعرف بقدرته وطاقته، فلا يكلفه إلا بقدرها، وعلى الإنسان أن يسعى في طريق الخير قدر جهده وتمكنه، فإذا فعل ذلك سقط عنه التكليف، وإلا فما دامت به بقية مقدرة فهو مسؤول.

فما دام الإنسان قادراً يجب أن يعمل، وبقدر الاستطاعة يجب أن يعطي، وبقدر وسعه يجب أن يسعى، فلا يقل أحدنا: إني عملت، وأنجزت المهمة الكذائية وكفى، وإنما ينجز مهمة لينتقل إلى غيرها، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾[الشرح: ٧]. فإذا انتهيت من عمل فانصب إلى غيره. ولا يقل أحدنا أنه انتهى الواجب فقد قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩]. فالعمل واجب حتى الموت.

ونستفيد من الآية الكريمة أن مسؤولية كل إنسان حسب قدرته، فالقوي تختلف مسؤوليته عن الضعيف، والعالم عن الجاهل، والمسؤول عن الفرد العادي و... ولعل الآية تشير أيضاً إلى الرفق بالنفس في العمل، فلا يهلكن أحدنا نفسه، ولا يحملها فوق طاقتها، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُكَرِّهُوا عِبَادَةَ الله إِلَى عِبَادِ الله فَتَكُونُوا كَالرَّاكِبِ الْمُنْبَتِّ الَّذِي لَا سَفَراً قَطَعَ وَلَا ظَهْراً أَبْقَى**»[1].

---

(١) في الكافي: ج٢ ص٨٦.

والبعد الآخر للآية: الواقعية في الطموحات الرسالية. إذ ينبغي أن تكون أهداف المسلم بقدر طاقاته، فلا يتكلف ما لم يكلفه الرب به.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ فلو ادعى شخص أنه تعب، فإن الله يحتج عليه: بأنه أعطاه القدرة التي لم يستغلها كلها حتى يدعي ذلك، ويحتج عليه بالآخرين الذين يمتلكون مثله من القدرات، ولكنهم لا يزالون يعطون ويعملون دون تراجع، وفي مقابل هذا التشدد في المسؤولية هناك رحمة إلهية تتمثل في عدل الله، وفضله ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فالله يجزي الإنسان على كل خير. صغيراً كان أو كبيراً، جزاءً مضاعفاً. حيث تتحول الحسنة إلى عشر أمثالها.

وأكثرهم للحق كارهون

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا[1] تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق حديث سورة «المؤمنين» عن محورية الحق في الحياة، يذكّرنا القرآن بأن أولئك الكفار يعيشون في غمرات الشهوات والضلالة، بعيدين عن الحق، يمارسون أعمالا إجرامية، ويستمرون عليها حتى يأخذ الله مترفيهم (وهم قياداتهم المفسدون) بالعذاب، فإذ بهم يتضرعون من هول العذاب، ولكن من الذي يعذب في الدنيا؟ إنهم المترفون، الذين يأتيهم الخطاب: لا تتضرعوا، فإنَّ الضراعة عند نزول العذاب لا تنفع، ولا ينصرهم الله. أفلم يكونوا يتولون هاربين كلما تليت عليهم آيات الله وهم يستكبرون بها، وعندما يسهرون بالليالي يقولون: كلاماً تافهاً ضدها؟!.

ولماذا الاستكبار على الحق، ولماذا لا يتدبرون في القرآن ليجدوا أنه يهديهم إلى الحق

(١) سامراً: السمر الحديث ليلًا.

الذي دعا إليه كل الرسل والصالحين (ممن تعترف البشرية بفضلهم) وهذا الرسول يعرفونه بإخلاصه، وصدقه، وأمانته، فلماذا ينكرونه، وهل يعقل أن يكون به جنة؟! كلا.. إنما سبب جحودهم له دعوته إلى الحق، والحق يكرهه أكثر الناس بجهالتهم واتباعهم للشهوات.

ثم إن الكون قد خلق وفق سنن وأنظمة، بعضها نعرفها بواسطة العلوم البشرية نسميها القوانين الطبيعية. كجاذبية الأرض، وانسياب النور، وانفلاق الحبة من التربة الصالحة، وبعضها الآخر قوانين غيبية مثل غفران الله للمذنبين التائبين، أو تعذيبه للمجرمين يُذكِّر بها الوحي.

وسواء هذا أو ذاك، فإنَّ هذه القوانين هي الحق. الذي خلق الله وفقه السماوات والأرض، والذي لو زال و حلَّ مكانه الهوى والباطل لفسد الكون في لحظة.

وعلى الإنسان أن يستجيب للحق الذي قامت به السماوات والأرض، ويكفينا دليلاً على ذلك حياة الإنسان، فهو يعيش ضمن سنن لا يحيد عنها كالجوع، والعطش، والنوم، إلا سنة واحدة أعطي الاختيار فيها بين آلاف السنن والقوانين، بعد أن بيَّن الله له أبعادها، ومع ذلك فإنه قد يحطم نفسه والأرض بهذا الاختيار.

وأنت أيها الإنسان اعتبر بهذه الحقيقة، فإنك لو أعرضت عن الحق، واتبعت الباطل والهوى فإنَّ حياتك ستفسد، وستفسد الآخرين.

بينات من الآيات:

[٦٣] ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ تلفها الشهوات، من كل جانب، كما لو أنها رسبت في لجة آسنة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أعمال الإنسان تنطلق من فكره وقلبه، وما دامت قلوب هؤلاء مغمورة في الشهوات فإنها لا يصدر عنها إلا السيئات، ولعلَّ كلمة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ تشير إلى هذه الحقيقة، أو إلى أن الأعمال الإجرامية التي يمارسونها على فظاعتها تعتبر دون أفكارهم الضالة، فإن خبث العقائد الفاسدة أشد من خبث الأفعال المنكرة.

[٦٤] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ولم يقل الله (حتى إذا أخذناهم بالعذاب) وهذا التحويل في لحن السياق القرآني لعلَّه يدل على فكرة معينة هي أن الله لا يأخذ كل المغمورة قلوبهم بالعذاب، بل يأخذ المترفين منهم، والآيات التي تلي هذه الآية تفسرها. وهذه من خصائص السياق القرآني أنه يفسر بعضه بعضا.

والجأر هو: نهاية حالة الضراعة، والطلب الملح.

[٦٥] ولكن ليس ينفع المترف دعاؤه حين يحل به العذاب ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

[٦٦] والآية التالية، جواب على سؤال يفترض أنه يصدر عن المترفين، حين يجدون أنفسهم بين يدي العذاب، إذ يتساءلون عن سبب رد الله لاستجارتهم وتضرعهم، فيأتيهم الجواب: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

إن الآيات القرآنية وهي وقود الانطلاق والتقدم، يفترض أنها تدفع الإنسان نحو الأمام، أما إذا كان قلبه مطبوعاً بالتخلف والانحراف فهي لا تنفع معه أبداً، بل تزيده طغياناً وكفراً، والنكوص على الأعقاب، كناية عن المشي القهقرى.

[٦٧] لذلك يقول القرآن: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن؛ ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ إن تكبر الإنسان على القرآن شيء، وتكبره بالقرآن شيء آخر -وهو أعظم- حيث تتحول هذه الرسالة الإلهية العظيمة إلى أداة للاستكبار، وهذا نقيض أهداف القرآن في تحرير الإنسان من عبودية الجبت والطاغوت، وقد فسر بعضهم كلمة ﴿بِهِۦ﴾ هنا بالكعبة، حيث إن المشركين اتخذوها وسيلة استكبارهم في الأرض، بينما فسره البعض بالقرآن الذي يشير إليه كلمة ﴿ءَايَٰتِى﴾ وتدل عليه كلمة ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ في هذا السياق.

وكانوا إذا جنَّ عليهم الليل واختلط ظلامه بنور القمر الهادئ، وهيئت لهم ظروف السمر، تحلقوا حول الكعبة، وأخذوا يتداولون كلاماً هجراً، كأنه هذيان المرضى، لا يقصدون به معنى حقيقياً.

ذلك الكلام الفارغ الذي كان يكشف عن مدى غفلتهم وخوضهم في غمرات -اللهو، والهوى، واللاهدفية- أرداهم إلى هذا الحضيض السافل من العذاب، الذي لا خلاص لهم منه. تدبروا في حالتي- الجأر والهجر.

[٦٨] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ في مقابل هؤلاء نرى المؤمنين الذين يتدبرون القرآن، والتدبر من كلمة الدبر، أي النهاية فمن القرآن يبدأ المؤمن فيسير بعقله، وعلى ضوء الآية، إلى الحقائق، فيرى ماذا تريد الآية وأين هو واقعها الخارجي، وتطبيقها الحي.

إن القرآن لم يكن بدعة، فهو امتداد لرسالات الله لبني البشر،عبر الزمان ولا حجة لأولئك الذين يتنصلون عن تطبيقه أو يتكبرون عليه، ويفرغونه من معانيه.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إن البشر يقدر -عادة- السلف الصالح، وتزخر ذاكرته بقصص الأتقياء والمصلحين وفي طليعتهم الرسل ولكنه -في ذات الوقت- يكفر بالرسول الذي يأتيه بآيات الله، ويتساءل عن صحة رسالته، وإنما هي تكميل للرسالات السابقة.

[٦٩] ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ كلا.. فالناس كانوا يعرفون رسول الله بصدقه وأمانته وأخلاقه، والرسالة التي جاءهم بها هي عينها التي تدعوا إليها عقولهم، والله الذي يبعث بقرآن من السماء قد أنشأ عقلاً في داخل الإنسان يصدقه، فيعرف الإنسان إن الذي جاء به هو الحق، وهكذا يستطيع كل إنسان بشيء من التعقل أن يهتدي إلى رسول الله، وإن الذي ينصحه هل هو رسول الله أم داعي الشيطان؟ ولكن بشرط أن يخرج من سجن الشهوات التي تغمره، وعند ذلك فقط سوف يرى الحقائق بوضوح.

[٧٠] ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وهل هذا قول مجنون، وفيه من ينابيع الحكمة، وخزائن المعرفة، وبرامج الحياة، ما يعجز عن اكتناهه أولو الألباب؟!.

وهل المجنون يفعل ما قام به الرسول من تنظيم لحياة الناس، ثم قيادة المجتمع على أفضل وجه؟!.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ كلا.. إنهم يكرهون الحق ولذلك يجادلون فيه، وينكرون الرسول الداعي إليه، ولا يتدبرون في القول الذي يحتويه ولماذا يكره الحق أكثرهم؟ لأنهم يعيشون في غمرة منه تحيط بهم شهواتهم، وهذا هو الفرق بين المؤمنين والكافرين.

[٧١] ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ليس فقط من الناحية الغيبية الإلهية فقط، بل من الناحية الواقعية أيضاً لأنَّ الحق الذي تنزل به القرآن تعبير عن حقائق الإنسان والحياة، فالعدل يقيم الحياة، بينما الظلم يؤدي بها إلى الدمار، والصدق يعود على الناس بالنفع بينما الكذب يعود عليهم بالضرر، وهكذا سائر القيم السلبية والإيجابية.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ البعض يفسر هذه الآية بأن: القرآن جاء شرفاً للناس، ولكنهم معرضون عن شرفهم، وهذا صحيح، أما التفسير الآخر - حسب ما أرى أنه أقرب- فهو أن القرآن جاء مذكِّراً لهم بما نسوه، وغفلوا عنه، ولكي ينورهم فلماذا يعرضون عنه؟!.

وهذا التفسير تأكيد للفكرة السابقة وهي: إن الله الذي يرسل رسالة على يد رسول، أودع رسالة أخرى في قلب الإنسان، وانطباق هاتين الرسالتين دليل على صدق الرسول.

هكذا نتحدى عقبات الإيمان

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ[1] (٧٤) ۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ[2] (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

هدى من الآيات:

جاءت سورة المؤمنون لبث روح الإيمان في القلوب، ولكن القلوب المريضة لا تستقبل هذه الروح، إذ لا بد من شفائها أولاً، في الدرس الماضي قرأنا كيف أن كراهة الحق الناشئة من غمرات الضلالة، أفرزت الجحود بالرسالة، وهنا يساعدنا السياق لتجاوز العقبات التي تعترض طريق الإيمان، وبالتالي يحبب إلينا (الحق) ويطهر القلب من وساوس الشيطان التي تصدنا عنه.

---

(١) لناكبون: أي عادلون ومائلون عن الحق.

(٢) مبلسون: آيسون من كل خير.

الأول: الخوف على الثروة، ويقول القرآن: إنك لا تسألهم خرجاً، بل الله خير الرازقين، وإنه سوف يبارك لهم في ثرواتهم لو اتبعوا الحق الذي جاء به الرسول.

الثاني: المحافظة على التقاليد، ويقول الذكر: إن سبيلهم ضال، وإنك -يا رسول الله- تدعوهم إلى الصراط المستقيم، وسبب ضلالتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، وفي آخر الدرس نقرأ تأكيداً على هذا السبب.

الثالث: لو كانت الرسالة حقاً، لكشف الله بها الضر، ولكن مقدارا من الضر يحافظ على توازن البشر الذي يطغى لو كشف الله عنه ضره، وبالرغم من العذاب الذي أخذهم الله به تراهم لا يسلمون لربهم، ولا يتضرعون إليه. حتى ينزل عليهم عذاباً شديداً، فإذا بهم في ورطة وإبلاس.

بعد تطهير القلب من هذه الوساوس، يذكِّرنا الرب بنعمه التي لا تحصى. أو ليس قد أنشأ لنا السمع، والأبصار، والأفئدة. أفلا نشكره؟! وهو الذي جعل البشر يتناسل في الأرض، وبعد الموت يحشر من جديد، وبيده الحياة والموت، وتدبير الليل والنهار، أفلا يكفي ذلك حجة لو انتفعنا بعقولنا؟! كلا.. إنهم يقولون - كما قال آباؤهم الضالون - كيف يبعث الله من يموت ويصبح تراباً وعظاماً؟! إنها أساطير الأولين. حيث قد وعدوا كما وعدنا نحن أيضاً بذلك!.

هكذا أصبح إنكارهم للبعث سبباً لجحودهم برسالات الله، وهكذا الإنكار -بدوره- نشأ من حالة الجهل، واستبعاد حياة الإنسان من بعد الموت. وكلمة أخيرة: إننا نجد السياق ينتقل من الحديث عن العقبات في طريق الإيمان، وكيفية التغلب عليها، إلى الحديث عن آيات الله التي تهدينا إليه، وهذه هي الطريقة القرآنية في توجيه الإنسان إلى ربه، وهي تختلف عن الطرق البشرية، فالطريقة القرآنية تعتمد على مرتكزات من بينها و أهمها الأسلوب الوجداني، فالإنسان خلق على فطرة الإيمان، والله هو أجلى وأظهر حقيقة في هذا الكون، وفطرة الإنسان تدعوه إلى الله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ولكن لماذا لا يؤمن البشر؟ لأنَّ بينهم وبين الله حجباً. كحجاب الغفلة، وحجاب الشهوة، وحجاب التقليد، وحجاب الخوف، أو الرجاء في الأمور الدنيوية، وحجاب الشك في الآخرة. ويجب على الإنسان أن يتحدى هذه الحجب بإرادته، وبتذكير الله -عبر رسله- لكي يصل إلى معدن الإيمان، ونور الله البهي.

وهذه النظرة القرآنية نجدها موزعة في كتاب الله، والمتدبر في القرآن يجد هذا الأسلوب

في توجيه الإنسان إلى الله واضحاً في آيات الذكر الحكيم، والذي أسميه بالأسلوب الوجداني الذي يبدأ بتزكية القلب، وإجلاء الدرن و الصدأ عنه، ويكشف عن الحجب ليتصل بنور معرفة الله بصورة مباشرة، وآنئذ نعرف معنى قول الإمام علي عليه السلام: حين يسأله ذعلب قائلاً: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ عليه السلام: **وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبُ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ.**

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ عليه السلام: **وَيْلَكَ يَا ذِعْلِبُ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ**»[1].

بينات من الآيات:

[٧٢] من العقبات التي تعترض طريق البشر إلى الإيمان هو زعمه: بأن إيمانه سيكلفه التضحية بالمال، دون أن يعلم بأن الإيمان يدفع المجتمع لانتهاج شريعة متكاملة توفر له التعاون، والعدالة، والنشاط، وفي مثل هذا المجتمع يستطيع الإنسان كسب المزيد من الثروة، والمزيد من السعادة، ولو أنه حسب ما ينفقه في سبيل الله خمساً، أو زكاة، أو نشاطاً، خسارة ومغرما، فلأنه لا يعلم بأن تدوير الثروة وتوزيعها بالعدل يساعد على نشاط المجتمع، وبالتالي على نموه الاقتصادي.

إن نظرة الإنسان للحياة من خلال معرفته بربه، تعرفه بأن عطاءه وإنفاقه في سبيل الله لا ينقصه شيئاً، بل يزيده مالاً وسعادة، ذلك أنه سيكتشف عبر هذه المعرفة بأن الله لا يحتاج إلى ماله ولا نشاطه، وإنما ينفق ذلك لنفسه، ولتدوير الثروة، وتوزيعها العادل، ولتطهير قلبه من درن البخل، والمجتمع من آفة الطبقية.

﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجًا﴾ شيئاً ينفقونه وكأنه يخرج من أموالهم، وهو يقابل (الدخل).

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ كيف يطلب النبي المشمول ببركة الله، وفيض عطائه من البشر الضعيف الفقير شيئاً، بل ماذا تعني ثروة الدنيا عند نبي تضاءلت الشمس والقمر أمامه.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فالله الرزاق، الذي لا حد لعطائه، ولا ذلة، وهو الغني الحميد.

[٧٣] ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنك أيها الرسول تدعوهم إلى انتهاج برامج صائبة لحياتهم. تتمثل في الصراط المستقيم الذي يصل بهم لو اتبعوه إلى أهدافهم، ومشكلة الإنسان في كثير من الأحيان أنه يعرف هدفه، ولكنه يفتقر إلى الطريق والوسيلة الصائبة في

(١) الكافي: ج١ ص١٣٨.

بلوغه، ورسالات الله تهديه إلى السبيل الأقوام إلى أهدافه الفاضلة.

وأظهر مصاديق -الصراط المستقيم- بل وميزان الصراط المستقيم. القيادة الرشيدة، والإمام العادل الذي نصبه الله للناس علماً، يميزون الحق به عن الباطل، وهو متمثل في شخص الرسول، والأئمة المعصومين من بعده عليهم السلام والعلماء بالله. الأمناء على حلاله وحرامه من بعدهم، وقد جاء في حديث مأثور عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّكَ لِدِينِكَ وَأَخَذَ بِسَبِيلِكَ فَهُوَ مِمَّنْ ﴿هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وَمَنْ رَغِبَ عَنْ هُدَاكَ وَأَبْغَضَكَ وَتَخَلَّاكَ[1] لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا خَلَاقَ لَهُ»[2].

[٧٤] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ ذلك أن الإيمان بالآخرة يشكل حجر الزاوية في كيان الإنسان العلمي، أوليست معرفة النهاية تساهم في معرفة حقائق الحياة، ومن لا يعرف حقيقة الدنيا، يزعم أنها دار راحة، وجزاء، وحين لا يجدهما فيها يزداد شقاء، و من لا يؤمن بالآخرة لا يعرف هدف الحياة، فيهدف فيها ما يضره ولا ينفعه، أو يهبط إلى مستوى العتو، وقد ينتحر، لأنه لا يجد طعماً لحياته، ومن لا يعتقد بالآخرة يتوغل في عبادة الشهوات، ويحتجب بها عن معرفة الله، ولا يلتزم بشرائعه ولا يهتدي برسالاته، فهو في ضلال بعيد، ولعلّه لذلك لم يقل الرب: إن الذين لا يؤمنون بالله، بل قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾.

[٧٥] وماذا يفعل الله بالإنسان حين يتنكب عن الصراط؟ هل يرزقه النعم ويرحمه، فإذا به يتوغل في الطغيان؟! أم ينزل عليه النقمة فإذا به لا يرتدع ولا يتضرع إلى الله؟!.

﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ كالفقر، والمرض، والخوف.

﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لجوا بمعنى: دخلوا وتوغلوا، والله يشبه الطغيان في هذه الآية كما النفق الموحش، وهؤلاء بدل أن يرجعوا عن المسير فيه كلما رحمهم الله، تراهم يتوغلون فيه أكثر فأكثر، فيفقدون بصرهم وبصيرتهم.

والواقع أن من العقبات التي تعترض طريق الإيمان هو موقف الإنسان من النعم، فإذا رزقه الله نعمة طغى، وزعم: أن طغيانه هو السبب فيها، كما بعض النظم الجديدة التي وصفها البشر دون الإستناد إلى القيم الإلهية، تزعم أن نظامها الاقتصادي، وأيدلوجيتها المنحرفة هي السبب في تقدمها.

(١) قال العلامة المجلسي رحمه الله: «تخلاك: أي تخلى منك ومن ولايتك، يقال: تخلى منه وعنه أي تركه».
(٢) بحارالأنوار: ج٦٧، ص٢٠.

بينما نجد هذه النظم حين زرعوها في العالم الثالث، لم تنبت إلا مزيداً من التخلف، ولم تلد سوى الدمار، وهكذا عرفنا بأنه لم تكن هذه الأنظمة سبباً لتقدم هذه الدولة أو تلك.

والعمه هو: العمى الذي يصيب الشخص منذ ولادته، فلا يستطيع أن يميِّز شيئاً أبداً، بينما الذي يدركه العمى بعد أن يكون بصيراً مدة من الزمن، فإنه قد يستطيع أن يميِّز بعض الأشياء، اعتماداً على ذاكرته وحواسه.

[٧٦ - ٧٧] وكذلك لو أخذهم الله بألوان العذاب، فإنهم لا يرجعون عن انحرافهم، ولا يتضرعون إليه، بل تجدهم يعتمدون على هذا وذاك من دون الله، فالمجاعة يكون حلها عندهم بالاعتماد على معونات الأنظمة الكافرة. بدل أن يكون علاجها بالعودة إلى الله، والتضرع إليه، وتغيير الذات، والسعي، والتعاون، والعلم، والعدالة ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «الِاسْتِكَانَةُ هُوَ الْخُضُوعُ وَالتَّضَرُّعُ هُوَ رَفْعُ الْيَدَيْنِ وَ التَّضَرُّعُ بِهِمَا»[1].

هناك نوعان من العذاب:

١ - عذاب الابتلاء: وهدفه تغيير الإنسان ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. وعادة لا ينتفع البشر بهذا النوع من العذاب.

٢- عذاب الانتقام: وهو إذا أنزل فلا مرد له، كالعذاب الذي حلَّ بفرعون وقومه، لأنه آمن متأخراً، ومن دون فائدة. وهذا النوع من العذاب يهز الإنسان من الأعماق إلى درجة أنه يبلس، أي تختلط مشاعره، ويبقى في حيرة، ولا يعرف كيف يتصرف ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

[٧٨] وبعد أن ذكَّرنا القرآن بالعقبات التي تعترض طريق الإيمان، يذكِّرنا الآن بالله وآياته، فالإنسان إذا عرف العقبات والحجب التي تمنعه من الإيمان، وتحداها بقوة الإرادة، وبتذكرة الله، فإنه يكون آنئذ مستعدا للتذكرة بالله، ويفهم القرآن، ويزداد به إيماناً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ وهما نافذتا العقل على المعرفة ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهي أهم من السمع والأبصار، لأنه لو عطب عن العمل فلن ينفعا أبداً، إلا أننا قلما نشكر الله على هذه النعم. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

[٧٩] ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ذرأ بمعنى: خلق وأظهر، ولعلَّ

(١) الكافي: ج٢ ص٤٧٩.

كلمة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على أن التراب كان أصل خلقة البشر، وأن إليه يعود، ومنه ينتشر، ويحشر تارة أخرى.

[٨٠] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إن العالم مع ما فيه من تقدم تكنولوجي، عاجز بأسره أن يضيف إلى الإنسان لحظة واحدة من الحياة، لأنّ هذا الأمر بيد الله وحده، وهو الذي يميت أيضاً، وليس الإنسان وحده الذي يخضع لإرادة الله، بل لا تجد ظاهرة في هذا الكون إلا وهي تنتهي إليه.

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فالليل والنهار يتعاقبان، ليس فقط في التناوب الزمني، وإنما أيضاً في القصر والطول، ومن أوتي البصيرة، ونظر بعين قلبه إلى إتقان تدبير الله في الليل والنهار تبصر أيضاً بمعنى الحياة والموت، وقدرة الله المهيمنة عليهما.

[٨١] الإنسان يهتدي لهذه الحقائق حينما يستفيد من عقله، أما حين يعطله بالأسباب المختلفة، كتقليد الآباء، فإنه أبعد ما يكون عن استيعاب هذه الحقائق الواضحة والقريبة منه ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

[٨٢] ماذا قال الأولون؟ يرجعنا القرآن هنا إلى السبب الجذري لعدم إيمان هؤلاء، وهو الكفر بالآخرة، والذي سببه التشكيك أو الكفر بقدرة الله، وإرادته اللامحدودة.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يتعجبون كيف أن العظام الرميم تصير بشراً سويًّا؟!.

[٨٣] ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لقد زعموا بأن هذه الحقيقة أفكار رجعية متخلفة، ونسوا أن مبدأهم كان من التراب، وأن الذي خلقهم أول مرة لقادر على بعثهم من التراب مرة أخرى.

سيقولون لله قل أفلا تذكرون

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ[1] (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

هدى من الآيات:

لقد مهّد السياق القرآني في سورة المؤمنين للتذكرة بالله سبحانه ببيان العقبات النفسية التي تعترض سبيل الإيمان، وبعدها جاءت الآيات تستثير أعمق مشاعر الإنسان الفطرية. تلك

(١) يحضرون: أي يشهدون ويقاربوني ويصدوني عن طاعتك.

التي تهديه لربه وخالقه. عبر تساؤلات فطرية. تفرض نفسها على وجدان الإنسان فرضاً، فمن الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن بيده حاكمية هذه السماء المترامية الأطراف، والكون الذي لا نعلم حدوده؟ ومن هو صاحب القدرة العليا علينا، فإليه يلتجئ الناس عند الشدائد؟.

وتجيب الآيات على هذه التساؤلات بوضوح: إنَّه (الله) القاهر فوق كل شيء، وليس كمثله شيء، وتتوجه إليه قلوب الناس بفطرتهم التي خلقهم الله عليها، وكما قال الرضا عليه السلام: «وَبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ»[1].

إذن فما العائق أمام ذكر الله؟ وما هي العقبة التي تقف أمام التقوى، وتجعلنا غافلين مرة، ومسحورين أخرى، قد فقدنا الإرادة نتيجة لضغوط مختلفة داخلية وخارجية، بل قد نهوى إلى حضيض التكذيب والشرك.

هذا التسلسل الباطل يتدرج عبره الإنسان خلال مراحل هي:

١- الغفلة: فعندما يغفل الإنسان فإنَّه يضع لبنة الأساس للحاجز الذي يحول بينه وبين كنه الحقيقة المنشودة، فينسيه أبرز حقيقة في هذا الكون الواسع، التي يقول عنها تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[ابراهيم: ١٠].

مما يمهد للهوى والشهوة أن يسدلا ستارهما أمام نور العقل، وضياء الفطرة.

٢- والذي يجعلنا لا نتقي عذاب الله وسخطه بالتقوى، هي حجب الغفلة والشهوة التي تجعل الإنسان يتخبط في ظلام الجهل والعناد مخالفاً أوامر عقله، ووخزات ضميره، وصرخات وجدانه.

٣- السحر: وهي مرحلة فقدان الإرادة الإنسانية، والوعي البشري، حيث إن الضالين يحاولون تضليل الآخرين، فيؤثرون على فئة من الناس بمعتقداتهم، التي ضلوا بها عن الله، فيجعلونهم يرتكسون في بؤرة الغفلة والشهوة، لتسلب عنهم مشاعرهم، فالأعين عمياء لا تبصر الحقيقة، والآذان صماء لا تسمع وحي الله -سبحانه- وحقائق الحياة، والألسن بكماء لا تتكلم، إلا في مجال اللهو والعبث، والاهتمامات الشخصية، والمشاعر الأنانية، فيدفعهم كل ذلك للمرحلة الأخيرة من مسيرة التسافل والسقوط.

٤- التكذيب: ونسأل أنفسنا لماذا نكذِّب بهذه الحقيقة الواضحة، ونكفر، ونسخر بهذه العقيدة الراسخة في أعماق النفس البشرية ونحن على وعي وإدراك بهذه المسألة؟!.

(١) بحار الأنوار: ج٤ ص٢٢٧.

ولكن الخالق البارئ يرجع المسألة لعواملها الأولية، ويلقي بمسؤولية الانحراف على نفس الإنسان فيقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام: ١٠٤].

٥- وتبقى هناك عقبة كأداء وهي عقبة الاعتماد على الآلهة المزيفة، التي خلقتها شهوات النفس، وظلام الجهل لتبرير واقعها المعاش، والاعتقاد بأن لله ولداً، أو وسائل أخرى توصل إليه سبحانه غير التي بينها لهم، وبأنَّ هناك آلهة صغاراً يمكن أن يشفعوا للإنسان من دون الله، ويحجهم سبحانه بقوله: إنَّه لا يتخذ ولداً، وأنتم تعلمون أيها البشر بفطرتكم، ويهدي عقولكم بأن الله هو مالك السماوات والأرض، وصاحب العرش العظيم، وعالم الغيب والشهادة، والظاهر، والباطن. فكيف لا يعلم بوجود ولد له أو شريك؟! وإنكم إنما تخدعون أنفسكم، وتتوهمون، وتزعمون بوجود شركاء لله أو أولاد، لتخلصوا أنفسكم، تنقذوها من غضب الله.

هذه هي الحجب الخمس والمتدرجة التي لا بد أن يخرقها المؤمن بإرادته -بعد ذكر الله- ذلك مما نستوحيه من السياق في هذا الدرس حيث يقول ربنا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إشارة إلى حجاب الغفلة، ويشير إلى حجاب الشهوات بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإلى حجاب التضليل والإسحار بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ وحجاب التكذيب: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ وبالتالي إلى أكبر الحجب وأخطرها وهو الشرك فيقول سبحانه: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إن هذه الوساوس من همزات الشياطين، والهمزة مفرد همزات، وهي: الدفعة القوية، والشيطان يدفع بالإنسان نحو الكفر، والشرك بالله دفعاً قوياً، فعلى الإنسان -الضعيف، الغافل، الظلوم، الكفار- أن يتوسل بقوة الله وقدرته، ليقيه شر هذه الهمزات لأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومن دون التوكل على الله، والاعتماد عليه والاستعاذة بقوته والاعتصام بكلمته العليا، فإنه سينهار أمام هذه الدفعات النفسية الشهوانية للشيطان -وصدق الله العلي العظيم- حينما يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

ويلعب الشيطان دورين في حياة الإنسان:

الأول: دفعه نحو الاعتقادات الخاطئة، والممارسات المنحرفة، ولو بشكل تدريجي.

الثاني: الحضور الدائم له في النفس البشرية، ودور المراقبة والمرافقة. حيثما تحرك وتفكر ليضله في كل جزيئة.

لذا على الإنسان أن يستعيذ دائماً بالله من الشيطان، والوسواس الخناس، واللجوء إلى حصن الله، والتمسك بحبله، و عروته الوثقى.

ولكن كيف يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان؟ وكيف يتجاوز عقبة الشرك والاعتقاد بأن هناك قوة أخرى في هذا الكون تطاول قدرة الله سبحانه وتعالى؟.

إن العلاج النفسي لهذه العقبة هو تذكُّر الآخرة، وعذاب القبر والبرزخ.

ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام عن الموت وعذاب القبر: «**يَا عِبَادَ الله مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَنْ لَايُغْفَرُ لَهُ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ، الْقَبْرُ فَاحْذَرُوا ضِيقَهُ، وَضَنْكَهُ وَظُلْمَتَهُ وَغُرْبَتَهُ، إِنَّ الْقَبْرَ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، أَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ وَالْهَوَامِّ، وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ..**».

وفي مقطع آخر يقول: «**يَاعِبَادَ الله إِنَّ أَنْفُسَكُمُ الضَّعِيفَةَ وَأَجْسَادَكُمُ النَّاعِمَةَ الرَّقِيقَةَ الَّتِي يَكْفِيهَا الْيَسِيرُ تَضْعُفُ عَنْ هَذَا، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَجْزَعُوا لِأَجْسَادِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ بِمَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ وَلَا صَبْرَ لَكُمْ عَلَيْهِ فَاعْمَلُوا بِمَا أَحَبَّ اللهُ وَاتْرُكُوا مَا كَرِهَ الله**»[1].

ويصور لنا القرآن مشاهد كثيرة من مشاهد الآخرة، إذ يصور الإنسان عندما تحضره الملائكة لقبض روحه، فيصيح ويقول: ﴿**رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾.

فهو يتمنى أن يعود للدنيا أياماً معدودات، يصرف فيها جميع طاقاته، وممتلكاته، وقدراته في سبيل الله، فيصرف أمواله صدقة، وقوة جسمه للعمل الصالح، وفصاحة لسانه للدعوة وذكر الله، وعينه للاعتبار بخلق الله، والبكاء على ذنوبه التي اقترفها، لكن الجواب صارم، صاعق. لو نزل على جبل لهده. إنها كلمة كلا..، وأن الفرصة قد انتهت، وسنين حياتك قد انصرمت دون عودة.

أما كم يعيش الإنسان؟ ومتى تكون الساعة؟ فالله وحده هو العالم ولا عالم غيره، وهذه الحقيقة تكشف لنا أن هذه الآلهة المزيفة التي يعتقد الإنسان بأنها شريكة، وامتداد لقدرة الله وقوته، يجب أن تسقط من أعيننا، وتتحطم في داخل نفوسنا، لنعبد الله مخلصين، له الدين، ولو كره المشركون.

بينات من الآيات:

[٨٤] ﴿ **قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ إن كنتم تستفيدون من علمكم -والاستفادة هي معيار الجهل والعلم- فالعلم يعطيه الله لمعظم الناس -ولو بقدر محدود- ولكن متى يكون الإنسان عالماً فقط؟ عندما يستفيد من علمه وإلا فهو جاهل، ولو

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٣٩٠.

سألتهم من خالقكم و مالككم -وما تحويه هذه السماوات والأرضون- ومن بيده الحاكمية العليا؟ إنه الله حيث يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ ﴾[الأنعام: ٥٧].

والذي عنده القدرة التنفيذية المطلقة في الكون الواسع، لا يملك الإنسان أمامه إلا التسليم والخضوع.

[٨٥] ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إذن فلماذا يحجزكم حجاب الغفلة عن هذا الرب العظيم، الذي يملك الأرض ومن فيها؟! وهذه الكلمة لا تختص بالآخرين، بل بنا جميعاً، لأننا لا نزال نخلد إلى أرض الغفلة، وقد نتذكر ما دمنا في أجواء التذكرة، ولكن عندما تواجهنا شهوة أو يصادفنا غضب أين يصبح ذكر الله؟!.

حينها تلتجئ النفس البشرية في خلق الأعذار والتبريرات لتلقي عن كاهلها تبعة المسؤولية، ولذلك جعل الله سبحانه ذكره مستحباً شرعاً، وجعل من ذكره -من المؤمنين- حين قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[آل عمران: ١٩١].

ففي جميع الحالات المادية، والظروف النفسية، يجعل الله ذكره ضرورياً.

ونسأل: ما هو الذكر الذي تعنيه الآيات؟ إن الذكر هو تذكر الله حين تهم بالمعصية، أو تشرع في ارتكاب الخطيئة. حينما تجد من يعاتبك داخل وجدانك على ما تفعل، فلابد أن تذكر الله لتحسم صراع النفس لصالحها، أما حين تفقد الذكر يموت الوجدان، وينتهي الإحساس، فتميل الكفة لصالح الإرادة الشريرة في نفس الإنسان.

[٨٦] ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الله رب السماوات السبع، لأنه خلقها، وأكمل خلقها، طوراً فطوراً، وأجرى الخلق كما الطفل عندما ينمو، و يكبر، فهو الذي خلقها، وهو المسيطر عليها، والمهيمن الذي يجري عليها سلطانه، وقوانينه، وأنظمته، والعرش يعني: السلطة الفعلية على الكون، وبهذا التساؤل تكمل مسيرة الاستدلال المنطقية على وجود الله مخاطباً بها العقل البشري، والفطرة الإنسانية.

[٨٧] ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ يجب أن يخشى الإنسان من بيده السلطة، فلماذا لا تخلع حجب التحدي والعناد والتكبر؟!، والخشية هي الحجاب الفاصل بين التقوى والانحراف، والإيمان والكفر.

[٨٨] ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الملكوت مبالغة في الملك، كما الجبروت مبالغة في التجبر، والطاغوت مبالغة في الطغيان، وملك الله يشمل ما يظهر وما يخفى، لا كسائر

الملوك والسلاطين الذين يهيمنون على ظاهر الناس دون باطنهم.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن الله قادر أن يمنع الآخرين عنك فيجيرك، ولكن لا يستطيع أحد أن يمنع عذاب الله وانتقامه عنك. لو أراد ذلك، وهناك مقولة تنقل عن أفلاطون وهي: «إذا كانت السماء قوساً، والبلاء سهماً، والرامي هو الله فأين المفر». بينما الذي نزل على رسول الله ﷺ الآية ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وفرق بين المقولة السلبية، والنازل على الرسول ﷺ هو الإيجابية التي تدعونا أن لا نقف مكتوفي الأيدي حين نرى البلاء، بل نلجأ إلى الله، فنفر من الرامي إليه، ومن غضبه إلى رحمته، فنقرأ في الدعاء المأثور: «**مِنْ أَيْنَ لِيَ الْخَيْرُ وَلَا يُوجَدُ إِلَّا مِنْ عِنْدِكَ وَمِنْ أَيْنَ لِيَ النَّجَاةُ وَلَا تُسْتَطَاعُ إِلَّا بِكَ لَا الَّذِي أَحْسَنَ اسْتَغْنَى عَنْ عَوْنِكَ وَلَا الَّذِي أَسَاءَ خَرَجَ عَنْ قُدْرَتِكَ**»[1].

[٨٩] إنك لو سألتهم عن كل ذلك: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بفطرتهم؛ ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ تخدعون من قبل الآخرين، وتسلب منكم مشاعركم، وإرادتكم.

[٩٠] ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والكذب مرحلة خطيرة من الكفر والجحود، حيث ينكر البشر الحق لا عن جهل به، وإنما عن وعي بأنه الحق.

[٩١] ومن أكبر كذبهم ادعاؤهم بأن لله ولداً أو شريكاً، والقرآن ينفي هذه الكذبة إذ يقول: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

﴿مِن﴾ تفيد الحصر، والآية رد على الذين يزعمون بأن: الله منح قدرته وسلطانه لبعض الناس دون بعض، ولو افترضنا أن مع الله آلهة أخرى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وجعل لخلقه نظاماً خاصاً به، ولكننا نجد أن النظام الذي يحكم الذرة هو الذي يحكم المجرة، ولو صح ما يزعمون لحدث التناقض بين هذه الآلهة.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وما دمنا نلمس وحدة النظام والخلق. إذن فالإله واحد لا شريك له، ونجد فكرة تعدد الآلهة منتشرة في الأساطير اليونانية بكثرة، والفكرة العميقة في هذا المقطع من الآية هي: إنه لو كانت توجد آلهة غير الله لكان لكل إله قدرة ذاتية، ولسعى لمد قدرته وسيطرته من أجل الهيمنة على غيره، ولاستحالت الحياة، ولأدى ذلك إلى فساد الكون. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء: ٢٢].

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهو أنزه وأقدس مما يصفه هؤلاء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٣٩، من دعاء أبو حمزة الثمالي.

[٩٢] ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولو كان ثمة آلهة غيره لكان أدرى بها، لأنه ذو العلم بما غاب وما حضر.

[٩٣] ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴾ حيث وعد الكفار والمشركين بالهزيمة والدمار.

[٩٤] ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فالبلاء إذا نزل عم، ولا سبيل للتخلص من عذاب الله النازل على الظالمين والمشركين، إلا الانفصال عنهم، و نكران أعمالهم. لا السكوت عنها لأن الله يقول: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

[٩٥] ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب والانتقام ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكي تتخلص من العذاب، ولا تشرك مع الظالمين، يجب أن تواجه انحرافهم بالاستقامة على الحق، وذنوبهم بالطاعة لله. ولعلَّ الآية تعتبر صورة جلية للتحدي، وآية واضحة لعزة الله وقدرته، وعزة المؤمنين به، وقدرتهم في مواجهة أعداء الدين.

[٩٦] ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ صحيح أن الله قادر على دفع عادية الكفار، وصحيح أنه يفعل ذلك متى ما اقتضت حكمته البالغة، ولكن ينبغي ألا يسبب ذلك في إساءة خلق المؤمنين، وتجبرهم في الأرض، بل لا بد أن يتمتعوا بأخلاقية سامية في التعامل مع الآخرين، والصبر على أذاهم وتحمل الصعاب الشخصية دون تبليغ الدعوة.

[٩٧] ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ والهمزات هي الدفعات، التي يقوم بها الشيطان لتضليل الناس وإغوائهم، وليس ضرورياً أن يكون الشيطان ذلك الموجود الخفي الذي نتصوره، بل قد يتجسد في صورة شهوة عارضة، أو إنسان منحرف يحاول التأثير عليك سلبياً.

[٩٨] ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ يجب على المؤمن أن يفر من مجالس الشياطين -الإنس، والجن- كمجالس المعصية، والحديث على الناس.

[٩٩] إن الإنسان الذي لا يستعيذ بالله من الشيطان في الدنيا، ولا يتقي الله. يدركه الندم حين لا ينفع الندم، لذلك بعد أن حذَّر الله من الشيطان يتعرض لحال الإنسان المنحرف حين الموت قائلاً: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ بصيغة الجمع تعظيماً لله لعلَّه يعبده مرة أخرى لكي يبني له مستقبلاً جديداً بما يملك من طاقات.

[١٠٠] ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ ولكن يا للحسرة والندامة، إذ يأتيه الجواب: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ولو أعيد لما تغيَّر، وكان حري به أن ينتفع برسالة الله، وبفرصة الدنيا لينقذ نفسه ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

إنه لا يفلح الكافرون

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ [1] ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ [2] فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

---

(١) كالحون: الكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو.

(٢) اخسئوا: خسأت فلاناً إذا زجرته ليتباعد ومعناها تباعد.

هدى من الآيات:

موقف السخرية من رسل الله أشد المواقف خطورة، وهو نابع من حالة اللامبالاة والزعم بأن الخلق عبث لا هدف له، ويبدو أن هذا الدرس الأخير من سورة المؤمنين، يعالج هذا الموقف، بتذكير البشر بالحساب الدقيق ثم الجزاء الأوفى الذي ينتظره بعد الموت.

ويبين السياق:

أولاً: إن تلك العلاقات التي كانت سبباً للجحود والابتعاد عن الله، سوف تنتهي يوم القيامة ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، إذن يجب على الإنسان أن لا توقفه هذه العقبة عن الإيمان.

ثانياً: إن المقياس الحق لتقييم الإنسان نفسه، هو الميزان الذي يجسد القيم الحقيقة التي فطرت عليها العقول، وتذكر بها رسالات الله، وهو الذي نعرف عن طريقه هل إننا بخير أم على شر، فإذا ثقلت موازين الإنسان، و كانت صالحاته أكثر من سيئاته كان من أصحاب الجنة، وإلا فإنه من أصحاب النار، والآية التي تحمل هذا المضمون (١٠٢-١٠٣) هي أكثر الآيات تحذيراً في القرآن كما يبدو لي، إذ من الذي يستطيع أن يطمئن ولو نسبياً إلى أن حسناته أكثر من سيئاته؟! لهذا فإن المؤمنين لا يتركون وقتاً إلا واستغلوه للعمل الصالح.

ثم يصف لنا القرآن بعض المشاهد من يوم القيامة، يوم تلفح النار وجوه الكافرين والظالمين، حتى تنكمش أسنانهم وتحترق وجوههم فتظهر أسنانهم كلها، وعندما يطلبون من الله العودة لاستئناف العمل يأتيهم الجواب أن اخسؤوا، وهي كلمة لا تقال إلا للكلب، فقد كنتم تهزؤون وتسخرون من عبادي يوم كانوا يدعونكم إلى عبادتي، وها قد جزيتهم بالجنة وأنتم في النار.

ويستمر السياق يبين لهؤلاء أخطاءهم، والتي من أهمها أنهم اعتقدوا بأن لا رجعة بعد الموت، وبالتالي لا مسؤولية، فتمادوا في غيهم وانحرافهم، وفاتت عليهم فرصة الدنيا التي يفترض أن يزرعها الإنسان عملاً صالحاً ينفعه في الآخرة، وذلك لن يكون دونها إيمان خالص بالله.

وحتى لا تكون هذه الشدة سبباً لليأس يفتح الله بآخر آية من هذه السورة باباً للأمل، حينما يذكّرنا بأنه أرحم الراحمين، وكم هو شقي ذلك الإنسان الذي يسد على نفسه أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء.

بينات من الآيات:

[١٠١] ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ حيث تتلاشى العلاقات النسبية، فلا يعرف أحد أحداً، وكل ينادي نفسي نفسي إلا المؤمنين قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ عن أنساب بعضهم، لهول الموقف أو عن أحوال بعضهم، ولعدم فائدة ذلك، إذ يكون لكل منهم شأن يغنيه عن شؤون الآخرين.

لقد كان أئمة الهدى عليهم السلام يجهدون أنفسهم بالعبادة بالرغم من صلتهم القريبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإذا سألهم أحد عن ذلك تلوا عليه هذه الآية، يقول طاووس الفقيه: «رَأَيْتُهُ -أي الإمام زين العابدين عليه السلام- يَطُوفُ مِنَ الْعِشَاءِ إِلَى سَحَرٍ وَيَتَعَبَّدُ فَلَمَّا لَمْ يَرَ أَحَداً رَمَقَ السَّمَاءَ بِطَرْفِهِ وَقَالَ: إِلَهِي غَارَتْ نُجُومُ سَمَاوَاتِكَ وَهَجَعَتْ عُيُونُ أَنَامِكَ وَأَبْوَابُكَ مُفَتَّحَاتٌ لِلسَّائِلِينَ جِئْتُكَ لِتَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي وَتُرِيَنِي وَجْهَ جَدِّي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ مَا أَرَدْتُ بِمَعْصِيَتِي مُخَالَفَتَكَ وَمَا عَصَيْتُكَ إِذْ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِكَ شَاكٌّ وَلَا بِنَكَالِكَ جَاهِلٌ وَلَا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ وَلَكِنْ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي وَأَعَانَنِي عَلَى ذَلِكَ سَتْرُكَ الْمُرْخَى بِهِ عَلَيَّ فَالْآنَ مِنْ عَذَابِكَ مَنْ يَسْتَنْقِذُنِي وَبِحَبْلِ مَنْ أَعْتَصِمُ إِنْ قَطَعْتَ حَبْلَكَ عَنِّي فَوَا سَوْأَتَاهُ غَداً مِنَ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْكَ إِذَا قِيلَ لِلْمُخِفِّينَ جُوزُوا وَلِلْمُثْقِلِينَ حُطُّوا أَمَعَ الْمُخِفِّينَ أَجُوزُ أَمْ مَعَ الْمُثْقِلِينَ أَحُطُّ وَيْلِي كُلَّمَا طَالَ عُمُرِي كَثُرَتْ خَطَايَايَ وَلَمْ أَتُبْ أَمَا آنَ لِي أَنْ أَسْتَحِيَ مِنْ رَبِّي. ثُمَّ بَكَى وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَ تُحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى ... فَأَيْنَ رَجَائِي ثُمَّ أَيْنَ مَحَبَّتِي

أَتَيْتُ بِأَعْمَالٍ قِبَاحٍ زَرِيَّةٍ ... وَمَا فِي الْوَرَى خَلْقٌ جَنَى كَجِنَايَتِي

ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: سُبْحَانَكَ تُعْصَى كَأَنَّكَ لَا تَرَى وَتَحْلُمُ كَأَنَّكَ لَمْ تُعْصَ تَتَوَدَّدُ إِلَى خَلْقِكَ بِحُسْنِ الصَّنِيعِ كَأَنَّ بِكَ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي الْغَنِيُّ عَنْهُمْ. ثُمَّ خَرَّ إِلَى الْأَرْضِ سَاجِداً قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَشُلْتُ بِرَأْسِهِ وَوَضَعْتُهُ عَلَى رُكْبَتِي وَبَكَيْتُ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعِي عَلَى خَدِّهِ فَاسْتَوَى جَالِساً وَقَالَ: مَنِ الَّذِي أَشْغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ رَبِّي؟ فَقُلْتُ: أَنَا طَاوُسٌ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ مَا هَذَا الْجَزَعُ وَالْفَزَعُ وَنَحْنُ يَلْزَمُنَا أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا وَنَحْنُ عَاصُونَ جَانُونَ أَبُوكَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ وَجَدُّكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله؟!.

قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ عليه السلام: هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا طَاوُسُ دَعْ عَنِّي حَدِيثَ أَبِي وَأُمِّي وَجَدِّي خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَأَحْسَنَ وَلَوْ كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ

كَانَ وَلَداً قُرَشِيًّا أَ مَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وَالله لَا يَنْفَعُكَ غَداً إِلَّا تَقْدِمَةٌ [أي هدية] تُقَدِّمُهَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ»[1].

[١٠٢] الجميع يقف أمام الميزان ويده على قلبه ينتظر النتيجة، أما إلى الجنة وأما إلى النار، ولعلَّ أصدق الموازين وأنفذها حجج الله على خلقه، الذين يجسدون في الدنيا قيم الرسالة وهم الرسل والأئمة عليهم السلام ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ إذ يصيرون إلى نعيم الجنة، وأهم من ذلك يصيرون إلى رضوان الله.

[١٠٣] ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ ولعلَّ معنى خسروا أنفسهم أنهم خسروا فرصتهم الوحيدة في الدنيا.

[١٠٤] وأي عذاب يناله هؤلاء؟ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ واللفح هو ضربة السيف الشديدة، ففي الآخرة تضرب النار وجوههم كأنها حد السيف.

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ أي مكشرين عن أسنانهم بسبب احتراق شفاههم وانكماشها باللفح.

[١٠٥] ويأتي النداء لأصحاب النار حينما يستغيثون من النار: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

[١٠٦] ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ لقد شقوا بأعمالهم ولا يخلق الله شخصاً شقياً بطبعه.

[١٠٧] ويضيفون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ أعطنا فرصة أخرى، وجربنا مرة ثانية، فإذا عدنا فإننا ظالمون فعلاً.

[١٠٨] ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ اخسؤوا: بمعنى عودوا، وهي كلمة يقولها للكلب صاحبه، حينما يتبع أحدا ليؤذيه أو غير ذلك، ويقولها الله لهم إهانة وتحقيراً، والواقع أن تحقيرهم أنفسهم في الدنيا هو الذي أهانهم في الآخرة، إذ لم يرتفعوا إلى مستوى تطبيق آيات الله، وهبطوا إلى حضيض اتباع الشيطان الرجيم المطرود من رحمة الله.

[١٠٩] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ لقد كانت جماعة منكم، وبين ظهرانيكم، يدعون ربهم ويؤمنون به، لقد آمنوا ثم

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٦ ص٨١.

اعترفوا بالتقصير، وسعوا نحو مرضاة الرب.

[١١٠] ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ إن الاستهزاء من المؤمنين يحمل في طياته السخرية من مبادئهم، ولكنه يحوّل الصراع إلى صراع شخصي، حيث يعادي الكفار أشخاص المؤمنين ويسقطون هيبتهم من أنفسهم، ويحقرون كل أفعالهم وتصرفاتهم، وبالتالي، يصبح حاجزاً نفسياً دون التفكير في المبادئ التي يدعون إليها، ولعلَّ ذلك هو ما أشار إليه القرآن هنا بقوله: ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾.

أما قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ فهو الجانب السلوكي والعملي لحالتهم النفسية حيث كانوا يتخذونهم سخرياً.

[١١١] لقد كان المؤمنون في الدنيا عرضة لألوان البلاء والمشاكل، من السخرية والضحك و.. ولكنهم استقاموا وصبروا فكان جزاؤهم الجنة ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ويبدو من الآية أنّ من أعظم الصبر الصبر على تجريح الشخصية، ولذلك نجد أبرز صفات المؤمنين حقاً أنهم لا يأبهون باللوم ولا يخافونه.

[١١٢] ثم يسألهم الله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ لنرى كيف كانت الدنيا التي بعتم الآخرة بها؟!.

[١١٣] فيأتي الجواب: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ وهذا التقدير يأتي نتيجة الفرق بين الآخرة والدنيا من زاوية الزمان.

[١١٤] ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم تعرفون بأن الحياة الحقيقية والخالدة تبدأ بعد الدنيا.

إن وعي الزمن وامتداد نظر الإنسان إلى أبعد نقطة في المستقبل شرط أساسي للتكامل، ولأن أسمى التكامل الإيمان فإنَّ المؤمن يقدر الزمن في الدنيا بميزان الخلود الأبدي في الآخرة، ولذلك يفوز بالصبر لأنه سبق وإن أحسن التقدير.

ويبدو أن النظر إلى الزمن ومقدار وعيه يشكل أساس الإيمان بالآخرة، والقرآن الحكيم يعالج هذه الناحية من نفسية البشر، فلو كانوا يعلمون لعرفوا أن كل الفترة التي يقضونها في الدنيا قليلة في حساب الآخرة، فلماذا خسارة الآخرة بهذه الفترة القليلة؟!.

[١١٥] ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ هل كانت حياتكم الدنيا بلا هدف؟! أم هل من الحكمة أن يخلق الإنسان للأكل والشرب ثم يموت؟!.

[١١٦] ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾ إن الله أنزه من أن يخلق الإنسان بلا هدف. ثم إذا كان كل جزء في الإنسان يؤدي هدفاً معيناً فالعين تبصر، والأذن تسمع، والجوارح تقوم بأدوارها المحددة، والأعضاء الداخلية تقوم بمهامها، والغدد والأجهزة وكل خلية تؤدي وظيفة خلقت لها، وحتى الزائدة الدودية التي سماها كذلك الطب في أيام طفولتهم تقوم بدور محدد، فهل من المعقول أن يكون خلق الإنسان عبثاً وبلا هدف محدد؟! ونحن حين ننظر إلى ما حولنا من أشعة الشمس وضوء القمر وحركة الأرض ونشاط الأحياء فيها، وأنظمة سائر الموجودات نجدها جميعاً تخدم وجود البشر، وكذلك خلقت بهدف محدد، فهل خلق الإنسان نفسه لغير هدف؟! سبحان الله!! ومن هنا يسأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام: «لِمَ خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ؟. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبَثاً وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ سُدًى بَلْ خَلَقَهُمْ لِإِظْهَارِ قُدْرَتِهِ وَ لِيُكَلِّفَهُمْ طَاعَتَهُ»[1].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ فالله هو رب السلطة، ولكنه السلطة الكريمة والحكيمة وليست العبثية حتى يخلقنا بلا هدف.

[١١٧] ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ ﴾ فحتى لو عبد غير الله فإنه لن يخرج بذلك عن سلطته وهيمنته وسيكون حسابه وجزاؤه عنده.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ذلك الجزء من الآية يتحدث عن الحساب، بينما يتحدث هذا المقطع عن الجزاء، وهنا نجد المعادلة بين أول السورة الذي يقول ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ وبين آخرها الذي ينفي الفلاح عن الكافرين.

والشرك ليس بالضرورة أن يتصور الإنسان وجود خالق غير الله، بل قد يكون بطاعة الأشخاص، من أصحاب المال والسلطة من دون حجة مبن الله.

[١١٨] إن الإنسان بطبيعته الترابية، ينجذب إلى أرض الشرك، والتفكير بأن من يرزقه هو أبوه وأمه، وبأنَّ من يحكمه هو السلطة السياسية القائمة في بلده، وبأنَّ من يهديه هو وسائل الإعلام، ولكن الإنسان بعقله وإرادته وإيمانه يستطيع أن يقتلع نفسه عن هذه الطبيعة اقتلاعاً، ويحلق بها عالياً في سماء التوحيد، حتى يرى كل الأمور بيد الله الذي يسلم هو له.

ومن مشاكل الإنسان أن هذه الطبيعة تبقى معه حتى إذا صار مؤمناً، فتارة يستجيب لها وتارة أخرى يتحداها و يتغلب عليها، والشرك الذي يصيب البشر قد يكون خفياً فلا يخلو قلب من الشرك، ولكن الله يعطي الإنسان المؤمن برنامجاً لمواجهة هذه المشكلة فيقول: ﴿وَقُل

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٣١٣.

﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ إن وقود الإنسان المؤمن هو الاستغفار وقرن الاستغفار بالرحمة -في الآية- لكي لا نيأس فنترك الاستغفار والتوبة حين الذنب كبيراً كان أو صغيراً.

ونحن بدورنا نسأله أن يرحمنا ويجعلنا من المؤمنين الفائزين بالفلاح.

المحتويات